

سَعِيدُ حَوَّى

الأسرار والتفسير

المجلد الخامس

وفيه تفسير المجموعة الأولى من قسم المئين

وهي سور:

يونس، هود، يوسف، الزمر، إبراهيم

دار السبيل

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

القِسْمُ الثَّانِي مِنْ أَقْسَامِ الْقُرْآنِ

قِسْمُ الْمِيثِينَ

وَيُلَظَّمْنَ سُورَ

يُونُسَ، هُودَ، يُونُسَ، الرُّعْدَ، إِبْرَاهِيمَ، الْحُجُرَاتِ، النَّحْلِ، الْإِسْرَاءِ،

الْكَهْفِ، مَرْيَمَ، طهَ، الْأَنْبِيَاءِ، الْحَجَّ،

الْمُؤْمِنُونَ، النُّورِ، الْفُرْقَانِ،

الشُّعَرَاءِ، الشُّعْلِ،

الْقَصَصِ.

كلمة في قسم المثين :

مع أن تقسيم القرآن إلى أربعة أقسام : قسم الطوال ، وقسم المثين ، وقسم المثاني ، وقسم المفصل قد ورد في حديث حسن - كما رأينا - فإننا لا نعلم أن أحداً قد حدد قسم المثين وقسم المثاني ، إن هناك تحديداً لقسم الطوال ، ولقسم المفصل ، على خلاف في قسم المفصل ، وواضح أن قسم المثاني ينتهي حيث ابتداء قسم المفصل ، كما أنه من الواضح أن قسم المثين يبدأ حيث انتهى قسم الطوال ، وقسم الطوال ينتهي بسورة (براءة) . وإذن فقسم المثين يبدأ بسورة يونس فأين ينتهي ؟ .

إن هناك علامتين بارزتين تدلاننا على أنه ينتهي بسورة القصص :

العلامة الأولى : أن سورة القصص وسورة التمل - قبلها - وسورة الشعراء - قبلهما - تكاد تشكل زمرة واحدة من قسم واحد ؛ إذ الثلاثة مبدوءة بالطاء والسين ، وسورة الشعراء مثنان وسبع وعشرون آية ، وسورة التمل ثلاث وتسعون ، وسورة القصص ثمان وثمانون آية ، فهي قريبة من المئة التي أخذ قسم المثين اسمه منها ، والسورة التي تأتي بعد سورة القصص هي سورة العنكبوت ، وآياتها تسع وستون ، فهي بداية قسم المثاني والله أعلم .

العلامة الثانية : إنه منذ سورة آل عمران لم نعد نرى الأحرف ﴿ اَلَمْ ﴾ تنصدر سورة بشكل منفرد . رأينا ﴿ اَلَمْ ﴾ ورأينا ﴿ اَلْعَم ﴾ ولأول مرة بعد سورة آل عمران ، ولآخر مرة تأتي ﴿ اَلَمْ ﴾ بداية لأربع سور هي : العنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة ، مما يمكن أن يستأنس به بأن سورة العنكبوت بداية قسم جديد هو قسم المثاني . وبالتالي فإن سورة القصص هي نهاية قسم المثين .

فقسم المثين يبدأ بسورة يونس ، وينتهي بسورة القصص . والله أعلم

ومن خلال تتبع المعاني نجد أن قسم المثين يتألف من ثلاث مجموعات :

المجموعة الأولى : هي يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم .

والمجموعة الثانية : هي الحجر ، والنحل ، والإسراء ، والكهف ، ومريم .

والمجموعة الثالثة : هي طه ، والأنبياء ، والحج ، والمؤمنون ، والنور ، والفرقان ،

والشعراء ، والتمل ، والقصص .

وسرى كيف أن المعاني هي التي حددت بداية المجموعات ونهايتها ، وهي التي عرّفنا أن هذا القسم ينقسم إلى ثلاث مجموعات .

• • •

ولقد رأينا في قسم الطّوال أن المعاني في سورة البقرة تسلسلت على طريقة ، ثم جاءت السور اللاحقة ففصلت في معانٍ ورَدّت في سورة البقرة على نفس التسلسل الذي جاء في سورة البقرة على غير تعاقب ، فصلت آل عمران في مقدمة سورة البقرة ، وفصلت النساء والمائدة والأنعام في المقطع الأول من القسم الأول ، وفصلت سورة الأعراف في المقطع الثاني من القسم الأول ، وكان تفصيل هذه السور لمحاورها تفصيلاً له ولامتداداته من سورة البقرة ، ولذلك فإن سورتي الأنفال وبراءة فصلتا في آية فريضة القتال والآيتين بعدها من سورة البقرة بعد عشرات الآيات .

وإذن فالسور التي جاءت بعد سورة البقرة من قسم الطّوال فصلت في معانٍ من سورة البقرة على ترتيب ما ، وإن قسم المئين يأتي بعد ذلك لتفصل كل مجموعة من مجموعاته في سورة البقرة من بدايتها على ترتيبه وكل ذلك سنراه تفصيلاً بإذن الله .

• • •

لقد فصلت سورة آل عمران في مقدمة سورة البقرة نوع تفصيل . وفي المجموعة الأولى من قسم المئين تأتي سورة يونس لتفصل في مقدمة سورة البقرة تفصيلاً آخر . وفصلت سور : النساء والمائدة والأنعام في المقطع الأول بعد المقدمة نوع تفصيل ، وتأتي في المجموعة الأولى من قسم المئين : سور هود ، ويوسف ، والرعد ، لتفصل في المقطع الأول تفصيلاً آخر .

وكما أن سورتي الأنفال وبراءة فصلتا في محور بعيد من المقطع الثاني في سورة البقرة فإن سورة إبراهيم هنا تفصل في محور بعيد من المقطع الثاني في سورة البقرة .

ثم تأتي المجموعة الثانية من قسم المئين لتفصل في سورة البقرة من بدايتها إلى نهايتها ، بتفصيلها محاور من سورة البقرة تختلف أو تتفق مع ما فصلته سور أخرى ، ولكن على حسب ترتيب ورودها في سورة البقرة دون اشتراط التعاقب

إن مجموعة ما عندما تفصل في سورة البقرة فإنها تفصل في محاور على ترتيب سورة البقرة ، ولكن ليس شرطاً أن تكون هذه المحاور وراء بعضها مباشرة في سورة البقرة . فقد يكون هناك فاصل بين المحور والمحور ، ولكن من الملاحظ أن مجموعة ما عندما تفصل في محاور متعددة فإن هذه المحاور من سورة البقرة تربطها مع بعضها روابط متينة في عالم المعنى ، وسرى ذلك بشكل واضح أثناء التفصيل - إن شاء الله - وههنا مستقدم نموذجاً :

...

لقد كان أكثر ما انصبَّ عليه تفصيل سورة آل عمران من مقدمة سورة البقرة هو توضيح صفات المتقين والكافرين . وسرى أن سورة يونس سينصبَّ تفصيلها على الآية الأولى من مقدمة سورة البقرة ﴿ اَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا يَرِيحُ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

ولقد انصبَّ تفصيل سورة النساء على الآيات الخمس الآتية بعد مقدمة سورة البقرة وخاصة على التقوى من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

وسرى أن سورة هود سينصبَّ تفصيلها على قوله تعالى : ﴿ اعْبُدُوا ﴾ من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وأن سورة يوسف سترينا مصداق قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ .

فسورتا: هود ويوسف تفصلان في الآيات الخمس التي فصلت فيها سورة النساء ، ولكنهما تركزان على نقاط بعينها ، بينما ركزت سورة النساء على نقاط أخرى ، وسورة الرعد تفصل في نفس المحور الذي فصلت فيه سورة المائدة ، مع تركيزها على نقاط بعينها .

ثم تأتي سورة إبراهيم فتفصل في آية بعيدة في سورة البقرة هي : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ . ولو أنك أتيت إلى محاور هذه المجموعة كلها من سورة البقرة ووضعتها بجانب بعضها لرأيت أنك أمام موضوع متكامل .

فمع أن سورة البقرة لها سياقها ، وترابط آياتها ببعضها ترابطاً واضحاً فإن المجموعات التي تفصل في محاور من سورة البقرة تربط المعاني في سورة البقرة إلى بعضها برابط جديد ، نثريث أن هناك صلوات بين آيات سورة البقرة ذات الموضوع الواحد ولو تباعد من بين هذه الآيات .

وهذه قضايا تظهر للإنسان من خلال التبع والتأمل ، ولذلك نذكرها هنا مجرد الإشارة إليها ، وسيأتي التفصيل إن شاء الله تعالى

تأتي المجموعة الأولى من قسم المئين موضحة لمعاني المجموعة الثانية ، وتأتي المجموعة الثانية وتبدأ بسورة الحجر التي تكاد أن تكون عرضاً سريعاً لكل الأوليات ، ثم تأتي سور المجموعة الثانية لتفصل في معان من سورة البقرة ثم تأتي سور من قبل تفصلها ، وبذلك يوضع في قسم المئين أساسان يوطآن المجموعة الثالثة .

ثم تأتي المجموعة الثالثة في قسم المئين فتكمل بناء القسم في تفصيلها لمحاورها من سورة البقرة تفصيلاً يكمل عمل المجموعتين السابقتين .

وتتشابه المجموعات الثلاث في هذا القسم في أن كلاً منها تفصل في محور من سورة البقرة من الابتداء حتى الانتهاء ، كما تشابه في أن كلاً منها تنطلق انطلاقات متشابهة في تأكيد الإيمان بالقرآن ، ثم تسيّر في طريق تعميق الالتزام ، ثم تصل إلى الوعظ والتذكير ، ثم إن هذه المجموعات الثلاث كل منها يكمل الآخر ومن ثم كانت قسماً واحداً

وهذا أوان عرض المجموعة الأولى من قسم المئين وهي سور : يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، وإبراهيم .

وسنرى بعد عرضها ما الذي دلّ على أنها مجموعة متكاملة ضمن قسم المئين

سورة يونس

وهي السورة العاشرة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة الأولى من
قسم المثين ، وآياتها مائة وتسع
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

كلمة في سورة يونس ومحورها :

يلاحظ أن أول آية في سورة يونس هي قوله تعالى ﴿الر تلتك آيات الكتاب الحكيم﴾ ثم يأتي قوله تعالى : ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن هم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ وفي الآية (٣٨) نجد قوله تعالى ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ . ألا ترى أن هذا يقابل قوله تعالى في سورة البقرة ﴿آلَمْ﴾ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴿ثم نجد قوله تعالى في سورة يونس الآية : (٥٧) : ﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ ألا ترى أن هذا يقابل قوله تعالى في خاتمة الآية الأولى من سورة البقرة ﴿هدى للمتقين﴾ وإذا نظرت إلى ما ختمت به سورة يونس وهي قوله تعالى : ﴿وأتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ .

فأنت ترى - ابتداءً - أن محور سورة يونس هو قوله تعالى في سورة البقرة ﴿آلَمْ﴾ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴿فإذا كانت سورة آل عمران قد فصلت مقدمة سورة البقرة كلها ، فإن سورة يونس تفصل الآية الأولى من سورة البقرة ، ويكون مجيء ﴿الر﴾ في السور الأولى من هذه المجموعة فيه إشارة إلى نوع جديد من التفصيل ، فالسورة إذاً تقرر كيف أن هذا القرآن لا ريب فيه ، وتناقش المرتابين الذين هم أحد الثنين : إما مستغربون أن ينزل الله وحياً ، أو متهمون لرسول الله ﷺ بالكذب . وترد على هؤلاء وهؤلاء ، ولكن لا بطريقة البشر في الرد ، إنها ترد بأسلوب هو وحده كافٍ ليدل على أن الريب في غير محله ، ثم تقرر السورة كيف أن القرآن هدى ، ثم تختم السورة بالتذكير والتلخيص لمضمونها كله .

فالسورة تتألف من مقدمة هي آية واحدة تشعر بموضوع السورة كله ، ثم يأتي جسم السورة وهو يتألف من ثلاثة أقسام ينتظمها محور السورة العام .

إنه ليس من المصادفة أن تكون سورة يونس على مثل هذا الترابط مع أول آية من سورة البقرة لولا أن ما التحمها إليه في الترابط بين سور القرآن كان صحيحاً : إن أول سورة البقرة هو : ﴿آلَمْ﴾ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴿تأمل هذه

الآية ، وتأمل المسرى العام لسورة يونس من خلال تأمل الآيات التالية :

- ﴿ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾
 ﴿ أَكُنْ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ .. ﴾
 ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ لاحظ كلمة ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾
 ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾
 ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لاحظ كلمة ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾
 ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ لاحظ كلمة ﴿ فِي شَكٍّ ﴾ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ لاحظ كلمة ﴿ فِي شَكٍّ ﴾
 ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾
 ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ ... ﴾

لو أنك نظرت هذه الآيات بتأمل لوجدتها : إما أنها تتحدث عن الشك وتزيل أسبابه ، أو أنها تتحدث عن هداية القرآن والاهتداء به ، وكل ذلك مرتبط بقوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَارِيبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾

.....

إِنَّهُ بِسُورَةِ يُوسُفَ يَبْدَأُ التَّفْصِيلَ الثَّانِي لِسُورَةِ الْبَقَرَةِ بِتَفْصِيلِ أَوَّلِ آيَةٍ فِيهَا ، وَنَكُنْ - كَمَا رَأَيْنَا مِنْ قَبْلُ - أَنَّ السُّورَةَ عَادَةً لَا تَفْصَلُ مُحَوْرَهَا فَقَطْ بَلْ تَفْصَلُ مُحَوْرَهَا وَامْتِدَادَاتِهِ وَارْتِبَاطَاتِهِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ نَفْسِهَا ، وَهَذَا الَّذِي نَرَاهُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ .

ولقد فطن الألوسي إلى مجموعة روابط تربط بين سورة يونس وسورة براءة التي سبقتها فقال : (ووجه مناسبتها لسورة براءة أن الأولى غُتِمت بذكر الرسول ﷺ)

وهذه ابتدئت به ، وأيضاً أن في الأولى بياناً لما يقوله المنافقون عند نزول سورة من القرآن وفي هذه بيان لما يقوله الكفار في القرآن حيث قال سبحانه : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله ﴾ الآية وقال جل وعلا ﴿ وإذا تلى عليهم آياتنا قال الذين لا يرجون لقاءنا انت بقرآن غير هذا أو بآية ﴾ وأيضاً في الأولى ذم المنافقين بعدم التوبة والتذكر إذا أصابهم البلاء في قوله سبحانه : ﴿ أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ على أحد الأقوال . وفي هذه ذم من يصيبه البلاء فيعود ويكرر في قوله تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره ﴾ وفي قوله سبحانه : ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرّين بهم برّيح طيبة وفرحوا بها جاءتها رّيح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ إلى أن قال سبحانه : ﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ﴾ وأيضاً في الأولى براءة الرسول ﷺ من المشركين مع الأمر بقتلهم على أتم وجه ، وفي هذه براءته ﷺ من عملهم ، ولكن من دون أمر بقتال ، بل أمر فيها عليه الصلاة والسلام أن يظهر البراءة فيها على وجه يشعر بالإعراض وتخليه السبيل ، كما قيل على ضد ما في الأولى ، وهذا نوع من المناسبة أيضاً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ (

كما فطن صاحب الظلال رحمه الله إلى الصلة بين بداية سورة يونس وخاتمتها فقال :

(والترباط في سياق السورة يوحد بين مطلعها وخاتمتها . فيجىء في المطلع قوله تعالى : ﴿ ألر تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن هم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ .. ويجىء في الختام : ﴿ وابع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ .. فالحديث عن قضية الوحي هو المطّلع وهو الختام . كما أنه هو الموضوع المتصل المنتظم بين المطلع والختام)

القسم الأول من سورة يونس

ويمتد حتى نهاية الآية (٥٦) حيث يأتي بعد ذلك قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ ... ﴾ وهذا القسم يتألف من آية هي مقدمة السورة ، ومقطعين يناقشان الرب في القرآن :

المقطع الأول بدايته : ﴿ أَكُنْ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ فهذا المقطع يناقش الكافرين بأصل الوحي

والمقطع الثاني بدايته : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. ﴾ فهذا المقطع يناقش المكذبين بالقرآن ، فالقسم بمجموعه يناقش الرب في القرآن ، فهو إذن يصب في تفصيل قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾

فهذا القسم في السورة يؤكد أن هذا القرآن لا ريب فيه ، ثم يأتي القسم الثاني ليؤكد أن هذا القرآن هدى ويجب أن يهتدى به

...

تبدأ السورة بآية تدل على مضمون السورة وهي : ﴿ أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتَ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ فالآية الأولى في السورة تذكر حكمة الكتاب ، وذلك يؤكد أنه لا ريب فيه ، وأنه هدى يجب أن يهتدى الناس به ، فهذه الآية التي هي مقدمة السورة تشير إلى مضمون السورة ، كما أنها في محلها تحقق ما يسمى في علم البلاغة (ببراعة الاستهلال) على أعظمه وأروع ، والله ولكنابه المثل الأعلى ، وتنزه كتابه وكلامه أن يشبه كلام البشر .

وسنعرض مقدمة السورة مع المقطع الأول من القسم الأول معاً وهذا أوان الشروع في ذلك

مقدمة السورة والمقطع الأول من القسم الأول

المقدمة آية واحدة ثم يأتي المقطع ويستمر حتى نهاية الآية (٣٧) وهذا هو مع المقدمة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوهُمُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ

ءَايَاتِنَا غَفْلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ
 ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ
 لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ * وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَبِيرِ
 لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ۚ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾
 وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ ۖ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ
 ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ
 خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
 ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلَهُ ۚ قُلْ
 مَا يَكُونُ لِي أَن أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِي نَفْسِي ۚ إِنِ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ
 إِنِّي عَصَيْتُ رَبِّي ۖ عَذَابَ يَرِّمُ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ
 وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ۖ مِنْ قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ قَمِنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ
 هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِعُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
 الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً
 فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾
 وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغِيبُ لِلَّهِ فَاَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ
 مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ
 فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي
 يُسِيرُكُمْ فِي الْأَبْرِ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ
 وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ
 بِهِمْ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
 الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَيَّاهَا النَّاسُ
 إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتَزَلَّهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ
 بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
 زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتْنَهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا

فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَنْفُسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوهُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٦﴾ * لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ
سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ
قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ
شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٩﴾ فَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ
كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٣٠﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ
مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ
الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَبِّحُوا اللَّهَ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ فَذَلِكُمُ
اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٣﴾ كَذَلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ
شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَبْدُوهُمُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوهُمُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنَّى

تُؤْفَكُونَ ﴿٣١﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي
 لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَآ
 لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ
 شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾

ملاحظة حول طريقتنا في تفسير ما سيأتي من القرآن :

في ما مر معنا من التفسير حرصنا أن نأقي بالمعاني العامة للآيات المفسرة ، ثم نتبعها
 بالتفسير الحرفي ، وكان ذلك يضطرنا إلى التكرار ، وقد أُلجأنا إلى ذلك حرصنا على
 عرض معاني ما نفسره متسلسلاً ؛ لتأكيد وحدة المقطع ، أو القسم ، أو المجموعة ،
 ونعتقد أن ما مر كان كافياً لتأكيد ما أردناه ، ولذلك ورغبة في الاختصار فإننا لن نسير
 بعد الآن على مبدأ ذكر المعنى العام ثم المعنى الحرفي ، بل سنكتفي بذكر المعنى الحرفي .

كلمة بين يدي الآيات :

إن الناس الذين ينكرون الوحي إنما يفعلون ذلك لأن تصوراتهم عن أمور كثيرة
 مغلوطة ومن ثم ، وهذه الآيات تناقش هؤلاء فإنها تصحح كل المفاهيم التي تؤدي إلى
 إنكار الوحي ، وهذا شيء لا بد من تذكره لإدراك الصلة بين الآيات

قلنا : إن القسم الأول من سورة يونس يناقش المرتابين في هذا القرآن ، ويؤكد أن
 هذا القرآن لا ريب فيه ، وقلنا : إن المقطع الأول من القسم الأول يناقش الذين ينكرون
 أصل الوحي ، وههنا نقول : إن مناقشة المنكرين لأصل الوحي إنما كانت كجسر يوصل
 إلى مناقشة المرتابين في القرآن ، لذلك نجد في هذا المقطع قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ثَلَّثَ عَلَيْهِمُ ﴾

آياتنا يَـنَـات قال الذين لا يرجون لقاءنا انت بقرآن غير هذا أو بَدَله قل ما يكون لي أن أبْدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوثه عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم غُمرًا من قبله أفلا تعقلون ﴿١﴾ كما نجد أن المقطع قد حتم بقوله تعالى ﴿٢﴾ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴿٣﴾

فهذا يؤكد أن مناقشة المنكرين لأصل الوحي إنما هو جسر لإقامة الحجة على المرتابين في هذا القرآن

المعنى الحرفي لمقدمة السورة وللمقطع الأول من القسم الأول فيها :

﴿١﴾ ألر ﴿٢﴾ قد تقدّم الكلام عن هذه الحروف أكثر من مرّة وأقوى الأقوال فيها : أنها تدل على اسم من أسماء الله ، أو صفة من صفاته ، أو أنها أسماء للصور التي استهلّت بها ، أو أنها إشارة إلى التحدي والإعجاز ، أو أنها للتنبيه بين يدي المعاني ، أو أنها مفاتيح لجرس السورة وبمفاتها ، أو أنها مفاتيح لفهم الوحدة القرآنية ، أو أنها إشارة إلى وجود نسبة معينة هذه الحروف في سورها ولا يمنع أن يكون ذلك كله مراداً من الاستفتاح بها . والله أعلم . ﴿٣﴾ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴿٤﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم البين الحكمة ، فالقرآن حكيم لاشتماله على الحكمة ، والقرآن محكم لخلوه عن الكذب والافتراء والزيادة والنقصان ، هذه الآية هي مقدمة هذه السورة ، وفيها إشارة إلى الحكمة والإحكام في القرآن ، فهو حكيم في اختيار ألفاظه ، حكيم في ترتيب كلماته ، حكيم في ترتيب آياته في السورة الواحدة ، حكيم في ترتيب سورته في المجموعة أو القسم أو فيه كله ، حكيم فيما تضمنته من معان وتوجيهات ، وتربية وتشريع وتعليم ، محكم في هذا كله لا يمكن نقضه ، ولا يمكن أن يوجد فيه خلل ، فكما أن في هذا الكون حكمة لأنه خلّق الله الحكيم ، ففي هذا القرآن حكمة لأنه كلام الله الحكيم ، وكما أن أخكمة في هذا الكون لا يحيط بها إلا خالقها ، فالحكمة في هذا القرآن لا يحيط بها إلا مُنزل هذا القرآن ، وإنما يرى الخلق منها بقدر نور بصائرهم ، وإذا كان القرآن حكيماً فذلك دليل على أنه من عند الله ، وذلك يقتضي من الخلق أن يهتدوا ، وهذا هو مضمون السورة التي جاءت الآية الأولى فيها مقدمة لها . ثم يبدأ المقطع الأول وتعرض الآية الأولى منه عجب الكافرين أن ينزل الله وحياً ، ويبعث رسولاً مع تعجبها من هذا العجب فتقول ﴿٥﴾ أكان

للناس عجباً ﴿ الهمة لإنكار التعجب منه ﴿ أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس
وبشر الذين آمنوا أن لهم قدام صدق ﴿ أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة ﴿ عند ربهم
قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴿ أي إن هذا الرسول واضح السحر .

فوائد :

١ - أنكر الله تعالى في هذه الآية على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من
البشر ، وذلك دأب الناس من كل رسالة ، بما في ذلك رسالة رسولنا ﷺ قال ابن
كثير : قال الضحاك عن ابن عباس : لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت
العرب ذلك - أو من أنكر منهم - فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل
محمد فأنزل الله عز وجل : ﴿ أكان للناس عجباً ﴾ قال النسفي : (فقد كانوا يقولون :
العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أي طالب . واستنبح عجبهم هذا ؛
العجب من ذكر البعث والإنذار بالنيران ، والتبشير بالجنة) وقد رد النسفي هذا
العجب فقال : وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب ، لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم
لم يكونوا إلا بشر مثلهم . وإرسال اليتيم أو الفقير ليس بعجب أيضاً ؛ لأن الله تعالى إنما
يختار للنبوّة من جمع أسبابها ، والغنى والتقدم في الدنيا ليس من أسبابها ، والبعث للجزاء
على الخير والشر هو الحكمة العظمى ، فكيف يكون عجباً ؟ إنما العجب والمنكر في
العقول تعطيل الجزاء .

٢ - عبر بالآية عن السابقة والفضل والمنزلة الرفيعة بالقدم الصدق ؛ لأن السعي
والسبق إنما يكون بالقدم ، ولذلك سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً ، كما سميت
النعمة بدا لأنها تعطى باليد ، وإضافة القدم إلى الصدق فيه دلالة على زيادة الفضل
المعطاة لأصحاب ذلك من الله ، ويمكن أن يفسر قدم الصدق بمقام الصدق أو سبق
السعادة .

وقد توسّع الأوسى في هذا المقام مبيناً معنى (قدم صدق) ثم استطرد في ذكر
استعمالات العرب لكلمة « القدم » مجازاً فقال : ﴿ قدم صدق ﴾ أي سابقة ومنزلة رفيعة
﴿ عند ربهم ﴾ وأصل القدم العضو المخصوص ، وأطلقت على السبق مجازاً مرسلًا لكونها
سببه وآلته ، وأريد من سبق الفضل والشرف ، والتقدم المعنوي إلى المنازل الرفيعة مجازاً
أيضاً ، فالجواز هنا بمرتبتين ، وقبل : المراد تقدمهم على غيرهم في دخول الجنة لقوله ﷺ :
« نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » وقوله ﷺ : « إن الجنة محرمة على الأنبياء حتى

أدخلها أنا ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمي » وقيل : تقدمهم في البعث ، وأصل الصدق ما يكون في الأقوال ، ويستعمل - كما قال الراغب - في الأفعال فيقال : صدق في القتال إذا وفاه حقه ، وكذا في ضده يقال : كذب فيه ، فيعبر به عن كل فعل فاضل ظاهراً أو باطناً ، يضاف إليه كمقعد صدق ، ومدخل صدق ، ومخرج صدق ، إلى غير ذلك .)

كلمة في السياق :

محور هذه السورة كما قلنا من قبل-أول آية في سورة البقرة وهي قوله تعالى : ﴿ آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ فهي تفصيل لهذه الآية ، ومن ثم فإن هذه السورة تستأصل الشك ، وتبيح على اتباع القرآن ، ووصف القرآن بالحكمة في الآية الأولى ، والبدء في هذا المقطع بعرض عجب الكافرين من الوحي ، والتعجب منه ، هو سير في هذا الطريق ، فالشك بالقرآن تعود أسبابه إما إلى الشك بأصل الوحي ، أو الشك بالموحى إليه . وهذا المقطع الذي بين أيدينا ينسف الشك بأصل الوحي ببيان أن وحي الله وإرسال الرسل ضرورة لا يحصى عنها . فكيف تكون مستغربة ! وقد ذكر المقطع عدّة مجموعات من الآيات ، كل مجموعة تنسف العجب من إنزال الوحي بشكل من الأشكال ، فلتنتقل الآن إلى عرض المجموعة الأولى لرى ما قلناه واضحاً :

المجموعة الأولى

﴿ إن ربكم الله ﴾ فهو مربكم وسيّدكم ومالككم ، ومن كان كذلك فكيف بترككم بدون هداية ورحى وإنذار ! ﴿ الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴾ وهل هي كأيامنا ، أو كل يوم منها بألف سنة ، أو المراد غير هذه وهذه ؟ أقوال للمفسرين ومثاني . ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ قال ابن كثير : (والعرش أعظم المخلوقات وسقفها) أقول : العرش مخلوق غيبي ، يجب الإيمان به ، ونسك عن التفصيل في شأنه ، إلا في الحدود التي فصلت فيها النصوص ، والنص في سباقه يفيد أن من كانت السموات والأرض خلقه ، والعرش في سلطانه ، فكيف يستغرب أن يوحى إلى خلقه ليوجههم ويأمرهم وينهاهم . ﴿ يدبر الأمر ﴾ أي أمر الخلق كله . وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش . ومعنى (يدبر) يقضي ويقدر على مقتضى الحكمة ، بدأ بالتذكير بربوبيته وما يدل على عظمته وملكه ، من خلقه السموات والأرض ، وأتبعها بتذكيره بتدبير أمر الخلق كله ؛ ليعلم الجاحدون رسالاته أن الذي يدبر السموات والأرض يدبر البشر بإرساله رسلاً لهم ، وإنزاله وحياً عليهم . ﴿ ما من

شفع إلا من بعد إذنه ﴿ أي : لا يشفع شافع عنده إلا إذا إذن له ، وهذا تذكير بكمال عزته وكبريائه ، وإذا كان كذلك فكيف يتوهم الجاحدون ألا ينزل وحياً ، وألا يطالب عباده بتكليف . ﴿ ذلكم ﴾ العظيم الموصوف بما تقدم ﴿ الله ربكم ﴾ وإذا كان ربكم فإنه سيأمركم وينهاكم عن طريق الوحي . ﴿ فاعبدوه ﴾ أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ، فهو الذي يستحق العبادة لا غيره من إنسان أو ملك ، أو طبقة ، فضلاً عن غير ذلك من معنى أو جماد . وإذا كان هو المستحق للعبادة التي يدخل فيها معرفته وطاعته ، والقيام بوظائف العبودية له ، فكيف الطريق إلى ذلك إلا بواسطة الوحي . ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي أيها الجاحدون إنزال الوحي وإرسال الرسل ، وأيها المشركون به غيره ، ألا تتدبرون فتستدلون بوجود هذا الخلق على الخالق ، وتعرفون بذلك صفاته ، وتذكرون أن من هذا شأنه لا يترك عباده بلا وحي وأمر ونهي ، وثواب وعقاب ، وهكذا ، وبآية واحدة هدم الشبهة الأولى التي تحول دون الإيمان بهذا القرآن ، وهي شبهة من يستبعد أصلاً أن ينزل الله وحياً .

فوائد :

١ - قال ابن كثير ، وقال الدراوردي عن سعد بن إسحق بن كعب بن عجرة أنه قال حين نزلت هذه الآية ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض ﴾ الآية لقيهم ركب عظيم لا يرون إلا أنهم من العرب . فقالوا لهم : من أنتم ؟ قالوا : من الجن ، خرجنا من المدينة ، أخرجتنا هذه الآية . رواه ابن أبي حاتم .

٢ - رأينا أن السورة بعد مقدمتها عرضت لشبهة وردتها ، ولتنساعل الآن عن مظنة وجود هذه الشبهة في الفكر العالمي ؟.

نقول : إن من درس تاريخ الفلسفة يجد أن هذه الشبهة تكاد تكون أحد أركان الفكر الفلسفي في العالم ، فمنذ أرسطو - بل من قبله حتى الآن - تجد الفكر الفلسفي - بما في ذلك الفكر الذي يثبت وجود الله - يعتقد أن الله لا يتدخل في شؤون خلقه ، بل كان أرسطو يتصور أن الله منصرف عن خلقه أصلاً ، لا يعنيه من أمورهم شيئاً ، فهو مشغول بكونه سعيداً - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - ومن درس وضع العالم المعاصر يجد أن أكثر الخلق هذا شأنهم ، فأكثر المجتمعات ، وأكثر المفكرين ، لا ينكرون وجود الله ، ولكن إيمانهم بوجوده يرافقه عدم استعداد للتلقي عنه ، أو على الأصح استغراب أن ينزل وحيه، وأن يكون وحيه ملزماً وموجهاً ، وخذ مثلاً أمريكا ،

فأمريكا تكتب على دولارها « بالله نؤمن » ولكن دستورها يعتبر من الجرائم حمل المجتمع الأمريكي على دين يكون هو الحاكم ، فماذا يعني هذا وأمثاله ، وقد أصبح مثل هذا هو المسيطر على التفكير البشري ، إلا أن البشر في عصرنا تواضعوا على أن الله لا علاقة له بشؤونهم ؟ وهل هذا إلا ما عرضته الآية الأولى في النقط وهن الأجواب عليه إلا ما جاء في الآية الثانية

٣ — من الشبهات التي يثيرها الرافضون لتحكيم كتاب الله ، ولتحكيم شريعته ؛ أن هناك دعاوى كثيرة في هذا الشأن ، وأن هناك اختلافات كثيرة ، وهذا من أكبر الجهل والظلم ، فكثرة الخلاف لا تعني فقدان الحق ، ثم لا تقتضي تركه ، بل كثرة الخلاف تبعث على العلم وبذل الجهد للوصول إلى اليقين ، ومن بذل أدنى جهد عرف أن ديناً هذا القرآن كتابه هو الحق الخالص .

وبعد أن هدم الله شبهة المنكرين لأصل الوحي ، ذكر الله عباده ووعظهم ، فأخبر أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة ، لا يترك منهم أحداً إلا ويعيده كما بدأه . وأن حكمته في إرجاع الخلق إليه وبعثهم هو مجازاة المكلفين . فمقتضى عدله أن يثيب المطيع ويعاقب العاصي ، ومن ثم اقتضى ذلك أن يكون هناك يوم آخر . وإذا كان الأمر كذلك فكيف يستغرب المستغربون أن ينزل وحياً ينذر الناس بما أمامهم ، ويبشر الصالحين بما أعد لهم ، بعد أن يبدئهم على طريق الإيمان والعمل الصالح . قال تعالى : ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ أي إلى الله رجوعكم ومآلكم كلكم ، فلا ترجعون في العاقبة إلا إليه ؛ فاستعدوا للقاءه باتباع وحبه ﴿ وعد الله حقاً ﴾ أي هذا وعده الجازم المؤكد أن يعيدهم إليه جميعاً . ﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ هذا تعليل لإمكان العودة وقد شاءها الله فما المانع من ذلك . وتعليل لوجوب المرجع إليه فمن بدأ الخلق قادر على أن يعيده وقد أوجب الرجوع إليه ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ أي العدل والجزاء الأوفى ، أي ليكافأهم بعدله ويوفيهم أجورهم ، أو ليكافأهم بسبب عظمهم إذ آمنوا ولم يظلموا ، وهذا بيان للحكمة من ابتداء الخلق وإعادة ، فالحكمة هي جزاء المنكفين على أعمالهم ﴿ والذين كفروا هم شراب من حميم ﴾ أي بالغ نهاية الحرارة ﴿ وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سُموم وحميم ، وإذا كان هذا وعده ، وإذا كان هذا كائناً لا محالة ، فكيف يستغرب الجاحلون أن ينزل وحياً ؟ وكيف يتهمون رسوله بالسحر ! فالآية وعظ

وتذكير وتدليل وهي - في الوقت نفسه - تحطيم لإنكار الكافرين أصل الوحي

فائدة :

إن الإيمان بالله يلزمه الإيمان باليوم الآخر ، فمن عَرَفَ الله آمن باليوم الآخر ، إن من عرف علم الله وقدرته لم يستغرب الإعادة والحساب ، ومن عَرَفَ عدل الله لم يستغرب أن يوجد يوم لتحقيق العدل المطلق ، ومن عَرَفَ انتقامه لم يستغرب أن يوجد يوم آخر يعذب به أعداءه . ومن عَرَفَ كرمه لم يستغرب أن يعد لأوليائه جنته ، كيف وقد أرسل الرسل للتبشير بجنته والإنذار بناره ، فكيف يسغرب المستغربون ؟؟

إن علة عصرنا الرئيسية هي الغفلة عن الله واليوم الآخر ، والغفلة عما تقتضيه معرفة الله واليوم الآخر ، من التزام بوحى الله ، واتباع رسوله ﷺ وشريعته ، ولا دواء لهذه الغفلة إلا بالذكر ، وتلاوة القرآن ، وبالعلم ، وإلا بصحبة الذاكرين ، والعلماء العاملين ، الطالبين لوجه الله ، الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة .

• • •

﴿ هو الذي جعل الشمس ضياءً ﴾ أي ذات ضياء ﴿ والقمر نوراً ﴾ أي ذا نور ، والضياء أقوى من النور ، ولذا جعله للشمس ، جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءً ، وجعل شعاع القمر نوراً ؛ ممّا يشعر بأن هناك فارقاً ما ، وقد ظهر في عصرنا بوضوح الفارق بين الشمس والقمر . إذ أن نور القمر انعكاس لضياء الشمس . فالشمس نورها منها ، والقمر نوره مستمد من الشمس . وهكذا تظهر معجزات القرآن يوماً فيوماً ، ففي كل يوم جديد ﴿ وقدره منازل ﴾ أي وقدر سير القمر منازل : أو قدره ذا منازل : فأقول ما يبدو صغيراً ، ثم يتزايد نوره حتى يستوسق ويكمل إبداره ، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى . وهكذا كل شهر قمري ﴿ لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ أي لتعلموا بالشمس والقمر عدد السنين والشهور والأيام ، وحساب الآجال والمواقيت المفترقة بالعنين والشهور . قال ابن كثير : (فالشمس تُعرف الأيام ، وبسير القمر تُعرف الشهور والأعوام) . أقول : وبالشمس تُعرف السنين الشمسية ، وبالقمر تُعرف السنين القمرية ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ أي ما خلق الله المذكور إلا متلبساً بالحق الذي هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثاً ﴿ يفصل الآيات ﴾ أي يبين الحجج والأدلة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي لقوم عندهم علم بدقائق هذا الكون ، فإذا كان لهم تدبر وتأمل ينتفعون بهما . وإذا كان الله عز وجل يفعل مثل هذا

لمصلحة عباده ، فكيف يهملهم ، فلا يهديهم ولا ينزل عليهم وحياً يشرهم وينذرهم ، ألا إن عجب الناس من أن ينزل الله وحياً في غير محله . وهكذا نرى أن الشبهة الأولى ضد هذا القرآن تتحطم بشكل ثم بآخر ﴿ إن في اختلاف الليل والنهار ﴾ أي في مجيء كل واحد منها خلف الآخر ، أو في اختلاف لونهما ، أو في تعاقبهما ، إذا جاء هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب هذا جاء هذا ، لا يتأخر عنه ، أو اختلافهما بالذهاب والمجيء والزيادة والنقصان ﴿ وما خلق الله في السموات ﴾ أي من الآيات الدالة على عظمتها من ظاهر للجميع أو ظاهر للبعض ﴿ والأرض ﴾ من الخلائق والعجائب والدلائل ﴿ آيات ﴾ أي دلالات على قدرته تعالى ﴿ لقوم يتقون ﴾ أي يتقون الله باتقاء عقابه وسخطه وعذابه ، خصهم بالذكر لأنهم يحذرون الآخرة فيدعوهم الحذر إلى النظر ، كأن الله عز وجل بعد أن أقام الحجة على ضرورة إنزال الوحي من خلال ذكره عنايته بخلقه ، نبه تعالى أن الآيات في هذا الكون التي تدل على كمال عنايته لا يعرفها ولا ينتفع بها إلا المتقون ، فلا يستغرب إذن أن يكون كثير من الناس بمنأى عن الانتفاع ، وبالتالي فهم مبتعدون عن الوحي المنزل .

ثم عقب الله عز وجل بخمس آيات تبين السبب الرئيسي للكفر بالوحي وهو الكفر بالآخرة والاطمئنان للدنيا ، وتدل على الطريق الصحيح للوصول ، وتذكر بعض الأسباب التي تجعل الناس يكفرون ، فالكفر أثر عن الجهل بالله وسننه . ففي الآيات الخمس الآتية مزيد بيان في شأن الكفر بالوحي والإيمان به

...

ويلاحظ أن المقطع الذي بين أيدينا بدأ بقوله تعالى ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا ... ﴾ وهي تنتهي بإنذار الكافرين ونبيشير المؤمنين . وكما أن ذكر الإنذار في الآية الأولى سبق ، فإن الإنذار هنا يسبق النبيشير

.....

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ بالبعث ، أي لا يتوقعونه أصلاً ، ولا يحطرونه ببالهم ؛ لغفلهم عن التفطن للحقائق ، أو لا يؤمنون بحسن لقاءنا كما يؤمله السعداء ، أو لا يخافون خطر لقاءنا الذي يجب أن يخاف ﴿ ورضوا بالحياة الدنيا ﴾ أي بدل الآخرة ، بإنكارهم للآخرة وإيثارهم القليل الفاني على الكثير الباقي فجعلوا الحياة الدنيا منتهى

رضاهم ﴿ واطمأنوا بها ﴾ أي واطمأنت إليها نفوسكم حتى لم يبق بها أي مزرع يحركها نحو الآخرة . قال النسفي (أي : وسكنوا فيها مسكون من لا يزعم عنها فتوا شديداً وأملوا بعيداً) أو وتصرفوا بحرية كأنهم أرباب وفروا من العبودية ومن التذكير بها : وهذا وضع أكثر الخلق الآن ، بل على هذا النوع من التفكير تقوم الحضارة العالمية والمدينة العالمية بمؤسساتها وصورها وفروعها ، كل شيء في عصرنا يقوم على تعظيم الدنيا وتمجيدها ، وبالتالي التهالك على كسبها وملاذها ومفاتها وهوها دون النظر إلى الآخرة . ثم كمل وصف هذا النوع من الناس ﴿ والذين هم عن آياتنا ﴾ أي دلائل وحدانيتنا ﴿ غافلون ﴾ أي تاركون النظر فيها فلا يتفكرون . فهؤلاء ما جزاؤهم ؟ ﴿ أولئك مأواهم النار ﴾ أي مقرهم ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ أي بسبب كسبهم فهي عقوبة في مقابل ذنب . قال الحسن البصري واصفاً حال هؤلاء أخذاً من الآية : (والله ما زينوها ولا رفعوها حتى راضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية ، فلا يتفكرون فيها ، والشرعية فلا ياتمرون بها بأن مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والجرائم ، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر)

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ عندهم ربهم بإيمانهم ﴾ أي بسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك الطريق السوي المؤدي إلى الثواب ، أو يهديهم ربهم في الآخرة بتور إيمانهم إلى طريق الجنة . وفي الآية بشارة لمن آمن وعمل صالحاً بأن الله يتولى أمره ويكمل عليه نعمته ﴿ تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم . دعواهم فيها ﴾ أي دعاؤهم فيها ﴿ سبحانك اللهم ﴾ أي يدعون الله بقولهم سبحانك اللهم تلذذاً بذكره . ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ أي يحيي بعضهم بعضاً بالسلام ، أو هي تحية الملائكة إياهم ، أو تحية الله لهم سلام ﴿ وآخر دعواهم ﴾ أي وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح أن يقولوا ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال النسفي : قيل أول كلامهم التسبيح وآخره التحميد . فيستدثون بتعظيم الله وتزبیه ، ويختمون بالشكر والثناء عليه ، ويتكلمون بينهما بما أرادوا .

قال ابن جريج : أخبرت أن قوله ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم ﴾ قال : إذا مر بهم الطير يشتهونه ، قالوا : سبحانك اللهم وذلك دعواهم ؛ فيأتيهم الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه ، فذلك قوله ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ قال : فإذا أكلوا حمدوا

الله ربهم ، فذلك قوله : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وقال سفيان الثوري : إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال : ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ .

وختم ابن كثير الكلام على الآية الأخيرة بقوله : « هذا فيه دلالة على أنه هو المحمود أبداً ، المعبود على طول المدي ، وهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره ، وفي ابتداء كتابه ، وعند تنزيله حيث يقول تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ (الكهف : ١) ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ (الأنعام : ١) إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها ، وأنه المحمود في الأولى الآخرة ، في الحياة الدنيا وفي الآخرة في جميع الأحوال ، ولهذا جاء في الحديث : « إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس » وإنما يكون ذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم ، فتكرر وتعاد وتزداد فليس لها انقضاء ولا أمد ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه)

ثم أخبر تعالى عن حكمته ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم ، أو على أموالهم ، أو على أولادهم بالشر ، في حال ضجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك . فلهذا لا يستجيب لهم - والحالة هذه - لطفاً ورحمة ، كما يستجيب لهم إذا ادعوا لأنفسهم ، أو لأموالهم ، أو لأولادهم بالخير والبركة والثناء ، فيسبب من ذلك يبقى الكافرون بالآخرة مترددين متحيرين كأثر من آثار استجابة الدعاء أحياناً ، وعدم استجابته أحياناً كأثر من حلمه عز وجل ، وصبره وإمهاله لعباده ، وعدم التعجيل لهم . وختم هذه المجموعة بهذه الآية فيه استكمال للحجج الواردة في هذه المجموعة ، فإنكار الوحي أثر عن أشياء كثيرة ، منها الكفر باليوم الآخر ، وهذه الآية تذكر سبباً من أسباب كفر الكافرين باليوم الآخر ، فالله رحيم بعباده لطيف بهم ، ومن ثم فإنه لا يعجل لهم الشر ، وهذا كله تخفى حكمته على من لا يؤمن باليوم الآخر ، ومن ثم فإنهم يستمرون فيما هم فيه من طغيان ، متحيرين مترددين ، بدلاً من أن يؤمنوا ويتابعوا الوحي قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ ﴾ أي كاستعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم ﴿ بَأْنِ يَهْلِكُهُمْ وَلَكِنْ يَمْهَلُهُمْ ﴾ فنذر ﴿ أَيِ تَرْكِ ﴾ الذين لا يرجون لقاءنا ﴿ أَيِ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ في طغيانهم ﴿ فِي تَجَاوَزِهِمْ حُدُودَ اللَّهِ ﴾ يعمهون ﴿ أَيِ يترددون ويتحيرون . فصار المعنى : ولوعجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيهم لأمتوا وأهلكوا ، وقد تضمن هذا نفي التعجيل ، فيسبب

من ذلك يبقى الكافرون في شركهم وضلالهم ويترددون بما يبهنهم الله ، ويفيض عليهم النعمة - مع طغيانهم - إلزاماً للحجة عليهم .

ملاحظة :

لاحظ الصلة بين قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ الآية الثانية من الآيات الخمس الأخيرة وبين قوله تعالى ﴿ فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ في الآية الحادية عشرة التي هي آخر آية في المجموعة الأولى من المقطع ، مما يشير إلى أن الآيات الخمس الأخيرة متكاملة في مجموع تفسيراتها ، وقد ذكرنا من قبل محل هذه التقريرات في السياق

فائدة :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ﴾ ذكر ابن كثير ما رواه البزار في مسنده عن جابر قال قال رسول الله ﷺ : « لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَوْلَادِكُمْ ، لَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُمْ ، لَا تَوَافَقُوا مِنْ اللَّهِ سَاعَةً فِيهَا إِجَابَةٌ فَيَسْتَجِيبَ لَكُمْ » .

كلمة في السياق :

رأينا أن سورة يونس مبدوءة بمقدمة هي الآية الأولى منها، ثم ذكرت موقفاً من مواقف الكافرين من الوحي والرسول والقرآن ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عَنْ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مِينٌ ﴾ ثم جاءت المجموعة الأولى من المقطع الأول وهي التي مَرَّت معنا فهتمت عجيبهم ، وهتمت دعواهم ، والآن تأتي مجموعة أخرى تهدم العجب والاستبعاد ، وتهدم اتهام الرسول ﷺ بالسحر

فلنر المجموعة الثانية من المقطع الأول من القسم الأول من سورة يونس :

المجموعة الثانية

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ ﴾ أي أصابه الضر ﴿ دَعَانَا ﴾ أي دعا الله لإزالته ﴿ لَجْنَهُ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَانَمًا ﴾ معناه أن المضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى

يزول عنه الضر ، فهو بدعونا في حالاته كلها ، سواء كان مضطجعاً عاجزاً عن النهوض ، أو قاعداً لا يقدر على القيام ، أو قائماً لا يطيق المشي ﴿ فلما كشفنا عنه ضره ﴾ أي أزلنا ما به ﴿ مر كأن لم يدعنا إلى ضره منه ﴾ أي مضى على طريقته الأولى قبل مسّ الضر ونسي ، أو مرّ عن موقف الانبهاه والتضرع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به ، كأنه لم يدعنا ، أخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا أصابه الضر وأصابته الشدة ، وكيف أنه يحزع ويكثر الدعاء عند ذلك . فإذا فرّج الله شدته ، وكشف كربته ، أعرض وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء . ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك التزيين ﴿ زين للمسرفين ﴾ أي للمجاوزين الحد في الكفر ، والمزين هو الشيطان بوسوسته ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ من الإعراض عن الذكر ، والصّد عن سبيل الله ، واتباع الكفر .

وهكذا بدأت هذه المجموعة تكمل الحجج على الكافرين في إنكارهم الوحي . فكأنها قالت : أنتم أيها الكافرون إذا أصابكم الضر تجأرون إلى الله في الدعاء ، مما يدل على أنكم تعتقدون أن الله لا يهملكم ، فكيف إذن تتعجبون أن ينزل وحياً وبرسلاً رسولاً ؟! فكما أنكم إذا دعوتهم فأتجابكم تسون نعمته عليكم فهكذا هنا تسون وحيه وتعجبون منه هذا شأنكم الإسراف في كل شيء .

وفي هذا السياق ذكّرهم بأن إرسال الرسل سنّة في الأمم السابقة ، وهدّدهم أن إهلاك المكذّبين كذلك سنّة ، وذكّرهم أنهم سائرون في الطريق نفسه فليحذروا .

﴿ ولقد أهلكنا القرون ﴾ أي الأمم ﴿ من قبلكم لما ظلموا ﴾ أي لما أشركوا وظلموا بالكذب ﴿ وجاءهم رسلهم بالبينات ﴾ أي المعجزات الدالات على صدقهم ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ ولذلك استحقوا الإهلاك ، فمهما بقوا فإنهم مصرون على الكفر يعني : أن السبب في إهلاكهم تكذيبهم للرسل ، وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل ، ففي الآية إخبار عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم من البينات والحجج الواضحات ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك يعني الإهلاك ﴿ نجزي القوم المجرمين ﴾ وهو وعيد لمن كذب برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ ثم جعلناكم ﴾ يا من بُعث إليهم محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ خلائف في الأرض من بعدهم ﴾ أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكناها ﴿ لننظر كيف تعملون ﴾ أي لننظر أتعلمون خيراً أو شراً ، فنعاملكم على حسب عملكم ، أي

أنتم بمنظر منا فانظروا كيف تعملون أبالاعتبار بماضيكم ، أم الاغترار بما فيكم ، وبهاتين الآيتين تقوم حجة أخرى على من تعجبوا من أن يرسل الله رسولا مبشراً ونذيراً ، وذلك من خلال التذكير بأن الله أرسل رسلاً من قبل ، وعذب من كذبهم ، فمن درس ونظر عليم أنه لا محل للتعجب أن يبعث الله محمداً ﷺ بهذا القرآن ، وفي هذا السياق ذكرهم وحذرهم وخوفهم وأنذرهم ، وبهذا تنتهي المجموعة الثانية في هذا المقطع وقد أكملت صرح الرد على الكافرين في التعجب من إرسال محمد ﷺ بشيراً ونذيراً ، لتأتي المجموعة الثالثة لتهدم عجبهم بشكل آخر .

قوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لَنَجْهُهُ أَوْ قَاتِلًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَلْعَنَّا إِلَىٰ ضُرِّهِ ﴾ قال الأروسي :

« وفي الآية ذم لمن يترك الدعاء في الرخاء ويهرع إليه في الشدة ، واللائق بحال الكامل ، التضرع إلى مولاه في السراء والضراء ، فإن ذلك أرجى للإجابة ففي الحديث « تُعْرِفُ إِلَى اللَّهِ فِي الرِّخَاءِ بِعَرَفِكَ فِي الشَّدَةِ » .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الدرداء قال : ادعُ الله تعالى يوم سرائك يستجب لك يوم ضرائك . وفي حديث الترمذي عن أبي هريرة ورواه الحاكم عن سلمان وقال صحيح الإسناد « من سرّه أن يستجيب الله تعالى له عند الشدائد والكروب فليكثر الدعاء في الرخاء » والآثار في ذلك كثيرة .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ نذكر ما يلي : ذكر مسلم في صحيحه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء » .

وروى ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عوف بن مالك قال لأبي بكر : رأيت فيما يرى النائم كأن سبياً دلي من السماء ، فانتشط رسول الله ﷺ ، ثم أعيد فانتشط أبو بكر ، ثم ذرع الناس حول المنبر ، ففضل عمر بثلاث أذرع حول المنبر ، فقال عمر : دعنا من رؤياك لا أرب لنا فيها ، فلما استخلف عمر قال : يا عوف رؤياك ؟ قال : وهل لك في رؤياي من حاجة أو لم تنتهني ؟ قال : ويحك إني كرهت

أن تنعى خليفة رسول الله ﷺ نفسه ، فقصر عليه الرؤيا حتى إذا بلغ ذرع الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع قال : أما إحداهن فإنه كان خفيفة ، وأما الثانية فإنه لا يخاف في الله لومة لائم ، وأما الثالثة فإنه شهيد ، قال : فقال : يقول الله تعالى ﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ فقد استخلفت يا ابن أم عمر ، فانظر كيف تعمل ، وأما قوله : فأني لا أخاف في الله لومة لائم فيما شاء ، وأما قوله (شهيد) فأني لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به ؟

كلمة في السياق :

١ — نذكر هنا بما ذكرناه من قبل أكثر من مرة . وهو أن القرآن يعطي معاني من خلال المعنى الحرفي ، ومن خلال السياق الجزئي ، ومن خلال السياق الكلي ، ونحن نلاحظ في هذه السورة كيف أن كل آية - أو عدة آيات - تسجل معنى ، وكل مجموعة تسجل معاني محققة هدفاً معيناً ، فأنت عندما تقرأ المجموعة الأولى ، أو المجموعة الثانية تلاحظ أنها تهدم شبهة الكافرين ، وتلاحظ أنها تنذر وتبشر ، وتلاحظ أن كل آية منها تعلم وترفي وهكذا ... ومن ثم كان إعجاز هذا القرآن لا ينهي

٢ — رأينا أن المجموعة الأولى والثانية قد هدمت نفي الكافرين لأصل الوحي ، ومن جملة ما رأيناه أن سبباً من أسباب الإنكار للوحي هو الاطمئنان للدنيا ، وعدم رجاء لقاء الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴾ وسنرى أن الآية الأولى في المجموعة الثالثة تحدثنا عن إنكار الذين لا يرجون لقاء الله هذا القرآن : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ﴾ مما يؤكد أن السياق ماض في مناقشة الكافرين بالوحي ، ومما يؤكد أن إقامة الحجة على الكافرين في أصل الوحي هو الجسر للوصول إلى مناقشة المرتابين بهذا القرآن

المجموعة الثالثة

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا ﴾ أي القرآن ﴿ بينات ﴾ أي ظاهرات واضحات ﴿ قال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ أي لا يخافون البعث ﴿ ائت بقرآن غير هذا ﴾ أي من نمط آخر ﴿ أو بدله ﴾ بأن تضع شيئاً مكان شيء ، وحكماً مكان حكم ﴿ قل ما يكون لي ﴾ أي ما يحل لي ﴿ أن أبدله من تلقاء نفسي ﴾ أي من قبل نفسي ، أي ليس هذا إلي ؛ إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ أي لا أتبع

إلا وحي الله من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تبديل ، لأن الذي أتيت به هو من عند الله لا من عندي فأبدله ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ بتبديله ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله ، وإظهاره عجباً خارجاً عن العادات ، وهو أن يخرج رجل أُمي لم يتعلم ولم يشاهد العلماء فيقرأ عليكم كتاباً يغلب كل كتاب ، وكلاماً يغلب كل كلام ، يعلو ولا يُعلَى ، فيه من مظاهر الإعجاز ، ومن المعجزات ما لا يحيط به أحد ﴿ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ أي ولا أعلمكم الله بالقرآن على لساني ، فصار معنى الآية : أي هذا القرآن إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ، ومشيئته وإرادته ، والدليل على أني لست أقوله من عندي ، ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل ، لا تستقدون علي شيئاً تغمصوني به ولهذا قال : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ ﴾ أي مكثت ﴿ فِيكُمْ عُصْرًا ﴾ أربعين سنة ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل نزول القرآن ، أي فقد أقمت بينكم أربعين سنة ولم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه ، ولا قدرت عليه ، ولا كنت موصوفاً بعلم وبيان فتهموني باختراعه ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل ، فتعلموا أنه ليس إلا من عند الله لا من عندي ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي لا أحد أظلم ولا أعنى ولا أشد إجراماً ﴿ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي ممن تقول على الله كذباً ، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك ، فليس أحد أكبر جرماً ، ولا أعظم ظلماً من هذا ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ أي القرآن ، ففيه بيان أن الكاذب على الله ، والمكذب بآياته في الكفر سواء ﴿ إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي الكاذبون والمفترون على الله كذباً ، وبهذه الآيات الثلاث من هذه المجموعة أقام الله عز وجل الحجة على أن هذا القرآن من عنده ، من خلال عبودية الرسول والتزامه بهذا القرآن . ومن خلال التعريف على شخصية رسول الله ﷺ ، ومن خلال فلاحه عليه الصلاة والسلام ، وكل ذلك يدل على أنه رسول الله ، وأن هذا القرآن من عند الله . فما محل هذه الآيات في السياق الذي يحطّم العجب من أن يرسل الله رسولا وينزل وحياً ؟.

إن كثيراً من الكافرين تصورهم خاطيء عن الذات الإلهية وعن صفاته عز وجل ، ونتيجة لذلك فهم يتصورون أن الوحي الذي ينزله الله ينبغي أن يكون على شكل معين كأن يكون خالياً عن التدخل في شؤون البشر ، أو كأن يكون فيه ترغيب فقط بلا ترهيب ، ونتيجة لذلك فهم يتعجبون أن يكون هذا القرآن على هذه الشاكلة من التبشير

والإنذار ، والوعظ والترغيب والترهيب ، وقد عبر عن هذا المعنى عرب الجاهلية بسداجتهم فطالبوا رسول الله ﷺ أن يأتي بقرآن ليس فيه ما يغيظهم من ذم عبادة الأوثان ، والوعيد لأهل الطغيان ، وأن يبدله بأن يجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، وعبر عن هذا المعنى كثير من الفلاسفة بشكل أو بآخر ، فاستبعدوا أن يكون هذا القرآن من عند الله ، لأنهم يتصورون أن الله إذا أنزل وحياً فينبغي أن يكون على شاكلة أخرى ، كأن لا تظهر فيه صفات الجلال ، وهؤلاء في منتهى السفاهة . فقد جعل الله في هذا القرآن من الآيات والمعجزات ما لا يستطيع المنصف إلا أن يسلم بأنه من عند الله وقد جعل الله في شخصية رسوله ﷺ من الأمور ما لا يبقى معه شك أن هذا القرآن من عند الله . وبهذا يتبين لنا أن هذه المجموعة سائرة على نفس النسق في تحطيم العجب من أن يرسل الله رسولا .

فوائد :

١ — الملاحظ من قوله تعالى ﴿ قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا ... ﴾ أن الذين يتعنتون في مواقفهم إثمهم الذين لا يعرفون إلا الحياة الدنيا ، وليس عندهم رجاء لليوم الآخر أصلاً . فداء الأدواء إذن هذه العلة . ومن ثم كان من واجب الدعاة تحريك همة الإنسان ، وتحريك عقله لرجاء اليوم الآخر .

٢ — إن اقتراح الكافرين على الرسول ﷺ الإتيان بقرآن آخر ، أو تبديل هذا القرآن فيه معنى ضمني ، وهو أنهم يعتقدون أن هذا القرآن من عند رسول الله ﷺ ، وأنه قادر على مثله ، ولذلك طالبوه بالتغيير والتبديل . وهذا تأكيد لأصل الشبهة التي بدأ فيها هذا المقطع ، وهي استبعاد أن ينزل الله وحياً على أحد من خلقه ، وجاء الرد حاسماً وحازماً : ﴿ قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ . وفي تفسير قوله تعالى ﴿ أفلا تعقلون ﴾ من الآية الأخيرة يقول الألوسي : أي ألا تلاحظون ذلك فلا تعقلون امتناع صدوره عن مثلي ، ووجوب كونه منزلاً من عند الله العزيز الحكيم ، فإن ذلك غير خاف على من له عقل سليم ، وذهن مستقيم ، بل لعمرى أن من كان له أدنى مسكة من عقل إذا تأمل في أمره ﷺ ، وأنه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل ، من غير مصاحبة العلماء في شأن من الشؤون ، ولا مراجعة إليهم في فن من الفنون ، ولا مخالطة للبلغاء في

المحاورة والمفاوضة ، ولا خوض معهم في إنشاء الخطب والمعارضة ، ثم أتى بكتابت
بهرت فصاحته كل ذي أدب ، وحيرت بلاغته مصانع العرب ، واحتوى على بدائع
أصناف العلوم ، ودقائق حقائق المنطوق والمفهوم ، وغدا كاشفاً عن أسرار الغيب التي
لا تناها الظنون ، ومعرباً عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين من القرون ، ومصداقاً
بين يديه من الكتب المنزلة ، ومهيماً عليها في أحكامها الجملة والمفصلة ، لا يبقى عنده
اشتباه ، في أنه وحي منزل من عند الله جلّ جلاله وعمت أفضاله .

٣ — بمناسبة قوله تعالى ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا
يفلح المجرمون ﴾ ذكر ابن كثير أن الرسول الصادق ، ومدعي النبوة الكاذب ، لابد أن
ينصب الله من الأدلة على برّ الصادق ، أو فجور الكاذب ، ما هو أظهر من الشمس -
وقد دلت على فكرته بالكلام عن محمد ﷺ عليه السلام ومسيلمة الكذاب فقال : (فإن
الفرق بين محمد ﷺ وبين مُسيلمة الكذاب - لمن شاهدهما - أظهر من الفرق بين وقت
الضحى ، وبين نصف الليل في حندسى الظلماء ، فمن سيما كل منهما وأفعاله وكلامه
يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب ، وسجاح ، والأسود
والعنسي . قال عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس (أي
اليهود) فكنت فيمن انجفل (أي هرب) ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل
كذاب ، قال : فكان أول ما سمعته يقول : « يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا
الطعام ، وصلّوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » ولما وفد ضمام
ابن ثعلب على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله ﷺ فيما قال
له : من رفع هذه السماء ؟ قال : « الله » قال : ومن نصب هذه الجبال ؟ قال :
« الله » ، وقال ومن سطح هذه الأرض ؟ قال : « الله » قال : فبالذي رفع هذه السماء ،
ونصب هذه الجبال ، وسطح هذه الأرض ، الله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ قال : « اللهم
نعم » ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام ، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ،
ويحلف له رسول الله ﷺ فقال له : صدقت ، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ، ولا
أنقص . فاكتفى الرجل بمجرد هذا « وقد أيقن بصدقه - صلوات الله وسلامه عليه - بما
رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه . كما قال حسان بن ثابت :

لو لم تكن فيه آيات مينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

وأما مسيلمة فنن شاهدته من ذوي البصائر علم أمره لا محالة ، بأقواله الركيكة التي

ليست بفصيحة ، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة . وقرآنه الذي يخلده في النار يوم الحسرة والقضيحة . وكم من فرق بين قوله تعالى ﴿ لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ إلى آخرها ، وبين قول مسيلمة - قبحه الله ولعنه - : يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي كم تنقين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين . وقوله - قبحه الله - : لقد أنعم الله على الخيل ، إذا أخرج منها نسمة تسمى ، من بين صفان وحشي . وقوله - خلد الله في نار جهنم وقد فعل - : الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، أنه ذلقوم طويل . وقوله - أبعد الله من رحمة - : والعاجنات عجناً ، والحابزات حيزاً ، واللاقحات لقماً ، إهالة وسمناً ، إن قريشاً قوم يعتدون ... إلى غير ذلك من الخرافات والهذيان التي بأنف الصبيان أن يتلفظوا بها إلا على وجه السخرية والاستهزاء ، ولهذا أرغم الله أنفه ، وشرب يوم حديقة الموت (١) حنقه ، ومزق شمله ، وألعه صبحه وأعله ، وقدموا على الصديق تائبين ، وجاؤوا في دين الله راغبين ، فسأهم الصديق خليفة الرسول ﷺ أن يقرأوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة - لعنه الله - فسألوه أن يعفيهم من ذلك ، فأبى عليهم إلا أن تقرأوا شيئاً منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس ، فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم . فقرأوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه ، فلما فرغوا ، قال لهم الصديق رضي الله عنه : ويحكم ؟ أين كان يذهب بعقولكم ؟ والله إن هذا لم يخرج من إل (٢) . وذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة - وكان صديقاً له في الجاهلية . وكان عمرو بن العاص لم يسلم بعد ، فقال له مسيلمة : ويحك يا عمرو ماذا أنزل على صاحبكم ؟ - يعني رسول الله ﷺ في هذه المدة فقال : لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة ، فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ﴾ إلى آخر السورة ففكر مسيلمة ساعة ثم قال : وأنا قد أنزل على مثله ، فقال : وما هو ؟ فقال : يا وثر (٣) ، إنما أنت أذنان وصدر ، وسائرك خفر ثغر ، كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : الله إنك لتعلم أنني أعلم أنك تكذب . فإذا كان هذا من مشرك في حال شركة لم يشبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه ، وحال مسيلمة لعنه الله وكذبه ، فكيف بأولي الهوائ والنهي ، وأصحاب العقول السقيمة المستقيمة والخصمي (٤) ؟ فإذا ثبت أن عجب الكافرين من أن ينزل الله وحياً ، ويرسل رسولا في غير محله ، يحضي السياق الآن في المجموعة الثالثة ليعجب من مواقف هؤلاء الكافرين وأقواهم ،

(١) حديقة الموت : اسم المكان الذي قتل فيه في حرب الجامة .

(٢) أي من ربوبية أي غير صادر عن الله عز وجل

(٣) الوثر : دابة صغيرة .

وكلها سفه ، وكلها في غير محلها ؛ وكلها لا حجة فيها ، فمعجبهم في غير محله ، وطلبيهم
تغيير القرآن أو تعديله في غير محله ، وكذلك كثير من شؤونهم ، ومن ذلك :
﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ﴾ إن لم يعبدوه ﴿ ولا ينفعهم ﴾ إن عبدوه .
أليس هذا هو العجب يرفضون أن يعبدوا الله ، ويعبدون خلقه ، يرفضون أن يعبدوا من
ينفع ومن يضر ، ويعبدون مالا ينفع ولا يضر . ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾
هذا منطق المشركين وفلسفتهم في الشرك ، فهم مثبتون لوجود الله الذي لا ينكره عاقل
أصلاً ، ولكنهم يشركون بعبادته ، وهو الحقيق بالعبادة وحده ، ويفلسفون ما هم
عليه ، وهذه هي فلسفة كل مشرك ، سواء أشرك بالله صنماً أو بشراً أو غير ذلك ،
حتى الذين يشركون عيسى أو نبياً آخر أو ولياً هذه فلسفتهم ، ويأتي الجواب ﴿ قل لهم ﴾
﴿ أتنبئون الله ﴾ أي أنخبرونه ﴿ بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ﴾ إذ لو كان
له شريك لعلمه . قال ابن جرير معناه : أنخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في
الأرض ، وقال النسفي تفسيراً للآية : أنخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو إنباء بما ليس
بمعلوم لله ، وإذا لم يكن معلوماً له - وهو عالم بجميع المعلومات - لم يكن شيئاً . وقوله :
في السموات ولا في الأرض تأكيد لنفيه ، لأن ما لم يوجد فيهما معدوم . ثم نزه نفسه
الكريمة عن شركهم وكفرهم فقل : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ أي عن
الشركاء الذين يشركونهم به ، أو عن إشراكهم ، وهكذا حطّم فلسفتهم التي - من
أجنها ومن أجل الدفاع عنها - حاربوا الوحي ، وحاربوا رسول الله ﷺ ، وحاربوا
القرآن ، ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس بعد أن لم يكن ، وأن الناس كلهم
كانوا على دين واحد هو الإسلام . قال ابن عباس : (كان بين آدم ونوح عشرة قرون
كلهم على الإسلام) ثم وقع الاختلاف بين الناس ، وعُبدت الأصنام والأنداد
والأوثان ، فبعث الله الرسل بآياته وبياناته وحججه البالغة ، وبراهينه الدامغة ﴿ وما كان
الناس إلا أمة واحدة ﴾ أي حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا ، وذلت
إما في عهد آدم - والقرون العشرة بعده - أو بعد الطوفان حين لم يبق على الأرض من
الكافرين ديار - على أحد القولين - ﴿ فاختلفوا ﴾ أي فصاروا ملأ ، منهم أهل
الحق ، ومنهم أهل الباطل ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ وهي تأخير الحكم بينهم
إلى يوم القيامة ﴿ لقضي بينهم ﴾ عاجلاً ﴿ فيما فيه يختلفون ﴾ أي فيما اختلفوا فيه
ولم يَمُزَّ الحق من البطل . قال ابن كثير : أي لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب
أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معلود ، لقضي بينهم فيما

اختلفوا فيه ، فأسعد المؤمنين ، وأعنت الكافرين . قال النسفي : وسبقت كلمته لحكمة ، وهي أن الدار دار تكليف . وتلك الدار دار ثواب و عقاب . اهـ . وعلى هذا فبعت الرسول ﷺ وإنزال الوحي إذن إنما هي لإرجاع الناس إلى ما كانوا عليه في الأصل ، فكيف يتعجب الكافرون من ذلك ، فلا يغر الكافر بعدم تعجيل العذاب له ، فإن ذلك لحكمة ، ثم عجب الله منهم مرة أخرى ، فهؤلاء تقوم عليهم الحجة بمعجزة هذا القرآن وبشخصية الرسول ﷺ ، وبمحتوى هذه الدعوة التي هي دعوة الفطرة ، ومع ذلك يطلبون آية ﴿ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ أي من الآيات التي يقترحونها مما ذكره في أكثر من مكان في كتابه ، وقد جرت سنته تعالى أنه إذا أعطى الكافرين ما اقترحوه من الآيات ، ثم أصرُّوا على كفرهم ، أن يستأصلهم فهو يعطي الآية أحياناً وأحياناً لا يعطيها ، وفي كل فعل من أفعاله حكمة ﴿ فقل إنما الغيب لله ﴾ أي هو المختص بعلم الغيب ، فهو العالم بالصارف عن إنزال الآيات المقترحة لا غير . قال ابن كثير : (أي الأمر كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور) . ﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتهم فانتظروا حكم الله فيكم . وبهذا انتهت المجموعة الثالثة ، وقد أقامت الحجة على الكافرين ، على أن القرآن حق ، وأن الرسول حق ، وأن ما هم فيه باطل ، وأن ما يطلبونه سفيه ، فإذا كان هذا كله فتعجبهم من الوحي ، والرسول ، وفحوى الرسالة باطل ، وكلامهم عن الرسول أنه ساحر زور .

وهكذا هُدمت هذه المجموعة شياً حول الرسالة والرسول . وفُتدت تصرفات متعنتة ، وأقوالاً ظالمة ، ومواقف سلفية ، والآن تأتي المجموعة الرابعة في هذا السياق لتعطينا معاني جديدة تحطم عجب الكافرين من أن ينزل وحياً وبرسل رسولاً .

كلمة في السياق :

١ — بدأ المقطع الذي بين أيدينا بذكر تعجب الكافرين أن ينزل الله وحياً على أحد من خلقه ، وبذكر اتهام الكافرين للرسول ﷺ بأنه ساحر ، وسار المقطع متتداً هذه الأباطيل ، ومؤكداً على أن الوحي حق ، وأن محمداً ﷺ صادق ، والمجموعة التي مرت معنا آتية في هذا السياق : إن الكافرين يطلبون آية ليؤمنوا بالوحي وبالرسول ، وقد ردت المجموعة عليهم مبينة : أن الكافرين خالفوا أصل الفطرة وعبدوا غير الله ، وهذا يقتضي تصحيحاً بوحي وبرسول ، ولقد كان هذا الوحي هو القرآن ، وكان الرسول

محمدًا ﷺ ، وكل الأدلة تثبت أن هذا القرآن وحى ، وأن محمدًا صادق فكيف يكفرون بما ثبت صدقه وبمن يعرفون صدقه ؟ ألا يكفيهم ما يعرفونه عن شخصية رسول الله ﷺ قبل البعثة ليعرفوا أن من كان هذا شأنه ما كان ليكون كما ينهمونه به .

٢ — من الملاحظ أن المجموعة الرابعة التي ستأتي معنا والمجموعتين السابقتين عليها كل منها مبدوءة بكلمة « وإذا » وأن في كل مجموعة إقامة حجة على من ينكر الوحي ويكفر بالرسول

المجموعة الرابعة

﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ﴾ أي خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم ﴿ إذا لهم مكر في آياتنا ﴾ أي إذا لهم استهزاء وتكذيب ودفع وإنكار لآيات الله ، والمكر : إخفاء الكيد وطئه . يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة ، والخصب بعد الجذب ، والمطر بعد القحط ، لم يلبثوا أن يطمعوا في آيات الله ويعادون دينه ﴿ قل الله أسرع مكراً ﴾ أي مجازاة أي أشد استراجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة ، وأفاد التعبير أنهم يسارعون إلى المكر قبل أن يغسلوا رؤوسهم من مس الضراء ﴿ إن رسلنا ﴾ أي الحفظة ﴿ يكتبون ما تمكرون ﴾ أي الكرام الكاتبين يكتبون عليهم جميع ما يفعلونه ، ويحصونه عليهم ، ويعرضونه على عالم الغيب والشهادة — وهو أعلم — فيجازيهم على الجليل والحقر ، والتقير والقطمير . أعلمت الجملة الأخيرة أن ما يظنونه خافياً لا يخفى على الله ، وهو منتقم منهم ، ثم أخبر تعالى أنه ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ﴾ أي يجعلهم قادرين على قطع المسافات بالأرجل ، والدواب والفلك الجارية في البحار ، وغير ذلك مما سخره الله للإنسان ، أو يخلق فيكم السير ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك ﴾ أي في السفن ﴿ وجرفتم ﴾ أي وسارت السفن ﴿ بهم ﴾ أي بمن فيها ﴿ برح طيبة ﴾ أي لينة الهبوب لا عاصفة ولا ضعيفة ﴿ وفرحوا بها ﴾ أي بتلك الريح اللينة واستقامتها لما يترتب على ذلك من سرعة سيرهم رافقين ، فيبها هم كذلك إذ ﴿ جاءتها ﴾ أي تلك السفن ﴿ ربح عاصف ﴾ أي شديدة الهبوب تكسر كل شيء ﴿ وجاءهم الموج من كل مكان ﴾ من البحر أو من جميع أمكنة الموج ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ أي أهلكوا ، جعل إحاطة العدو بالحي مثلاً في الإهلاك ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ أي من غير إشراك به ، لأنهم لا يدعون شيئاً معه غيره ، ففي مثل

تلك الساعة لا يدعون صنأ ولا وثناً ولا نبأ ولا رسولاً ولا ولأً ولا بشراً ، بل يفردون الله بالدعاء والابتهال ، قائلين لله : ﴿ لئن أنحيتنا من هذه ﴾ الأحوال أو هذه الريح أو هذه الحال ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ لنعمتك مؤمنين بك متمسكين بطاعتك لا نشرك بك أحداً ، مفردين لك العبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ههنا ﴿ فلما أنجاهم ﴾ أي من تلك الشدة ﴿ إذا هم يغيثون في الأرض ﴾ أي يفسدون فيها ﴿ بغير الحق ﴾ أي باطلاً أي مبطلين . كأن لم يكن من ذلك شيء ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم ﴾ أي الظلم ﴿ على أنفسكم ﴾ أي إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحداً غيركم ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ تمتعون فيها قليلاً ، أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الخفيرة ﴿ ثم إلينا مرجعكم ﴾ أي مصيركم ومآلكم بعد الموت ﴿ فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أي فنخبركم بجميع أعمالكم ، ونجازيكم بها ، ونوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ الا نفسه . ذكر الله في هذه الآية طبيعة الإنسان في ضراسته إلى الله في الضراء ، وإعراضه في السراء ، بل محاربه الله في السراء ، ثم زهد تعالى بمتاع الدنيا ، وحذر من الآخرة ، ثم يأتي الآن مثل النعياة وزهرتها وزيتها ، وسرعة انقضائها وزوالها ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ﴾ أي من السحاب ﴿ فاخطلط به ﴾ أي بالماء ﴿ نبات الأرض ﴾ أي فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً ﴿ ممّا يأكل الناس ﴾ من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها ﴿ والأنعام ﴾ أي ومما تأكل الأنعام من عشب وغير ذلك ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ﴾ أي بهجتها وزيتها بالنبات واختلاف ألوانه ﴿ وأزينت ﴾ أي وحسنت بما خرج في ربها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان ، جعلت الأرض وهي آخذة زخرفها كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بألوان الزينات ﴿ وطن أهلها ﴾ أي أهل الأرض ﴿ أنهم قادرون عليها ﴾ أي متمكنون من منفعاتها محصلون لثمرتها ، رافعون لغلتها . فيينا هم كذلك إذ جاءتها مساعقة أو ريح شديدة باردة فأبيست أوراقها واتلفت ثمارها ، قال تعالى ﴿ أتأثا أمرنا ﴾ أي عذابنا وهو هنا ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمنهم واستيقانهم أنه قد سلم ﴿ ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً ﴾ أي فجعلنا زرعها شبيهاً بما يحصد من الزرع في قصه واستصاله . أي جعلنا زرعها يابساً بعد الخضرة والنضارة كالخضود بالناجل ﴿ كأن لم تغن بالأمس ﴾ أي كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك ، أو كأن لم يغن زرعها أي لم يلبث بالأمس ، وذكر الأمس هنا مثل على الوقت القريب كأنه قبل : كأن لم تغن آنفاً

قال قتادة : كأن لم تغن كأن لم تنعم . قال ابن كثير : وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ﴿ كذلك نفصل الآيات ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فيعتبرون ويتنظفون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها ، وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها ، وثقلتها عنهم ، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها ، والطلب لمن هرب منها ، وهكذا انتهت هذه المجموعة . فكيف أدت دورها في السياق العام في عظيمها دعاوى الكافرين ، في نفهم أن ينزل الله وحياً ويمت رسولاً ؟ إن الفطرة البشرية تتوجه إلى الله حتى التوجه في الأزمات ، وتبعد الله في هذه الأزمات أن تستقيم على أمره ، فإذا كان الأمر كذلك فهذا يدل على أن الإنسان يعرف أن الله يرعاه وينقذه ، فلماذا إذن يرفض رعايته في الهداية ، مع أن الشكر لله لا يعرف طريقه إلا بواسطة الرسل ، فلم يستغرب الإنسان إرسال الرسل ؟ وفي المجموعة تعزية للرسول الذي يكفر به ، ويرد عليه إذ نبين له طبيعة الإنسان وحرصه على الدنيا وكفره بعد كل وعده بالاستقامة ، وفي الآيات ترهيد بالدنيا التي بسبب الحرص على التمتع بها ينأى الكافرون عن اتباع الوحي والعمل للآخرة أو نقول : كأن الآيات تقول للكافرين إن كنتم صادقين في أن الله يهمل الإنسان فلا يبعث له رسولاً فلماذا تدعونه في لحظات الضيق ؟ إن دعوتكم له في لحظات الضيق دليل على أنكم تعرفون أن الله لا يهمل الإنسان فلماذا تستغربون أن يرسل رسولاً ؟ ويمكن أن يقال في مؤدى السياق : إنكم أيها الكافرون قد أعطيتم الله في لحظة ضيق أن تستقيموا على أمره فاتبعوا رسوله وقرآنه بدلاً أن تحاربوا وتستغربوا ، ولا تغرنكم الحياة الدنيا . وهكذا من خلال تقرير حقيقة الإنسان ، وحقيقة الدنيا ، يحذر وتقام الحجة على أصحاب فكرة استغراب إرسال الرسول النذير وإنزال الوحي .

كلمة في السياق :

نحدثنا في آخر تفسير المجموعة الرابعة عن صلة المجموعة في سياق مقطعها ، ولم نتحدث عن صلة المجموعة بما قبلها مباشرة ، وههنا نحب أن نقول : لقد سبقت المجموعة الرابعة بقوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم .. ﴾ وقد جاءت المجموعة الرابعة تقيم الحجة على المشركين بواقعهم إذا أحيط بهم ، فهذا محل المجموعة في السياق القريب . ولقد ختمت المجموعة الأولى بقوله تعالى : ﴿ ولو يجعل الله للناس الشر استعجالهم بالخير ... ﴾ ثم بدأت المجموعة الثانية بقوله تعالى : ﴿ وإذا منس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ﴾ وهذه المجموعة الرابعة بدأت بقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتِهِمْ إِذْأَلْهَمْ مَكْرَ فِي آيَاتِنَا... ﴾ فالسياق يتكامل بين المجموعات في تبيان حال الإنسان ، وفي تبيان افتقاره إلى الله ، وإظهار هذا الافتقار ساعة الشدة ، ويدلل ذلك على عمق قضية التوحيد في ذاته ، ومع ذلك فإنه يشرك ، إن الصلات بين الآيات وبين المجموعات أكثر من أن يُحاط بها وما ذكرناه نموذج

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ قال الألوسي : (أي دَعَوْهُ سبحانه من غير إشراك لرجوعهم من شدة الخوف إلى الفطرة التي جُبل عليها كل أحد من التوحيد ، وأنه لا متصرف إلا الله سبحانه ، المركوزة في طبائع العالم ، وروى ذلك عن ابن عباس ومن حديث أخرجه أبو داود والنسائي وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص : « لما كان الفتح قرَّ عكرمة بن أبي جهل فركب البحر ، فأصابتهم عاصف ، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة : أخلصوا فإن آهتكم لا تغني عنكم شيئاً ، فقال عكرمة : لكن لم ينجيني في البحر إلا الإخلاص ، ما ينجيني في البر غيره ، اللهم إن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه آتي محمداً حتى أضع يدي في يده ، فلا تجذبه عفواً كريماً قال : فجاء فأسلم » وفي رواية ابن سعد عن أبي مليكة « أن عكرمة لما ركب السفينة وأخذتهم الرياح فجعلوا يدعون الله تعالى ويوحّدونه قال : ما هذا ؟ قالوا : هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله تعالى قال : فهذا إله محمد ﷺ الذي يدعوننا إليه ، فارجعوا بنا فرجع . وأسلم » وظاهر الآية أنه ليس المراد تخصيص الدعاء به سبحانه ، بل تخصيص العبادة به تعالى أيضاً ، لأنهم بمجرد ذلك لا يكونون مخلصين له الدين .

وأما ما كان فالآية دالة على أن المشركين لا يدعون غيره تعالى في تلك الحال . وأنت خير بأن الناس اليوم إذا اعتارهم أمر خطير ، وخطب جسيم ، في بر أو بحر ، دعوا من لا بضر ولا نفع ، ولا يرى ولا يسمع ، فمنهم من يدعو الخضر واليابس ، ومنهم من ينادي أبا الحميس والعباس ، ومنهم من يستغيث بأحد الأئمة ، ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأئمة ، ولا ترى أحداً فيهم يخصّ مولاه بتضرعه ودعائه ، ولا يكاد يمر له ببال أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال ، فيالله تعالى عليك قل لي أي الفريقين من هذه الحثية أهدى سبيلاً ؟ وأي الداعيين أقوم قبلاً ؟ وإلى الله تعالى المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة ، وتلاطمت أمواج الضلالة ، وعرفت سفينة

الشرعية ، واتخذت الاستغاثة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة ، وتعذر على العارفين الأمر بالمعروف ، وحالت دون النهي عن المنكر صنوف الخنوف)

أقول : لعل في كلام الألويسي الأخير شعاع من الداء العياء ، الذي أعيا الأطباء ، وهو ما استشرى عدد طغف من الأمة ، إذ يدعون غير الله ويستغيثون به ، وإذا نصحتهم أو وعظهم جادلوا متأولين ، وكأنك تدعوهم إلى شرك أو ضلال ، لا إلى التوحيد الخالص .

٢ - خامسة قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ قال الألويسي : (هذا وفي الآية من الزجر عن البغي مالا يخفى . وقد أخرج أبو الشيخ وأبو نعيم . والخطيب والديلمي وغيرهم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ ثلاث من راجع على أهلها : المكر والنكت والبغي ، ثم تلا عليه الصلاة والسلام ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ ﴿ ولا يحق المكر السيء إلا بأهله ﴾ ﴿ ومن نكت فإنما ينكت على نفسه ﴾ وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ : ما من دلب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة من البغي وقطبعة الرحم . وأخرج أيضاً من طريق بلال بن أبي بردة عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال : لا بغي على الناس إلا ولديني أو فيه عرق منه . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس . وأن عمر رضي الله عنهم قال : قال رسول الله ﷺ : لو بغى رجل على رجل نكاح البغي منهما . وكان المؤمنون يتحمل هذين البيتين لأخيه

يا صاحب البغي إن البغي مصرعة فاربع فحير فعال المزم أعدله
فلو بغى رجل يوماً على رجل لاندك منه أعاليه وأسفله
وعقد ذلك الشهاب فقال :

إن بعد ذو بغي عليك فحلّه وارقب زماناً لاتنصام باغي
واتحذر من البغي الوخيم فلو بغى رجل على رجل لاندك البغي

٣ - وبجانب الكلام عن الدنيا في الصموعة تذكر بالحديث : « يؤتى ما نعم أهل الدنيا فيعمى في النار غمسة فيقال : هل رأيت خيراً قط ؟ هل مررت بنعيم قط ؟ فيقول : لا ، ويؤتى بأشد الناس عذاباً في الدنيا فيعمى في العيم غمسة ثم يقال له : هل رأيت يوماً قط . فيقول : لا . »

٤ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ نقول : إن الآية يمكن أن تفهم فهمين : فهماً قريباً ، وفهماً بعيداً ، أما الفهم القريب فهو ما ذكرناه ، وأما البعيد فإنما يدلنا عليه ما نراه في عصرنا ، فإن الأرض كلها في عصرنا تتطور نحو التحسين والتزيين بشكل كبير ، وأصبح أهل الأرض قريين من الشعور بأنهم مسيطرون عليها ، متسكون منها ، حتى لو أرادوا أن يفتنوا ما على الأرض بالقنابل الذرية والهيدروجينية وغيرهما لفعلوا ، ولا يبعد أن يأتي يوم يزداد هذا الشعور ، وعلى هذا الفهم فقد يكون ما نحن فيه علامة على أن عمر الأرض أصبح قريباً ، وأن الساعة أصبحت قريبة ، وهي قريبة بنص القرآن ، ولكن المراد أن الأمر قد شارب ، وعندئذ تكون الأرض كلها كأن لم تغن بالأمس . وهكذا نجد النص القرآني يسع الزمان والمكان والإنسان ، فهذه الآية فيها إنذار للفرد والجماعة ، وفيها إنذار للبشرية كلها

٥ - عَقِبَ النَّسْفِ عَلَى مَا ضَرَبَ اللَّهُ مِنْ مِثْلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا يَقُولُهُ : (وهذا من التشبيه المركب : شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال ، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما التفت وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه ، وحكمة التشبيه التنبيه على أن الحياة صفوها شيبتها ، وكدرها شيبتها ، كما أن صفو الماء في أعلى الإناء ، قال :

ألم تر أن العمر كأس سلاقة فأوله صفو وآخره كدر

وحقيقته : تزين جثة الطين ، بمصالح الدنيا والدين ، كاختلاط النبات على اختلاف التلوين ، فالطيبة تنبت بساتين الأنس ، ورياحين الروح ، وزهرة الزهر ، وكروم الكرم ، وجيوب الحب ، وحدايق الحفيقة ، وشقائق الطريقة ، والحبيثة تخرج بخلاف الخلف ، وثمام الإثم ، وشرك الشرك ، وشبح الشبح ، وحطب العطب ، ولعاع اللعب ، ثم يدعوه معاده ، كما يحين للحرث حصاده ، فتزايله الحياة مفترأ ، كما يهيج النبات مصفراً ، فتغيب جنته في الرمس ، كأن لم تغن بالأمس ، إلى أن يعود ربيع البعث ، وموعد العرض والبحث . وكذلك حال الدنيا ، كلما ينفع قليله ويهلك كثيره ، ولا بد من ترك ما زاد ، كما لا بد من أخذ الزاد ، وأخذ المال لا يخلو من زلة ، كما أن خائض الماء لا ينجو من بلة ، وجمعه وإمساكه تلف صاحبه وإهلاكه ، فمادون النصاب كضحضاح ماء يجاوز بلا احتماء ، والنصاب كهر حائل بين المجتاز ، والجواز إلى المفاز لا يمكن إلا بقنطرة وهي الزكاة ، وعمارتها بذل الصلوات ، فمتى اختلت القنطرة غرقته

أمواج القناطر المقنطرة . وعن هذا قال عليه السلام : « الزكاة قنطرة الإسلام » وكذا المال يساعد دون الأبحاد ، كما أن الماء يجتمع في الوهاد دون النجاد ، وكذلك المال لا يجتمع إلا بكف البخيل ، كما أن الماء لا يجتمع إلا بسد المسيل ، ثم يفنى ويتلف ولا يبقى كالماء في الكف)

• • •

ولنتقل إلى المجموعة الخامسة في هذا المقطع ولنقدم لهذه المجموعة بكلمة :

إن هذه الحياة الدنيا يختلط خيرها بشرها ، وشقاؤها بسعادتها ، وألمها بلذتها ، والله الذي خلق الخلق ، وجعل هذه الدنيا على ما هي عليه ، شاء أن يجعل داراً يتمحض فيها الخير واللذة والسعادة ، بلا شر ولا شقاوة . وهذا يقتضي ثمناً . وتلك الدار تحتاج إلى أهلها ، والله عز وجل يدعو إلى هذه الدار بواسطة الرسل ، فإذا كان الأمر كذلك فكيف يستغرب أن يرسل الله رسولاً نذيراً و بشيراً ، وهكذا تبدأ المجموعة الخامسة بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ فإنه بعد أن ضرب الله مثلاً للحياة الدنيا ، وبعد أن ذكرنا بأن هذه الدنيا شأنها ما رأينا ، فإنه بعد ذلك يذكّرنا بحجته ، ويذكّرنا بالطريق إليها

وباختصار نقول : إن المجموعة الخامسة ترتبط بسياق المقطع . وترتبط بالسياق المباشر ، فارتباطها بالسياق المباشر من حيث إنها حديث عن الآخرة يأتي بعد حديث عن الدنيا ، وارتباطها بالمقطع من حيث إن المقطع يرد على المنكرين للوحي ، فالله يتحدثنا عن ذاته جل جلاله أنه يدعو إلى دار السلام ، وهذا يقتضي أن يرسل رسلاً ، وأن ينزل وحياً ، فكيف ينكر المنكرون الوحي وبعثة الرسل ؟

المجموعة الخامسة

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ دار السلام : هي الجنة ، أضافها الله إلى اسمه تعظيماً لها ، وقد يراد بالسلام السلامة لأن أهلها سالمون من كل مكروه ، وقد يكون سميت دار السلام لفسو السلام فيها ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي ويوفق من يشاء ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أي إلى الإسلام أو إلى طريق الجنة . والمعنى : والله يدعو العباد كلهم إلى دار السلام ولا يدخلها إلا المهديون ، فدعوة الله عامة على لسان رسول الله ﷺ بالدلالة ،

وأما الهداية فهي خاصة من لطف المرسل بالتوفيق والعناية . فإذا كان الأمر كذلك فكيف لا يرسل الله رسولا وينزل وحيا ، وكيف يتعجب الكافرون من إرسال الرسول ، وإنزال الوحي ﴿ للذين أحسنوا ﴾ أي آمنوا بالله ورسوله ، وعبدوا الله كما أمر ﴿ الحسنی ﴾ أي المثوبة الحسنی وهي الجنة ﴿ وزيادة ﴾ قال ابن كثير : هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وزيادة على ذلك أهضا ، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحدور والرضا عنهم ، وما أخفاه لهم من قرة أعين ، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم ، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضل ورحمة .. ثم عقد من فسّر الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم حتى ليكاد يكون إجماعاً . قال النسفي بعد أن ذكر القول السابق : وقيل : الزيادة المحبة في قلوب العباد . وقيل : الزيادة مغفرة من الله ورضوان ﴿ ولا يرهق ﴾ أي ولا يهشي ﴿ وجوههم قتر ﴾ أي سواد ﴿ ولا ذلة ﴾ أي ولا كآبة ، والمعنى : لا يرهقهم ما يرهق أهل النار من غيرة فيها سواد ، ولا أثر هوان ، لا في عرصات القيامة ولا بعدها ، أو تقول : المعنى : أنه لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ ثم بين حال الكافرين فقال : ﴿ والذين كسبوا السيئات ﴾ أي الشرك والكفر وما يستتبع ذلك ، أي وللذين كسبوا السيئات ﴿ جزاء سيئة بمثلها ﴾ أي جزاء سيئة ، سيئة مثلها أي مقدر بمثلها ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ أي وتعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها ﴿ ما لهم من الله ﴾ أي من عقابه ﴿ من عاصم ﴾ أي مانع أي لا يعصمهم أحد من سخطه وعقابه ﴿ كأنما أعشى ﴾ أي ألبس ﴿ وجوههم قطعا ﴾ جمع قطعة ﴿ من الليل مظلماً ﴾ هذا إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة والمعنى : كأنما جعل على وجوههم أغطية من سواد الليل ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ فإذا كان الأمر كذلك فكيف لا يبعث الله رسلاً وينزل وحياً ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ﴾ أي الكفار وغيرهم أي أهل الأرض كلهم من جن وإنس ، وبرؤفاجر ﴿ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ أي الزموا أنتم وهم مكاناً معينا امتازوا فيه عن مقام المؤمنين ، وهذا يكون إذ جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ﴿ فريلنا ﴾ أي ميزنا ﴿ بينهم ﴾ وبين المؤمنين ، أي ففرقنا بينهم ، وقطعنا كل صلة كانت بينهم في الدنيا ﴿ وقال ﴾ لهم ﴿ شركاؤهم ﴾ أي من عبدوه من دون الله من أولي العقل ، أو الأصنام ينطقها الله عز وجل ﴿ ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ وهكذا أنكروا عبادتهم وتبرأوا منهم ، فما كانوا

يعبدون إلا الشياطين بطاعتهم إياهم ﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴾ إننا ما دعوناكم إلى عبادتنا ، ولا أمرناكم بها ، ولا رضىنا بذلك منكم ﴿ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ أي إننا كنا عن عبادتكم غافلين ، فما كنا نشعر بها ولا نعلم بها ، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم أصلاً . وفي هذا تبيكت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ، ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفنى عنهم شيئاً ، ولم يأمرهم بذلك ، ولا رضى به ، ولا أَرادَه ، بل تبرأ منهم وقت أحوج ما يكونون إليه ، وقد تركوا عبادة الهى القيم السميع البصير القادر على كل شيء ، العليم بكل شيء ، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه أمراً بعبادته وحده لا شريك له ، ناهياً عن عبادة ما سواه . فأى الأمرين أعجب أمرهم ، أو أن ينزل الله وحياً ويرسل رسولا ؟ ﴿ هنالك ﴾ أي في ذلك المكان أو في ذلك الزمان ﴿ تبلوا كل نفس ﴾ أي تختبر وتنوق ﴿ ما أسلفت ﴾ أي ما قدمت من العمل فتعرف كيف هو أقيح أم حسن ، أنافع أم ضار ، أمقبول أم مردود ، هنالك في موقف الحساب يوم القيامة الاختبار الحقيقى لقيمة كل عمل ﴿ وردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ إلى ربهم الصادق في ربوبيته لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة ، والمعنى : ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكيم العدل ﴿ وضل عنهم ﴾ أي وغاب عنهم ، أو وذهب عنهم ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ أي وضاع عنهم ما كانوا يعبدون من دون الله افتراءً عليه ، أو بطل عنهم ما كانوا يخلقون من الكذب وشفاعة الآلهة ، فليترك هؤلاء الافتراء ، وليعودوا إلى مولاهم الحق ، وليعبدوا من يستحق العبادة قبل أن يأتى ذلك اليوم ، وذلك بالإيمان برسول الله ﷺ والإيمان بوحى الله بدلاً من الإنكار والتعجب والانتهام ، وهكذا انتهت هذه المجموعة ، وفيها دعوة لترك التعجب من أن ينزل الله وحياً من خلال الإنذار والتبشير .

فبعد أن ذكر الله تعالى في المجموعة الرابعة الدنيا وسرعة زوالها ، رغب في هذه المجموعة في الجنة ودعا إليها ، وسميها دار السلام ؛ لأنها خالية من الآفات والنقائص والنعكاسات ، ثم أخبر أنها لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح ، ويين ما أعده للكافرين بعد ذلك ، وفي هذا السياق - المبشر المنذر - ردّ ضمني على المنتصوريين أن الله يدع هذا الخلق وشأنهم ، فلا سؤال ولا حساب ولا عقاب ، ولا رسل ولا وحى ، ولا ميزان ولا عدل . ألا ما أحق الإنسان الذي يفر من أتباع الوحي إلى الهوى .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَاللّٰهُ يَدْعُوْا اِلٰى دَارِ السَّلَامِ ﴾ نذكر هذين الحديثين اللذين رواهما ابن جرير .

أ - عن جابر رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي ، وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلاً ، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك . وإنما مثلك ومثل أمتك كمثلك ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً ، ثم جعل فيه مأدبة ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من تركه ، فأتاه الملك والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد الرسول ، فمن أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل منها » رواه ابن جرير . أقول : هذا الحديث يؤكد ما ذهبنا إليه من أن السياق العام للمقطع مرتبط بالردة على التعجب من أن يرسل الله رسولاً

ب - وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجانبها ملكان يناديان بسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، وإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » قال : وأنزل في قوله : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ وَاللّٰهُ يَدْعُوْا اِلٰى دَارِ السَّلَامِ ﴾ الآية رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

٢ - وفي تفسير الزيادة في قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنٰى وَزِيَادَةٌ ﴾ نذكر هذه الأحاديث : روى الإمام أحمد ... عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنٰى وَزِيَادَةٌ ﴾ وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم يقل موازيئنا ؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ، ويخرجنا من النار ؟ - قال : فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم » وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة .

- روى ابن جرير .. عن أبي تميمه الهجيمي أنه سمع أبا موسى الأشعري يحدث عن رسول الله ﷺ : « إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي : يا أهل الجنة - بصوت

يُسمع أولهم وآخرهم — إن الله وعدكم الحسنى وزيادة . فالحسنى الجنة . والزيادة النظر إلى وجه الرحمن عز وجل .

روى ابن جرير ... عن عطاء بن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ قال : « الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل » ورواه ابن أبي حاتم أيضاً .

كلمة في السياق :

١ — نلاحظ أن من أهم ما نصب عليه الكلام في هذا المقطع قضية العبادة لله ؛ ففي الآية الثالثة ورد قوله تعالى ﴿ ذَلِكَمَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ وفي الآية الثانية عشرة ورد قوله تعالى ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عَالَا بِضُرِّهِمْ وَلَا يُفْقَهُمْ ... ﴾ وذلك في سياق مناقشة المنكرين للوحي ، والحكمة في ذلك — والله أعلم — أن السياق يقيم الحجة على ضرورة بعثة الرسل ، من خلال أمور متعددة أحدها : أن عبادة الله وحده ضرورة لا بد منها ، وأن طريق معرفة ذلك الوحي وبعثة الرسول .

٢ — ونلاحظ ملاحظة رئيسية في السياق وهو أن النقاش منصب على المشركين ، والحجج تتلاحق ضدهم مرة بعد أخرى ، والسبب واضح ، لأن التعجب من أن ينزل الله وحياً ويبعث رسولاً لا يكون من أهل الكتاب ؛ لأنهم يؤمنون بالنبوة والوحي ، ولا يكون من ملحد ؛ لأنه لا يؤمن بوجود الله أصلاً ، فلا يكون إلا من مشرك إذن ، ومن ثم نجد إنكار فكرة النبوة يظهر في البيئات المشركة ، وعلى هذا نجد أن السياق يقيم الحجة تلو الحجة على المشركين في هذا المقطع ، ألا أن من مظاهر العظيمة في هذا القرآن أنه — وهو يناقش المشركين أو الكافرين — يذكر ويربي المؤمنين ، فالسياق القرآني يؤدي دوراً ودوراً وأدوراً ، فهو يؤدي دوره في إقامة الحجة العقلية ، ويؤدي دوره في التربية السليمة ، ويؤدي دوره بما يسمع المكان ، وبما يسمع الزمان ، وبحيث يجد أهل كل جيل وأهل كل مكان وكأن القرآن أنزل لهم خاصة ، فإذا اتضح هذا فلتنتقل إلى المجموعة الأخيرة في هذا المقطع التي تنهي مناقشة الذين تعجبوا أن يكون الله قد أوحى إلى أحد من خلقه ، وهي المجموعة السادسة في هذا المقطع .

وتحيز المجموعة بأنها تأمر رسول الله ﷺ أن يجب أجوبة مباشرة ، وأن يناقش مناقشة مباشرة هؤلاء الذين ينكرون الوحي ، ولذلك نجد أن كلمة (قل) تتكرر كثيراً

في هذه المجموعة . والحجج تتلاحق في هذه المجموعة على منكري الوحي والرسالة . فالله عز وجل يرزق ، ويعطي السمع والبصر ، ويعطي الحياة ، ويدبر الأمر ، فكيف يترك الإنسان بلا هداية . والله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فكيف يكفر الكافرون بالبعث ، وكيف بالتالي - يكفرون بالوحي الذي ينذر بالبعث . والله يهدي والأصنام لا تهدي ، فكيف تنكر هدايته ولا تتبع . ثم تُختم المجموعة بتقرير أن هذا القرآن ما كان ليكون على ما هو عليه لولا أنه من عند الله ، وأن من خصائص هذا القرآن التي تدل على أنه وحي ، تصديقه للكتب السابقة ، وتفصيله لفرائض الله ، فالحجة فيه قائمة على أنه وحي الله ، وهي بالتالي حجة على كل من ينكر الوحي ، إن الحجة في هذا القرآن قائمة ، إن في إعجازه ، أو في مضمونه . فلتر المجموعة السادسة .

المجموعة السادسة

﴿ قل من يرزقكم من السماء ﴾ بإنزال المطر وما يترتب عليه ﴿ والأرض ﴾ بما أودع فيها ﴿ أمن بملك السمع والأبصار ﴾ أي من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويًا عليه من الفطرة العجيبة ؟ أو من يجمعهما من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء ؟ أو من يملكهما فيعطيهما من شاء من خلقه ؟ ﴿ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ الحيوان من التراب ، والتراب من الحيوان ، والعالم من الجاهل ، والجاهل من العالم ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ أي ومن يلي تدبير أمر العالم كله ؟ فصل ثم أجمل ﴿ فسيقولون الله ﴾ أي فسيعجبونك عن هذا السؤال أن القادر على هذه هو الله ، فهم يعلمون ذلك ويعترفون به ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ أي أفلا تتقانون منه أن تعبدوا غيره بآرائكم وجهلكم ؟ أفلا تتقون الشرك في العبودية إذ اعترفتم بالربوبية . أو أفلا تتقون أن تتصوروا أنه لا يبعث رسولاً ولا ينزل وحياً ؟ إن الله الذي هذا شأنه من رزق وعطاء وتدبير - كيف لا يرسل رسولاً وينزل وحياً ؟ وهكذا أقام الله عز وجل الحجة على المشركين في كل مذاهبهم من خلال ما يعترفون به وما يقرون به ، ثم أتم الحجة عليهم فقال : ﴿ فذلكم الله ﴾ أي من هذه قدرته هو الله ﴿ ربكم الحق ﴾ أي الثابتة ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقق النظر ، وإذا كان هو الرب لأنه الإله باعترافكم ، والمعطي باعترافكم ، والمدبر باعترافكم ، فينبغي أن تكون له العبادة والطاعة ، وكيف تعرف العبادة والطاعة له إلا عن طريق رسوله ، فكيف تتعجبون أن يرسل رسولاً .

فائدة :

ننقل هنا ما قاله صاحب الظلال في الآية التي بدأت بها المجموعة قال : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ .. من المطر الذي يحيي الأرض وينبت الزرع ، ومن طعام الأرض نباتها وطيرها وأسماكها وحيوانها ، ثم سائر كانوا يحصلون عليه من الأرض لهم ولأنعامهم . وذلك بطبيعة الحال ما كانوا يدركونه حينذاك من رزق السماء والأرض . وهو أوسع من ذلك بكثير . وما يزال البشر يكشفون كلما اهتموا إلى نواميس الكون - عن رزق بعد رزق في السماء والأرض يستخدمونه أحياناً في الخير ويستخدمونه أحياناً في الشر حسبما تسلم عقائدهم أو تغفل . وكله من رزق الله المستخر للإنسان . فمن سطح الأرض أرزاق ومن جوفها أرزاق . ومن سطح الماء أرزاق ومن أصعاقه أرزاق ، ومن أشعة الشمس أرزاق ومن ضوء القمر أرزاق . حتى غفن الأرض كشف فيه دواء وترهاق ! ﴿ أم من يملك السمع والأبصار ﴾ .. بيها القدرة على أداء وظائفها أو يحررها ، ويصححها أو يمرضها . ويصرفها إلى العمل أو يلهيها ، ويسمعها ويربها ما تحب أو ما تكره .. ذلك ما كانوا يدركونه يومئذ من ملك السمع والأبصار . وهو حسبي لإدراك مدلول هذا السؤال وتوجيهه . وما يزال البشر يكشفون من طبيعة السمع والبصر ، من دقائق صنع الله في هذين الجهازين ما يزيد السؤال شمولاً وسعة . وإن تركيب العين وأعصابها وكيفية إدراكها للمعريات ، أو تركيب الأذن أوجزائها وطريقة إدراكها للمذبذبات ، لعالم وحده يدبر الرؤوس ، عندما يقاس هذا الجهاز أو ذاك إلى أدق الأجهزة التي يعدها الناس من معجزات العلم في العصر الحديث ! وإن كان الناس بهولهم وبروعهم ويبرهم جهاز يصنعه الإنسان ، لا يقاس في شيء إلى صنع الله . بينما هم يبرون غافلين بالبدائع الإلهية في الكون وفي أنفسهم كأنهم لا يبصرون ولا يدركون ! ﴿ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ .. وكانوا يعدلون الساكن هو الميت والناسي - أو المتحرك - هو الحي . فكان مدلول السؤال عندهم مشهوداً في خروج النبتة من الحبة ، والحبة من النبتة ، وخروج الفرخ من البيضة ، والبيضة من الفرخ .. إلى آخر هذه المشاهدات . وهو عندهم عجيب . وهو في ذاته عجيب ، حتى بعد أن عرف أن الحبة والبيضة وأمثالهما ليست في الموت بل في الأحياء ، بما فيها من حياة كامنة واستعداد . فإن كمون الحياة بكل استعداداتها ووراثاتها وسماتها وشيئاتها لأعجب العجب الذي تصنعه قدرة الله .. وإن وقفة أمام الحبة والنواة ، تخرج منهما النبتة والنخلة ، أو أمام البيضة والبويضة يخرج منهما الفرخ والإنسان لكافية

لاستغراق حياة في التأمل والارتعاش !

وإلا فأين كانت تكمن السبيلة في الحبة ؟ وأين كان يكمن العود ؟ وأين كانت تلك
الحدود والساق والأوراق ... ؟

وأين في النواة كان يكمن اللب واللحاء ، والساق السامقة والعراجين والألياف ؟
وأين كان يكمن الطعم والنكهة واللون والرائحة ، واليلح والتمر ، والرطب والجسر ... ؟
وأين في البيضة كان الفرج ؟ وأين كان يكمن العظم واللحم ، والرغب والريش ،
واللون والشبات ، والرفرفة والصوت ... ؟

وأين في البويضة كان الكائن البشري العجيب ؟ أين كانت تكمن ملامحه وسماته
المنفولة من وراثات موهلة في الماضي منشعبة المنابع والنواحي ؟ أين كانت ثبرات
الصوت ، ونظرات العين ، ولقنات الجيد ، واستعدادات الأعصاب ، ووراثات الجنس
والعائلة والوالدين ؟ وأين كانت تكمن الصفات والسمات والشبات ؟ .

وهل يكفي أن نقول : إن هذا العالم المترامي الأطراف كان كامناً في النبتة والنواة وفي
البيضة والبويضة ، لينقضي العجب العاجب الذي لا تفسير له ولا تأويل إلا قدرة الله
وقدير الله ؟ .

وما يزال البشر يكتشفون من أسرار الموت وأسرار الحياة ، وإخراج الحي من الميت
 وإخراج الميت من الحي ، وتحول العناصر في مراحل إلى موت أو حياة ، ما يزيد مساحة
السؤال وعمقه وشموله كل يوم وكل لحظة . وإن تحول الطعام الذي يموت بالطهي والنار
إلى دم حي في الجسم الحي ، وتحول هذا الدم إلى فضلات ميتة بالاحتراق ، لأعجوبة
يتسع العجب منها كلما زاد العلم بها . وهي بعد كائنة في كل لحظة آناء الليل وأطراف
النهار . وإن الحياة لأعجوبة غمضة مثيرة تواجه الكينونة البشرية كنها بعلامات استفهام
لا جواب عليها إلا أن يكون هناك إله ، يهب الحياة . ﴿ ومن يدبر الأمر ؟ ﴾ ..

في هذا الذي ذكر كله وفي سواء من شؤون الكون وشؤون البشر ؟ من يدبر الناموس
الكوني الذي ينظم حركة هذه الأفلاك على هذا النحو الدقيق ؟ ومن يدبر حركة هذه الحياة
فتمضي في طريقها المرسوم بهذا النظام اللطيف العميق ؟ ومن يدبر السنن الاجتماعية التي
تصرف حياة البشر ، والتي لا تخطيء مرة ولا تحيد ؟ ومن .. ومن ؟ ..

﴿ فيقولون الله ﴾ .. فهم لم يكونوا ينكرون وجود الله ، أو ينكرون بده في هذه الشؤون الكبار . ولكن انحراف الفطرة كان يقودهم مع هذا الاعتراف إلى الشرك بالله ، فيتوجهون بالشعائر إلى سواء ، كما يتبعون شرائع لم يأذن بها الله .

﴿ فقل أفلا تتقون ؟ ﴾ .. أفلا تحشون الله الذي يرزقكم من السماء والأرض ، والذي يملك السمع والأبصار ، والذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، والذي يدبر الأمر كله في هذا وفي سواء ؟ إن الذي يملك هذا كله هو الله ، وهو الرب الحق دون سواء : ﴿ فذلكم الله ربكم الحق ﴾ . (اهـ)

.....

﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ أي لا واسطة بين الحق والضلال ، فمن تخطى الحقوق وقع في الضلال ، فالله الحق وكل معبود سواء باطل ، ورسوله الحق فكل ما يناقض ذلك باطل . ووجه الحق فكل ما يخالفه باطل ، والعبودية له هي الحق فكل عبودية لغيره باطلة ﴿ فإني تُصرفون ﴾ عن الحق إلى الضلال والباطل ، عن التوحيد إلى الشرك ، عن اتباع الرسول إلى اتباع الشيطان ، عن اتباع الوحي إلى اتباع الهوى ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك الحق أو كصرف هؤلاء عن الحق ﴿ تحقت ﴾ أي وجبت وثبتت ﴿ كلمة ربك على الذين فسقوا ﴾ أي على الذين تمردوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه ﴿ أنهم لا يؤمنون ﴾ هذي هي كلمة الله الأزلية أن الفاسق لا يستأهل الهداية ، ولا يهديه الله ، فكما حقت على هؤلاء كلمة الله أنهم لا يؤمنون بسبب من تعنتهم وإصرارهم على محاربة الحق ، فكذلك حقت كلمة الله على كل فاسق أن لا يؤمن . فسأل الله العافية . وإذن فهؤلاء المشركون لا يؤمنون بالرسول والوحي لفسوقهم . إن عقوبة الفسوق أن لا يهدي الله صاحبه إلى الإيمان مع قيام الحجج فيه . فمن أراد الإيمان فعليه أن يُطهَّر نفسه من الفسوق بترك مظهره الأول وهو الكبر .

وبعد أن أقام الله تعالى الحجة على ربيته من خلال الكلام عن ألوهيته بقيم الحجة الآن على المشركين من خلال عجز شركائهم ﴿ قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده ﴾ يعيد الليل بعد النهار ، ويعيد الجبل بعد الجبل ، أو يبدؤ خلق السموات ثم يعيد خلقها مرة أخرى . أو يبدؤ خلق الإنسان والحيوان ثم يعيده يوم القيامة ، ومع أنهم غير مُقرِّين بالإعادة يوم القيامة ، إلا أنها لظهور برهانها جعلت كأنها أمر مُسَلَّم ﴿ قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ﴾ لم يقل فسبقولون الله بل قال لرسوله : قل الله لأنهم لا تدعهم

مكابرهم أن ينطقوا بكلمة الحق هذه ؛ فأمر الله نبيه ﷺ أن يتوب عنهم في الجواب ، وإلا فالمفروض أن يجيبوا هم بالإيجاب ؛ فهم يقرّون أن الله بدأ الخلق ، ومن ثم فمن بدأ الخلق ينبغي أن يُقرّ له بأنه قادر على إعادته ، ومن كان كذلك فينبغي أن يُسلم له ويُخضع ﴿ فَأَيُّ تَوَكُّونَ ﴾ أي فكيف تُصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل ، وبعد أن أقام الحجة على أن اليوم الآخر كائن ، فإنه في الآية اللاحقة يقيم الحجة على هدايته ووجيه وقرآنه وهو الموضوع الرئيسي في السياق ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ أي يرشد إليه ؟ الجواب لا ﴿ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ أولاً : بما ركب في المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم ، وثانياً بإرسال الرسل وإنزال الشرائع وثالثاً : بما يوفق ويلهم لاتباع الشرائع والرسول ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى ﴾ أي آمن لا يهتدي إلا أن يُهتدى ؟ فمعنى النص كله : من الجدير بالاتباع الهادي أم العاجز عن الهداية لغيره ، المحتاج إلى الهداية بنفسه ؟ فإذا كان الجدير بالاتباع هو الهادي فمن أكثر هداية من الله الذي ليس من هادٍ غيره ، فإذا هو الهادي وحده فكيف تتعجبون أن ينزل الله وحياً ، ويرسل رسولاً ليهديكم ، أم كيف تتركون هدايته ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي فما بالكم تصدرون مثل هذه الأحكام الفاسدة إذ تسوون بين الله وخلقه فتقيسون الله على أصنامكم ، فكما أن أصنامكم لا تهدي تظنون أن الله لا يهدي ، فتستغربون أن يرسل رسولاً ، وينزل وحياً يهدي به الله من شاء . هلا رجعت إلى صوابكم ، فاهتديتم بنور الله ، وتركتم ما أنتم فيه من أوهام وضلالات . ومن ثم قال : ﴿ وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي كلهم ﴿ إِلَّا ظَنًّا ﴾ أي توهمًا وتخيلاً ، فلا دليل عندهم ولا برهان ﴿ إِنْ الظَّنُّ لَا يَهْدِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ فيما المطلوب فيه العلم . أي لا يهني من العلم أي إغناء ، فلا قيمة له في هذا المقام ﴿ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ من اتباع الظن وترك الحق ، وهو تهديد ووعيد شديد على اتباعهم الظن وتركهم هداية الله العظيمة المتمثلة في القرآن .

وفي هذه الآية قال الأنوسي : (أي ما يتبع أكثرهم في معتقداتهم ومخاويراتهم إلا ظناً واهياً مستنداً إلى خيالات فارغة وأقيسة باطلة ، كقياس الغائب على الشاهد ، وقياس الخالق على المخلوق ، بأدنى مشاركة موهومة ، ولا يلتفتون إلى فرد من أفراد العلم ، فضلاً عن أن يسلكوا مسالك الأدلة الصحيحة الهادية إلى الحق فيفهموا ويقفوا على صحتها وبطلان ما يخالفها ، فالمراد بالاتباع : مطلق الانقياد الشامل لما يقارن القبول والانقياد وما لا يقارنه ، وبالقصر ما أشير إليه من أن لا يكون لهم في أثناءه اتباع لفرد من أفراد العلم والنفات إليه .

وتنكير (ظناً) للتوعية وفي تخصص هذا الاتباع بالأكثر الإشارة إلى أن منهم من قد يتبع فيقف على حقيقة التوحيد لكن لا يقبله مكابرة وعناداً . وفيه دليل لمن قال : إن تحصيل العلم في الاعتقاد واجب ، وإن إيمان المقلد غير صحيح ، وإنما لم يؤخذ عاماً للعمليات لقيام الدليل على صحة التقليد والاكتفاء بالظن فيها كما قرر في موضعه)

ولما نعى الله على السائر وراء الظنون والأوهام ، ولما كان الطريق للخلاص من ذلك هو القرآن فقد قال تعالى بعد ذلك : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ أي ما صبح وما استقام في منطق العقل أن يكون مثل هذا القرآن في علو أمره ، وإعجازه ، وكثرة معجزاته ، منسوباً إلى الله كذباً ، فهذا القرآن بفصاحته وبلاغته وحلاوته واشتماله على ما اشتمل عليه لا يكون إلا من عند الله ﴿ ولكن ﴾ أنزل ﴿ تصديق الذي بين يديه ﴾ أي من الكتب المتقدمة ، مصداقاً لها ومهيئاً عليها ، ومبيناً لما وقع من التحريف والتبديل ﴿ وتفصيل الكتاب ﴾ أي وتبين الكتاب ، أي وتبين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه ﴿ من رب العالمين ﴾ أي وبيان الأحكام والحلال والحرام بياناً شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين ، فصار المعنى : إن هذا القرآن في علو شأنه ما كان أن يفترى من دون الله ، ولكن كان تصديقاً للوحي السابق وتفصيلاً للفرائض منتفياً عنه الريب ، كائناً من رب العالمين ، أو لكن كان تصديق من رب العالمين للكتب السابقة ، وتفصيلاً منه لا ريب في ذلك ، وهذا تقرر في هذه الآيات الثلاث أن الله هو الهادي ، وأن من مظاهر هدايته هذا القرآن ، وأن من يتبع غير هدايته فهو في ضلال ، فبما ألبها المتعجبون أن ينزل الله وحياً ويرسل رسولاً أعلموا ذلك ، فالحجة قائمة عليكم أن هذا القرآن من عند الله ، فلا تتعجبوا ، فإن عجبتكم في غير محله ، وهكذا أقامت هذه المجموعة الحجة على الكافرين في موضوع الوجدانية واليوم الآخر والرسول والقرآن ، وتوضيح الحق في هذه الأشياء ضروري لتحطيم فكرة الكافرين في العجب من أن ينزل الله وحياً ويرسل رسولاً مبشراً ومنذراً . وهذا ينتهي عرض المقطع الأول من القسم الأول من سورة يونس وقبل أن تنتقل إلى المقطع الثاني في هذا القسم فلتكلم كلمة حول السياق .

كلمة حول السياق :

رأينا أن محور سورة يونس هو قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ وذكرنا أن سورة يونس تتألف من مقدمة وثلاث أقسام وخاتمة . وهنا

نقول : إن القسم الأول من سورة يونس يفصل في قوله تعالى : ﴿ ذلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ والقسم الثاني يفصل في قوله تعالى ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وسنرى مجالات تفصيل القسم الثالث .

إن القسم الأول يفصل في قوله تعالى ﴿ ذلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وهذا القسم يتألف من مقطعين :

المقطع الأول : وهو الذي مرّ معنا وبدأ بقوله تعالى : ﴿ أَكَا نَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَن أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَن أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن هُمْ قَدِمُ صَدَقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾

والمقطع الثاني : وهو الذي سنعرضه بعد قليل : وبدأ بقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ... ﴾ ومن خلال النظر إلى بداية المقطعين ندرك أن الله عز وجل يقيم الحجة بهذين المقطعين على المرتابين في هذا القرآن . فالمرتابون أحد نوعين : نوع لا يتصورون أن ينزل الله وحياً على بشر ، ونوع يتصورون أن محمداً كذاب ، وقد ناقش المقطع الأول النوع الأول ، وأقام الحجة عليه ، وسينصبُ المقطع الثاني على مناقشة النوع الثاني وقيم الحجة عليه ، والصلة بين المقطع الأول والمقطع الثاني في غاية القوة ؛ فهما قسم واحد لأنهما جميعاً يقيمان الحجة على نفي الرب في أن يرسل الله بشراً رسولاً وينزل عليه وحياً ، لذلك انتهى المقطع الأول بقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ ، وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وبدأ المقطع الثاني بعده مباشرة بقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ... ﴾ وبمجموع المقطعين تقوم الحجة على أن هذا الكتاب لا ريب فيه ، وليست في الحقيقة حجة واحدة ، وإنما هي حجج ؛ فكتاب في مثل هذا الأحكام ، وفي مثل هذه المواظاة للكتب السابقة ، وفي مثل هذا البيان للأحكام والعقائد والتصورات الصحيحة ، وفي مثل هذا الإعجاز وكثرة المعجزات من أين يأتيه الرب ؟ فإلى المقطع الثاني من القسم الأول وهذا هو :

المقطع الثاني من القسم الأول

ويمتد من الآية (٣٨) إلى نهاية الآية (٥٦) وهذا هو :

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلِيهِ ۚ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ
 كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾
 وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾
 وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا فَعَلْتُمْ وَأَنَا بَرِيْعٌ
 مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ
 وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى
 وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ
 يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَمَا كَانُوا يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ
 فِيهِمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ اللَّهِ ۚ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّمَا تُرِيدُكَ
 بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى
 مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ
 وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَفِخِرُونَ مَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُمْ يَبْتَئُونَ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَ أَنْزَلْنَا إِلَهُهُمُ الْعَيْنَ وَكُنْتُمْ بِهِ كَنُفُوسٍ مُتَعَبِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ * وَيَسْتَبِعُونَكَ أَهْقٌ هُوَ قُلْ لِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

هذا هو المقطع الثاني من القسم الأول ويتألف من مجموعتين ، كل مجموعة تخدم السياق العام ، وتذكر معاني مرتبطة بالسياق الجزئي ، وسنرى كل ذلك أثناء استعراض المجموعتين .

المجموعة الأولى

﴿ أم يقولون افتراء ﴾ أي أم يقولون اختلاقه ﴿ قل فأتوا بسورة مثله ﴾ أي قل إن كان الأمر كما تزعمون فأتوا على وجه الافتراء بسورة مثله أي شبيهة به في البلاغة وحسن النظم فأنتم عرب مثلي ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ أي وادعوا من دون الله من استطعتم من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي في دعواكم أنه مفترى والمعنى : إن ادعيتهم وافتريتهم وشككتهم في أن هذا من عند الله ، وقلم كذباً إن هذا من عند محمد ، فمحمد بشر مثلكم وقد جاء — فيما زعمتم — بهذا

القرآن فأتوا أنتم بسورة من جنس هذا القرآن ، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان ، فإذا لم تفعلوا فقد قامت عليكم الحجة أن هذا القرآن من عند الله ، ولم يبق إلا الإيمان والتسليم إن كنتم منصفين ، ولكن هل تكذيبهم أثر عن تفكير وتدبر وعلم وعقل ؟ لا . قال تعالى : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ أي بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن في بديه السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم ، فتكذيبهم إذن تكذيب بما لم يعرفوا ولم يفهموا ﴿ ولما يأتيهم تأويله ﴾ أي ولم يأتيهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب ، أي عاقبته حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق ، يعني : أنه كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب ، ففسر عوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز ، وقبل أن يجربوا إخباره بالمعيات وصدقه . والآية تفيد أنهم كذبوا به على البديه قبل التدبر ، ومعرفة التأويل تقليداً للآباء ، واستعمال كلمة لئلا في هذا المقام يفيد أنهم علموا من بعد علو شأنه وإعجازه ، وبقوا مصرين على التكذيب بغياً وحسداً ، وإذن فهؤلاء كذبوا بهذا القرآن ، ولم يفهموا ولم يعرفوا ولم يستوعبوا ما فيه من الهدى ودين الحق سفهاً وجهلاً ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك التكذيب الذي لا يقوم على دليل ﴿ كذب الذين من قبلهم ﴾ من الأمم السالفة أي كذلك كذبوا رسلهم قبل النظر في معجزاتهم ، وقبل تدبرها عناداً أو تقليداً للآباء ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ أي فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وما كذبوهم إلا وعلواً وكفراً وعناداً وجهلاً ، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم .

﴿ ومنهم من يؤمن به ﴾ أي ومنهم من يصدق بالقرآن في نفسه ، ويعلم أنه حق ولكنه يعاند بالتكذيب ﴿ ومنهم من لا يؤمن به ﴾ أي ومنهم من لا يصدق به ويشك فيه ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ أي بالمعاندين المصيرين الصادقين عن سبيل الله ، ويحتمل أن يكون المعنى : ومن هؤلاء الذين بُعث إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويشعرك بما أرسلت به ، ومنهم من لا يؤمن به ويموت على ذلك ويبعث عليه ، وربك أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ومن يستحق الضلالة - وهم المفسدون - فيضله ، فهو العادل الذي لا يحور ، بل يعطي كلًا من هؤلاء ما يستحق تبارك وتعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو ، ويحتمل أن يكون المعنى : ومنهم من سيؤمن به ، ومنهم من سيصير ، وربك أعلم بالمفسدين الذين يستحقون الضلال بسبب من إفسادهم ، وهكذا

عرفنا من خلال الآيتين اللتين مرّتا أن سبب الريب والكفر بهذا القرآن الظلم والإفساد في الأرض ، فمن كان ظالماً ومن كان مفسداً فهذا وحده الذي يرتاب في هذا القرآن وبشك به ويكفر ، أما القرآن فليس فيه ريب ولا شك ، لأن الحجة قائمة فيه أنه من عند الله ، جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » فالرسل السابقون معجزاتهم شاهدة على صحة رسالتهم ، وأما رسالة رسولنا ﷺ فالقرآن شارحها ، والمعجزة في القرآن نفسه ، فكيف يكون فيه ريب ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ أي وإن استمروا على تكذيبك ويثبت من إجابتهم بعد قيام الحجة عليهم فتبرأ منهم ومن عملهم ﴿ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ ﴾ أي لي جزاء عملي ولكم جزاء أعمالكم ﴿ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فكل مؤخذ بعمله ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ أي ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع ، فهم يسمعون كلامك الحسن ، والقرآن العظيم ، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان ، وفي هذا كفاية عظيمة للإيمان ، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون ، فهم كالصم ﴿ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقلُونَ ﴾ أي أنطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم انعدام عقولهم ، لأن الأصم العاقل ربما تفرّس واستدل إذا وقع في صمائه دوي الصوت ، فإذا اجتمع سلب العقل والسمع فقد تمّ عدم الفهم ، وإذن فالصمم وانعدام العقل عاملان آخران من عوامل الضلال والكفر بهذا القرآن وهذا الرسول ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴾ أي ومنهم ناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ، ولكنهم لا يصدقون ، أو كما قال ابن كثير : (أي ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من النعمة ، والسمت الحسن ، والخلق العظيم ، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنهي . وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ، ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم ، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار ، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار) فكيف يؤمنون بك ، وكيف ينتفعون منك وهم لا يرون حقيقتك أصلاً لهمهم ﴿ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴾ أي أنحسب أنك تقدر على هداية العمى ولو انضم إلى فقد البصر فقد البصيرة ، لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس ، وأما العمى مع الحتم فجهل البلاء ، فنحصل من الآيتين أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والذين لا عقول لهم ولا بصائر . فنحصل

من الآيات السابقة أن سبب الكفر بالقرآن والرسول الظلم والإفساد والصمم والعمى ، وليس السبب احتمال الريب في القرآن أو في شخصية الرسول ﷺ ، كما أن السبب ليس ظلم الله لهم في إضلالهم وإيقائهم في الضلال . وهذا الذي تقرره الآية الخاتمة في هذه المجموعة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسُ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي : لم يظلمهم بسلب آية الاستدلال ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بترك الاستدلال وبالظلم والإفساد والعمى والصمم ، فهم إذن الظالمون لأنفسهم .

فائدة :

قال ابن كثير بمناسبة قوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ... ﴾ : (وهذا هو المقام الثالث في التحدي ، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد ﷺ فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده ، وليستعينوا بمن شاؤوا ، وأخبر أنهم لا يقدرُونَ على ذلك ، ولا سبيل لهم إليه فقال تعالى : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء : ٨٨) ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه ، فقال في أول سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مَفْتَرياتٍ وادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وكذا في سورة البقرة - وهي مدنية - تحداهم بسورة منه ، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ الآية (البقرة : ٢٤) ، هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياتهم ، وأشعارهم ومعلقاتهم ، إليها انتهى في هذا الباب . ولكن جاءهم من الله ما لا يقبل لأحد به ، ولهذا آمن من آمن منهم من بلاغة هذا الكلام وحلاوته وجزائته وطلاوته وإفادته وبراعته ، فكانوا أعلم الناس وأفهمهم له ، وأنبهم له وأشدهم له انقياداً ، كما عرف السحرة بعلمهم بقنون السحر أن هذا الذي فعنه موسى عليه السلام لا يصدر إلا عن مؤيد ، مسدد ، مرسل من الله ، وأن هذا لا يستطيع لبشر إلا بإذن الله ، وكذلك عيسى عليه السلام بعث في زمن علماء الطب ، ومعالجة المرضى ، فكان يرى الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله ، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه ، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله)

كلمة في السياق :

١ - أقام الله عز وجل الحجة عليهم بأن هذا القرآن لا ريب فيه بتحديدهم أن يأتيوا بسورة من مثله ، ثم بين لهم العلل الحقيقية لريبهم ، وهي : ظللمهم ، وإفسادهم ، وأعمالهم السيئة ، وصممهم عن سماع كلمة الحق ، وعدم استعمال عقولهم ، وعمى أبصارهم عن رؤية الحق ، وعمى بصائرهم عن التدبر ، وظلمهم لأنفسهم ، وبعد أن أقام عليهم الحجة وبين لهم علل تكذيبهم ، تأتي بعد ذلك مجموعة واعظة تعظ وتنذر

٢ - رأينا أنه قد مر معنا في هذه المجموعة من هذا المقطع قوله تعالى ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تدويله ﴾ والمراد بتأويله هنا - والله أعلم - تفسيره العملي ، وتفسيره العملي هو وقوع ما أخبر عنه من غيوب ، وهذا الذي أخبر عنه من الغيوب سيقع شيئاً فشيئاً ، وآخر هذا الوقوع هو ما سيكون يوم القيامة ، ومن ثم فإن المجموعة الثانية في هذا المقطع تحدثنا عن بعض جوانب التفسير العملي الكائن لما أخبر عنه هذا القرآن من غيوب ، وفي ذلك إقامة حجة على من كذب وإنذار له ، وقبل أن تنتقل إلى عرض المجموعة الثانية فلنتقل بعض ما قاله صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ قل : فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

قال : (وقد ثبت هذا التحدي ، وثبت العجز عنه . وما يزال ثابتاً ولن يزال . والذين يدركون بلاغة هذه اللغة ، ويتذوقون الجمال الفني والتناسق فيها ، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان .

وكذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية ، والأصول التشريعية ، ويدرسون النظام الذي جاء به هذا القرآن ، يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الجماعة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها ، والفرص المدخرة فيه لمواجهة الأطوار والتقلبات في سر ومرونة .. كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشري واحد ، أو مجموعة العقول في حيل واحد أو في الأجيال . ومثلهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الوصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ، ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه .

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده ، ولكنه الإعجاز المطلق الذي يلهمه الخبراء في هذا ، أو في النظم والتشريعات ، والنفسيات وما إليها ..

والذين زاولوا فن التعبير ، والذين لهم بصر بالأداء الفني ، يدركون أكثر من غيرهم

مدى ما في الأداء القرآني من إعجاز في هذا الجانب . والذين زاولوا التفكير الاجتماعي والقانوني والنفسي ، والإنساني بصفة عامة ، يدركون أكثر من غيرهم مدى الإعجاز الموضوعي في هذا الكتاب أيضاً .

ومع تقدير العجز سلفاً عن بيان حقيقة هذا الإعجاز ومداه ، والعجز عن تصويره بالأسلوب البشري . ومع تقدير أن الحديث المفصل عن هذا الإعجاز — في حدود الطاقة البشرية — هو موضوع كتاب مستقل . فسأحاول هنا أن ألم إلمامة خاطفة بشيء من هذا ..

إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري .. إن له سلطاناً عجيباً على القلوب ليس للأداء البشري ؛ حتى ليلغ أحياناً أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفاً .. وهناك حوادث عجيبة لا يمكن تفسيرها بغير هذا الذي نقول — وإن لم تكن هي القاعدة — ولكن وقوعها يحتاج إلى تفسير وتعليل .. ولن أذكر نماذج عما وقع لغيري ؛ ولكن أذكر حادثاً وقع لي وكان عليه معي شهود ستة ، وذلك منذ حوالي خمسة عشر عاماً .. كنا ستة نفر من المنتسبين إلى الإسلام على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الأطلسي إلى نيويورك ؛ من بين عشرين ومائة راكب أجنب ، ليس منهم مسلم .. وخطر لنا أن نقيم صلاة الجمعة في المحيط على ظهر السفينة ، والله يعلم أنه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة ذاتها أكثر مما كان بنا حماسة دينية وإزاء مبشر كان يزاول عمله على ظهر السفينة ؛ وحاول أن يزاول تبشيره معنا .. وقد يسر لنا قائد السفينة — وكان إنجليزياً — أن نقيم صلاتنا ؛ وسمح لبحارة السفينة وطهاياتها وخدمتها — وكلهم نوبيون مسلمون — أن يصلي منهم معنا من لا يكون في « الخدمة » وقت الصلاة ؛ وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً ، إذ كانت المرة الأولى التي تقام فيها صلاة الجمعة .. وقمت بخطبة الجمعة وإقامة الصلاة ؛ والركاب الأجانب — معظمهم — متحلقون يرقبون صلاتنا .. وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهتفوننا على نجاح « القُدَّاس » !!! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا ؛ ولكن مبيدة من هذا الحشد — عرفنا فيما بعد أنها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم « تيتو » وشيوعيته ؛ — كانت شديدة التأثير والانفعال ، تفيض عيناها بالدمع ولا تتألك مشاعرها . جاءت تشد على أيدينا بحرارة ؛ ونقول : — في إنجليزية ضعيفة — إنها لا تملك نفسها من التأثير العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح .. وليس هذا موضع الشاهد في القصة .. ولكن ذلك كان في قولها : أي لغة هذه

التي كان يتحدث بها « قسيسكم » ؟! فالمسكينة لا تتصور أن يقيم « الصلاة » إلا قسيس . أو رجل دين — كما هو الحال عندها في مسيحية الكنيسة — ! وقد صححنا لها هذا الفهم !.. وأجيبناها .. فقالت : إن اللغة التي يتحدث بها ذات إيقاع موسيقي عجيب . وإن كنت لم أفهم منها حرفاً .. ثم كانت مفاجأة الحقيقة لنا وهي تقول : ولكن هذا ليس الموضوع الذي أريد أن أسأل عنه .. إن الموضوع الذي لفت حسي ، هو أن « الإمام » كانت ترد في أثناء كلامه — بهذه اللغة الموسيقية — فقرأت من نوع آخر غير بقية كلامه ! نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعاً .. هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث في رعدة وقشعريرة ! إنها شيء آخر ! كما لو كان — الإمام — مملوئاً من الروح القدس — حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها — وتفكرنا قبلاً . ثم أدركنا أنها تعني الآيات القرآنية التي وردت في أثناء خطبة الجمعة وفي أثناء الصلاة ! وكانت — مع ذلك — مفاجأة لنا تدعونا إلى الدهشة . من سيدة لا تفهم مما نقول شيئاً .

ولست هذه قاعدة كما قلت . ولكن وقوع هذه الحادثة — ووقوع أمثالها مما ذكره لي غير واحد — ذو دلالة على أن في هذا القرآن سرّاً آخر تلتقطه بعض القلوب مجرد تلاوته . وقد يكون إيمان هذه السيدة بدينها ، وفرارها من الجحيم الشيعي في بلادها ، قد أرفف حسنها بكلمات الله على هذا النحو العجيب .. ولكن ما بالنا نعجب وعشرات الألوف ممن يستمعون إلى القرآن من عوامنا لا يطرق عقولهم منه شيء ، ولكن يطرق قلوبهم إيقاعه — وسره هذا — وهم لا يفترون كثيراً من ناحية فهم لغة القرآن عن هذه السيدة البوغسلافية .

ولقد أردت أن أقدم للحديث عن القرآن بسلطانه هذا الخفي العجيب . قبل أن أتحدث عن الجوانب المدركة التي يعرفها أكثر من غيرهم من يراولون فن التعبير . ومن يراولون التفكير والشعور .

إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأعراض ، وذلك بأوسع مدلول ، وأدق تعبير ، وأجمل وأحياء أيضاً ، مع التماسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو ، ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آن واحد ، بحيث لا بغني لفظ عن لفظ في موضعه ، وبحيث لا يجوز الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال . ويبلغ من ذلك كله مستوى لا يدرك إعجازه أحد ، كما يدرك ذلك من يراولون فن التعبير فعلاً ؛ لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود

الطاقة البشرية في هذا المجال . ومن ثم يتبين بوضوح أن هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعاً .

وبشأ عن هذه الظاهرة ظاهرة أخرى في الأداء القرآني .. هي أن النص الواحد يحوي مدلولات متنوعة متناسقة في النص ؛ وكل مدلول منها يستوفي حفظه من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء واختلاط بين المدلولات ؛ وكل قضية وكل حقيقة تنال الحيز الذي يناسبها . بحيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى ؛ ويبدو كل مرة أصيلاً في الموضع الذي استشهد به فيه ؛ وكأنما هو مصوغ ابتداء لهذا المجال ولهذا الموضع ؛ وهي ظاهرة قرآنية بارزة لا تحتاج منا إلى أكثر من الإشارة إليها .

وللأداء القرآني طابع بارز كذلك في القدرة على استحضار المشاهد ، والتعبير المواجه كما لو كان المشهد حاضراً ، بطريقة ليست معهودة على الإطلاق في كلام البشر ؛ ولا يملك الأداء البشري تقليدها . لأنه يبدو في هذه الحالة مضطرباً غير مستقيم مع أسلوب الكتابة ؛ وإلا فكيف يمكن للأداء البشري أن يعبر عن طريقة الأداء القرآني مثلاً في مثل هذه المواضع : ﴿ وجاوزنا بيني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده — بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين .. ﴾ (وإلى هنا هي قصة نوحى) .. ثم يعقبها مباشرة خطاب موجه في مشهد حاضر .. ﴿ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟ ! فاليوم نتجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية ﴾ .. ثم يعود الأداء للتعقيب على المشهد الحاضر : ﴿ وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ ..

﴿ قل : أي شيء أكبر شهادة قل الله ، شهيد بيني وبينكم ، وأوحى إلي هذا القرآن لأنفركم به ومن بلغ ﴾ .. وإلى هنا أمر بوجه ورسول يتلقى .. ثم فجأة نجد الرسول يسأل القوم : ﴿ أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ ﴾ .. وإذا به يعود للتلقي في شأن هذا الذي سأل عنه قومه — وأجابوه : ﴿ قل : لا أشهد قل : إنما هو إله واحد ، وإني بريء مما تشركون ﴾ .

وكذلك هذه الالتفاتات المتكررة في مثل هذه الآيات : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس .. وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا . قال النار متواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ، إن

ربك حكيم عليم .. وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون .. يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي، وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا: شهدنا على أنفسنا وغرهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴿٣٨﴾

وأمثالها كثير في القرآن كله . وهو أسلوب متميز تماماً عن الأسلوب البشري وإلا فمن شاء أن يملأ فليحاول أن يعبر عن هذا النحو ثم ليأت بكلام مفهوم مستقيم ؛ فضلاً على أن يكون له هذا الجمال الرائع ، وهذا الإيقاع المؤثر ، وهذا التانسق الكامل . هذه بعض جوانب الإعجاز في الأداء نلّم بها سراعاً . وينفى الإعجاز الموضوعي ، والطابع الرباني المتميز من الطابع البشري فيه .

إن هذا القرآن يخاطب الكيونة البشرية بجمليتها ، فلا يخاطب ذهنها المجرد مرة . وقلوبها الشاعر مرة . وحسّها المتوقّز مرة . ولكنه يخاطبها جملة ، ويخاطبها من أقصر طريق ، ويطلق كل أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرة واحدة كلما خاطبها .. وينشئ فيها بهذا الخطاب تصورات وتأثرات وانطباعات لحقائق الوجود كلها ، لا تملك وسيلة أخرى من الوسائل التي زاوها البشر في تلوينهم كله أن تنشئها بهذا العمق ، وبهذا الشمول ، وبهذه الواقعية وبهذا الوضوح ، وبهذه الطريقة وهذا الأسلوب أيضاً .

ونستعير هنا فقرات مقتبسة من القسم الثاني من كتاب : (خصائص التصور ومقوماته) تعين على توضيح هذه الحقيقة ؛ وهي تتحدث عن (المنهج القرآني في عرض مقومات التصور الإسلامي) في صورتها الجميلة الكاملة الشاملة المتناسقة المتوازنة ، وأبرز خصائص هذا المنهج في العرض :

« أنه يمتاز عن كل المناهج :

« أولاً : بكونه يعرض الحقيقة — كما هي في عالم الواقع — في الأسلوب الذي يكشف كل زواياها ، وكل جوانبها ، وكل ارتباطاتها ، وكل مقتضياتها .. وهو — مع هذا الشمول — لا يعتقد هذه الحقيقة ، ولا يلفها بالضباب ، بل يخاطب بها الكيونة البشرية في كل مستوياتها .. ولم يشأ الله — سبحانه — رحمة منه بالعباد أن يجعل مخاطبتهم بمقومات هذا التصور وإدراكهم لها ، متوقفاً على سابق علم لهم .. إطلاقاً .. لأن العقيدة هي حاجة حياتهم الأولى ، والتصور الذي تنشئه في عقولهم وقلوبهم هو

الذي يحدد لهم طريقة تعاملهم مع الوجود كله . ويحدد لهم كذلك طريقة اتجاههم لتعلم أي علم ، ولطلب أية معرفة .. لهذا السبب لم يجعل الله إدراك هذه العقيدة متوقفاً على علم سابق . والسبب آخر هو أن الله يريد أن يكون هذا التصور الذي تنشئه حقائق العقيدة هو قاعدة علم البشر ومعرفتهم — بما أنه هو قاعدة تصورهم وتفسيرهم للكون من حولهم ، ولما يجري فيه ولما يجري فيهم — كي يقوم علمهم وتقوم معرفتهم على أساس من الحق المستيقن الذي ليس هنالك غيره حق مستيقن . ذلك أن كل ما يتلقاه الإنسان وكل ما يصل إليه — عن غير هذا المصدر — هو معرفة — « ظنية » ونتائج « محتملة » لا « قطعية » حتى ذلك « العلم التجريبي » . فطريق العلم التجريبي هو القياس — لا الاستقراء والاستقصاء — فما يتسنى للبشر الاستقصاء والاستقراء في أية تجربة . هذا على فرض صحة جميع الملاحظات والاستنتاجات ، والأحكام البشرية على الظواهر ، إنما قصارى « العلم » أن يقوم بعدد من التجارب ، ثم يقيس على نتائجها . والعلم نفسه يستلزم بأن النتائج الناشئة عن هذا القياس ظنية محتملة ، لا يقينية قطعية (وذلك بالإضافة إلى أن كل تجربة على حدة ، تقوم على ترجيح أحد « الاحتمالات » لا على القطع الحتمي) .. فلم يبق من علم مستيقن يمكن أن يحصل عليه البشر إلا العلم الذي يأتيهم من عند العليم الخبير ، والذي يقصّه من يقصّ الحق وهو خير الفاصلين .

وثانياً : بكونه مبرأً من الانقطاع والتمزق الملحوظين في الدراسات « العلمية » والتأملات « الفلسفية » والومضات « الفنية » جميعاً . فهو لا يفرد كل جانب من جوانب (الكل) الجميل المتناسق بحديث مستقل كما تصنع أساليب الأداء البشرية . وإنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول ؛ يرتبط فيه عالم الشهادة بعالم الغيب . وتتصل فيه حقائق الكون والحياة والإنسان بحقيقة الألوهية . وتتصل فيه الدنيا بالآخرة . وحياة الناس في الأرض بحياة الملأ الأعلى في أسلوب تتعلم مجاراته أو تقليده ، لأن الأسلوب البشري عند ما يحاول تقليده في هذا الخاصة تبدو فيه الحقائق مختلطة مضطربة غامضة ، غير واضحة ولا محددة ولا منسقة ، كما تبدو في المنهج القرآني .

« وهذا الاتصال والارتباط في عرض جملة الحقائق في السياق القرآني الواحد قد يختلف فيه التركيز على أي منها بين موضع وموضع . ولكن هذا الترابط يبدو ودائماً . فعندما يكون التركيز في موضع من السياق القرآني مثلاً على تعريف الناس بربهم الحق ، تنجلي هذه الحقيقة الكبيرة في آثار القدرة الإلهية الفاعلة في الكون والحياة والإنسان . في

عالم الغيب وعالم الشهادة سواء .. وعندما يكون التركيز في موضع آخر على التعريف بحقيقة الكون تتجلى العلاقة بين « حقيقة الألوهية » و « حقيقة الكون » ويتطرق السياق كثيراً إلى حقيقة الحياة والأحياء ، وإلى سنن الله في الكون والحياة .. وعندما يكون التركيز على « حقيقة الإنسان » يتجلى ارتباطها بحقيقة الألوهية وبالكون والأحياء ، وعالم الغيب وعالم الشهادة على السواء .. وعند ما يكون التركيز على الدار الآخرة تذكر الحياة الدنيا وترتبطان بالله وبسائر الحقائق الأخرى .. وكذلك عند ما يكون التركيز على قضايا الدنيا .. إلى آخر النسق من العرض ، الواضح الملاح في القرآن .

وثالثاً: بكونه — مع تماسك جوانب « الحقيقة » وتناسقها — يحافظ تماماً على إعطاء كل جانب من جوانبها — في الكل المتناسق — مساحته التي تساوي وزنه الحقيقي في ميزان الله — وهو الميزان — ومن ثم تبدو « حقيقة الألوهية » وخصائصها ، وقضية « الألوهية والعبودية » بارزة مهيمنة محيطية شاملة ؛ حتى يبدو أن التعريف بتلك الحقيقة وتجليات هذه القضية هو موضوع القرآن الأساسي . وتشغل حقيقة عالم الغيب — بما فيه القدر والدار الآخرة — مساحة بارزة . ثم تنال حقيقة الإنسان ، وحقيقة الكون ، وحقيقة الحياة ، أنصبه متناسقة تناسق هذه الحقائق في عالم الواقع . وهكذا لا تدغم حقيقة من الحقائق ، ولا تهمل ، ولا تضع معالمها في المشهد الكلي الذي تعرض فيه هذه الحقائق . وكما أن هذه الحقائق لا يطغى بعضها على بعض في التصور الإسلامي في ذاته — كما بينا في فصل « التوازن » في القسم الأول — حيث لا ينتهي الإعجاب بالكون المادي ودقة نواحيه وتناسق أجزائه وقوانينه إلى تأليهه — كمؤلفه العوالم المادية والأكوان الطبيعية قديماً وحديثاً — ولا ينتهي الإعجاب بعظمة الحياة واهتمامها إلى وظائفها وتناسقها مع نفسها ومع المحيط الكوني إلى تأليهها — كأصحاب المذهب الحيوي — ولا ينتهي الإعجاب بالإنسان ، وتفردده في خصائصه والاستعدادات الكامنة في كياناته المنطلقة في تعامله مع الكون ، إلى تأليه الإنسان — أو العقل — في صورة من الصور — كالمثاليين في عمومهم — ولا ينتهي الإجلال للمخلقة الإلهية في ذاتها إلى إنكار وجود العوالم المادية أو احتقارها أو احتقار الكائن الإنساني — كالمذاهب الهندوكية والبوذية والنصرانية المخرفة — كما أن هذا التوازن هو طابع التصور الإسلامي ذاته ، فكذلك هو طابع منهج العرض القرآني لمقومات هذا التصور والحقائق التي يقوم عليها بحيث تبدو كلها واضحة في المشهد الفريد الذي يرسمه للكل في السياق القرآني الواحد . وهي خاصية قرآنية لا يملكها الأداء الإنساني .

« رابعاً: تلك الحيوية الدافقة المؤثرة الموحية — مع الدقة والتقرير والتحديد الحاسم . وهي تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعات وروعة وجمالاً ، لا يتسامى إليها المنهج البشري في العرض ولا الأسلوب البشري في التعبير . ثم هي في الوقت ذاته تعرض في دقة عجيبة ، وتحديد حاسم ، ومع ذلك لا تجور الدقة على الحيوية والجمال ، ولا تجور التحديد على الإيقاع والروعة .

« ولا يمكن أن نصف نحن في أسلوبنا البشري ، ملاح المنهج القرآني . فنبلع من ذلك ما يبلغه تدفق هذا المنهج . كما أنه لا يمكن أن نبلع بهذا البحث كله عن « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » شيئاً مما يبلغه القرآن في هذا الشأن . وما نحاول تقديم هذا البحث للناس إلا لأن الناس قد بعثوا عن القرآن ببعدهم عن الحياة في مثل الجو الذي تنزل فيه القرآن . ولم يعودوا يزاولون تلك الملائكات ، ولا يعانون تلك الاهتمامات التي كان يزاولها ويعانيها من كان يتنزل عليهم القرآن . بينما ينشئون المجتمع المسلم في وجه كل الملائكات القائمة حينذاك والاستمتاع بخصائصه ومذاقاته » . انتهت المقطعات .

والقرآن يقدم حقائق العقيدة — أحياناً — في مجالات لا يخطر للفكر البشري عادة أن يلم بها ، لأنها ليست من طبيعة ما يفكر فيه عادة أو يلتفت إليه على هذا النحو . من هذا القبيل ما جاء في سورة الأنعام في تصوير حقيقة العلم الإلهي ومجالاته .

﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ .

فهذه المطارح المترامية ، الخفية والظاهرة ، ليست مما يتوجه الفكر البشري إلى ارتيادها على هذا النحو ، وهو في معرض تصوير شمول العلم ، مهما أراد تصوير هذا الشمول . ولو أن فكراً بشرياً هو الذي يريد تصوير شمول العلم لآتجه اتجاهات أخرى تناسب اهتمامات الإنسان وطبيعة تصوراته

وإن آية واحدة من القرآن كهذه الآية لما يوحي بأن هذا القرآن ليس من قول البشر . فمثل هذا الخاطر الكوني لا يخطر بطبيعته على قلب بشر . ومثل هذا التصور الكوني لا دوافع إليه من طبيعة تصور البشر

كذلك يبدو الطابع الإلهي في هذا القرآن في طريقة استدلاله بأشياء وأحداث مثيرة

صغيرة في ظاهرها ، وهي ذات حقيقة ضخمة تناسب الموضوع الذي يستدل بها عليه . كما يبدو في قوله تعالى من سورة الواقعة : ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفرايم ما تمنون ؟ ، أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمم النشأة الأولى ، فلولا تذكرون ﴾ ﴿ أفرايم الماء الذي تشربون . أنتم أنزقموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناء أجاداً فلولا تشكرون . أفرايم النار التي تورون ؟ أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

إن هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة قضايا كونية كبرى يكشف فيها عن التواميس الإلهية في الوجود ، وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة وتصوراً كاملاً لهذا الوجود ، كما يجعل منها منجاً للنظر والتفكير ، وحياة للأرواح والقلوب ، ويقظة في المشاعر والخواص . لحظة لظواهر هذا الوجود التي تطالع الناس صباح مساء وهم غافلون عنها ، ويقظة لأنفسهم وما يجري من العجائب والخوارق فيها .

إنه لا يكل الناس إلى الحوادث الفذة الخارقة ، والمعجزات الخاصة المعدودة . كذلك لا يكلفهم أن يبحثوا عن الخوارق والمعجزات والآيات والدلائل بعيداً عن أنفسهم ، ولا عن مألوف حياتهم ، ولا عن الظواهر الكونية القريبة منهم المعروفة لهم . إنه لا يعد بهم في فلسفات معقدة ، أو مشكلات عقلية عويصة ، أو تجارب عملية لا يملكها كل أحد . لكي ينشئ في نفوسهم عقيدة وتصوراً للكون والحياة قائماً على هذه العقيدة .

إن أنفسهم من صنع الله ، وظواهر الكون حوهم من إبداع قدرته ، والمعجزة كاملة في كل ما تبده يده . وهذا القرآن قرآنه . ومن ثم يأخذهم إلى هذه المعجزات الكامنة فيهم ، والمشوثة في الكون من حوهم . يأخذهم إلى هذه الخوارق المألوفة لهم التي يرونها ولا يحسون حقيقة الإعجاز فيها . لأنهم لطول ألفتهم بها غفلوا عن مواضع الإعجاز فيها . يأخذهم إليها ليفتح عيونهم عليها ، فتطلع على السر المائل المكون فيها . سر القدرة المبدعة ، وسر الوحدة المفردة . وسر الناموس الأزلي الذي يعمل في كياناتهم أنفسهم كما يعمل في الكون من حوهم ، والذي يحمل دلائل الإيمان ، وبراهين العقيدة فينبها في كياناتهم ، أو يوقظها في فطرتهم بتعبير أدق .

وعلى هذا المنهج يسير ، وهو يعرض عليهم آيات القدرة المبدعة في خلقهم هم أنفسهم . وفي زرعهم الذي تزاوله أيديهم . وفي الماء الذي يشربون . وفي النار التي

يوقنون وهي أبسط ما يقع تحت أبصارهم من مألوفات حياتهم ، كذلك بصورهم لحظة النهاية . نهاية الحياة على هذه الأرض وبدء الحياة في العالم الآخر . اللحظة التي يواجهها كل أحد ، والتي تنهي عندها كل حيلة ، والتي تقف الأحياء وجها لوجه أمام القدرة المطلقة المنتصرة وفئة قاصدة . لا محاربة فيها ولا محال . حيث تسقط جميع الأقنعة وينفض جميع التعللات .

إن طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية تدل بداتها على مصدره . إنه المصدر الذي صدر منه تكوّن . فطريقة بنائه هي طريقة بناء الكون ، فمن أبسط المواد الكونية نشأ أعقد الأشكال . وأصبح الخلائق . الذرة يظن أنها مادة بناء الكون ، والخلية يظن أنها مادة بناء الحياة . والذرة على صغرها معجزة في ذاتها ، والخلية على ضآلتها آية في ذاتها . وهنا في القرآن يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادة لبناء أضخم عقيدة دينية وأوسع تصور كوني .. المشاهدات التي تدخل في تجارب كل إنسان : النسل ، والزرع والماء ، والنار ، والموت .. أي إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربه ؟ أي ساكن كهف لم يشهد نشأة حياة جنينية ، ونشأة حياة نباتية . ومسقط ماء . وموقد نار . ولحظة وفاة ؟ ..

من هذه المشاهدات التي رآها كل إنسان بنشء القرآن العقيدة ، لأنه يخاطب كل إنسان في كل بيئة . وهذه المشاهدات البسيطة الساذجة بداتها هي أضخم الحقائق الكونية ، وأعظم الأسرار الربانية ، فهي في بساطتها تخاطب فطرة كل إنسان وهي في حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان ..)

هذا بعض شأن القرآن فمن أين يستطيع الإنسان أن يأتي بسورة من مثل سور القرآن ؟ وكيف يقى مع هذا الإعجاز شك بهذا القرآن ؟

وننتقل إلى المجموعة الثانية من المقطع الثاني :

المجموعة الثانية

بعد أن قامت عليهم الحجة في المجموعة الأولى وتبين استحراقهم للضلال بسبب ما هم عليه من خسة الصفات ، تأتي الآن المجموعة الثانية لتبين قضية ، وتجب على سؤالي . القضية هي : ما أعد لهم في الدنيا والآخرة :

﴿ ويوم يحشرهم كأن ﴾ أي كأنهم ﴿ لم يلبثوا ﴾ في الدنيا أو في القبور ﴿ إلا

ساعة من النهار ﴿٤٥﴾ أي يستقصرون مدة لبثهم في الدنيا أو في قبورهم هول ما يرون ،
 والتقدير : ويوم يحشرهم مشيئة من لم يلبثوا إلا ساعة من النهار ﴿٤٦﴾ يتعارفون بينهم ﴿٤٧﴾ أي
 يعرف بعضهم بعضاً كأن لم يتعارفوا إلا قليلاً وذلك عند خروجهم من القبور ، ثم
 ينقطع التعارف بينهم لشدة الأمر عليهم ﴿٤٨﴾ قد خسر الذين كذبوا بقاء الله ﴿٤٩﴾ وأي
 خسارة أكبر من خسران الأنفس والأهل ، شبهوا بالناجر الخاسر لأنهم باعوا الإيمان
 بالكفر ﴿٥٠﴾ وما كانوا مهتدين ﴿٥١﴾ في ما ساروا فيه وملكوه إذ وصلوا إلى النار ﴿٥٢﴾ وإما
 تربيتك بعض الذي نعدهم ﴿٥٣﴾ من العذاب أي وإما تنتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم
 ﴿٥٤﴾ أو تنوفيك ﴿٥٥﴾ قبل عذابهم أي إما تربيتك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك ، أو
 تنوفيك قبل أن تربكه فحن تربكه في الآخرة ﴿٥٦﴾ فإلينا مرجعهم ﴿٥٧﴾ أي مصيرهم
 ومنقلبهم ﴿٥٨﴾ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴿٥٩﴾ أي والله شهيد على أفعالهم بعدك ، أي وهو
 يعاقبهم عليها ، فهم إذن لا يفلتون من العقاب الأخروي ، وإن شاء الله أن يعذبهم في
 الدنيا فعل ، فإنهم يستحقون ذلك ، والآية الثانية أشارت ضمناً أن العذاب الدنيوي
 لاحق بمن يكذب الرسل ، إما في حياة الرسل ، أو بعد وفاتهم ، تلك سنة الله التي
 سجلها في الآية اللاحقة ﴿٦٠﴾ ولكل أمة رسول ﴿٦١﴾ أي يبعث إليهم لينبئهم على التوحيد
 ويدعوهم إلى دين الحق ﴿٦٢﴾ فإذا جاء رسولهم ﴿٦٣﴾ بالبينات فكذبوه ولم ينعوه ﴿٦٤﴾ قضى
 بينهم ﴿٦٥﴾ أي بين الرسول ومكذبيه ﴿٦٦﴾ بالقسط ﴿٦٧﴾ أي بالعدل لا يظلمون ، بل يعذبون
 عدلاً وينجي الله الرسول ومن صدقه ﴿٦٨﴾ وهم لا يظلمون ﴿٦٩﴾ بما عذبوا لأنهم مجرمون ،
 فليحذر هؤلاء المكذبون عذاب الدنيا والآخرة . وبعض المفسرين اتجه في الآية إلى أنها في
 الآخرة ومعناها عندهم : ولكل من الأمم يوم القيامة رسول تنسب ، إليه وتُدعى به ،
 فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان قضى بينهم بالقسط ، وهم لا
 يظلمون ، لأنه لا يعذب أحد بغير ذنبه .

كلمة في السياق :

نقد أذرت الآيات الثلاث وحذرت ، وعرضت علينا بعض العيوب التي أحبر
 عنها القرآن بما سبأني تأويلها فيما بعد ، فأرثنا سخافة هؤلاء الذين سارعوا إلى
 التكذيب دون تدبر وعقل ، مع أن الأمر من الخطورة بمثل هذا الذي ذكرته الآيات ، وبعد
 الآيات يأتي في المجموعة سؤالان وجوابهما ، إن الكافرين بدلاً من أن يسارعوا إلى
 التصديق بهذا القرآن وبما أخبر عنه بعد قيام الحجة ، - إنهم بدلاً من ذلك -
 يسألون سؤال المكذب والمشكك ، ومن ثم تعرض علينا المجموعة شأنهم

هذا من خلال أسئلتهم :

السؤال الأول وجوابه :

﴿ ويقولون ﴾ بعد إذ أنصروا ما أعدكم من العذاب ﴿ متى هذا الوعد ﴾ أي وعد العذاب ﴿ إن كنتم ﴾ أيها النبي والمؤمنون ﴿ صادقين ﴾ أن العذاب نازل ، يسألون هذا السؤال استعجالاً للعذاب واستعداداً ، وقد أمر الرسول ﷺ أن يرد عليهم بالرد الآتي ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ﴾ فإنا عبد الله نجري على أمره ومشيبته ، فمتى شاء شيئاً كان ﴿ لكل أمة أجل ﴾ أي وقت معلوم للعذاب مكتوب في اللوح المحفوظ ﴿ إذا جاء أجلهم ﴾ أي فإذا جاء وقت عذابهم ﴿ فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ أي لا يتقدمون ساعة ولا يتأخرون فلا تستعجلون ، فإنا عبد أقول عن الله ما أمر به ، ولا أعلم شيئاً مما ستأثر به إلا أن يطلعني الله عليه ، وليس من جواب أوقع في هذا المقام من هذا الجواب . ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم كلاماً آخر ﴿ قل أرايتم ﴾ أي أخبروني ﴿ إن أتاكم عذابه ﴾ الذي تستعجلونه ﴿ بيأتا ﴾ أي وقت بيأت وهو الليل وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون ﴿ أو نهاراً ﴾ أي وأنتم مشغولون بطلب المعاش والكسب ﴿ ماذا يستعجل منه ﴾ أي من العذاب ﴿ المجرمون ﴾ والمعنى : أن العذاب كله مكروه موجب للنفور ، فأي شيء منه تستعجلونه وليس شيء منه يوجب الاستعجال ؟ والمعنى : أخبروني إذا جاء العذاب ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ والجواب : إلا الندامة على الاستعجال ومعرفة الخطأ فيه ﴿ أنتم إذا ما وقع آمنتم به ﴾ أي إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان ، ويقال لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب تبكيها : ﴿ الآن وقد كنتم به تستعجلون ﴾ أي وقد كنتم تستعجلون بالعذاب تكديباً واستهزاء ﴿ ثم قيل للذين ظلموا ﴾ بالكفر والتكذيب والشك والرد ﴿ ذوقوا عذاب الخلد ﴾ أي الدوام ﴿ هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾ من الشرك والتكذيب والاستهزاء ، وهذا ينتهي الجواب الأول مبهاً هؤلاء إن كان هناك من يشبه وتعقيباً على هذا الجواب يصرحون سؤالاً آخر :

السؤال الثاني وجوابه :

﴿ ويستنبونك ﴾ أي ويستخبرونك فيقولون : ﴿ أحق هو ﴾ أي المعاد والقيامة والعذاب أو العذاب الموعود سابقاً ، والتقدير : ويستخبرونك أحق ما وعدنا من

العذاب والبعث ؟ ولا شك أن سؤلهم على جهة الإنكار والاستهزاء ، أو على جهة الشك ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّ ﴾ . أي قل نعم والله ﴿ إِنَّهُ لَحَقُّ ﴾ أي العذاب كائن لا محالة ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي بغائتين العذاب وهو لاحق بكم لا محالة ، أو وما أنتم بغائتين الله أن يبعثكم ، فليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من عدم ، ثم يش لهم هول ما سيصادفونه أمامهم ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ أي كفرت أو أشركت أي ولو أن لكل نفس ظالمة ﴿ مَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي ما في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها ﴿ لَا تَفِدْتُمْ بِهِ ﴾ أي لجعلته فدية لها ، فافتدوا الآن أنفسكم إذن ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أسروا من الأضداد وعلى هذا فتحتمل هنا أنهم يظهرون الندامة ، وتحتمل أنهم يخفونها عجزاً عن النطق لشدة الأمر وهوله ﴿ وَقَضَىٰ ﴾ بينهم ﴿ أَيَّ بَيْنِ الْخَلَائِقِ ﴾ بالقسط ﴿ أَيَّ بِالْعَدْلِ ﴾ وهم لا يظلمون شيئاً . ثم يحتمل الله هذه المجموعة بهذا التقرير : ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فهو المستحق للعبادة وحده ﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي ثابت وكيف لا تكون مواعيده كذلك وهو رب كل شيء ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي أكثر الناس ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك لأنهم جاهلون بالله ﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ فانظروا فعله بكم ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم . وهكذا حتم الله هذه المجموعة بالتعريف على ذاته الكريمة ، إذ الجهل بها هو سبب كل فساد ، فأخبر أنه مالك السموات والأرض ، وأن وعده حق كائن لا محالة ، وأنه يحيي ويميت وإليه المرجع ، وأنه القادر على ذلك ، العليم بما تفرق من الأجسام ، وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار . وبهذا انتهت المجموعة الثانية ، وانتهى المقطع الثاني من القسم الأول ، وانتهى القسم الأول من سورة يونس ، وقد تقرر فيه أن هذا القرآن لا ريب فيه من رب العالمين .

كلمة في السياق:

بعد القسم الأول مباشرة يأتي قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَنُنَافِئُ لَكُمْ فِي الصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فبعد أن عالج القسم الأول الريب يأتي القسم الثاني ليبين بعض خصائص القرآن ، كما بين ضرورة الاهتمام به

فالقسم الأول كان في قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾

والقسم الثاني كان في قوله تعالى ﴿ هَدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقيل أن ننقل إلى القسم الثاني فلنذكر بعض الفوائد حول المجموعة التي مرّت معنا .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُعَرِّفُكَ ﴾ يذكر ابن كثير حديثاً يرويه الطبراني ليس له علاقة مباشرة في الآية تذكره لما فيه من فائدة :
روى الطبراني عن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ قال : « عرضت علي أمي البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها » فقال رجل : يا رسول الله عرض عليك من تخلق فكيف من لم يخلق ؟ فقال : « صوروا لي في الطين حتى إني لأعرف بالإنسان منهم من أحكم بصاحبه » .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ أَحَقَّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي ﴾ يذكر ابن كثير أنه لم يرد القسم على اليوم الآخر في القرآن إلا في ثلاثة مواطن هذه إحداها . قال ابن كثير : وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد :

في سورة نبا ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَكُمُ الْغَافِقِينَ ﴾ ﴿ زَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُجِئَنَّ ثُمَّ لَنَنْبَأَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

٣ - لاحظنا أن القسم الأول في مقطعيه قد قطع دابر كل شبهة يمكن أن تعرض في أمر هذا القوآن ، وخلال ذلك وعظ وأنذر وحذر وبشّر ليجمع مع إقامة الحجّة على أن القرآن لأربب فيه ، الدعوة إلى الإيمان به ، والآن يأتي القسم الثاني وإذا كان القسم الأول كما قلنا في تفصيل قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فإن القسم الثاني بدايته في تفصيل قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ولذلك فهو مبدوء بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ فبعد أن أقام الله الحجّة على الناس جميعاً بأن هذا القرآن لأربب فيه بينهم جميعاً ما هو هذا القرآن ، وما هي خصائصه . ثم أتبع ذلك بما يناسبه .

فلنتنقل إلى القسم الثاني .

القسم الثاني من سورة يونس عليه السلام

يمتد هذا القسم من الآية (٥٧) إلى نهاية الآية (١٠٣)

وهو يتألف من ثلاثة مقاطع ، المقطع الأول فيه حديث عن القرآن ، وفيه نماذج على هدايته ، وفيه تصحيح للانحرافات ، والمقطع الثاني : فيه بعض قصص الأنبياء التي تبين أن هذا القرآن ليس بدعاً من الهدى ، والمقطع الثالث : وفيه عودة إلى مناقشة الشك والريب ليكون ذلك مقدمة للقسم الثالث الذي يدعو إلى ترك الشك ، وإلى اتباع الحق ، وبذلك يكون التفصيل لقوله تعالى : ﴿ اَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ قد تم .

المقطع الأول من القسم الثاني

ويمتد من الآية (٥٧) إلى نهاية الآية (٧٠) وهذا هو :

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا
قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ
عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبْعِضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ
مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي

كِتَابُ مُبِينٍ ۝ أَلَا إِنَّ أَوْلَىٰ آلَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝
 الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ هُمُ الَّذِينَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ
 لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ
 الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
 وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ
 إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْبَيْلَ لِتَكُونُوا
 فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝ قُلُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
 سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ
 سُلْطَانٍ بِهَذَا أْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْقَهُونَ عَلَى
 اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝ مَنَعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْفِخُهُمْ
 الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝ *

التفسير :

• يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَاتَّقُوا كِتَابَ اللَّهِ مَا تَكُونُ وَمَا
 تَحِبُّونَ ۖ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَافِلِهِ زَكَاةً عَلَى الْقَوَاعِشِ ۖ وَمَرْئِيًّا وَحَافِظًا عَلَى الْخَيْرِ ۖ
 وَهُدًى مِنْ حَقِّقِ هَذَا الْقُرْآنَ ۖ فَإِنَّهُ تَكْوِينٌ عَلَى كُلِّ مَعْنَى مِنَ الْمَعْنَى ۖ الْمَرْغُوبِ ۖ الْمَوْعِظَةِ ۖ
 وَهُدًى مِنْ مَقَادِيرِ عَمَلِهِ ۖ إِنَّ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَكَبَّرَ عَلَى الْكَمَالِ ۖ وَعَنِ
 الشَّرِيعِ ۖ وَعَنِ الْقِسْطِ ۖ وَعَنِ الْبِرِّ ۖ وَعَنِ الْفَقْرِ ۖ وَعَنِ الْفَرِيضَةِ ۖ بِأَدْفَى الْمَعْنَى

كَتَبَ سُبْحَانَ ۝ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ هُمُ الْبَشَرُ فِي الْحَبْزَةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ
 لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ
 الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
 وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فُرُكَاءَ إِنْ يَدْعُونَ
 إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا
 فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
 مُبَحَّثَةً هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ
 سُلْطَانٍ بِهَذَا أْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى
 اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝ مَنَعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ
 الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝ *

التفسير :

يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم ۞ أي كتاب فيه ما لكم وما
 عليكم ، قد جعله الله لمن تلاه وتذكره راحراً عن الفواحش ، ومربياً وحافضاً على الخير ،
 وهذا من حصائص هذا القرآن ، فإنه تكلم عن كل معنى من المعاني بأسلوب الوعظ ،
 وهذا من مظاهر إعجازه ، إن أحداً من البشر لا يستطيع أن يتكلم عن الكون ، وعن
 التشريع ، وعن القصة ، وعن التاريخ ، وعن المستقبل ، وعن التربية ، بأدق المعاني

وبأسلوب وعظمي يصل إلى كل قلب ، فأن يكون هذا القرآن هكذا فهذا وحده دليل على أنه من عند الله ، وأن يكون كذلك فذلك من فضل الله ﴿ وشفاء ﴾ أي دواء شاف ﴿ لما في الصدور ﴾ أي القلوب من العقائد الفاسدة ، والشبه والشكوك ، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس ، فهذه خاصية ثانية من خواص هذا القرآن : أنه مظهر للقلب البشري من كل مرض ، فالقلب البشري يمرض بالكفر والشك ، والحقد والحسد وغير ذلك ، هذا القلب في القرآن شفاؤه ، إذا أقبل صاحبه على هذا القرآن بالتلاوة والتدبر والرغبة الصادقة ﴿ وهدى ورحمة للمومنين ﴾ أي ومن خصائصه أنه هدى ، وأنه رحمة ، ولكن للمؤمنين المصدقين ، فهؤلاء الذين تحصل لهم الهداية ، وتناهم الرحمة به ، فهم المستفيدون الوحيدون به ومنه ، وهذا كذلك من خصائص هذا القرآن ، فإن الإنسان يأخذ منه على قدر استعداد وإيمانه ، أما الكافرون والمنافقون فليس لهم في هذا القرآن نصيب ﴿ قل بفضل الله ﴾ الذي مظهره الهداية للإيمان والإسلام ﴿ وبرحمته ﴾ أي القرآن ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ أي بهذا الذي من الله عليهم به من الهدى ودين الحق والكتاب الهادي فليفرحوا ؛ فإنه أولى ما يفرحون به ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الزاهية لا محالة ، وهذا أدب عظيم لا يتحقق به إلا الموفقون الذين عرفوا القيمة الحقيقية للأشياء ، أما الذين طاش لديهم الميزان فيعطون السعر الكبير لذي القيمة الحفيرة ، والسعر الرخيص لذي القيمة الكبيرة ، فهؤلاء بعيدون عن التوفيق وبعيدون عن حقيقة الإيمان .

أخرج ابن أبي حاتم عن أبيه بن عبد الكلاعي قال : لما قدم خراج العراق إلى عمر رضي الله عنه خرج عمر ومولى له فجعل عمر يعد الإبل فإذا هي أكثر من ذلك ، فجعل عمر يقول : الحمد لله تعالى . ويقول موله : هذا والله من فضل الله ورحمته ، فقال عمر : كذبت ليس هذا هو الذي يقول تعالى ﴿ قل بفضل الله وبرحمته ﴾ الآية ، وهذا مما يجمعون . رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني ، فانظر هناك الله إلى نظرات الموفقين وتقييمهم للأشياء واقتد بها ولا يسررن إلى قلبك داء العصر (المادية) أي حب الدنيا والركون إليها ، والاضمحلال إليها ، وجعلها المقياس الوحيد ، ومن هذا المقام نفرك الفارق الكبير بين التصور الإسلامي والتصورات الكافرة المعاصرة . إن أضخم دولتين في العالم الآن الاتحاد السوفيتي وأمريكا ، يقوم مجتمعهما على فلسفة مادية بحتة ؛ تقيم الأشياء من خلال مردودها المادي . الاتحاد السوفيتي ينطلق من الفلسفة الماركسية التي تعتبر الإنتاج هو كل شيء ، والاقتصاد هو كل شيء في حياة البشر . والمجتمع الأمريكي يقوم على فلسفة البراجماتزم : أي فلسفة

المنفعة ، وهي تعني أن قيمة الشيء بقدر ما يقدم من نفع مادي للإنسان . وشتان بين هذا كله وبين تربية القرآن .

فإذا استقر ما مر - وهو أن هذا القرآن هدى للمؤمنين - فماذا يترتب على ذلك ؟ يترتب على ذلك أن لا يتلقى الإنسان في باب التشريع ، أو في باب العقائد والتصورات ، إلا عن الله ، ويترتب على ذلك أن يصوغ الإنسان نفسه صياغة قرآنية كاملة ، ولذلك نلاحظ أن الله أمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يصحح فيما يأتي مفاهيم ، وفيما بين التصحيحات قرر الله تفسيرات ، وفي التصحيحات والتفسيرات نرى نموذجاً على كون القرآن موعظة وشفاء وهدى ورحمة . فلنر بقية المقطع :

﴿ قل أرايتم ﴾ أي أخبروني ﴿ ما أنزل الله ﴾ أي خلق ﴿ لكم من رزق فجعلهم منه حراماً وحلالاً ﴾ أي حرّمهم وأحلّهم بمجرد الأهواء والآراء التي لا مستند عليها ولا دليل ، والرزق رزقه ، والمال ماله ، والمملك ملكه ، فهو الذي يحرم ويحل ، وعنه يتلقى التحريم والتحليل ، وكل تحريم وتحليل غير متلقى عنه فهو باطل ، وكذب وافتراء ﴿ قل الله أذن لكم ﴾ في ذلك التحريم والتحليل ؟ ﴿ أم ﴾ أي بل ﴿ على الله فتفترون ﴾ أي تكذبون بنسبة ذلك إليه ﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾ أي ما ظن هؤلاء الذين يحرمون ويحلّون بأهوائهم ، مفتريين على الله أن يصنع الله لهم يوم مرجعهم إليه يوم القيامة ، يحسبون أنه لا يعاقبهم وهم يكذبون عليه . لا ، بل سينالون جزاء أفعالهم ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ إذ أحلّ لهم ما ينفعهم وحرّم ما يضرهم ، وأمهل الظالمين ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ بالأخذ عن الله ، وتطبيق شرع الله ، والإقبال على الله ، ونسخير ما أعطى الله في طاعة الله ، وبعد هذا التصحيح لمفهوم التحليل والتحريم ، وأنه لا يجوز أن يكون تحليل أو تحريم إلا من الله ، وأن كل تحليل غير ذلك كذب وافتراء على الله ، يذكر الله ويعظ ويبيشّر ﴿ وما تكون في شأن ﴾ أي في أمر ﴿ وما تتلوا منه ﴾ أي من الشأن أو من الله ﴿ من قرآن وما تعملون من عمل إلا كنّا عليكم شهوداً ﴾ أي رقباء ﴿ إذ تفيضون ﴾ أي تأخذون ﴿ فيه ﴾ أي العمل ﴿ وما يغرب ﴾ أي يغيب ﴿ عن ربك من مثقال ﴾ أي وزن ﴿ ذرة ﴾ أصغر جزء متكامل من المادة ﴿ في الأرض ولا في السماء ﴾ وذكرهما دليل على إحاطة علمه تعالى ﴿ ولا أصغر من ذلك ﴾ كالإلكترون أو البروتون أو النيوترون ﴿ ولا أكبر ﴾ كالجزيء وما هو أكبر ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ أي بين وهو اللوح

المحفوظ ، أخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم أحواله وأحوال أمته ، وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان وخطة ، وأنه لا يغيب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات والأرض ولا أصغر منها ولا أكبر ، إلا في كتاب ، فمن كان كذلك فهو أهل الخشية وأهل التقوى ، وأهل لأن يلتقى عنه في التحليل والتحريم ، وأهل لأن يعبد وحده ، ولذلك عقب هذه الآية بقوله ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فيما يستقبلونه من أحوال الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما وراءهم من الدنيا ، ثم فسر تعالى من هم أوليائه فقال : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بكل ما يجب الإيمان به ﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الله بامتثال أمره ونهيه ، فسر كان تقياً كان لله ولياً ولا ولاية إلا به ، فليحسب المتحرفون عن أمر الله المفرطون في تطبيق شرعه ﴿ هُمْ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ هي الرؤيا الصالحة للرجل الصالح ، يراها أو ترى له - كما سرى - أو بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ عندما تتلقاهم بمشقة : ﴿ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .. ﴿ بِشَرِّكُمْ الْيَوْمَ جَنَاتٌ ... ﴾ لا تبديل لكلمات الله ﴿ أَي لَا خَلْفَ لِمُوعِدِهِ ﴾ أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير ، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي المذكور ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ وبعد أن بين الله عز وجل أن أوليائه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وجه لرسوله ﷺ نبياً عن نوع من الحزن على ما عند الناس من عقائد أهل الكفر وأقوالهم وكلامهم وما يجهرون من ذلك فقال : ﴿ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أي قول هؤلاء الكافرين والمشركين ، أي اعتقاداتهم ، وما يجهرون به ، وما يؤذون به ، مبيناً له ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾ أي فاستعن بالله ، وتوكل عليه واثق به فإن له العزة : أي القوة كلها ، وقد جعلها لرسوله ﷺ وللمؤمنين ﴿ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوال عباده ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوالهم فيجازيهم ، وينصرك في الدنيا والآخرة ، ثم عرض الله عز وجل نماذج من أقوال هؤلاء الكافرين مُفَضَّةً بِهَا ، مبيناً كذبها من خلال تقرير العقيدة الحق ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ عبيداً وملكاً وخلقاً ، فالكل منك ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ أي والمشعوذون الذين يعبدونهم المشركون من دون الله هم كذلك مملوكون لله ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يكون هؤلاء شركاء لله ؟ ومن أخبر المشركين أن آلهتهم شريكة لله في ألوهيته وربوبيته ؟ الحقيقة أن المشركين يعبدون مالا دليل لهم على عبادته ، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخمينهم وكذبهم وإفكهم ﴿ إِنَّ ﴾ أي ما ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ في ذلك ﴿ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ أي ظنهم أنها آله تشفع لهم ﴿ وَإِنْ ﴾ أي وما ﴿ هُمْ إِلَّا

يخوضون ﴿ أي يكذبون في ذلك ، ثم أخبر تعالى أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه أي يستريحون فيه من تعبهم وكلالهم وحر كاثمهم ، والنهار مبصراً مضيقاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم ، فمن كان كذلك كيف يشرك به ؟ ﴿ هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات ﴾ أي لدلالات على وحدانيته ﴿ لقوم يسمعون ﴾ أي يسمعون سماع تدبر وانعاط لهذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ، ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها ، ثم عرض الله نموذجاً على أقوالهم الفاسدة ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني ﴾ أي تقّس عن ذلك ؛ هو الغني عن كل ما سواه ، وكل شيء إليه فقير ، والولد مظهر من مظاهر الافتقار والحاجة ، فإنما يطلب الولد من يحتاج إليه ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له عبد له ! ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ عندكم من سلطان ﴾ أي حجة ﴿ بهذا ﴾ الذي تقولون . ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ، فكيف تقولون على الله بلا علم ، وهو إنكار ووعيد أكيد ، وتهديد شديد وتوبيخ لهم . ثم أوعده الله هؤلاء المفتريين عليه ، الناسيين له ما بلى به . ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب ﴾ بنسبة الولد له وغير ذلك . ﴿ لا يفلحون ﴾ أي لا يسعدون ، ثم بين وجه عدم فلاحهم ﴿ متاع في الدنيا ﴾ أي لهم متاع قليل في الدنيا يتمتعون به طول حياتهم . ﴿ ثم إنا مرجعهم ﴾ بالموت ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد ﴾ أي المؤلم الموجه ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ أي بسبب كفرهم وانفرائهم وكذبهم على الله ، فيما ادّعوه من الإفك والزور . وبهذا انتهى المقطع بعد أن قرر الله فيه كذب الذين يحرمون - بدون علم - ويعتقدون عقيدة الشرك ، وينسبون إليه ولداً . وبين الحق في صفاته ووحدانيته ، وذكر برحمته بأوليائه ، وذلك كله بأبلغ درجات الوعظ ، فكان ذلك نموذجاً على كيفية كون هذا القرآن موعظة وشفاء وهدى ورحمة .

وهكذا بين الله عز وجل في هذا المقطع خصائص القرآن ، ثم بين ما يترتب على كون القرآن له هذه الخصائص ، وهو الاهتداء به في أمر التحليل والتحريم ، وفي أمر التصورات والمواقف ، وفي أمر العقائد اعتقاداً وشعوراً . وقبل أن نتقل إلى المقطع الثاني فلنتقل فوائد لها علاقة بهذا المقطع .

فوائد:

١ - بمناسبة قوله تعالى عن القرآن : ﴿ وشفاء لما في الصدور ﴾ يقول صاحب الظلال : « إن هذا القرآن شفاء لما في الصدور بكل معنى من معاني الشفاء ، إنه يدب في القلوب فعلاً ديب الشفاء في الجسم المعلوم . يدب فيها بإيقاعه ذي السلطان الخفي العجيب . ويدب فيها بتوجيهاته التي توقف أجهزة التلقي الفطرية ، فتتهز وتفتح وتتلقى وتستجيب . ويدب فيها بتنظيماته وتشريعاته التي تضمن أقل احتكاك ممكن بين المجموعات البشرية في الحياة اليومية . ويدب فيها بإيحاءاته المطمئنة التي تكسب الطمأنينة في القلوب إلى الله ، وإلى العدل في الجزاء ، وإلى غلبة الخير ، وإلى حسن المصير .

وإنها لعبارة تثير حشداً من المعاني والدلائل ، تعجز عنها لغة البشر ويوحى بها هذا التعبير العجيب .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ قال صاحب الظلال : فهذا الفضل الذي آتاه الله عباده ، وبهذه الرحمة التي أفاضها عليهم من الإيمان . فبذلك وحده فليفرحوا . فهذا هو الذي يستحق الفرح لا المال ولا أعراض هذه الحياة . إن ذلك هو الفرح العلوي الذي يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية والأعراض الزائلة ، فيجعل هذه الأعراض خادمة للحياة لا مخدومة ؛ ويجعل الإنسان فوقها وهو يستمتع بها لا عبداً خاضعاً لها . والإسلام لا يحقر أعراض الحياة الدنيا ليجرها الناس ويزهقوا فيها . إنما هو يزنها بوزنها ليستمتع بها الناس وهم أحرار الإرادة طلقاء اليد ، مطمئحهم أعلى من هذه الأعراض ، وآفاقهم أسمى من دنيا الأرض . والإيمان عندهم هو النعمة ، وتأدية مقتضيات الإيمان هي الهدف . والدنيا بعد ذلك مملوكة لهم لا سلطان لها عليهم .

هكذا كان الرعيل الأولون ينظرون إلى قيم الحياة . كانوا يعتقدون الفضل الأول والرحمة الأولى هي ما جاءهم من الله من موعظة وهدى . فأما المال ، وأما الثراء ، وأما النصر ذاته فهو تابع . لذلك كان النصر بأنهم ، وكان المال ينثال عليهم ، وكان الثراء يطلبهم .. إن طريق هذه الأمانة واضح . إنه في هذا الذي يسته لها قرأتها ، وفي سيرة الصدر الأول فهموه من رجالها . هذا هو الطريق .

إن الأرزاق المادية ، والقيم المادية ، ليست هي التي تحدد مكان الناس في هذه الأرض ، في الحياة الدنيا فضلاً عن مكانهم في الحياة الأخرى . إن الأرزاق المادية ،

والتيسيرات المادية ، والقيم المادية ، يمكن أن تصبح من أسباب شقوة البشرية — لا في الآخرة المؤجلة ولكن في هذه الحياة الواقعة — كما نشهد اليوم في حضارة المادة الكالحة . إنه لا بد من قيم أخرى تحكم الإنسانية ، وهذه القيم الأخرى هي التي يمكن أن تعطي للأرزاق المادية والتيسيرات المادية قيمتها في حياة الناس ؛ وهي التي يمكن أن تجعل منها مادة سعادة وراحة لبني الإنسان .

إن المنهج الذي يحكم حياة مجموعة من البشر هو الذي يحدد قيمة الأرزاق المادية في حياتهم . هو الذي يجعلها عنصر سعادة أو عنصر شقاء . كما يجعلها سبباً للرفق الإنساني أو مزقاً للارتكاس .

ومن هنا كان التركيز على قيمة هذا الدين في حياة أهله . والذين يركزون على القيم المادية ، وعلى الإنتاج المادي ، ويغفلون تلك القيمة الكبرى الأساسية ، هم أعداء البشرية الذين لا يريدون لها أن ترتفع على مستوى الحيوان وعلى مطالب الحيوان .

وهم لا يطلقونها دعوة بريئة ، ولكنهم يهدفون من وراءها إلى القضاء على القيم الإيمانية ، وعلى العقيدة التي تعلق قلوب الناس بما هو أرفع من مطالب الحيوان — دون أن تغفل ضرورتهم الأساسية — وتجعل لهم مطالب أساسية أخرى إلى جوار الطعام والسكن والجنس التي يعيش في حدودها الحيوان .

وهذا الصباح المستمر بتضخيم القيم المادية ، والإنتاج المادي ، بحيث يغطي الانشغال به على حياة الناس وتفكيرهم وتصوراتهم كلها . وبحيث يتحول الناس إلى آلات تلهث وراء هذه القيمة ، وتعدّها قيمة الحياة الكبرى ؛ وتنسى في عاصفة الصباح المستمر .. الإنتاج .. الإنتاج .. كل القيم الروحية والأخلاقية وتدوس هذه القيم كلها في سبيل الإنتاج المادي .. هذا الصباح ليس بريئاً ؛ إنما هو خطة مدبرة لإقامة أصنام تُعبد بدل أصنام الجاهلية الأولى ، وتكون لها السيادة العليا على القيم جميعاً .

وعند ما يصبح الإنتاج المادي صنماً يكادح الناس حركته ويطوفون به في قداسة الأصنام ؛ فإن كل القيم والاعتبارات الأخرى تandas في سبيله وتنتهك الأخلاق . الأسرة . الأعراض . الحريات . الضمانات .. كلها .. كلها إذا تعارضت مع توفير الإنتاج يجب أن تandas . فماذا تكون الأرباب والأصنام إن لم تكن هي هذه ؟ إنه ليس من اللحم أن يكون الصنم حجراً أو خشباً . فقد يكون قيمة واعتباراً ولافتة ولقياً .

إن القيمة العليا يجب أن تبقى لفضل الله ورحمته المتمثلين في هداية ، الذي يشفي الصدور ، ويحرر الرقاب ، ويعلي من القيم الإنسانية في الإنسان . وفي ظل هذه القيمة العليا يمكن الانتفاع برزق الله الذي أعطاه للناس في الأرض ؛ وبالتصنيع الذي يوفر الإنتاج المادي ؛ وبالتيسيرات المادية التي تقلل من شدة الكدح ؛ وبساتر هذه القيم التي تدف الجاهلية حولها الطبول في الأرض وبدون وجود تلك القيمة العليا وسيادتها تصبح الأرزاق والتيسيرات والإنتاج لعنة يشقى بها الناس ، لأنها يومئذ تستخدم في إعلاء القيم الحيوانية والآلية ، على حساب القيم الإنسانية العلوية .

٣ — وصف الله عز وجل أوليائه بأنهم الذين اجتمع لهم : الإيمان والتقوى ، ولأصحاب هذه المقامات علامات ، هي أثر عن تحققهم بمقامات الولاية ، وهذه نصوص تدل على هذه السمات :

قال عبد الله بن مسعود وابن عباس ، وغير واحد من السلف (أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكروا) الله ، وقد ورد هذا في حديث مرفوع كما روى البزار ... عن ابن عباس قال : قال رجل يا رسول الله : من أولياء الله ؟ قال : « الذين إذا رؤوا ذكروا الله » وروى ابن جرير .. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن من عباد الله عبادة يغبطهم الأنبياء والشهداء » قيل من هم يا رسول الله لعنا نحبهم ؟ قال : « هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس . ولا يحزنون إذا حزن الناس » ثم قرأ ﴿ إِنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ورواه أيضاً أبو داود بإسناد جيد . وفي حديث الإمام أحمد .. عن أبي مالك والأشعري قال : قال رسول الله ﷺ « يأتي من أفناء الناس ، نوازع القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا في الله ، وتصادقوا في الله ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلسهم عليها ، يفرح الناس ولا يفرحون ، هم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

أقول : في موضوع الولاية وقعت أخطاء كثيرة وانحرافات خطيرة ، وعلى بذلك أقوام كثيرون حتى كفروا ، واعتمد كثيرون من الناس قواعد في موضوع الولاية لا أصل لها ، وللألوسي تحقيق في هذا المقام نقله لما فيه من فوائد :

قال الألوسي : (وبالحملة متى رأينا الشخص مؤمناً متقياً حكمنا عليه بالولاية نظراً لظاهر الحال ، ووجب علينا معاملته بما هو أهله من التوفير والاحترام ، غير غالين فيه

بتفضيله على رسول أو نبي أو نحو ذلك مما عليه العوام اليوم في معاملة من يعتقدونه ولياً التي هي أشبه شيء بمعاملة الشركيين من يعتقدونه هذا نساء نعرن نعور والعاقبة . ولا يشترط فيه صدور كرامة على يده ، كما يشترط في أرسون صدور معجزة ، ويكفيه الاستقامة كرامة ، كما يدل عليه ما اشتهر عن أبي يزيد رحمه الله : بل الولي الكامل لا التفات له إليها ، ولا يؤدّ صدورها على يده ، إلا إذا تضمنت مصلحة للمسلمين خاصة أو عامة . وفي الجواهر والدرر للشعراني سمعت شيخنا يقول : إذا زلّ الولي ولم يرجع لوقته عوقب بالحجاب ، وهو أن يحب إليه إظهار خرق العوائد المسماة في لسان العامة كرامات ، فيظهر بها ويقول : لو كنت مؤاخذاً بهذه الزلة لقبض عني التصرف ، وغاب عنه أن ذلك استدراج ، بل ولو سلم من الزلة ، فالواجب خوفه من المكر والاستدراج ، وقال بعضهم : الكرامة حيض الرجال ، ومن اغتر بالكرامات بالكري مات . وأضرّ الكرامات للولي ما أوجب الشهرة فإن الشهرة آفة ، وقد نقل عن الخوامس : أنها تنقص مرتبة الكمال ، وأيد ذلك بالأثر المشهور « خص بالبلاء من عرفه الناس » نعم ذكر في أسرار القرآن أن الولاية لا تتم إلا بأربعة مقامات : الأول : مقام المحبة ، والثاني : مقام الشوق ، والثالث : مقام العشق ، والرابع : مقام المعرفة ، ولا تكون المحبة إلا بكشف الجمال ، ولا يكون الشوق إلا باستشاق نسيم الوصال ، ولا يكون العشق إلا بدنو الأنوار ، ولا تكون المعرفة إلا بالصحة ، ولحصول ذلك آثار وعلامات مذكورة فيه ، فليراجعه من أرادها ؛ والكلام في هذا المقام كثير ، وكُتب القوم ملأى منه ، وما ذكرناه كفاية لغرضنا . وأحسن ما يعتمد عليه في معرفة الولي اتباعه الشريعة الغراء ، وسلوك المحجة البيضاء . فمن خرج عنها قيد شبر بُعِدَ عن الولاية بمراحل . فلا ينبغي أن يطلق عليه اسم الولي ولو أتى بألف ألف خارق ، فالولي الشرعي اليوم أعز من الكبريت الأحمر . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أما الخيام فإنها كخيامهم وأرى نساء الحي غير نسائها)

٤ - مما يساعد على فهم قوله تعالى ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ هذه النقول :

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ قال : « الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له » .

روى ابن جرير عن أبي الدرداء في قوله تعالى ﴿لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال : سأل رجل أبا الدرداء عن هذه الآية فقال : لقد سألت عن شيء ما سمعت أحداً سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسول الله ﷺ فقال : « هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو ترى له ، وهي جزء من أربعة وأربعين - أو سبعين - جزءاً من النبوة » .

وروى الإمام أحمد ... عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال : ﴿لَهُم الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال : « الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من تسعة وأربعين جزءاً من النبوة ، فمن رأى ذلك فليخبرها ، ومن رأى سوى ذلك فإلما هو من الشيطان ليحزنه فلينبث عن يساره ثلاثاً ، وليكبر ، ولا يخبر بها أحداً » .

وروى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ﴿لَهُم الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الرؤيا الصالحة التي يبشرها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

وروى ابن جرير عن أبي هريرة أنه قال : « الرؤيا الحسنة بشرى من الله وهي من المبشرات » .

وروى ابن جرير عن أم كرز الكعبية أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ذهبت النبوات وبقيت المبشرات » .

وهناك اتجاه لتفسير معنى البشرى بيئته ما جاء في حديث البراء رضي الله عنه : أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة يبيض الوجوه بيض الثياب ، فقالوا : أخرجي أيها الروح الطيبة ، إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان ، فتخرج من فيه كما تسيل القطرة من فم السقاء . وهناك اتجاه ثالث لمعنى البشرى ورد في حديث أبي ذر التالي :

وروى الإمام أحمد ... عن أبي ذر أنه قال : يا رسول الله الرجل يعمل العمل ويمحمد الناس عليه ، وينتون عليه به فقال رسول الله ﷺ « تلك عاجل بشرى المؤمن » ورواه مسلم .

هـ - بمناسبة قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا﴾ يقول صاحب الظلال : (والمنهج القرآني يستخدم المشاهد الكونية كثيراً في معرض الحديث عن قضية العبودية . ذلك أن هذا الكون بوجوده وبمشاهدته شاهد ناطق للفقرة

لا تملك لمنطقه رداً . كذلك يخاطب الناس بما في علاقتهم بهذا الكون من تناسق . وهم يجنون هذا في حياتهم فعلاً . فهذا الليل الذي يسكنون فيه ، وهذا النهار الذي يبصرون به ، هما ظاهرتان كونيستان شديدتا الاتصال بحياتهم . وتناسق هذه الظواهر الكونية مع حياة الناس بحسونه هم — ولو لم يتعمقوا في البحث و « العلم » . ذلك أن فطرتهم الداخلية تفهم عن هذا الكون لغته الخفية .

وهكذا لم يكن البشر في عماية عن لغة الكون حتى جاءتهم « العلوم الحديثة » لقد كانوا يفهمون هذه اللغة بكيونوتهم كلها . ومن ثم مخاطبتهم بها العليم الخبير منذ تلك القرون . وهي لغة متجددة بتجدد المعرفة ، وكلما ارتقى الناس في المعرفة كانوا أقدر على فهمها ، متى تفتحت قلوبهم بالإيمان ، ونظرت بنور الله في هذه الآفاق)

كلمة في السياق :

ناقشت السورة حتى الآن الشك في القرآن من ناحيتين : أولاً : من ناحية ما ادّعاه الكافرون : أن الله أعظم من أن ينزل وحياً ، وبالتالي فهذا القرآن ليس وحياً ، وقدت ذلك ، وثانياً من ناحية كون الرسول ﷺ مفترياً على الله بنسبة هذا القرآن إليه ، وقدت ذلك . وإذ نبين أن هذا القرآن لا شك فيه أنه من عند الله ، فقد بين الله عز وجل خصائص كتابه ممتناً على خلقه بأن أنزل لهم هذا القرآن ، والآن يأتي مقطعان من القسم الثاني : الأول : يقصّ علينا قصة نوح ومن جاء بعده من الرسل عليهم السلام ، ثم قصة موسى وهارون عليهما السلام ، وهذه القصص في هذا المقام نموذج على أن الله قد أرسل رسلاً قبل محمد ﷺ ، وأنزل عليهم وحياً ، وقد بشروا وأنذروا ، فكان الله عز وجل بعد أن أقام الحجة على نفي العجب أن يرسل رسولاً ، يضرب الأمثال هنا على أن إرسال محمد ﷺ ليس بدعاً . ثم يأتي المقطع الأخير من القسم الثاني ليناقد الشك بهذا القرآن ، وبهذا الرسول مرة ثانية ، ليختم السورة بالدعوة إلى أتباع القرآن وترك الشك . وبهذا نختم السورة بعد أن فصلت أن هذا القرآن لا ريب فيه ، وأن فيه الهدى فليبتدوا . وهذا هو المقطع الثاني من القسم الثاني :

المقطع الثاني من القسم الثاني

ويمتد هذا المقطع من الآية (٧١) إلى نهاية الآية (٩٣)

كلمة بين يدي هذا المقطع :

١ - فيما مضى من السورة ذكر الله ناساً يتعجبون من أن ينزل الله وحياً ويرسل رسولاً ، وقد فند الله مزاعم هؤلاء ، وفي هذا المقطع يقص الله علينا قصص رُسل بعثوا ، وفي ذلك تفسيد من نوع ثان لمن يكذب بالوحي وبيعة الرسل عليهم الصلاة والسلام

٢ - وفيما مر من السورة حذر الله وأنذر من يكذب الرسل بالعذاب الدنيوي قبل الآخرى ، وفي هذا المقطع يقص الله علينا من أنبياء أقوام كذبوا فُعذبوا

٣ - وفيما مر من السورة بشر الله عز وجل أهل الإيمان في الدنيا والآخرة ، وفي هذا المقطع يقص الله علينا كيف تكون عاقبة أهل الإيمان حميدة :

فقال عن نوح عليه السلام : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ ﴾ ، وختم المقطع بقوله : ﴿ وَلَقَدْ يَوَّانَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبْرَأَ صَدَقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ وفي المقطع نماذج من الهدى وهذا هو المقطع :

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ۖ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كِبُرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي
بِعَايَةِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ
عَلَيْكُمْ عَمَةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَسْأَلَنَّكُمْ مِنْ
أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَفَاءَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَذَكِّرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِحُجَّتِهِمْ

بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا لَيُبَيِّنُونَا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ
 الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
 بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا
 قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ
 هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا
 وَنَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُتُونِي
 بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ
 مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُطِيلُ ٱلَّذِينَ
 لَا يَصْلِحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَلَوْ كَرِهَ
 الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ قَالُوا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خِيفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ
 وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ
 مُوسَى يَنْقُومُ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾
 فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ
 مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ
 يُونَا وَاجْعَلُوا يُونَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى

رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا
لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا
حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ
سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ * وَجَازَنَّا يُنْيَى إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي
ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَالْقَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ
وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نَجْعِكَ بِيَدِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً
وَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي
إِسْرَءِيلَ مَبَآئِذَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ
إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

التفسير :

﴿ وَاِتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي أخبرهم واقصص عليهم ﴿ نَبَا نُوْحٍ ﴾ أي خبره مع قومه
كيف ذكّرههم وأنذرهم ، فكذبوه ، فأهلكهم الله ودمرهم بالغرق عن آخرهم ليحذر
هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك ، وليعلموا أنها سنة الله أن يرسل
رسلاً مبشرين ومنذرين ، فلا يتعجبون من إرسالك ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ
كَبُرَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي عظم وشق عليكم ﴿ مَقَامِي ﴾ أي لبني فيكم بين أظهركم
﴿ وَتَذَكَّرِي ﴾ أي وعظي إياكم ﴿ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي بحججه وبراهينه ﴿ فَعَلَى اللَّهِ
تَوَكَّلْتُ ﴾ فإني لا أبالي ولا أكف عنكم ، سواء عظم عليكم أو لا ﴿ فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ

وشركاءكم ﴿أي فاعزموا أمركم مع شركائكم على أمر تفعلونه في﴾ ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ﴿أي مستوراً ، أظهره وجاهروني به﴾ ثم اقضوا إلي ﴿أي امضوا فيما أردتموه﴾ ولا تنظرون ﴿أي تهملون غيبي لست مبالياً بكم ، أي مهما قدرتم فافعلوا غيبي لا أباليكم ، ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شيء﴾ فإن توليتم ﴿أي كذبتم وأدبرتم عن تذكيري ، وعن تقوى الله وطاعتي﴾ فما سألتكم من أجر ﴿أي ثواب أي لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً﴾ إن أجري إلا على الله ﴿أي ما ثواني إلا على ربي﴾ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴿أي وأنا متمثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل ، الذي هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم ، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم﴾ فكذبوه فتجيناه ومن معه ﴿أي على دينه﴾ في الفلك ﴿أي السفينة﴾ وجعلناهم ﴿هو ومن معه﴾ خلائف ﴿أي في الأرض﴾ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴿بالطوفان﴾ فانظر ﴿أي يا محمد ، وكذلك أيها المخاطب﴾ كيف كان عاقبة المنذرين ﴿أي كيف كانت نهايتهم من الإهلاك ، فكذلك تفعل بمن كذب الرسل وأنتم منهم ، ومن خلال السياق نترك حكمة مجيء هذه القصة . محمد ﷺ أرسل مأموراً أن ينذر الناس ، وقد أنذر ، فكان موقف الناس العجيب أن يرسل الله رسولاً . فهذه القصة تبين أن أمر الإنذار جد ، وأن عاقبة المنذرين - إذا لم يؤمنوا - رهبة في الدنيا فضلاً عن الآخرة - ، وأن عجب الكافرين في غير محله ، لأن الله من سنته العصور أن يرسل رسلاً .

كلمة في القصة القرآنية:

نلاحظ هنا أنه جاءت قصة نوح عليه السلام ، ثم قصة موسى عليه السلام وفرعون ، ومن قبل هذه في سورة الأعراف ذكرت قصة نوح ، وقصة موسى مع فرعون ، وستكرر قصة موسى وفرعون ، وقصة نوح أكثر من مرة في القرآن ، مرة بشكل مطوّل ، ومرة بشكل مختصر فلم تتكرر القصة الواحدة ؟ أذكر ههنا شيئين :

الأول : إن كل مكان تُرد فيه فإنها تخدم سياق السورة التي وردت فيها موضوعها ومحلها في الترتيب القرآني . وقد لاحظنا هنا أن قصة نوح خدمت السياق العام لسورة يونس ، وهو نفى العجب ، وجدية الإنذار كجزء من معالجة الشك في القرآن ، بينما قصة نوح في سورة الأعراف خدمت سياق سورة الأعراف في قضية إنزال الهدى وموقف الناس منه وعاقبة ذلك . وهكذا في كل مكان ، فإن القصص تخدم سياق السورة وموضوعها العام

ومحورها في الترتيب القرآني الكبير .

الثاني: إن القرآن الذي من خصائصه - كما ذكرت هذه السورة - أنه ﴿ موعظة من ربكم ﴾ هذا القرآن تأتي القصة فيه في إطار تحقيق العظة ، والقصة الواعظة ترد مرة في السورة الطويلة ، ومرة في السورة المتوسطة ، ومرة في السورة القصيرة ، ومرة في قسم ، ومرة - أو مرتين أو أكثر - في قسم آخر ليأخذ التالي من حيث تلا العظة من الحادثة البليغة ، فإذا استقر هذان الشيطان في الذهن نقول : إن قصة نوح عليه السلام في هذا المقام تخدم سياق سورة يونس : فهي تخدم نفي العجب عن إرسال الرسول المنذر ، وهي تخدم قضية كون القرآن موعظة وهدى ، وهي تخدم قضية شفاء القلب من الشك - كما سنرى - وهي في الوقت نفسه تربي المؤمن على المواقف الصحيحة تجاه الكافرين ، وهي المواقف التي يملها الإيمان بالوحي المنزل .

فائدة:

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ يذكر ابن كثير أن الإسلام هو دين كل رسول وكل نبي ، ويذكر أدلة ذلك من القرآن فيقول : (كما قال تعالى ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ (المائدة : ٤٨) قال ابن عباس : سبباً وسنة ، فهذا نوح يقول : ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ وقال تعالى عن إبراهيم الخليل : ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (البقرة : ١٣١ ، ١٣٢) وقال يوسف : ﴿ رب قد آتيني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ (يوسف : ١٠١) وقال موسى : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ وقالت السحرة ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ (الأعراف : ١٢٦) وقالت بلقيس : ﴿ رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ (النمل : ٤٤) وقال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾ (المائدة : ٤٤) وقال تعالى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ (المائدة : ١١١) وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ : ﴿ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا

شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿ (الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣) أي من هذه الأمة ، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه : « نحن معاشر الأنبياء أولاد علان ديننا واحد » أي وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت شرائعنا ، وذلك معنى قوله « أولاد علان » وهم الإخوة من أمهات شتى والآب واحد)

• • •

﴿ ثم بعثنا من بعده ﴾ أي من بعد نوح ﴿ رسلاً إلى قومهم ﴾ كهود وصالح وشعيب عليهم السلام ﴿ فجاءوهم بالبينات ﴾ أي بالمعجزات والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ أي قبل بعث الرسل إليهم ، أو المعنى : فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم ﴿ كذلك نطبع ﴾ أي نختم ﴿ على قلوب المعتدين ﴾ فلا تقبل قلوبهم الإيمان كما طبعنا على قلوب أولئك فلم تقبل الإيمان ، فكما طبع الله على قلوب المكذبين من الأمم الغابرة بسبب تكذيبهم العدواني المحض ، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم ، ويختم على قلوبهم ، وفي هذا إنذار عظيم لمن يكذب سيد الرسل محمداً ﷺ الذي هو نعيم الأنبياء والمرسلين ، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما أصابهم فماذا يظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من ذلك .

كلمة في السياق :

بدأ المقطع الثاني من القسم الأول بقوله تعالى ﴿ أم يقولون افتراء ... ﴾ وكانت الآية الثانية فيه ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ إلى قوله ﴿ فانظر كيف كان عقوبة الظالمين ﴾ وكانت الآية الثالثة فيه ﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين ﴾ وههنا حدثنا الله عن أمم سابقة كيف كذبت رسلها ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ فالموقف واحد ، والأسباب التي تؤدي إلى تلك المواقف واحدة ، وصلة هذه الآية بالسياق واضحة ، وكونها نموذجاً على المعاني التي مرت من قبل لا يحتاج إلى تأمل كبير

فائدة :

نلاحظ أن الآية ذكرت أن عقوبة الطبع على القلوب كانت - على أحد وجهي التفسير - بسبب الرفض للحق عندما عرض على القلوب أول مرة - وفي هذا إنذار

كبير لمن يرفض الحق وقد انضغ لقلبه - كما أن قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَعَدِّينَ ﴾ يشير إلى أنه لا طبع إلا بسبب اعتداء ، وهذا إنذار كبير للإنسان ، ألا يقف موقف اعتداء أبداً . والآية بعد هذا كله تؤدي دورها في السياق العام لسورة يونس في نفي العجب من رسالة محمد ﷺ ؛ لأن بعثة الرسل وإرسالهم سنة الله في العصور والأمم .

• • •

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي من بعد تلك الرسل ﴿ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ أي قومه ﴿ بآيَاتِنَا ﴾ أي حججنا وبراهيننا ومعجزاتنا ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ عن اتباع الحق والانقياد له والإيمان به ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مَجْرُمِينَ ﴾ في الأصل ، ومن ثم وقفوا هذا الموقف المنسجم مع إجرامهم ، أو كانوا قوماً مجرمين لموقفهم من موسى ورسالته ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مَبِينٌ ﴾ أي بين ظاهر ، والآية تشير إلى أنهم أكلوا كونه سحراً بكل أنواع المؤكيدات باستعمال كلمة (إن) ، وبجىء اللام في غيرها ، ووصف السحر بالوضوح ، والصيغة تشير إلى استعمال القسم في كلامهم ، ولذلك قال ابن كثير : كأنهم - قبحهم الله - أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان . اهـ وهكذا ذاب أهل الإجرام إذ يحاربون الدعاة إلى الله يصمونهم بكل وصمة مستعملين أبلغ صيغ التأكيد .

فائدة حول السياق :

نلاحظ كيف أن القصة هنا تؤدي دورها في السياق العام لسورة يونس ، فلو تذكرنا بداية سورة يونس فإننا نجد : ﴿ أَكُنْ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عَنْهُمْ رَبُّهُمْ قَالِ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مَبِينٌ ﴾ فكما أنهم محمد ﷺ بالسحر بأبلغ صيغ التأكيد في الاتهام ، أنهم موسى من قبل ، فقصة موسى هنا تأتي لتؤدي دورها في نفي العجب من الإرسال ، وفي تبيان المواقف الخاطئة من الرسل ، ولتين نهايات المكذبين الغابرين ، ليحذر المكذبون الجدد

• • •

﴿ قَالَ مُوسَى ﴾ لهم منكرأ عليهم ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ﴾ إنه لسحر ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ كيف وقد أفلح من أتى به ، وأبطل الله به سحر السحرة ، مع أن سنة

الله ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ كما هو مشاهد مُحسّر في كل العصور ﴿ قالوا أجننا
لثلفتنا ﴾ أي لثردنا وثبتنا ﴿ نعمًا وجدنا عليه آباءنا ﴾ أي عن الدين الذي كانوا عليه
﴿ وتكون لكما ﴾ أي لك يا موسى وهارون ﴿ الكبرياء ﴾ أي العظمة والرئاسة
والملك ﴿ في الأرض ﴾ أرض مصر ، وهكذا دأب المفسدين في كل عصر يتهمون
المصلحين بنباتهم ، وأنهم لا يريدون وجه الله في دعوائهم الإصلاحية ، وما أقبحها من
حجة وأظهر بطلانها ، لأن الدعاة إلى الله يدعون الناس إلى الطريق الأصعب ،
ويتحملون من أجل ذلك كل قاس من الأمر ، ولو كانوا يريدون الدنيا لحصلوا عليها عن
طريق المماثلة والمداينة والسكوت وخدمة الطواغيت ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ أي
بمصدقين ، هذا هو القرار النهائي أعلنوه بعد أن ذكروا حيثيات الرفض وأسبابه في
زعمهم وتصورهم ، ولبدل فرعون على سلامة موقفه الظالم بالهجرة على الناس ،
بمعارضة ما جاء به موسى ، أمر بدعوة السحرة ليبرهن أن ما جاء به موسى سحر
فانعكس عليه النظام ﴿ وقال فرعون انتوبي بكل ساحر عليم ﴾ أي فائق في علم السحر
﴿ فلما جاء السحرة قال لهم موسى ﴾ بعد ما قالوا : إما أن تلقي وإما أن نكون نحن
الملقون ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ أراد موسى أن تكون البداءة منهم ليري الناس ما
صنعوا ، ثم يأتي بالحق بعده فيدفع باطلهم ﴿ فلما ألقوا ﴾ أي حياهم وعصيتهم ﴿ قال
موسى ما جئتم به السحر ﴾ أي الذي جئتم به السحر ، فكلمة السحر بدل من اسم
الموصول (ما) وهو مبتدأ ، وخبره ﴿ إن الله سيضلله ﴾ أي سيمحقه ﴿ إن الله لا
يصلح عمل المفسدين ﴾ هذه سنة من سنن الله أن المفسد لا يقبل عمله الإصلاح ،
ومن ثم فإن علينا أن لا ننسب المفسد إلى الإصلاح ، ولا نغتر بأعماله ، وكل داع إلى
شيء يخالف شرع الله فهو مفسد ، وكل من يحارب الدعوة إلى الله وأهلها فهو مفسد ،
فلا تغتر بعمل من أعماله ، لأن سنة الله أن لا يصلح عمل المفسدين ، ثم ذكر الله سنة
أخرى متممة لهذه السنة ﴿ ويحق الله الحق ﴾ أي يشته وبظهره ﴿ بكلماته ﴾ أي
بمواعيده ﴿ ولو كره المجرمون ﴾ فالجرمون يكرهون الحق وظهوره وظهور أهله ، والله
يريد ذلك وما أراد الله كان ، ولكنه له - جل جلاله - حُكم في تأخير الظهور ، من
تمحيص للصف ، وإقامة للحجة ، وغير ذلك كما نراه أكثر من مرة في كتاب الله

كلمة في السياق :

نذكر مرة ثانية بما جاء في أوائل المقطع الثاني من القسم الأول : ﴿ ومنهم من يؤمن

به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين ﴿ لاحظ كلمة (بالمفسدين) ولاحظ قوله تعالى هنا ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ لئلا أكد لك أن هذه القصة هنا تأتي بما يخدم سياق سورة يونس فهي تأتي نموذجاً على المعالي التي قررها الله من قبل .

• • •

﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ﴾ أي إلا طائفة من أولاد قومه وهل الضمير في (قومه) يعود إلى موسى أو إلى فرعون ؟ قولان للمفسرين ، فعلى القول الأول يكون المراد - والله أعلم - أن الذين آمنوا لموسى ، وتحمسوا له ، وأظهروا هذا الإيمان ، هم الشباب من قومه ، وإن كان كل بني إسرائيل قد آمنوا لموسى نوع إيمان ، وعلى القول الثاني : يكون الذين آمنوا بموسى من قوم فرعون هم طائفة من الشباب كمؤمن آل فرعون التي تمر قصته معنا في سورة غافر ﴿ على خوف من فرعون وملأههم أن يفتنهم ﴾ أي بصرفهم عن دين الله بتعذيبهم ، وعلى القول بأن الذرية من قوم فرعون يكون المعنى : أن هؤلاء آمنوا لموسى على خوف فرعون وأشراف قومهم أن يفتنهم فرعون أي وهؤلاء الأشراف معه أي وجنده وحاشيته ، وعلى القول بأن الذرية من قوم موسى يكون المعنى : أن هؤلاء آمنوا لموسى على خوف من فرعون أن يفتنهم ، وأن أشراف قومهم كانوا خائفين عليهم كذلك أن يفتنهم فرعون ، وهذا الاتجاه الثاني هو الذي يحس في الواقع ، فعندما يقوم مصلح إلى الله وبصارع الطواغيت لا يستجيب له في الغالب إلا الشباب ، وبهذا يعرض هؤلاء الشباب أنفسهم للمحنة ، فيبقون في خوف من السلطة الظالمة ، وأهلوهم كذلك يخشون عليهم ، فهم خائفون أن يفتنوا ، وأهلوهم خائفون عليهم أن يفتنوا ﴿ وإن فرعون لعالٍ ﴾ أي منكر ﴿ في الأرض ﴾ ﴿ وإنه لمن المسرفين ﴾ أي المتجاوزين الحد بادعاء الربوبية .

فوائد :

١ - يلاحظ من قوله تعالى : ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ﴾ أن الذين يستجيبون للدعوات الإصلاحية هم الشباب ؛ لسلامة فطرتهم ، فنفس الشباب أقرب لأن تقبل الحق ، ومن ثم فعلى أصحاب الحق أن يدركوا معدن النصر ، وألا يتطلّعوا إلى أجيال ليست مرشحة لأن تفعل شيئاً ؛ لأنها تجاوزت دور الفاعلية ، على أن صاحب الدعوة عليه أن يبلغ دعوته للجميع .

بالعبادة ، ويعودوهم عليها ليتحققوا بالتوكل ليستطيعوا تحمل أعباء مراحل الحياة وما فيها .

.....

﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا ﴿أي اتخذا﴾ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أي مصلى فيه لتأمنوا من الخوف ، وكان فرعون منعهم من الصلاة ، وقال سعيد بن جبير في تفسير قوله تعالى : ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أي يقابل بعضها بعضاً ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أي أتموها ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أي بالنصر والجنة .
فائدة:

هذه الآية فيها الكثير من فقه الدعوة ، فعل القول الأول في تفسير القبلة نفهم أن البيوت تنوب مناب الأماكن العامة ، إذا حيل بين الدعوة وهذه الأماكن ، فمثلاً في كثير من بلدان العالم الإسلامي - وخاصة في البلدان التي خضعت للأنظمة الشيوعية - نجد كلمة الحق محظورة في المسجد ، ومضيقاً عليها ، حتى حلقات العلم وبحال دونها ، وفي مثل هذا الظرف فالبيوت تقوم مقام المسجد ، والدور العامة ، ولكن لا ننسى أن المساجد هي حوائيت الإسلام ومعاقله ، فلا نتخلي عنها إلا كنتخلينا عن معقل ، وإلا فالأصل أن نحبي المسجد ورسالاته . وإنما هي حالة الاضطراب كما هنا . قال النووي في الآية : كانوا خائفين فأمرُوا أن يصلوا في بيوتهم ، ومن تفسير ابن جبير للقبلة نعرف أن لقرب بيوت أهل الحق من بعضهم مصلحة - بل مصالح - وفي تذييل الآية بالأمر بالصلاة والبشارة بالنصر ندرك دور الصلاة في المساعدة على التحمل ، ودور التفاضل وإشاعته في تجاوز أهل الحق المحنة وارتباط هذا بهذا ، ومن ثم أمر الله المؤمنين بقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ... ﴾ (البقرة : ١٥٣) ومن ثم كان عليه الصلاة والسلام : « إذا حزبه أمر صلى » أخرجه أبو داود . والحاصل أن هذه الآية فيها الكثير من فقه الدعوة فقد رسمت لهنى إسرائيل الطريق قال ابن كثير فيها : (يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه ، وكيفية خلاصهم منه) .

أقول : وهي ترسم الطريق لكل حالة مشابهة ، ومن كلام صاحب الظلال في هذه الآية ، آية : ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين ﴾ :

(وتلك هي التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية . وهما معاً ضرورتان للأفراد والجماعات ، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات . ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية ، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة ، وأن الأداة الحربية في يد الجندي الحائر العقيدة لا تساوي شيئاً كثيراً في ساعة الشدة .

وهذه التجربة التي يعرضها الله على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة ليست خاصة لبني إسرائيل ، فهي إيمانية خالصة . وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي ، وقد عمّت الفتنة ونجس الطاغوت ، وفسد الناس ، وأنتت البيئة — — وكذلك كان الحال على عهد فرعون في هذه الفترة — وهنا يرشدكم الله إلى أمور :
* اعتزال الجاهلية بنتها وفسادها وشرها — ما أمكن في ذلك — وتجمع العصبة المؤمنة الخير النظيفة على نفسها ، لتطهرها وتزكّيها ، وتدرّبها وتنظمها ، حتى يأتي وعد الله لها .

* اعتزال معابد الجاهلية ، واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي ؛ وتزاول عبادتها بها على نهج صحيح ، وتزاول بالعبادة ذاتها نوعاً من التنظيم في جو العبادة الطهور ..)

أقول : لقد فهم بعض قراء الشهيد سيد — رحمه الله — من هذه الفقرة ما لم يرده منها ، فاعتزلوا الجمع والجماعات ، واعتزلوا مساجد المسلمين بحجة أنها أصبحت معابد جاهلية ، ويجب اعتزالها ، وهذا فهم خاطيء ، فالمساجد للإسلام وأهله ، والأصل في المسلم صحة العقيدة حتى يتبين العكس ، والأصل أن نحسن الظن في المسلم حتى يتبين العكس ، والأصل أن نحسن الظن في رواد المساجد حتى يتبين العكس ، وإذا ما ثبت لنا أن إمام مسجد أو خطيبه كافر فساعتئذ نتحاماه إلى غيره ، وإذا ما ثبت لنا أنه مبتدع فالأولى أن نتجنبه

* * *

ثم أخبر تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم ؛ معاندين جاحدين ظلماً وعلواً وتكبراً وعتواً ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة ﴿ من أثاث الدنيا ومتاعها ﴾ وأموالاً ﴾ أي

جزيلة كثيرة ﴿ في ﴾ هذه ﴿ الحياة الدنيا ربنا ﴾ آتيتهم ذلك ﴿ ليضلوا ﴾ في عاقبه ﴿ عن سبيلك ﴾ عن دينك ، والمعنى : آتيتهم وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم ، استدراجاً منك لهم ، فيفتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا خبثك إليهم ، واعتناك بهم . ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ أي أهلكها ﴿ واشدذ على قلوبهم ﴾ أي اطع عليها واستوثق ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ أي المؤلم ﴿ قال ﴾ الله تعالى : ﴿ قد أجيت دعوتكما ﴾ مع أن الداعي موسى ، إلا أن هارون كان يؤمن : أي أجبتكما فيما سألتما في شأن فرعون وآله . ﴿ فاستقيما ﴾ على الرسالة والدعوة إلى أن يأتيهم العذاب . والمعنى : كما أجبت دعوتكما فاستقيما على أمرى لأن النعمة تقتضي شكراً ﴿ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ في استعجال القضاء ، وترك الشكر وفقدان البصر .

فوائد :

١ - قال الألوسي في الآية : واستدل بعضهم بالآية على أن الدعاء على شخص بالكفر لا يعد كفرًا إذا لم يكن على وجه الاستيجاز والاستحسان للكفر ، بل كان على وجه التمني لينتقم الله تعالى من ذلك الشخص أشد انتقام ، وإلى هذا ذهب شيخ الإسلام خواهر زاده ، فقوله : الرضا بكفر الغير كفر ليس على إطلاقه عنده ، بل هو مقيد بما إذا كان على وجه الاستحسان ، لكن قال صاحب الذخيرة : قد عثرنا على رواية عن أبي حنيفة رضي الله عنه أن الرضا بكفر الغير كفر من غير تفصيل ، والمنقول عن علم الهدى أبي منصور الماتريدي التفصيل ، ففي المسئلة اختلاف ، قيل : والمنقول عليه أن الرضا بالكفر من حيث أنه كفر كفر ، وأن الرضا به لا من هذه الحيثية بل من حيثية كونه سبباً للعذاب الأليم ، أو كونه أثراً من آثار قضاء الله تعالى وقدره - مثلاً - ليس بكفر ، وبهذا يندفع التناقض بين قوله : الرضا بالكفر كفر . وقوله : الرضا بالقضاء واجب بناء على حمل القضاء فيه على المقضي ، ومن هذا التحقيق يعلم ما في قوله : إن من جاءه كافر ليسلم فقال : اصبر حتى أتوضأ أو أخره يكفر ؛ لرضاه بكفره في زمان ؛ فيه النظر ، ويؤيده ما في الحديث الصحيح في فتح مكة أن ابن أبي سرح أتى به عثمان رضي الله تعالى عنه إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله بايعه فكف ﷺ يده عن بيعته ، ونظر إليه ثلاث مرات ، كل ذلك يأتي أن يبايعه ، فبايعه بعد الثلاث ، ثم أقبل ﷺ على أصحابه فقال : « أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث كففت يدي عن بيعته فيقتله ؟ » قالوا : وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك ألا أو مأت إلينا بعينك فقال عليه

الصلاة والسلام : « إنه لا ينبغي لشي أن يكون له خاتمة أعين » وقد أخرج ابن أبي شيبة . وأبو داود . والنسائي . وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص وهو معروف في السير ، فإنه ظاهر في أن التوقف مطلقاً ليس كما قالوه كفرةً فليتأمل .

أقول : قد استشكل بعض الناس دعوة موسى على فرعون وآله بعدم الإيمان ، والجواب أنه دعا بعد إعلام الله إياه أنهم لا يؤمنون . قال ابن كثير : وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه على فرعون وملائه ، الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ، ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح عليه السلام .

٢ - قال ابن كثير : « وقد يحتاج بهذه الآية (أي : قد أجيب دعوتكما) من يقول : إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها لأن موسى دعا وهارون آمن .

٣ - يذكر بعض المفسرين أنه كان بين التبشير باستجابة الدعوة وبين تحقيقها أربعون سنة ، وليس هناك من نص في الكتاب والسنة يحدد مثل هذا غير أن التوراة الحالية وهي مُحَرَّفة - كما نعلم - تذكر أن موسى عليه السلام عندما كلمه فرعون كان عمره ثمانين عاماً . وتذكر أنه عندما توفي كان عمره (١٢٠ سنة) ، وقد توفي موسى عليه السلام في أواخر أيام التيه ، وعلى هذا فمثل هذه الرواية - إن كان مرجعها بني إسرائيل - فالمصدر الأول لبني إسرائيل ينقضها فالأولى عدم التحديد وعدم ذكر شيء من هذا القبيل في هذا المقام .

٤ - في سفر الخروج من أسفار التوراة الحالية حديث طويل عما جرى بين موسى وهارون عليهما السلام من جهة ، وبين فرعون من جهة ، ونلاحظ أن هلاك كثير من الأموال قد حدث أكثر من مرة .

ففي سفر الخروج الإصحاح التاسع - (فَمَا يَدُ الرَّبِّ تَكُونُ عَلَى مَوَاشِيكَ الَّتِي فِي الْحَقْلِ عَلَى الْحَيْلِ وَالْحَمِيرِ وَالْجَمَالِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَبَاءَ ثَقِيلاً جَدًّا .. فَمَاتَتْ جَمِيعُ مَوَاشِي الْمَصْرِيِّينَ) .

(فضرب البرد في كل أرض مصر جميع ما في الحقل من الناس والبهائم وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل) .

وفي الإصحاح العاشر (ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد . فصعد الجراد

على كل أرض مصر وحل في جميع نخوم مصر شيء ثقيل جداً لم يكن قبله جراد هكذا مثله ولا يكون بعده كذلك . وغطى وجه كل الأرض حتى أظلمت الأرض . وأكل جميع عشب الأرض وجميع ثمر الشجر الذي تركه البرد . حتى لم يبق شيء أخضر في الشجر ولا في عشب الحقل في كل أرض مصر .

ويردد في هذا المقام تعبير (ولكن شدد الرب قلب فرعون فلم يطلق بني إسرائيل) .

(ولكن شدد الرب قلب فرعون فلم يسمع لهما كما كلم الرب موسى) قد يكون في هذه الروايات الإسرائيلية مظهر من مظاهر إجابة دعوة موسى وهارون في الطمس على الأموال والتشديد على القلوب إن صحت .

﴿ وجاوزنا بني إسرائيل البحر ﴾ هذه المجاوزة المعجزة التي مرت معنا في سورة الأعراف وتمر من بعد ﴿ فأتبعهم ﴾ أي فلحقهم ﴿ فرعون وجنوده بغياً وعدواً ﴾ أي ظلماً وعدواناً ﴿ حتى إذا أدركه الفرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ . فأمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿ ءآلآن وقد عصيت قبل ﴾ أي هذا الوقت تؤمن وقد عصيت الله قبل هذا ﴿ وكنت من المفسدين ﴾ بضالك وإضالك عن الإيمان ﴿ فاليوم نجيتك ﴾ أي نخرجك من البحر ﴿ بيدك ﴾ أي جسدك الذي لا روح فيه ﴿ لتكون لمن خلفك ﴾ أي لمن بعدك ﴿ آية ﴾ أي عبرة وعظة فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك ﴿ وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون .

فوائد :

١ - انعقد إجماع الأمة الإسلامية على عدم نجاة فرعون وأن إيمانه لا يقبل ، وسبب ذلك أن سنة الله إذا جاء العذاب قوماً قبل أن يؤمنوا فإن إيمانهم لا يقبل ساعته ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد غلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴿ غافر : ٨٤ ، ٨٥ ﴾ .

٢ - عند قوله تعالى : ﴿ ءآلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ قال الألوسي : (والقاتل له ذلك قيل : هو الله تعالى ، وقيل : هو جبريل عليه السلام ،

وقيل : إنه ميكائيل عليه السلام . فقد أخرج أبو الشيخ عن أبي أمامة قال : « قال رسول الله ﷺ قال لي جبريل عليه السلام : ما أبغضت شيئاً من خلق الله تعالى ما أبغضت إبليس يوم أمر بالسجود فأبى أن يسجد ، وما أبغضت شيئاً أشد بغضاً من فرعون فلما كان يوم الفرق يخفت أن يعتصم بكلمة الإخلاص فينجو ، فأخذت قبضة من حمأة فضربت بها في فيه ، فوجدت الله تعالى عليه أشد غضباً مني ، فأمر ميكائيل فأثاه فقال « الآن » الخ وما تضمنه هذا الخبر من فعل جبريل عليه السلام جاء في غير ماخير . ومن ذلك ما أخرجه الطيالسي ، وابن حبان . وابن جرير . وابن المنذر . وابن مردويه . والبيهقي في الشعب . والترمذي . والحاكم وصحاحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قال رسول الله ﷺ قال لي جبريل : لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في في فرعون مخافة أن تتركه الرحمة » .

قال بعض المحققين : إنما فعل جبريل عليه السلام ما فعل غضباً عليه لما صدر منه ، وخوفاً أنه إذا كرر ذلك ربما قبل منه ، على سبيل خرق العادة ؛ لسعة بحر الرحمة الذي يستغرق كل شيء ، وأما الرضا بالكفر فالحق أنه ليس بكفر مطلقاً ، بل إذا استحسن ، وإنما الكفر رضاه بكفر نفسه ، كما في التأويلات لعلم الهدى . انتهى .

والطبيعي بعد أن أجاب بما أجاب أردف ذلك بقوله : على أنه ليس للعقل مجال في مثل هذا النقل الصحيح إلا التسليم ونسبة الفصور إلى النفس (انتهى كلام الألويسي بشيء من الاختصار) .

أقول : إن إساءة فرعون وعتوه قد بلغت مبلغاً جسيماً استحق به ما فعله به جبريل .

٣ - روى البخاري عن ابن عباس قال : قدم النبي ﷺ المدينة ، واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال : « ما هذا الذي تصومونه ؟ فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبي ﷺ : « أنتم أحق بموسى منهم فصوموه » .

وهذه إحدى الملاحظات التي تسجل ، والتي تشكل مجموعها قاعدة هي : أن الرسول ﷺ كان يبنى كل مناسبة لها علاقة برسول سابق ؛ لأننا نحن أولى الناس بكل رسول .

٤ - يلاحظ أن التوراة قد سجلت غرق فرعون في البحر الأحمر ، ولم تسجل نجاة

جسده ، وكل الفراعنة الذي هم مظنة أن يكونوا فرعون موسى موجودة جثثهم عثمة . وهذا الذي دعا كثيراً من المؤرخين الغربيين إلى أن يشككوا بصحة رواية التوراة الخالية ، فإذا رأينا ما ذكره القرآن هنا من نجاة الجنة عرفنا الجواب الصحيح لهذا الموضوع بما يجمع بين رواية التوراة ومكتشفات العصر ، وفي هذا معجزة عظيمة من معجزات القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٥ - يذكر المفسرون المسلمون كلاماً عند قصص القرآن مرجعه في الغالب إلى كلام أهل الكتاب ونحن سنقل لك حول ما مر معنا الرواية الإسرائيلية الخالية :

في سفر الخروج الإصحاح الرابع عشر مائلي : (فلما أخبر ملك مصر أن الشعب قد هرب تغير قلب فرعون وعبيده على الشعب . فقالوا : ماذا فعلنا حتى أطلقنا إسرائيل من خدمتنا . فشدّ مركبته وأخذ قومه معه . وأخذ ست مائة مركب متخفة وسائر مركبات مصر وجنوداً مركبة على جميعها . وشدّد الرب قلب فرعون ملك مصر حتى سعى وراء بني إسرائيل . وبنو إسرائيل خارجون بيد رفيقه . فسعى المصريون وراءهم وأدركوهم جميع خيل مركبات فرعون وفرسانه وجيشه . وهم نازلون عند البحر عند فم الخيروت أمام بعل صفون .

فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون وراءهم ففرزوا جداً وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب . وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر . أليس هذا هو الكلام الذي كُتبتك به في مصر قائلين كفّ عنا فنخدم المصريين . لأنه غير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية . فقال موسى للشعب لا تخافوا . تفقوا وانظروا خلاص الرب الذي يصنعه لكم اليوم . فإنه كما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم أبداً إلى الأبد . الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون . فقال الرب لموسى مائلك تصرخ إليّ ، قل لبني إسرائيل أن يرحلوا . وارفع أنت عصاك على البحر وشقه . فيدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة . وها أنا أشدد قلوب المصريين حتى يدخلوا وراءهم . فأنمجد بفرعون وكل جيشه بمركباته وفرسانه . فيعرف المصريون أني أنا الرب حين أنمجد بفرعون ومركباته وفرسانه ، فانتقل ملاك الله السائر أمام عسكر إسرائيل وسار وراءهم .

وانتقل عمود السحاب من أمامهم ووقف وراءهم . فدخل بين عسكر المصريين وعسكر إسرائيل . وحصار السحاب والظلام وأضاء الليل ، فلم يقترب هذا إلى ذاك كل الليل . ومد موسى يده على البحر فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل . وجعل البحر يابسة وأنشف الماء . فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر . وكان في هزيع الصباح أن الرب أشرف على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب وأزعج عسكر المصريين وغلغ بكمرك مركباتهم حتى ساقوها بثقلية . فقال المصريون نهرب من إسرائيل لأن الرب يقاتل المصريين عنهم .

فقال الرب لموسى مد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم . فعمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة والمصريون هاربون إلى لقاءه . فدفع الرب المصريين في وسط البحر . فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر . لم يبق منهم ولا واحد . وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم .

فخلص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين . ورأى إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطئ البحر . ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين . فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبدوه موسى . (

٦ - ذكر ابن كثير حكمة تكرار قصة موسى عليه السلام في القرآن في سياق الكلام عن هذه القصة في سورة يونس قال : وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز ؛ لأنها من أعجب القصص ، فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر ، فسخره القدر أن ربي هذا الذي يحذر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد ، ثم ترعرع وعقد الله سبباً أخرجه من بين أظهرهم ، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم ، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه ، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان ، فجاءه برسالة الله تعالى ، وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام ، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية ، والنفس الخبيثة الآية ، وقوى رأسه ، وتولى بركته ، وادعى مالئس له ، ونجهرم على الله ، وعنا وبغى وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل ، والله تعالى يحفظ رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون ، ويحفظهما

بعنايته ، وبخبرسهما بعينه التي لا تنام ، ولم نزل الخفاضة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شيء ، ومرة بعد مرة ، مما يبرر العقول ويدهش الألباب ، مما لا يقوم له شيء ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله ﴿ وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴾ وصتم فرعون ومنؤه - قبحهم الله - على التكذيب بذلك كله والجحد والعناد والمكابرة حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد ، وأغرفهم في صيحة واحدة أجمعين ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ (الأنعام : ٤٥) . أهـ

* * *

﴿ ولقد يؤانا ﴾ أي أنزلنا ﴿ بني إسرائيل مبراً صدق ﴾ أي منزل كرامة بعد أن عاقبهم بالنار إذ أورثهم الأرض المقدسة فترة طويلة من الزمن ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً ﴿ فلما اختلفوا ﴾ فآمن بعض وكفر بعض ، وسفّه بعضهم بعضاً ، وقاتل بعضهم بعضاً ﴿ حتى جاءهم العلم ﴾ أي ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس ﴿ إن ربك يقضي بينهم ﴾ أي يفصل بينهم ﴿ يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ من أمر الدين والدنيا .

فوائد :

١ - بمناسبة هذه الآية يذكر ابن كثير بالحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه والموجود في السنن والمسانيد : إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وأن النصارى اختلفوا على الثنتين وسبعين فرقة ، وستفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، منها واحدة في الجنة ، واثنتان وسبعون في النار ، قيل : من هم يارسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي » .

٢ - ذكر ابن كثير قصة الأرض المقدسة ، وقصة بني إسرائيل معها بعد الخروج فقال :

(ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالين إلى بلاد بيت المقدس وهي بلاد الخليل عليه السلام ، فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس ، وكان فيه قوم من العمالقة ، فنكل بنو إسرائيل عن قتالهم ، فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة ، ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام ، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ، ففتح الله عليهم بيت المقدس ، واستمرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم يختصر حيناً من الدهر ، ثم عادت إليهم ، ثم أخذها ملوك الرومان ، فكانت تحت أحكامهم مدة طويلة ، وبعث الله

عيسى ابن مريم عليه السلام في تلك المدة ، فاستعانت اليهود - قبحهم الله - على معاداة عيسى عليه السلام بملوك الرومان ، وكانت تحت أحكامهم ، ووشوا عندهم ، وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا ، فبعثوا من يقبض عليه ، فرفعه الله إليه ، وشبه لهم بعض الخواريين - بمشقة الله وقدره - فأخذوه فصلبوه واعتقدوا أنه هو ﴿ وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ (النساء : ١٥٧ ، ١٥٨) ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلاثمائة سنة دخل قسطنطين - أحد ملوك الرومان - في دين النصرانية وكان فيلسوفاً قبل ذلك ، فدخل في دين النصارى ، قبل : نفية ، وقبل : حيلة ، ليفسده ، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشرعة ، وبدعاً أحدثوها ، فبنى لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار ، والصوامع والهياكل والمعابد والقلابيات ، وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان ، واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتخريف ووضع وكذب ومخالفة لدين المسيح ، ولم يبق على دين المسيح - على الحقيقة - منهم إلا القليل من الرهبان ، فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهام والقفار ، واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية ، والقمامة ، وبيت لحم ، وكنائس ببلاد بيت المقدس ، ومدن حوران ، كبرى وغيرها من البلدان بنايات هائلة محكمة ، وعبدوا الصليب من حيث لا يشعرون ، وصلوا إلى الشرق ، وصوّروا الكنائس ، وأحلوا لحم الخنزير ، وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول ، ووضعوا له الأمانة الحقة ، التي يسمونها الكبيرة ، وصنفوا له القوانين ، وبسط هذا بطول ، والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضي الله عنهم ، وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والله الحمد والمنة .

أقول : ذكر هذا ابن كثير بمناسبة قوله تعالى ﴿ ولقد بوأنا بني إسرائيل موآ صدق ﴾ فكأنه يريد أن يبين ما آل إليه أمرهم بعد أن أنعم الله عليهم ، وبعض كلامه يحتاج إلى تحقيق ، فقد وجدت الانحرافات في النصرانية قبل قسطنطين . فمن المعروف أن بولس الذي عاصر حواربي المسيح عليهم السلام هو الذي خرف وانحرف ، وإنما كان دور قسطنطين أنه فرض هذا الانحراف ، وأكدّه وقوّاه ، وأضعف جانب أصحاب الحق الذين كانوا إلى زمنه هم الأكثرية بالنسبة لمجموع النصارى .

كلمة في السياق :

في ذكر قصة موسى وفرعون في هذا المقطع تقرير لكون بعثة الرسل ليست عجباً ، وتحذير لمن يعاند الرسل ، وتبشير لمن يسير على طريقهم بحسن المآل وحسن العاقبة ، فإذا تذكرنا أن هذا المقطع بدأ بقصة نوح عليه السلام ، ثم بالإشارة إلى الرسل بعده ، ثم بقصة موسى وهارون مع فرعون ، يجتمع لنا في هذا المقطع مجموعة معان يتقرر فيها من خلال العرض القصصي أن من سنة الله إرسال الرسل ، وأن من سنته عقوبة المكذبين ، وأن يجعل العاقبة للمؤمنين ، وفي ذلك إقامة حجة ودروس لأهل الإيمان .

وهكذا نجد أن سياق السورة سار في مناقشة المتعجبين من أن يرسل الله رسولاً هو محمد ﷺ ، وناقش القائلين بأن محمداً افترى هذا القرآن ، ثم عرّف الناس جميعاً على خصائص هذا القرآن ، ثم فصّل هذه القصص التي تهدد المكذبين ، وتبشّر المؤمنين ، وتذكر بأن إرسال الرسل خلال العصور سنة من سنن الله ، والآن يأتي المقطع الثالث من القسم الثاني من سورة يونس التي هي تفصيل لقوله تعالى : ﴿ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وهي السورة التي تنفي كل شك ، وتؤكد خصيصة هذا القرآن في كونه هدى ، ولكن لأهل الإيمان والتقوى .

والملاحظ أن هذا المقطع يبدأ بقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ .

إنه عودة ثانية إلى تأكيد أن هذا الكتاب لا ريب فيه ليكون ذلك مقدّمة للقسم الأخير في السورة ، الذي يدعو الناس إلى ترك الشك بالإسلام ، وإلى الاهتداء بهدي القرآن . وذلك محور السورة فلنر المقطع الأخير في القسم الثاني :

المقطع الثالث من القسم الثاني

ويمتد من الآية (٩٤) إلى نهاية الآية (١٠٣) وهذا هو :

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ
لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ
كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾
فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيبَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ
عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَجَّيْنَاهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ
فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ
لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ
انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا
إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

كلمة في هذا المقطع :

مرّ معنا في هذه السورة العوامل المرضية التي تجعل بعض الناس يشكّون في هذا
القرآن ، و مرّ معنا ما يستحقّه المكذّبون بهذا القرآن ، و مرّ معنا قوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ و يأتي هذا المقطع ليدلّ على ما به
يتنفي الشك عن هذا القرآن ، وليعزي رسول الله ﷺ في الذين لا يؤمنون ، وليؤكد
سنة الله في المكذّبين ، وليؤكد أن علة الريب هي المرض ، وأن هؤلاء الذين يكذبون
لا عقول لهم ، وهكذا يأتي المقطع على نسق محور السورة و سياقها ، وهو عودة إلى
العرض والتقرير والأمر والنهي والحوار بعد القصص :

التفسير :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ باعتمد وهو خطاب لأُمته كلها أي لكل إنسان ﴿ فَسُئِلَ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فَإِنَّكَ ستعلم منهم أن الله أرسل رسلاً كثيرين ، وأنزل عليهم وحياً يشبه الوحي الذي أنزل عليك ، ومع كثرة التحريف فإن ما يدل على هذا القدر موجود ، وهكذا بعد أن هدم الله كل حجة للكافرين والمرتابين ، فتح منفذاً آخر يزول به الشك في أصل الإرسال وأصل الوحي ، ثم قرر الله عز وجل أن المسألة أوضح من أن يُشكَّ فيها ﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ وهو حق قامت عليه من الأدلة ما لا يبقى شك فيه لعافل ، وإذا كان الأمر كذلك فقد صدر في هذا المقام نهين :

الأول : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُحَرِّينَ ﴾ أي الشاكين . النهي الثاني : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أيًا كانت في الأرض أو في السماء أو في القرآن أو في المعجزات ﴿ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ بسبب التكذيب ، وإذا توجه النهي لرسولنا عليه الصلاة والسلام - وهو أول المنفذين لأمر الله - فإنه قال : « لَا أَشْكُ وَلَا أَسْأَلُ » . كما روى ذلك قتادة وابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري .

وبعد أن بين الله عز وجل أن فيما عند أهل الكتاب من العلم ما يبعد الشك بأصل الوحي وإرسال الرسل . وبعد أن نهى الله رسوله عن الشك والتكذيب وهو نهى لأُمته ، وهو نهى جاء بعد تقرير أن ما أنزله الله على رسوله هو الحق ، وهو في هذا المقام يفيد أن هذا الكتاب لا محل فيه للشك ، وأن آياته من الوضوح بالمكان الأعلى ، فلا يكذب بها إلا من لا يخضع لحجة ، بعد هذا كله يقرر الله قاعدة وينذر إنذاراً :

﴿ إِنْ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ أي وجبت ﴿ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ بالعذاب ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لا لنقص بالآيات ولا لانعدامها ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ فإنهم لا يؤمنون ﴿ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وعندئذ يؤمنون ، ولكنه إيمان لا ينفعهم ؛ لأن سنة الله أنه إذا أرسل عذابه لا ينفع إيمان مستثنى من ذلك حادثة واحدة هي حادثة قوم يونس ﴿ فَلَوْلَا ﴾ أي فهلا ﴿ كَانَتْ قَرْيَةٌ ﴾ أي أهل قرية ﴿ آمَنَتْ ﴾ عندما رأت العذاب ﴿ فَفُتِحَتْ إِمَانُهَا ﴾ أي لم تكن قرية تفعها الإيمان بعد إذ رأت العذاب ﴿ إِلَّا ﴾ أي لكن ﴿ قَوْمُ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا ﴾ أي عند رؤية أمارات العذاب فهؤلاء فقط نفعهم إيمانهم رحمة من الله بهم ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ أي إلى

انقضاء آجالهم ، فإذا كان الأمر كذلك فليسارع إلى الإيمان من يريد النجاة ، ثم لفت الله النظر إلى الحكمة الكلية في وجود كفر وإيمان . وأن هذا إنما هو بمشيئته فقال : ﴿ ولو شاء ربك ﴾ يا محمد ﴿ لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ فيما جنتهم به ولكن له حكمة فيما يفعله ، ومن حكمته أنه لم يشأ ، وترك المسألة لاختبار الإنسان ﴿ أفأنت تكثره الناس ﴾ بأن تلزمهم وتلجئهم ﴿ حتى يكونوا مؤمنين ﴾ أي ليس ذلك عليك ولا إليك ، فلا إكراه في الدين ، وخلق الهداية لله ، وقد جرت سنة الله أن لا يهدي الفاسقين والظالمين والمتكبرين والمتجبرين ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ أي بإرادته ﴿ ويجعل الرجس ﴾ أي الحبال والضلال ﴿ على الذين لا يعقلون ﴾ حجج الله وأدلته ، فهو العادل في هداية من يهديه وإضلال من يضلّه ، وهكذا بينت هذه الآيات بعض حكم الإضلال ، وهي عدم العقل عن الله من الغاطيين ، وشكهم بالحق الواضح ، وتكذيبهم للآيات البينة .

وأندرت أن يصيب المكذبين عذابه الذي إذا جاء لا يبرد ولا ينفع معه إيمان ، وبيّنت أن الاستثناء الوحيد إنما كان لقرية يونس ليعرف أن مشيئة الله مطلقة ، وقد بينت الآيات في أكثر من مقام طلاقة المشيئة الإلهية . ليقبل الإنسان على الله بقلب خائف وجل راغب راغب .

فوائد :

١ - قال الألوسي في قصة قوم يونس : (وكان من قصة هؤلاء القوم على ما روي عن غير واحد أن يونس عليه السلام بعث إلى أهل نينوى من أرض الموصل ، وكانوا أهل كفر وشرك ، فدعاهم إلى الإيمان بالله تعالى وحده ، وترك ما يعبدون من الأصنام ، فأبوا عليه وكذبوه ، فأخبرهم أن العذاب مصحبهم إلى ثلاث . فلما كانت الليلة الثالثة ذهب عنهم من جوف الليل ، فلما أصبحوا تنفسواهم العذاب ، فكان فوق رؤوسهم ليس بينهم وبينه إلا قدر ثلثي ميل ، وجاء أنه غامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً ، فهبط حتى غشى مدينتهم ، واسودت أسطحهم ، فلما أيقنوا بالهلاك طلبوا نبيهم فلم يجدوه ، فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونساءهم وحياتهم ودوابهم ، ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة ، وفرقوا بين الوالدة ولدها من الناس والدواب ، فحن البعض إلى البعض ، وعلت الأصوات ، وعجوا جميعاً ، وتضرعوا إليه تعالى ، وأخلصوا النية ، فرحمهم ربهم ، واستجاب دعاءهم ، وكشف عنهم منازل بهم من العذاب ،

وكان ذلك يوم عاشوراء ، وكان يوم الجمعة .

قال ابن مسعود : إنه بلغ من توبتهم أن تراءوا المظالم فيما بينهم ، حتى إن كان الرجل ليأتي إلى الحجر قد وضع أساس بنيانه عليه فيقلعه ويردّه إلى صاحبه ، وجاء في رواية عن قتادة أنهم عتّبوا إلى الله تعالى أربعين صباحاً ، حتى كشف ما نزل بهم ، وأخرج أحمد في الزهد . وابن جرير . وغيرهما عن ابن غيلان قال : لما غشى قوم يونس العذاب مشوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا : ماترى ؟ قال : قولوا : يا حي حين لا حي ، ويا حي يحيى الموتى ، ويا حي لا إله إلا أنت ، فقالوها فكشف عنهم العذاب . وقال الفضيل بن عياض : قالوا : اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلّت ، وأنت أعظم وأجل ، فافعل بنا ما أنت أهله ، ولا تفعل بنا ما نحن أهله . وكان يونس عليه السلام إذ ذهب عنهم فقد في الطريق يسأل الخير - كما جاء مرفوعاً - فمرّ به رجل فقال له : ما فعل قوم يونس ؟ فحدثه بما صنعوا فقال : لا أرجع إلى قوم قد كذبهم ، وانطلق مغاضباً حسماً قصة الله في غير هذا الموضع كما سيأتي إن شاء الله تعالى ، وظاهر الآية يستدعي أن القوم شاهدوا العذاب لمكان (كشفنا) وهو الذي يقتضيه أكثر الأخبار ، وإليه ذهب كثير من المفسرين ، ونفع الإيمان لهم بعد المشاهدة من خصوصياتهم ، فإن إيمان الكفار بعد مشاهدة ما أعدوا به إيمان بأس غير نافع ، لارتفاع التكليف حينئذ ، وعادة الله إهلاكهم من غير إمهال كما أهلك فرعون .

٢ - قال ابن كثير بمناسبة قوله تعالى : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت ففعلها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ ..

« والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكما لها نبينهم من سلف من القرى إلا قوم يونس ، وهم أهل نينوى ، وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما غابوا أسبابه ، وخرج رسوهم من بين أظهرهم ، فعندما جأروا إلى الله ، واستغاثوا به ، وتضرعوا له ، واستكانوا ، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم ، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبينهم . فعندها رحمهم الله ، وكشف عنهم العذاب ، وأخروا كما قال تعالى : ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ واختلف المفسرون هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط ؟ على قولين :

(أحدهما) : إنما كان ذلك في الحياة الدنيا كما هو مقيد في هذه الآية . (والثاني) :
 فيها لقوله تعالى : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ، فآمنوا فمعتصمهم إلى حين ﴾
 فأطلق عليهم الإيمان والإيمان منقاد من العذاب الأخروي وهذا هو الظاهر ، والله أعلم .
 وقال قتادة في تفسير هذه الآية : لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب
 فتركت إلا قوم يونس ، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم
 التوبة ، ولبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ، ثم عرجوا إلى الله أربعين ليلة ،
 فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندامة على ما مضى منهم ، كشف
 عنهم العذاب بعد أن تدلّى عليهم ، قال قتادة : وذكر أن قوم يونس بنينوى أرض
 الموصل . وكذا روي عن ابن مسعود وبجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف ،
 وكان ابن مسعود يقرؤها (فهلا كانت قرية آمنت) وقال أبو عمران عن أبي الجلد قال :
 لما نزل بهم العذاب جعل يدور على رؤوسهم كقطع الليل المظلم ، فمشوا إلى رجل من
 علمائهم فقالوا : علمنا دعاء ندعو به لعل الله يكشف عنا العذاب فقال قولوا : (يا حي
 حين لا حي ، يا حي يحيي الموتى ، يا حي لا إله إلا أنت) قال : فكشف عنهم العذاب
 ونظام القصة سيأتي مفصلاً في سورة الصافات إن شاء الله) اهـ . كلام ابن كثير .

٣ - كثيرون يشكل عليهم موضوع التوفيق بين عموم المشيئة الإلهية ، واختيار
 الإنسان ، وما ذلك إلا للجهل بالله تعالى ، فالله تعالى محيط علماً بكل شيء ، وقد علم
 ما سيفعله كل إنسان ، فأراد ذلك عدلاً ، وأبرز ذلك بقدرته ، فالعلم كاشف لا مُجبر ،
 والإنسان مخير ، ومن اختار الهدى وأخذ بأسبابه وفقه الله إليه ، ومن اختار الضلال
 ورفض أسباب الهداية يسره الله ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ وصدق بالحسنى .
 فسيسره اليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسيسره
 لليسرى . ﴿ (سورة الليل ٥ - ١٠) ولنعُد إلى السياق .

بعد أن هدّم الله فيما مرّ من هذا المقطع معقلاً من معاقل الشك ، أمر الله
 رسوله ﷺ أن يقول : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ من الظواهر
 والآيات الدالة على أسماء الله وصفاته ، وما أكثرها وما أغزرها ، وقد سجلنا طرفاً منها
 في كتابنا (الله جل جلاله) ﴿ وما تنفي الآيات ﴾ جمع آية ﴿ والتذّر ﴾ جمع نذير
 ﴿ عن قوم لا يؤمنون ﴾ دلّ هذا على أن في السموات والأرض آيات كثيرة ونذراً
 كثيراً ، ومن النذر الرسل ، ولكن الكفرة لا يستفيدون من ذلك شيئاً . والمعنى : وأي

شيء تغنى الآيات السماوية والأرضية ، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها ، الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون ؟ لقد عميت قلوبهم ، وصمت آذانهم ، فلم يعودوا يرون الحق ، ولم يعودوا يسمعون ، فإذا كان أمر هؤلاء كذلك فماذا بقي إلا انتظار العذاب ﴿ فهل ﴾ أي فما ﴿ ينتظرون ﴾ أي بتكذيبك ﴿ إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ من الأمم أي : مثل وقائعهم من العذاب ، وعندئذ يؤمنون ، ولات حين مناص ﴿ قل فانظروا ﴾ ذلك ﴿ إلي معكم من المنتظرين ﴾ ولكن شان بين الانتظارين ، لاختلاف سنة الله في الفريقين ﴿ ثم تنجي رسلنا والذين آمنوا ﴾ أي ونهلك المكذبين بالرسل ﴿ كذلك حقاً علينا لنج المؤمنين ﴾ حقاً أوجب الله على نفسه الكريمة أن ينجي الرسول ومن يؤمن معه إذا جاء العذاب المكذبين به ، وهكذا هدمت هذه الآيات معقلاً آخر من معازل الشك ، إذ بينت أن النظر في السموات والأرض يوصل إلى الإيمان ، فمن نظر في التاريخ ، وتقلبات الأيام ، وحياة الرسل ، وحياة أهل الإيمان ، وعاقبة أهل الإيمان والكفر ، فإنه سيجد في ذلك كله ما يدفعه إلى الإيمان ، إلا إذا كان ممن عمي قلبه ، وعندئذ فليتنظر مصيره المظلم .. وبهذا ينتهي القسم الثاني في سورة يونس ، وقد استقر بالقسمين الأول والثاني أن هذا القرآن لا ريب فيه ، وأن على الخلق أن يهتدوا به ، وخلال ذلك ذكرت العوامل الحقيقية التي تحول بين الناس وبين الإيمان والاتباع ، وإذا استقرت هذه المعاني كلها فإن القسم الثالث - وهو خاتمة السورة - يأتي ليخاطب الناس كل الناس خطابين أخيرين .

القسم الثالث : وهو خاتمة السورة

ويتمدُّ من الآية (١٠٤) إلى نهاية الآية (١٠٩) وهي آخر آية في السورة ويتألف من فقرتين كل فقرة منهما مهلوقة بقوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وهذا هو :

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

كلمة في هذا القسم :

في هذا القسم فقرتان كل منهما مهلوقة بقوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ .. ﴾ فهما خطابتان أعيران : خطاب في نفي الشك ، ولذلك صلته بقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ولذلك يبدأ الخطاب بقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ﴾ ، وخطاب في تأكيد الهدى بهذا القرآن ، ولذلك صلته بقوله تعالى من محور السورة : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ولذلك جاء الخطاب بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ ففي هاتين الفقرتين

توجيهان أخيران يعشقان نفى الشك عن هذا القرآن ، وضرورة الاهتداء به ، وهما محور سورة يونس . وهذا تفسير الفقرة الأولى .

الفقرة الأولى

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ﴾ أنه حق ﴿ فَلَا أُعْبِدُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ صنماً أو بشراً ، أو كوناً أو مجتمعا أو معنى أو محسوساً ، أو غير ذلك ﴿ وَلَكِنْ أُعْبِدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأُكُمْ ﴾ أي يقبض أرواحكم ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وأمرت بأن أكون من المؤمنين بما ركب الله في من العقل ، وبما أوحى إلي في كتابه ﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ أي مائلاً عن غيره إليه . والمعنى : واستقم مقبلاً بوجهك على ما أمرك الله ، أو استقم إلى دين الله ولا تلتفت يمينا ولا شمالاً ، أي أخلص العبادة لله وحده ، حنيفاً أي : منحرفاً عن الشرك كله ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ لا اعتقاداً ولا عملاً ولا مواقف ولا سلوكاً ﴿ وَلَا تَدْعُ ﴾ أي تعبد ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ ﴾ إن عبدته ﴿ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ إن لم تعبد ، أو مالا ينفَعُكَ إن دعوته ، ولا يضرُّكَ إن خذلته ، ﴿ فَإِنْ فَعَلْتَ ﴾ أي فإن عبدت أو دعوت من دون الله ما لا ينفَعُكَ ولا يضرُّكَ ﴿ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة غير الله - فكان الجواب أنه من الظالمين - وجعل من الظالمين لأنه لا ظلم أعظم من الشرك ، وبعد أن أمره بالإيمان والإخلاص والتوحيد بالعبادة وإفراد الدعاء ، تأتي الآية الأخيرة في هذه الفقرة لتقرر أن الذي يملك النفع والضرر هو الله وحده ، فلا يمنع أحداً رغبة أو رهبة أن يترك عبادة الله إلى غيره .

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ ﴾ أي يصيبك ﴿ اللَّهُ بَـضْرًا ﴾ كفقر أو مرض أو شدة أو غير ذلك ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ ﴾ أي فلا رافع له ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ أي إلا الله ﴿ وَإِنْ يَرِدْكَ بَخِيرٌ ﴾ كعافية أو غنى أو استخلاف ﴿ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ أي فلا راد لمráده ﴿ يَصِيبُ بِهِ ﴾ أي بالخير ﴿ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ ﴾ أي المكفر بالبلاء ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ المعالي بالمعطاء . قطع بهذه الآية على عباده طريق الرغبة والرهبة إلا إليه ، والاعتماد إلا عليه ، وذيلها بذكر اسمه الغفور والرحيم لبيان عموم توبته ومغفرته لمن تاب إليه من أي ذنب كان ، حتى من الشرك به ، فإنه يتوب عليه ، وهذا من كمال رحمته . وفي الآية بيان بأن الخير والشر والنفع والضرر إنما هو راجع إلى الله وحده لا يشاركه في ذلك أحد ، فهو الذي يستحق العبادة والإخلاص فيها ، والإفراد بالدعاء وحده لا شريك له ، وإذا كان

الأمر كذلك ، وإذا كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك ويدعو إليه ، فكيف يُشك في دينه ؟ إنه من كان هذا شأنه في أفراد العبادة لله ، كيف يكون شك في دينه وكيف يكون شك في الكتاب المنزل عليه ، وكما أدت هذه الفقرة هذا المعنى فإنها أدت معنى آخر : وهو أنها علمتنا كيف نقابل موقف الشك من هذا القرآن ، فعلمتنا أن نقابل ذلك بمزيد من التناهي عن المشركين والشرك ، وبإقبال كثير على الله والإخلاص له ، وإفراده بالعبادة والدعاء ، كما أدت في هذا السياق معنى آخر ، وهو تعليم التحدي . قال ابن كثير في هذه الآيات (يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ : قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من صحة ما جئناكم به ، من الدين الخفيف الذي أوحاه الله إلي ، فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له ، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم . ثم إليه مرجعكم ، فإن كانت آهتكم التي تدعون من دون الله حقاً - وليست حقاً إلا في زعمكم - فأنا لا أعبدها ، فادعوها فلنضربني ، فإنها لا تضر ولا تنفع ، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له ، وأمرت أن أكون من المؤمنين) .

وهكذا نجد أن هذه الفقرة أدت معاني متعددة فهمناها من النص ومن خلال السياق . وأن يؤدي السياق القرآني مثل هذه المعاني ، وأن تكون كلها حقاً ، وأن يكون ذلك على أعلى درجات الإبداع في الأداء ، وأعلى درجات البلاغة في اللفظ والمعنى ، وأن يكون في هذا القرآن هذا الكمال في الحكمة ، إذ يناقش ، أو يصفى ، أو يقرر ضمن سياق واحد ، وعلى هذه الشاكلة ، أن يكون هذا كله ، فهذا شيء فوق إمكان الإنسان إن هو إلا تنزيل العزيز الحكيم .

فوائد :

١ - بمناسبة الأمر بالعبادة في هذه الآيات نذكر الحديث الذي رواه ابن عساکر عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده ، وأسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم » . ذكره ابن كثير فلنقبل يأخى على الله وعلى عبادته ، ولنكثر من دعائه ، فلعل نفحة من نفحات ربنا تصينا فتقلنا من أن نكون من أهل الدنيا إلى أن نكون من أهل الآخرة ، ربنا استر عوراتنا وآمن روعاتنا .

٢ - ذكر السفي تعقياً على الآية الأخيرة في الفقرة ﴿ وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بَصْرَ .. ﴾ مبنياً حكمة مجيئها في هذا المقام ، ومبيناً بعض نكت بلاغة ألفاظها فقال : (أتبع النبي

عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر ، أن الله هو الضار والنافع ، الذي إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد ، فكيف بالجماد الذي لا شعور به ؟ وكذا إن أرادك بخير لم يرّد أحد ما يريدك بك من الفضل والإحسان ، فكيف بالأوثان ؟ وهو الحقيق إذا بأن توجه إليه العبادة دونها . وإنما ذكر المس في إحداهما والإرادة في الآخر كأنه أراد أن يذكر الأمرين الإرادة والإصابة في كل واحد من الضر والخير ، فأوجز الكلام ليدل بما ذكر على ما ترك ، على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله ﴿ يصب به من يشاء من عباده ﴾ ١٠٨ هـ .

ولنتفل إلى الفقرة الثانية :

الفقرة الثانية

﴿ قل بأيها الناس قد جاءكم الحق ﴾ أي القرآن ﴿ من ربكم ﴾ الخالق الذي بيده الضر والنفع ﴿ فمن اهتدى ﴾ أي فمن اختار الهدى واتبع الحق ﴿ فإنا مبيّدين لنفسه ﴾ لأن ثواب اهتدائه إليه ، فما نفع باختياره الهدى إلا نفسه ﴿ ومن ضل فإنا مبيّدين لنفسه ﴾ أي ومن آثر الضلال فما ضر إلا نفسه ، لأن وبال ضلاله عليها ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ أي بحفيظ موكل إلي أمركم فأجبركم على الهدى ، أو وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين ، أي لست مسؤولاً عن إيمانكم ، وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله . وبعد أن قررت الآية أن هذا القرآن حق ، وأن الهداية باتباعه ، تأتي الآية الأخيرة لتأمر رسول الله ﷺ والمؤمنين المقتدين به باتباع القرآن ، والصبر على ذلك ﴿ واتبع ما يوحى إليك ﴾ من ربك أي تمسك بما أنزل الله عليك ، وأوحاه إليك ﴿ واصبر ﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ، واصبر على القيام بأمر الله ، واصبر على مخالفة من خالفك في ذات الله ﴿ حتى يحكم الله ﴾ لك بالنصر والغلبة ، أي حتى يفتح الله بينك وبينهم ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمته ، أو خير الفاصلين لأنه المطلع على السرائر ، فلا يحتاج إلى بينة وشهود ، وقد فعل رسول الله ﷺ ما أمر به ، ووفى الله بوعده .

وهكذا بينت هذه الفقرة ضرورة الاهتداء بكتاب الله ، وبينت احتياج ذلك للصبر ، وبينت أن العاقبة في الدنيا والآخرة لأهل الهداية والاتباع والصبر وهذا انتهت السورة .

كلمة في سورة يونس :

رأينا أن محور سورة يونس هو قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ ورأينا كيف أن سورة يونس فصلت بأقسامها الثلاثة هذا المعنى ، وجاءت الأوامر والنواهي لتقيم الإنسان من خلال الحججة والتطبيق على طريق اليقين والاتباع ، ولا ننسى في هذا المقام أن نذكر أن أول آية في سورة يونس هي قوله تعالى : ﴿ ألر تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ وقد رأينا في سورة يونس مظهراً من مظاهر حكمة القرآن في معالجة قضية الشك في القرآن ، وضرورة اتباعه ، وكيف أن هذه المعالجة تمت بشكل مباشر ، وبشكل غير مباشر ، وبالعودة إلى الأصول والإشارة إلى الفروع ، وبالعودة إلى التاريخ والاستفادة من المعطيات الإيجابية عند أهل الكتاب وغير ذلك .

ونستغفر الله من تفريط في الجهد أو خطأ في التوجيه .

سورة هود

وهي السورة الحادية عشرة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثانية من المجموعة الأولى من قسم
المئين وآياتها مائة وثلاث وعشرون
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

وَرَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

الطوال ، أو مجاور مجموعات الأقسام الأخرى من سورة البقرة ولو تباعدت في سورة البقرة ، فإنها إذا وضعت بجانب بعضها فإنها تشكل كلاً متكاملًا .

لاحظ أن سورة يونس من هذه المجموعة فصلت في أول آية من سورة البقرة ، وأن سورة هود فصلت في الآية (٢١) منها ، ولكنك لو وضعت الآيتين بجانب بعضهما فإنك تجد الصلة قائمة :

﴿ أَلَمْ يَأْتِ الْبَشَرُ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾

﴿ يَأْتِيهِمُ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

إن الصلة واضحة بين الآيتين ، فبعد تقرير أن القرآن هدى للمتقين ، يأتي نداء للناس جميعاً أن يعبدوا الله وحده ليكونوا من المتقين ، فإذا ما عرفنا أن سورة البقرة مدنية ، وسورة هود - على القول الراجح - مكية كلها ، أدركنا كم هي الأدلة كثيرة على أن هذا القرآن من عند الله .

نقول عن السورة :

قال الألوسي عن سورة هود :

(مكية على المشهور واستثنى منها بعضهم ثلاث آيات ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ ﴾ ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ ﴾ قال : إنها نزلت في المدينة) .

وقال صاحب الظلال عن السورة : (هذه السورة مكية بحملتها خلافاً لما ورد في المصحف الأميري من أن الآيات (١٢ ، ١٧ ، ١١٤) فيها مدنية . ذلك أن مراجعة هذه الآيات في سياق السورة تلهم أنها نجيء في موضعها من السياق ، بحيث لا يكاد يتصور خلو السياق منها بادئ ذي بدء . فضلاً على أن موضوعاتها التي تقررها هي من صميم الموضوعات المكية المتعلقة بالعقيدة ، وموقف مشركي قريش منها ، وآثار هذا الموقف في نفس رسول الله ﷺ . والقلة المسلمة معه ، والعلاج القرآني الرباني لهذه الآثار .

وعن وجه مناسبة سورة هود لسورة يونس بقول الألوسي :

(ووجه اتصالها بسورة يونس عليه السلام : أنه ذكر في سورة يونس قصة نوح عليه السلام مختصرة جداً مجملة ، فشرحت في هذه السورة ، وبسطت فيها ما لم تبسط في غيرها من السور ، ولا سورة الأعراف على طولها ، ولا سورة ﴿ إِنْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾

التي أفردت لقصته ، فكانت هذه السورة شرحاً لما أجمل في تلك السورة ، وبسطاً له ، ثم إن مطلعها شديد الارتباط بمطلع تلك ، فإن قوله تعالى هنا : ﴿ آلر كتاب أحكمت آياته ﴾ نظير قوله سبحانه هناك : ﴿ آلر تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ بل بين مطلع هذه وختام تلك شدة ارتباط أيضاً ، حيث ختمت بنفي الشرك واتباع الوحي ، وافتتحت هذه ببيان الوحي والتحذير من الشرك ، وورد في فضلها ماورد ، فقد أخرج الدارمي وأبو داود في مراسيله . والبيهقي في شعب الإيمان ، وغيرهم عن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ اقرأوا هود يوم الجمعة ﴾ .

ومن تقديم صاحب الظلال لسورة هود ننقل هذه الفقرات :

(لقد نزلت السورة بجملتها بعد يونس . ونزلت يونس بعد الإسراء . وهذا يحدد معالم الفترة التي نزلت فيها ؛ وهي من أخرج الفترات وأشققها كما قلنا في تاريخ الدعوة بمكة . فقد سيفها موت أبي طالب وخديجة ، وحرأة المشركين على ما لم يكونوا ليحجروا عليه في حياة أبي طالب) .

(وبلغت الحرب المعلنة عليه وعلى دعوته أقصى وأقصى مداها ؛ ونجمت حركة الدعوة حتى ما يكاد يدخل في الإسلام أحد من مكة وما حولها .. وذلك قبيل أن يفتح الله على رسوله وعلى القلة المسلمة بيعة العقبة الأولى ثم الثانية) . أقول : ولذلك كان في السورة تسرية عنه عليه الصلاة والسلام .

(ويحتوي السياق ذلك القصص الطويل الذي يصدق ذلك الترغيب ، والترهيب في حركة العقيدة على مدار التاريخ ، من مصارع المكذبين ونجاة المؤمنين) .

(ويحتوي بعض صور النفس البشرية في مواجهة الأحداث الجارية بالنعماء والبأساء ، فيرفع للمكذبين المستعجلين بالعذاب ، المتحذرين للنذر في استهتار ... يرفع ضم صور أنفسهم وهم في مواجهة ما يستعجلون به حين يحل بهم . وفي الحشرات التي تصيب أنفسهم على قلب الأحداث بهم ، وقوت النعمة وإفلاتها من أيديهم ، وفي البطر والفرور والانخداع بكشف الضر وقيض النعمة من جديد) .

(ويحتوي شيئاً من مشاهد القيامة ، وصور المكذبين فيها ، ومواجهتهم لربهم الذي كذبوا بوحيه وتولوا عن رسله وما يجلدونه يومئذ من خزي لا ينصرهم منه أرباب ولا شفعاء) .

(ومن المؤثرات التي ترتجف لها القلوب ما يصوره السياق من حضور الله سبحانه وإطلاعه على ما يخفي البشر من ذوات الصدور ، بينما هم غارون لا يستشعرون حضوره سبحانه ولا علمه المحيط ، ولا يحسون قهره للخلائق وإحاطته بها جميعاً ، وهم - الذين يكذبون - في قبضته كسائر الخلائق ، من حيث لا يشعرون) .

(ومن المؤثرات الموحية في سياق السورة كذلك ، استعراض موكب الإيمان . بقيادة الرسل الكرام ، على مدار الزمان . وكل منهم يواجه الجاهلية الضالة بكلمة الحق الواحدة الحاسمة الجازمة ، في صراحة وفي صرامة ، وفي ثقة وطمأنينة ويقين) .

ولنبداً عرض السورة .

المقدمة والمقطع الأول :

وذلك حتى نهاية الآية (٢٤) وهذان هما :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كَتَبُ أَحْكَمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ①
 أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ② إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ③ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ
 تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرَ لَكُمْ مَنَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ④
 وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ⑤ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ
 عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥ أَلَا إِنَّهُمْ يَمُنُّونَ بِظُورِهِمْ لَيْسَ خَفَوْا مِنْهُ إِلَّا حِينَ يَسْتَغْثُونَ
 ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑦ وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ
 فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ⑧ كُلٌّ فِي كِتَابٍ
 مُّبِينٍ ⑨ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ
 عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكَ آبَكُمْ أَحْسَنُ مَحَلًّا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ
 لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ⑩ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ
 مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِصُهُمْ ⑪ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ
 مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ⑫ وَلَئِنْ أَدْخَلْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ زَكَّاهَا مِنْهُ إِنَّهُ

لَيْعُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءَ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ
السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَئِكَ هُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ
بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ
وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأَنُوتُ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ
مُفْتَرِيَةٍ وَادْعُوا مِنِّي أَسْتَطِيعُ مِنَ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِذَا
يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ
مُعْتَدُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْخَيْرَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا
وَهُمْ فِيهَا لَا يَبْخُسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ
شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ
يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَإِنَّ لَهُ مَوْعِدَهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ
رَبِّكَ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا أُولَئِكَ يُعَرِّضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلَا شَهِدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ
رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا

عَوَاجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَا يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ
وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا
يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ
وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَأَجْرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَاتَّخَبُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ
هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

التفسير :

﴿الر كتاب أحكمت آياته﴾ أي هذا الكتاب قد نظمت آياته نظاماً رصيناً محكماً
بمعجب النظم وبديع المعاني ، فلا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم ﴿ثم فصلت﴾
أي بينت فيها الأحكام والقصص والمواعظ ، فأيات القرآن محكمة من جهة لا يدخل
عليها نقص ولا نقص ولا خلل ، وهي في الوقت نفسه مفصلة مينة واضحة وقد ذهب
النسفي (أن كلمة فصلت تحمل أنها جعلت فصلاً سورة سورة ، وآية آية) .
(ثم) في الأصل تفيد التراخي في الوقت ، وههنا تفيد الجمع والتراخي في الحال ،
فليس التفصيل على حساب الإحكام ، بل الإحكام أولاً ثم التفصيل ، مع أن التفصيل في
غاية البيان ، ومن مظاهر التفصيل ما رأيناه في هذا الكتاب ، من كون كل قسم من
القرآن بفصل نوع تفصيل لما أجبل في مكان آخر ، وكل سورة تفصل ما أجبل في آية
أو في مجموعة آيات ، وهذا مظهر واحد من مظاهر التفصيل في القرآن ، ومن مظاهر
التفصيل البيان المفهوم لكل عرق على حسب طاقته ، ووضوح المعاني ووصولها إلى
القلب السليم ، وكتاب يجمع مثل هذا الإحكام في النظم والمعاني ، حتى إنه ليسع الزمان
والمكان والإنسان ، ولا ينقصه شيء في الزمان والمكان ، مع هذا التفصيل والبيان لا
يمكن أن يكون إلا من عند الله ، ولذلك نحتمت هذه الآية بقوله تعالى : ﴿من لدن

حكيم عليم ﴿أي الله﴾ . فالله عز وجل الحكيم في أقواله وأفعاله ، الخبير بمواقب الأمور هو منزل هذا القرآن ، ومن ثم كان فيه مثل هذا الإحكام والتفصيل ﴿الأتعبدوا﴾ أي بأن لا أو لا تعبدوا ﴿إلا الله﴾ ويمكن أن تكون (أن) في هذا المقام مفسرة للإحكام والتفصيل ، لأن في تفصيل الآيات معنى القول ، كأنه قيل : قال لا تعبدوا إلا الله ، أو أمركم ألا تعبدوا إلا الله . والمعنى : نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له ﴿إني لكم منه﴾ أي من الله ﴿نذير﴾ بالعذاب إن خالفتموه ﴿وبشير﴾ بالثواب إن أطعتم الله والضمير في (إني) يعود إما إلى القرآن نفسه ، أو إلى الرسول المنزل عليه هذا القرآن ﴿وأن استغفروا ربكم﴾ معطوف على ﴿أن لا تعبدوا﴾ أي أحكمت آياته ثم فصلت للعبادة والاستغفار ، أي وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة ، والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه ، وأن تستمعروا على ذلك ﴿ثم توبوا إليه﴾ أي استغفروه من الذنب ثم ارجعوا إليه بالطاعة ﴿بمتعكم﴾ في الدنيا ﴿متاعاً حسناً﴾ بطيب عيش وسعة رزق ﴿إلى أجل مسمى﴾ هو الموت . والمعنى : إن عبدتم واستغفرتم ولازمتم الطاعة نفعتكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية ، من عيشة واسعة ، ونعمة متتابعة إلى أن يتوفاكم ﴿ويؤت كل ذي فضل﴾ في الاعتقاد والعمل ﴿فضله﴾ أي جزاءه ، أي ويعطى في الآخرة كل من له فضل في العمل وزيادة فيه جزاء فضله ، لا يبخس منه شيئاً ﴿وإن تولوا﴾ أي وإن تتولوا أي تعرضوا ﴿فلإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ هو يوم القيامة ، وهذا تهديد شديد لمن تولّى عن أوامر الله تعالى ، وكذب رسله ، فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة ﴿إلى الله مرجعكم﴾ أي معادكم ورجوعكم يوم القيامة ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ ومن ثم كان قادراً على إعادتكم وإثابتكم وتعذيبكم . والمعنى : وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه ، وانتقامه من أعدائه وإعادة الخلائق يوم القيامة وهذا مقام ترهيب ، كما أن الوعد السابق في إعطاء كل ذي فضل فضله مقام ترغيب .

وقد لخصت هذه الآيات مقاصد القرآن بأنها العبادة والاستغفار ، والتبشير والإنذار ، وأن الإحكام والتفصيل في هذا القرآن إنما كان من أجل تحقيق هذه المقاصد ، فإن غلغلة هذا الإحكام وهذا التفصيل هذه المقاصد فهذا كذلك مظهر من مظاهر الإعجاز الذي لا يستطيعه بشر ، وذلك يدل على أن هذا القرآن من عند الله .

فوائد :

١ - دلت هذه الآيات على أن المقصد الأول لهذا القرآن هو العبادة ، وأن كل شيء فيه من أجل تحقيق هذا المقصد ، وأن الاستغفار يلزم هذا المقصد ، لأنه لا أحد يقوم بحق الله في العبادة حق القيام بتحقيق هذا القرآن في نفسه ، حتى إن رسول الله ﷺ الذي كان خلقه القرآن كان يلزم الاستغفار ملازمة عجيبة .

٢ - فهنا من الآيات السابقة أن الإحكام والتفصيل في هذا القرآن من أجل تحقيق مقصد العبادة لله وحده ، وأن الاستغفار والعبادة متلازمان ، وأن هذه المعاني صيغت كلها بصيغة التبشير والإنذار ، فأن يوجد كتاب في مثل هذا المستوى الأعظم في كل شيء في أرض العرب الذين تصوراتهم الوثنية في أحط الدرجات ، فذلك دليل على أن هذا القرآن من عند الله .

٣ - كثير من الناس تغيب عنهم القيم الحقيقية للأشياء ، والمسلمون أنفسهم الذين أعطاهم الله الميزان الذي يعرفهم على القيم الحقيقية للأشياء هؤلاء المسلمون أنفسهم فقد كثيرون منهم معرفة القيمة الحقيقية للأشياء ، ومن هذه القيم التي شالت كفتها عندهم قيمة العبادة والاستغفار .

٤ - تحقيقاً لمقصد القرآن في الإنذار والتبشير فإن رسول الله ﷺ الذي كان خلقه القرآن كان بشيراً ونذيراً . وقد وصف الله رسوله ﷺ بالبشير والنذير ، وذلك مقام من جملة مقاماته التي أعطاه الله عز وجل إياها ، ولقد أعطى الله رسوله ﷺ من المقامات ما لا يتصوره بشر ، ومن ذلك أنه قد أقامه مقامه في كثير من الآيات في الطاعة والبيعة ، وفي مقام التبشير والإنذار كان المظهر الأعظم لهذا القرآن .

٥ - نفهم من ما مر أن كل تشريع في القرآن ، وكل نظام ، وكل توجيه ، وكل أدب ، إنما هو من أجل تحقيق المقصد الأعظم للقرآن وهو العبادة ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (الذاريات : ٥٦) .

٦ - إن على الوراث الكاملين لرسول الله ﷺ أن يقوموا بأقوالهم وأعمالهم بمهمة النذارة والتبشير كما كان رسول الله ﷺ يفعل ، وتقديم الإنذار في الآيات على التبشير دليل على أن الإنذار في حق الغافلين والكافرين مقدم على التبشير ، كما كان يفعل رسول الله ﷺ في أول الإسلام ، جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ صعد الصفا

فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال : « يامعشر قريش أرايتم لو أخبرنكم أن خيلاً تصبحكم ألسم مصدقي ؟ » فقالوا : « ما جرّبنا عليك كذباً ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

ويقدم التيسير في حق المؤمنين كما كان حاله عليه الصلاة والسلام مع المؤمنين ، وكنائهم من الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لسعد : « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك » .

٧ - قال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ من عمل سيئة كُتِبَ عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كُتِبَ له عشر حسنات ، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات ، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة ، وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول : هلك من غلب آحاده على أعشاره . « ابن جرير .

٨ - بمناسبة الأمر بالاستغفار نذكر هذه الأحاديث الثلاثة :

أ - عن أغر مزينة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر في اليوم مائة مرة » رواه مسلم وأبو داود .

ب - في حديث رواه مسلم وأبو داود أنه ﷺ قال : « توبوا إلى ربكم ، فوالله إني لأتوب إلى ربي مائة مرة في اليوم » .

ج - ذكر ابن عمر في حديث حسن أنه كان يُعَذُّ لرسول الله ﷺ في مجلس واحد مائة مرة « رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم » .

ولنعد إلى التفسير :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَشُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ أي يزورون عن الحق ، وينحرفون عنه ، لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدوره ، ومن ازور عنه وانحرف ثني عنه صدره وطوى عنه كشمه ﴿ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ أي ليطلبوا الخفاء من الله فلا يُطْلَعُ رسوله ﷺ والمؤمنين على ازورارهم ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ أي يتغطون بها أي يريدون الاستخفاء حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿ يَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ ﴾ من القول ﴿ وَمَا يَعْلَنُونَ ﴾ فلا يغني استخفاؤهم ، أي لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم ، فلا

وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء ، والله مطلع على ثبهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما في القلوب ، وهكذا من خلال العرض لوضع بعض الناس عرفنا الله على ذاته ، فبعد أن أمرنا الله بعبادته عرفنا على ذاته وصفاته جل جلاله ، أما هذا الوضع الإنساني فهو إما وضع منحرف لمناققين وإما وضع هو أثر عن تصور خاطيء لمسلمين - كما سنرى في الفائدة اللاحقة - وأياً كان فإن السياق من خلال عرضه لهذا الوضع عرفنا على الله عز وجل الذي جاء الأمر بعبادته في أول هذا المقطع .

فائدة :

من أقوال المفسرين في سبب نزول هذه الآية : أن ناساً كانوا يشنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه ، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك ، فأخبرهم الله أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل يعلم ما يسرون وما يعلنون . قال مجاهد والحسن وعبد الله بن شداد : كان أحدهم إذا مرَّ برسول الله ﷺ شى صدره وغطى رأسه . وروى البخاري عن ابن عباس فيها قال : أناس يستحيون أن يتخلوا فيفضوا بفروجهم إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم . فإذا كانت الآية في المسلمين فهي تصحيح لمفهوم مرتبط بالعبادة ، فليست العبادة في الإسلام أن نخجل مما أباحه الله . وإن كانت في الكافرين والمنافقين فهي تصحيح لتصوّرهم عن الذات الإلهية ، وأياً كان سبب النزول فالآية هي وما بعدها تعرفنا على الله الذي أمرنا بعبادته ، إذ لا عبادة إلا بعد معرفة ، وهكذا يستمر السياق في تعريفنا على الله .

﴿ وما من دابة في الأرض ﴾ كل ما دبّ على الأرض فهو دابة ﴿ إلا على الله رزقها ﴾ مئة منه وتفضلاً ، لا وجوباً عليه تعالى ، فهو مالك كل شيء ، ويفعل ما يريد ﴿ ويعلم مستقرها ﴾ أي يعلم أين انتهى سيرها في الأرض ، وأين مكانها من الأرض ومسكنها ﴿ ومستودعها ﴾ أي حيث كانت مودعة قبل الاستقرار من صلب أو رحم أو بيضة ، أو حيث تموت ﴿ كل ﴾ أي كل ذلك من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها ﴿ في كتاب مبين ﴾ هو اللوح المحفوظ ، أي إن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله ، مبين عن جميع ذلك ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴾ تعليماً للتأني ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ قبل أن يخلق شيئاً ، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السموات والأرض ، العرش علوي والماء سفلي ،

والملاحظ الآن علمياً أن الفارق بين العناصر هو في عدد الكثروناتا وبروتوناتا ، وأن الماء مؤلف من أكسجين وهيدروجين وأن ذرة الهيدروجين ، مؤلفة من بروتون واحد ، والكثرون واحد ، وهذا يعني أن ما سوى الهيدروجين من العناصر الأصل فيه الهيدروجين ، ولا ندري ماذا يمكن أن يأتي به العلم البشري في المستقبل من احتمالات اكتشاف مزيد مما يلقي ضوءاً يزيدنا إبصاراً في فهم الآية ، وفي فهم قضية الخلق ﴿ لِيَلُوكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ أي خلق السموات والأرض وما فيها من منافع ومصالح ، ليختبركم أَيْكُمْ أطوع لله وأكثر شكراً ، ولم يُخلق ذلك عبثاً ، فلم تخلق هذه الأشياء إلا للامتحان ، فمن كان أحسن عقلاً ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع في طاعة الله ، أثابه الله ، ومن كفر وعصى عاقبه ، ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال : ﴿ لِيَلُوكُمْ ﴾ أي ليفعل بكم ما يفعل المبلى لأحوالكم كيف تعملون ، وهو جل جلاله أعلم بما نحن عاملون ، وقال : ﴿ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ ولم يقل أكثر عملاً لأن العبرة بحسن العمل ، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل ، وعلى شريعة رسول الله ﷺ فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ﴾ أي ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء الكافرين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم وذلك مقتضى الحكمة في خلق السموات والأرض للابتلاء ، فالبعث شيء بديهي لمن أدرك هذه الحقيقة ﴿ ليقولن الذين كفروا إن هذا ﴾ أي ما هذا ﴿ إلا سحر مبين ﴾ أي بين واضح ، أي ما هذا القرآن إلا سحر واضح ، ووصف القرآن بالسحر إشارة إلى أنه لم يحجر إلا التمويه والباطل الذي يجانف الحق ، وإذا وصفوا القرآن بالسحر فقد أبطلوا كل ما فيه ، ومن ذلك موضوع الإيمان باليوم الآخر ، مع أن تكذيبهم بالقرآن وتكذيبهم باليوم الآخر نفي للحكمة من خلق السموات والأرض أصلاً ، ثم بين الله عز وجل أن الكافر لا تزيد النعم والإمهال إلا اعتواً وتمرداً وكفراً ﴿ ولئن أنشأنا عنهم العذاب إلى أمة ﴾ أي أوقات ﴿ معدودة ليقولن ﴾ استهزاء ﴿ ما يحسه ﴾ أي ما يمنعه من النزول ، والمعنى : لئن أنشأنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء الكافرين إلى أجل معدود ، وأمر محصور ، وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ، ليقولن تكذباً واستهزاء ما يؤخره عنا ؟ أي يقولون للمؤمنين : إن ما تقولونه غير صحيح أصلاً ، ولو كان صحيحاً لغدنا . والجواب ﴿ ألا يوم يأتيهم ﴾ أي العذاب ﴿ ليس مصروفاً عنهم ﴾ أي ليس مدفوعاً عنهم ﴿ وحاق بهم ﴾ أي نزل وأحاط ﴿ ما كانوا به يستهزؤون ﴾ من العذاب ، دلل هذا على أن قولهم : ما يحسه كان استهزاءً ، ثم أنشأنا الله عز وجل عن

الطبيعة البشرية في تلقيها الشدة والرخاء ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ﴾ أي نعمة : من صحة ، وأمن ، وجاه ، وغنى ﴿ ثم نزعناها منه ﴾ أي ثم سلبناه تلك النعمة ﴿ إنه ليؤوس ﴾ أي قنوط شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوقة ، بل يصبح قاطعاً للرجاء ﴿ كفور ﴾ أي عظيم الكفران لنعم الله ، ولما سلف له من التقلب فيها نساء له ﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ﴾ أي ولئن أصبناه بالنعمة بعد المصيبة التي نزلت به ﴿ ليقولن ذهب السيئات عني ﴾ أي المصائب ، ولم يشكر ولم يتذكر ، وكان لا يتوقع زوالها أصلاً ، ولسان حاله يقول : ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء ﴿ إنه لفرح ﴾ أي أشرب بطر ﴿ فخور ﴾ على الناس بما أذاقه الله من نعمائه ، فهو فرح بحاله الجديد ، فخور على غيره ، وشغله الفرح والفخر عن الشكر ، هذه طبيعة الإنسان ، إلا من كان متصفاً بالصبر والعمل الصالح ، فإنه لا يكون كذلك ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ في المحنة والبلاء على كل ضراء ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ في أحوالهم كلها ، في السراء والضراء ، فهؤلاء ليسوا في المحنة يؤوسين كفورين وليسوا بعد زوالها فخورين بطرين ، ومن ثم فقد استحقوا من الله العطاء ﴿ أولئك لهم مغفرة ﴾ لذنوبهم ﴿ وأجر كبير ﴾ هو الجنة . وهكذا عرّفنا السياق على الله ، وعلى الحكمة من خلق السموات والأرض ، وأن القيام بحق الله والعبادة له هو التحقيق لهذه الحكمة ، وأن إنكار اليوم الآخر كفران بهذه الحكمة ، وأن الكافرين بالله واليوم الآخر تستجرهم النعم إلى الكفران ، مع أنهم في المحن على غاية من الخلع والجرع ، على عكس أهل الإيمان ، ومن السياق نفهم أن من العبادة الصبر على المحنة ، وترك اليأس ، والقنوط ، وملازمة العمل الصالح في كل حال .

فوائد :

١ - عند قوله تعالى ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ قال صاحب الظلال :

(والجديد هنا في خلق السماوات والأرض هو الجملة المعترضة : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ وما تفيد من أنه عند خلق السماوات والأرض أي إبرازهما إلى الوجود في شكلهما الذي اتجا إليه كان هناك الماء ، وكان عرش الله سبحانه على الماء .

أما كيف كان هذا الماء . وأين كان ، في أية حالة من حالاته كان . وأما كيف كان عرش الله على هذا الماء .. فزيادات لم يتعرض لها النص ، وليس لمفسر يدرك حدوده أن يزيد شيئاً على مدلول النص ، في هذا الغيب الذي ليس لنا من مصدر لعلمه إلا هذا النص (وفي حدوده) .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَلئن أُنحَرْنَا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾ قال ابن كثير : (والأمة تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة : فيراد بها الأمد كقوله في هذه الآية ﴿ إلى أمة معدودة ﴾ وقوله في سورة يوسف ﴿ وقال الذي نجا منهما واذكر بعد أمة ﴾ ، وتستعمل في الإمام المقتدى به كقوله ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾ (النحل : ١٢٠) ، وتستعمل في الملة والدين كقوله إخباراً عن المشركين إنهم قالوا : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ (الزخرف : ٢٣) ، وتستعمل في الجماعة كقوله ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ (القصص : ٢٣) وقوله ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ (النحل : ٣٦) وقال تعالى : ﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسوهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ (يونس : ٤٧) ، والمراد من الأمة ههنا الذين يبحث فهم الرسول ، مؤمنهم وكافرهم ، كما في صحيح مسلم : « والذي نفسي بيده ، لا يسمع في أحد من هذه الأمة ، يهودي ولا نصراني ، ولا يؤمن بي ، إلا دخل النار » . وأما أمة الاتباع فهم المصدقون للرسول كما قال تعالى : ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ (الأعراف : ١٥٩) وكقوله ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ الآية (آل عمران : ١١٣) .

٣ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ نذكر هذين الحديثين :

أ - « والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ، ولا نصب ولا وصب ، ولا حزن حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله عنه بها من خطاياها » .

ب - وفي الصحيحين : « والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له : إن أصابته سرّاء فشكر كان خيراً له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن » .

ولنعُد إلى التفسير :

بعد أن بين الله عز وجل لنا في هذا المقطع أن هذا القرآن أنزل من أجل أن يعبد الله ، وبعد أن عرفنا الله على ذاته ، وبين لنا حكمة خلق السموات والأرض ، وموقف أهل الكفر والإيمان في الشدة والرخاء ، وقد عرفنا محل ذلك في السياق ، يخاطب

رسوله ﷺ ليثبت على التمسك بالقرآن ، فلا تثنيه مواقف الكافرين عن أخذ القرآن جميعه ، لأن أي إخلال في تطبيق القرآن كله إخلال بعبادة الله ، وإخلال في تحقيق الحكمة من خلق السموات والأرض ، ونزول عن الخلق الأعلى :

﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ﴾ بأن تترك أن تلقيه إليهم وتبلغهم إياه أو تترك العمل به ﴿ وضائق به صدورك ﴾ فتخرج أن تتلوه عليهم وتدعوهم إليه مخافة ﴿ أن يقولوا لولا ﴾ أي هلا ﴿ أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ﴾ معنى كلامهم : هلا أنزل عليه ما اقترحنا من الكنز لننفقه ، والملائكة لنصدقته ، ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نقترحه ، وهذا يفيد أنهم كانوا لا يعتدّون بالقرآن ويتهاونون به ، فهيج الله رسوله ﷺ لأداء الرسالة ، وطرح المبالاة برذمهم واستهزائهم واقتراحهم ، وفي ذلك درس لكل تارك لكتاب الله ، أولئك منه : مخافة من أقوال الناس ﴿ إنما أنت نذير ﴾ أي ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحى إليك ، وتبلغهم ما أمرت بتبليغه ، ولا عليك إن ردّوا وتهاونوا ﴿ والله على كل شيء وكيل ﴾ أي حفيظ فيجازيهم بحفظ ما يقولون ، وهو فاعل ما شاءه بهم من جزاء ، فتوكل عليه وكل أمرك إليه ، وعليك بتبليغ الوحي بقلب فسيح ، وصدر منشرح ، غير ملتفت إلى استكبارهم ، ولا مبال بسفهم واستهزائهم ، وبعد أن بين الله لرسوله ﷺ ما يهيجه على عدم الالتفات لاقتراحاتهم ، فنذّر دعواهم ، بأن يكون هذا القرآن مفترى من عند محمد عليه الصلاة والسلام - بآي هو وأمي - ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ أي بل يقولون اختلق هذا القرآن ، ونسبه إلى الله كذباً ﴿ قل فاتوا بعشر سور ﴾ نخذاهم أولاً بعشر سور ، ثم بسورة واحدة ، كما يقول المتحدّي في الخط لصاحبه مثلاً : أكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب ، فإذا تبين له العجز عن ذلك قال : قد اقتصرت منك على سطر واحد ﴿ مثله ﴾ في الحسن والجزالة واللفظ والأسلوب والفصاحة والبلاغة والمعنى ﴿ مفتریات ﴾ لما قالوا افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند الله ، أرخى معهم العنان وقال : هبوا أني اختلقته من عند نفسي ، فاتوا أنتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم ، فاتم عرب فصحاء مثلي ﴿ وادعوا ﴾ للمعاونة على ذلك ﴿ من استطعم من دون الله ﴾ أي غيره ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في أنه مفترى . وهكذا أقام الله عليهم الحجة بإعجاز هذا القرآن . وهي حجة قائمة متحدّي بها إلى يوم القيامة ، فلا يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن ، ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة مثله ؛ قال ابن كثير : لأن كلام الرب لا يشبه كلام المخلوقين ، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات ، وذاته لا يشبهها شيء ، تعالى وتقدس

وتنزه لا إله إلا هو ولا رب سواه ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا ﴾ أي مَنْ دَعَوْنَاهُ لِلْمَعَاوَنَةِ
وَالْمُعَاوَضَةِ ﴿ لَكُمْ فَاعْلَمُوا ﴾ أيهَا الْكَافِرُونَ ﴿ أَلَمْ أَنْزِلْ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ أي أَنْزِلْ مُلَبِّسًا بِمَا
لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ مِنْ نَظْمٍ مُعْجَزٍ ، وَمَعَانٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿ وَأَنْ ﴾ أي
وَاعْلَمُوا أَنَّهُ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وَحْدَهُ ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ بَعْدَ هَذِهِ الْحُجَّةِ
الْقَاطِعَةِ ، أَيِ اسْلَمُوا ، دَلٌّ عَلَى أَنَّ التَّسْلِيمَ بِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ يَقْتَضِي شَيْئَيْنِ : تَوْحِيدَ اللَّهِ ،
وَالْإِسْلَامَ لَهُ ، فَإِذَا رَأَيْتَ مَنْ يَسْلُمُ بِالْإِعْجَازِ وَلَا يُوحِدُ ، وَلَا يَسْلُمُ الْإِسْلَامَ الْخَالِصَ ،
فَإِنَّهُ كَذَّابٌ ، وَهَكَذَا عَرَفْنَا مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْقُرْآنِ يَقْتَضِي تَوْحِيدًا وَإِسْلَامًا ،
وَهَذِهِ هِيَ الْعِبَادَةُ : مَعْرِفَةُ بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ ، وَاسْتِسْلَامٌ وَطَاعَةٌ لَهُ فِي أَمْرِهِ ، وَيُمْكِنُ أَنْ نَفْهَمَ
الْآيَةَ الْآخِرَةَ عَلَى أَنَّهَا خُطَابٌ لِلْمُسْلِمِينَ فَيَكُونُ الْمَعْنَى ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ أَيُّهَا
الْمُسْلِمُونَ فِيمَا تَحْدِثُوهُمْ بِهِ ، فَاتَّبِعُوا عَلَى الْعِلْمِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، وَازْدَادُوا يَقِينًا عَلَى أَنَّهُ
مَنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَعَلَى التَّوْحِيدِ ، وَيَكُونُ مَعْنَى فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ : فَهَلْ أَنْتُمْ مُخْلِصُونَ
خَالِصُونَ لِلَّهِ ، أَيِ اسْلَمُوا لِلَّهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا بِالْإِخْلَاصِ وَالْعَمَلِ .

وَإِذَا كَانَ الْمَنَاعُ مِنْ اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ ، وَمِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ ، وَالْإِسْلَامِ لَهُ ،
وَالرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ ، هِيَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ مَا ذَكَرَ قَالَ : ﴿ مَنْ
كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أَيِ تَوْصِلُ إِلَيْهِمْ أَجُورَ أَعْمَالِهِمْ
وَافِيَةً كَامِلَةً ﴿ فِيهَا ﴾ أَيِ فِي الدُّنْيَا ﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يَخْشَوْنَ ﴾ أَيِ لَا يَنْقُصُونَ شَيْئًا
﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ ﴾ أَيِ وَبَطَلَ ﴿ مَا صَنَعُوا فِيهَا ﴾
أَيِ وَبَطَلَ مَا صَنَعُوهُ أَوْ صَنِعَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، أَيِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ ثَوَابٌ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرِيدُوا وَجْهَ
اللَّهِ وَالْدَارَ الْآخِرَةَ ، إِنَّمَا أَرَادُوا بِهِ الدُّنْيَا ، وَقَدْ وَفَّى إِلَيْهِمْ مَا أَرَادُوا ﴿ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴾ أَيِ كَانَ عَمَلُهُمْ فِي نَفْسِهِ بَاطِلًا ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ لِنَغْضٍ صَحِيحٍ ، وَالْعَمَلُ
الْبَاطِلُ لَا ثَوَابَ لَهُ ، وَالْآيَتَانِ عَامَتَانِ فِي كُلِّ مَنْ أَرَادَ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا ، سَوَاءً كَانَ كَافِرًا أَوْ
مُسْلِمًا ، حَتَّى حَمَلَهَا بَعْضُهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْمَرَاتِينِ فَقَطْ ، وَالصَّوَابُ أَنَّهَا عَامَةٌ ، وَمِمَّا قِيلَ
فِي الْآيَةِ : (قَالَ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : إِنْ أَهْلُ الرِّيَاءِ يَعْطُونَ بِحَسَنَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَذَلِكَ
أَنَّهُمْ لَا يَظْلَمُونَ نَفْسًا ، يَقُولُ : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا لَاتِمَّاسِ الدُّنْيَا صَوْمًا أَوْ صَلَاةً أَوْ تَهَجُّدًا
بِاللَّيْلِ ، لَا يَعْمَلُهُ إِلَّا لَاتِمَّاسِ الدُّنْيَا . يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : أَوْفِيهِ الَّذِي اتَّمَسَ فِي الدُّنْيَا مِنَ
الْمُنَابَةِ ، وَحِطَّ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ لَاتِمَّاسِ الدُّنْيَا ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ،
وَهَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِ وَاحِدٍ . وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ وَالْحَسَنُ : نَزَلَتْ
فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى . وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ : نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الرِّيَاءِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : مَنْ

كانت الدنيا هم ونيته وطلبته جازاه الله بحسناته في الدنيا ، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء ، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ والمعنى: آمن كان يريد الحياة الدنيا كمن كان على بينة من ربه ، أي لا يستوون معهم في المنزلة ولا يقاربونهم ، يعنى : أن بين الفريقين تبايناً ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ على بينة من ربه ﴾ أي على برهان من الله وبيان أن دين الإسلام حق ، وهو دليل العقل وأصل الفطرة ﴿ ويتلوه شاهد منه ﴾ أي وجاءه شاهد من الله ، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المنظمة المختمة بشرعة محمد عليه الصلاة والسلام ، التي جاء بها القرآن المعجز . ويمكن أن يكون المعنى : أفمن كان على برهان من ربه - وهو دليل العقل - ويتلوه شاهد يشهد بصحته وهو القرآن من الله ﴿ ومن قبله ﴾ أي ومن قبل القرآن ﴿ كتاب موسى ﴾ وهو التوراة أي ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى عليه السلام ﴿ إماماً ﴾ أي كتاباً مؤثماً به في الدين وقنوة فيه ﴿ ورحمة ﴾ ونعمة عظيمة على المنزل عليهم ﴿ أولئك ﴾ أي من كان على بينة من ربه ﴿ يؤمنون به ﴾ أي بالقرآن فلهم الجنة ﴿ ومن يكفر به ﴾ أي بالقرآن ﴿ من الأحزاب ﴾ أي من الملل كلها ﴿ فالتار موعده ﴾ أي مصيره ومورده ﴿ فلاتك في مربة ﴾ أي في شك ﴿ منه ﴾ أي من القرآن ﴿ إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ مع قيام الحجة ووضوح البرهان ، وهكذا عرفنا أن هذا الدين يشهد له العقل ، ويشهد له إعجاز القرآن ، ويشهد له الوحي السابق ، ودين هذا شأنه لا يترك الإيمان به إلا متكبر جائر .

فوائد :

١ - عند قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ قال صاحب الظلال :
(ولقد سبق أن تحداهم بسورة واحدة في سورة يونس ، فما التحدي بعد ذلك بعشر سور ؟

قال المفسرون القدماء : إن التحدي كان على الترتيب : بالقرآن كله ، ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة . ولكن هذا الترتيب ليس عليه دليل . بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدي فيها بسورة واحدة ، وسورة هود لاحقة والتحدي فيها بعشر سور . وحقيقة إن ترتيب الآيات في النزول ليس من الضروري أن يتبع ترتيب السور .

فقد كانت تنزل الآية فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة في النزول . إلا أن هذا يحتاج إلى مايشته . وليس في أسباب النزول مايشته أن آية يونس كانت بعد آية هود . والترتيب التحكمي في مثل هذا لا يجوز .

ولقد حاول السيد رشيد رضا في تفسير المنار أن يجد هذا العدد (عشر سور) علة ، فأجهد نفسه طويلاً - رحمه الله عليه - ليقول : إن المقصود بالتحدي هنا هو القصص القرآني ، وأنه بالاستقراء يظهر أن السور التي كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشرة . فتحدهم بعشر .. لأن تحديهم بسورة واحدة فيه يعجزهم أكثر من تحديهم بعشر نظراً لفرق القصص وتعدد أساليبه ، واحتياج التحدي إلى عشر سور كالتي ورد فيها ليتمكن من الهكاكة إن كان سيحاكي .. الخ .

ونحسب - والله أعلم - أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد . وأن التحدي كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول ، لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعة محددة . فيقول مرة : اثتوا بهذا القرآن . أو اثتوا بسورة . أو بعشر سور . دون ترتيب زمني . لأن الغرض كان هو التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن كله أو بعضه ، أو سورة منه على السواء . فالتحدي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره . والعجز كان عن النوع لا عن المقدار . وعندئذ يستوي الكل والبعض والسورة . ولا يلزم ترتيب ، إنما هو مقتضى الحالة التي يكون عليها المخاطبون ، ونوع مايقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة . فهو الذي يجعل من المناسب أن يقال سورة أو عشر سور أو هذا القرآن . ونحن اليوم لا نملك تحديد الملابس التي لم يذكرها لنا القرآن .

وقال الألوسي عند قوله تعالى ﴿ أم يقولون افتراه .. ﴾ : هذا ونقل أنه استدل بهذه الآية على أن إعجاز القرآن بفصاحته لا باشتماله على المفاهيم وكثرة العلوم ، إذ لو كان كذلك لم يكن لقوله سبحانه : ﴿ مفتريات ﴾ معنى أما إذا كان وجه الإعجاز الفصاحة صبح ذلك لأن فصاحة الكلام تظهر إن صدقا وإن كذبا .

٢ - وعند قوله تعالى : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون ﴾ .. قال صاحب الظلال :

(إن للجهد في هذه الأرض ثمرته . سواء تطلع صاحبه إلى أفق أعلى أو توجه به إلى منافع القرية وذاته المحدودة . فمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعمل لها وحدها فإنه يلقى نتيجة عمله في هذه الدنيا ، ويتمتع بها كما يريد - في أجل محدود - ولكن ليس له في الآخرة إلا النار ، لأنه لم يقدم للآخرة شيئاً ، ولم يحسب لها حساباً . فكل عمل الدنيا يلقاه في الدنيا . ولكنه باطل في الآخرة لا يقام له فيها وزن وحابط (من حبست الناقة إذا انتفخ بطنها من المرض) وهي صورة مناسبة للعمل المنتفخ المتورم في الدنيا وهو مؤد إلى الهلاك .

ونحن نشهد في هذه الأرض أفراداً اليوم وشعوباً وأممًا تعمل لهذه الدنيا . وتنازل جزاءها فيها . ولديهاها زينة ، ولديهاها انتفاخ . فلا يجوز أن نعجب ولا أن نسأل : لماذا ؟ لأن هذه هي سنة الله في هذه الأرض ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾ ولكن التسليم بهذه السنة ونتائجها لا يجوز أن ينسينا أن هؤلاء كان يمكن أن يعملوا نفس ما عملوه - ونفوسهم تتطلع للآخرة وتراقب الله في الكسب والمتاع - فينالوا زينة الحياة الدنيا لا يبخسون منها شيئاً ، وينالوا كذلك متاع الحياة الأخرى .

إن العمل للحياة الأخرى لا يقف في سبيل العمل للحياة الدنيا . بل إنه هو مع الاتجاه إلى الله فيه . ومراقبة الله في العمل لا تقلل من مقداره ولا تنقص من آثاره . بل تزيد وتبارك الجهد والثمر ، وتجعل الكسب طيباً والمتاع به طيباً ، ثم تضيف إلى متاع الدنيا متاع الآخرة . إلا أن يكون الغرض من متاع الدنيا هو الشهوات الحرام . وهذه مردية لا في الأخرى فحسب ، بل كذلك في الدنيا ولو بعد حين . وهي ظاهرة في حياة الأمم وفي حياة الأفراد . وعبر التاريخ شاهدة على مصير كل أمة اتبعت الشهوات على مدار القرون) .

٣ - عند قوله تعالى ﴿ ألمن كان على ينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ﴾ قال صاحب الظلال :

(ويكون المعنى الكلي للآية : ألمن هذا النبي الذي تتضافر الأدلة والشواهد على صدقه وصحة إيمانه ويقينه .. حيث يجد في نفسه بينة واضحة مستيقنة من ربه . وحيث يتبعه - أو يتبع يقينه هذا - شاهد من ربه هو هذا القرآن الدال بخصائصه على مصدره الرباني . وحيث يقوم على تصديقه شاهد آخر قبله . هو كتاب موسى الذي جاء إماماً

لقيادة بني إسرائيل ، ورحمة من الله تنزلت عليهم . وهو بصدق رسول الله ﷺ بما تضمنه من التبشير به ، كما يصدق به بما فيه من مطابقة للأصول الاعتقادية التي يقوم عليها دين الله كله . يقول : أفمن كان هذا شأنه يكون موضعاً للتكذيب والكفر والعناد كما تفعل الأحزاب التي تناوئه من شتى فئات المشركين ؟ إنه لأمر مستنكر إذن في مواجهة هذه الشواهد المتضاربة من شتى الجهات .

وقال الألوسي عند الآية نفسها : (﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ تدل على الحق والصواب فيما يأتيه ويذرّه ، ويدخل في ذلك الإسلام دخولاً أولياً ، واقتصر عليه بعضهم بناءً على أنه مناسب لما بعد ، وأصل - البينة كما قيل - : الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة ، وتطلق على الدليل مطلقاً ، وهاؤها للمبالغة ، أو النقل ، وهي وإن قيل : إنها من بأن بمعنى تبين وانضح لكنه اعتبر فيها دلالة الغير والبيان له ، وأخذها بعضهم من صيغة المبالغة ، والتبوين فيها هنا للتعظيم ، أي بينة عظيمة الشأن ، والمراد بها القرآن وباعتبار ذلك ، أو البرهان ذكر الضمير الراجع إليها في قوله سبحانه (ويتلوه) أي يتبعه (شاهد) عظيم يشهد بكونه من عند الله تعالى شأنه وهو - كما قال الحسين بن الفضل - الإعجاز في نظمه ، ومعنى كون ذلك تابعاً له : أنه وصف له لا ينفك عنه حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فلا يستطيع أحد من الخلق جيلاً بعد جيل معارضته ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

من هذين النقلين ندرك أن للمفسرين أكثر من اتجاه في الآية ، والذي نرجحه أن البينة هي القرآن ، والشاهد هو الفطرة والقلب والعقل ، وعلى هذا الاتجاه فقد دلت الآية على أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشرعة من حيث الجملة ، وأما التفصيلات فإنها تؤخذ من الشريعة والفطرة تصدقها وتؤمن بها ، وهناك أكثر من حديث عن رسول الله ﷺ في تبيان أن الأصل في الإنسان سلامة الفطرة ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحصون فيها من جدعاء ؟ » الحديث . وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين ، فاجتالهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً » . وفي المسند والسنن : « كل مولود يولد على هذه الملة حتى يعرب عنه لسانه » الحديث . وقد ذكرنا أثناء

التفسير أن البيئة العقل والشاهد القرآن لأنه هو الذي عليه عامة المفسرين . ورجحنا هنا ما ينشرح له الصدر وهو ما ذكره الألوسي أن البيئة هي القرآن فأوصلنا هذا إلى قناعة ، أن الشاهد الذي يتبع القرآن من المسلم أو من الله هو العقل والفطرة .

٤ - روى أيوب السخيتاني عن سعيد بن جبير قال : كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه ، أو قال : تصديقه بالقرآن ، فبلغني أن النبي ﷺ قال : « لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي إلا دخل النار » ، فجعلت أقول : أين مصداقه في كتاب الله ؟ قال : وقلمنا سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقاً في القرآن ، حتى وجدت هذه الآية . ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ .

ولعد إلى التفسير :

﴿ ومن أظلم ﴾ أي لا أحد أظلم ﴿ ممن افترى على الله كذباً ﴾ بنسبته الشريك والولد له ﴿ أولئك يُعرضون على ربهم ﴾ أي يحسبون في الموقف وتعرض أعمالهم ﴿ ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴾ أي ويشهد عليهم الأشهاد من الملائكة والتبيين بأنهم الكذابين على الله بأنه اتخذ ولداً وشريكاً ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ أي الكاذبين على ربهم ﴿ الذين يصدّون عن سبيل الله ﴾ أي يصرفون الناس عن دينه ﴿ ويغيثونها ﴾ أي يطلبون السبيل ﴿ عوجاً ﴾ أي معوجاً ، أو يصفون الطريق بالاعوجاج وهي مستقيمة ، أو يغيثون أهلها أن يعوجوا بالارتداد ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ كررت (هم) لتأكيد كفرهم بالآخرة ، واختصاصهم به ، وفي الآية تعريف للظالمين بأنهم الذين يردون الناس عن اتباع الحق ، وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ، ويحبسونهم الجنة ، ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة ، ويحسدون بالآخرة ، ويكذبون فيها ﴿ أولئك لم يكونوا ﴾ أي ما كانوا ﴿ معجزين في الأرض ﴾ أي بمعجزين الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم ، بل هم تحت نهره وخليته ، وفي قبضته وسلطانه ، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة ﴿ وما كان لهم من دون الله ﴾ أي غيره ﴿ من أولياء ﴾ أي أنصار يمنعهم من عذابه ، أي لا أحد يتولاهم فينصرهم منه ، ويمنعهم من عقابه ، ولكنه أراد إنظارهم وتأخير عقابهم إلى ذلك اليوم .

وفي الصحيحين « إن الله يهمل للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ﴿ يضاعف لهم

العذاب ﴿ لأنهم أضلوا الناس عن دين الله ﴾ ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع ﴾ للحق من
 فرط حقدهم وحسدكم وكبرهم ﴿ وما كانوا يبصرون ﴾ الحق ، وهكذا اجتمع لهم
 الصمم عن الحق ، والعمى عنه ، فلفرط كراهيتهم للحق أصبحوا كأنهم عاجزون عن
 السماع والرؤية ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ لأنهم أدخلوا ناراً حامية فهم
 معذبون فيها لا يفتر عنهم من عذابها طرفة عين ﴿ وضل عنهم ﴾ أي وغاب عنهم
 وذهب ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ من زخرف قول ، وباطل في العقائد وغيرها ﴿ لا
 جرم ﴾ أي حقاً ﴿ أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ أخبر تعالى بهذه الآية عن مآلهم
 أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة ، لأنهم استبدلوا الدركات عن الدرجات ،
 واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آت ، وعن شرب الرحيق المختوم بسُموم وحميم وظل من
 يحموم ، وعن الحور العين بطعام من غسيلين ، وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب
 الرحمن ورؤيته بغضب الديان وعقوبته ، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون . وبعد
 أن بين الله عز وجل حال الكافرين ختم المقطع ببيان حال المؤمنين والموازنة بينهم وبين
 الكافرين ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبروا إلى ربهم ﴾ أي اطمأنوا إليه
 وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع ، فاجتمع لهم الإيمان والعمل الصالح والخشوع
 وهذه بمجموعها عبادة ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ وهكذا بعد أن
 ذكر الأشقياء ، ثنى بذكر السعداء : وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فأمنت
 قلوبهم ، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلًا ، من الإيمان بالطاعات ،
 وترك المنكرات ، وبهذا ورثوا الجنات المشتملة على الغرف العاليات ، والسرر
 المصفوفات ، والقطوف الدانيات ، والفرش المرتفعات ، والحسان الحيريات ، والفواكه
 المتنوعة ، والمأكّل المشتهيات ، والمشارب المستلذات ، والنظر إلى خالق الأرض
 والسموات . وهم في ذلك خالدون لا يموتون ، ولا يهرمون ولا يمرضون ، ولا
 ينامون ، ولا يتغفطون ، ولا يبصقون ولا يتمخضون ، إن هو إلا رشح مسك يعرقون :

ثم ضرب الله تعالى مثلاً للكافرين والمؤمنين فقال : ﴿ مثل الفريقين ﴾ أي الذين
 وصفهم أولاً بالشقاء ، والمؤمنين بالسعادة ، فأولئك كالأعمى والأصم ، وهؤلاء
 كالبصير والسميع ﴿ كالأعمى والأصم والبصير والسميع ﴾ شبه فريق الكافرين
 بالأعمى والأصم وشبه فريق المؤمنين بالبصير والسميع ، فالكافر أعمى عن وجه الحق في
 الدنيا والآخرة ، لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه ، أصم عن سماع الحجج ، فلا يسمع ما
 ينتفع به ، وأما المؤمن ففطن ذكي ، لبيب ، بصير بالحق ، يميز بينه وبين الباطل ، فيتبع

الحقير ، ويترك الشر ، سميع للحجة ، يفرق بينها وبين الشبهة ، فلا يروج عليه باطل ، ﴿ هل يستويان مثلاً ﴾ فهل يستوي هذا وهذا ؟ ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي أفلا تتعظون وتعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء ، وتكونون من أهل الإيمان .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴾ ذكر ابن كثير الحديث النبوي الذي أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين عن صفوان بن محرز قال : « كنت أخلاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعته يقول : « إن الله عز وجل يدني المؤمن ، فيضع عليه كنفه ، ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنبك كذا ؟ أتعرف ذنبك كذا ؟ أتعرف ذنبك كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد علمك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وإني أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسنته » وأما الكفار والمنافقون : فيقول ﴿ الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ .

٢ - ذكر الله عز وجل في أوائل هذه السورة قوله ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ﴾ وقد ذكرنا أثناء مرورنا على هذه الآية أن أول الخلق كان العرش والماء ، ثم كان خلق السموات والأرض ، وههنا نروي أحاديث في المعنى نفسه :

روى الإمام أحمد عن صفوان بن محرز عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « اقبلوا البشرى يا بني نعيم » قالوا : قد بشرتنا فأعطينا ، قال : « اقبلوا البشرى يا أهل الجن » قالوا : قد قبلنا ، فأخبرنا عن أول الأمر كيف كان ؟ قال : « كان الله قبل كل شيء ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء » قال : فأتاني آت فقال : يا عمران انحلّت نافتك من عقاقها ، قال : فخرجت في أثرها ، فلا أدري ما كان بعدى . وهذا الحديث مخرج في صحيح البخاري ومسلم باللفاظ كثيرة ، فعنها : قالوا : جنتك نسألك عن أول هذا الأمر فقال : « كان الله ولم يكن شيء قبله - وفي رواية غيره - وفي رواية معه - وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء » ثم خلق السموات والأرض . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق

السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » وروى البخاري في تفسير هذه الآية .. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله عز وجل : أنفق أنفق عليك » . وقال : « يد الله ملأى لا يفيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار » وقال : « أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يفيض ما في يمينه ، وكان عرشه على الماء ، ويده الميزان يخفض ويرفع » .

وروى الإمام أحمد عن أبي رزين العقيلي قال : قلت : يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : « كان في عماء ما تحته هواء ، وما فوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك » . وقد رواه الترمذي في التفسير ، وابن ماجه في السنن ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن وقال مجاهد : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ قبل أن يخلق شيئاً ، كذا قال وهب بن منه وضمره وقتادة وابن جرير وغير واحد . وقال قتادة في قوله ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض ، أقول : (ما) في قوله (ما فوقه هواء وما تحته هواء) نافية أي ليس معه شيء .

كلمة في السياق :

١ - قلنا : إن محور سورة هود عليه السلام هو قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ وقد رأينا أن هذا المقطع بدأ بتقرير أن هذا القرآن أحكم وفصل من أجل عبادة الله واستغفاره ، وسيأتي الآن مقطع ثان فيه ثلاث قصص لأنبياء دعوا قومهم إلى عبادة الله هم : نوح ، وهود ، وصالح .

٢ - لقد فصل المقطع الذي مر معنا في كثير من مضامين العبادة ومظاهرها ، كما بين لنا الكثير مما تقتضيه العبادة لله في العسر واليسر وفي كل حال .

٣ - ووصف القرآن الذي أنزل داعياً إلى العبادة والاستغفار بأنه نذير وبشير ، وقد رأينا في المقطع نماذج على نذارته وبشارته ، وسرى في المقطع الثاني إنذارات وبشارات من خلال عرضه لقصص الأنبياء ومواقف أقوامهم منهم ، وما آل إليه أمر المرسلين وأمر المكذبين .

٤ - ومن خلال ما مر وسيمر تتعمق قضية العبادة والاستغفار .

المقطع الثاني

ويمتد من الآية (٢٥) إلى نهاية الآية (٦٨) وهذا هو :

المجموعة الأولى

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَدُّكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَدُّكَ أَنْ تَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الْأَرَائِي وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَتَقَوْمُ آدَمَ إِنَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلِمُكُمْ مَوْهَاوَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَتَقَوْمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَتَقَوْمُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُنْجِرُونَ ﴿٣٥﴾
 وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا
 يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخِطْبِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ
 مُخْرَجُونَ ﴿٣٧﴾ وَبَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ
 إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ
 عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِلٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ
 قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ
 وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ * وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجْرُهَا وَمُرْسَاهَا
 إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ
 وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَفَاوَىٰ إِلَىٰ
 جِبَلٍ يَفْعُسُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ
 بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُفْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يٰنَارُ ضِئْ بِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّكَ وَبِسْمَاءِ
 أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ
 الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ
 الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلُ

غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْخٰٓفِلِينَ ﴿٤٦﴾
 قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي
 أَكُنَ مِنَ الْخٰٓسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ
 مِّمَّنْ مَعَكَ وَأَمَّا سَمِعَتُهُمْ فَمِمَّنْ يَمْسُحُ مِنَّا عَذَابُ الْإِيمِ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ
 الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ
 إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

المجموعة الثانية

وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا
 مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي
 أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ
 مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ
 وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا
 اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوْرٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَآشْهَدُوكُم مِّنِي بِرِيٍّ فَمَا تَنْشُرُونَ
 ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللَّهِ رَبِّي
 وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَّبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَى الْبُكْرَةِ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ
وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْعًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا
هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيْظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَادُ
جَعْدُوا بِعَايِنِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبِعُوا
فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَلَا إِنَّ ءَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۚ أَلَا بُعْدًا لِّءَادٍ
قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ *

المجموعة الثالثة

وَالَّذِينَ تَتَذَكَّرُ أَهْلًا وَمَن يَكْفُرْ أَصْحَابُهُ ۖ فَخَذَّ اللَّهُ لَهُمْ مِّنْ آلِهِمْ ۚ هُوَ
أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتَوَبَّوْا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي
قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَنْصَلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَنْ
نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَنْفَرُ
أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً ۖ فَمَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن
عَصَيْتُهُ ۚ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَقُولُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾
فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا

جَاءَ أَمْرُنَا نَجِّنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنَ نَحْرِي يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٢٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْعَةَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِّمِينَ ﴿٢٧﴾ كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۖ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۖ أَلَا بَعْدَ لَشُعُودٍ ﴿٢٨﴾

تفسير المجموعة الأولى

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني ﴾ أي باني ﴿ لكم نذير مبين ﴾ أي بين الإنذار ﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ أي : إني لكم ظاهر النذارة من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ أي مؤلم موجه في الدنيا والآخرة إن استمررتم على ما أنتم عليه ، وقد وصف اليوم نفسه بأنه أليم لوقوع الألم فيه ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ الملأ : هم الأشراف ، لأنهم في موازين الناس يملئون القلوب هيبة ، والمجالس أبهة ، أو لأن الناس يعتبرونهم ملثوا بالأحلام والآراء الصائبة ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلاً ﴾ أي لست بمملك ولا ملك ولكنت بشر فكيف أوحى إليك من دوننا ، ولست بذي فضل علينا ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ أي أحساؤنا وأسافلنا ﴿ بادي الرأي ﴾ أي وقت حدوث أول رأيهم ، أرادوا أن اتبعاهم لك شيء عن لهم بديهة من غير رؤية ونظر ، ولو تفكروا ما اتبعوك . قال النسفي : (وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية لأنهم (أي الكافرين) كانوا جهالاً ، ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، فكان الأشراف عندهم من له جاه ومال ، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك ، وينون عليه إكرامهم وإهانتهم ، ولقد زل عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله . وإنما يبعده » أقول : هذا إذا لم يرافقه إيمان وإحسان . ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ أي ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق ، ولا رزق ولا حال ، لَمَّا دَخَلْتُمْ فِي دِينِكُمْ هذا ، ومن قبل ليس لكم فضيلة في مال ولا رأي ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ في دعوى الرسالة ، أي نوحاً في الدعوة ، ومتبعيه في الإجابة ، والتصديق يعنى تواطئتم على الدعوة والإجابة تسيباً للرئاسة ، وهكذا نجد أن ما قاله قوم نوح هو لسان حال الكافرين في كل عصر ، أن يتهموا أهل الإيمان بالردالة ، وضحالة الرأي ، وانعدام الميزات ، والكذب في دعوى حمل الإسلام . وهكذا بآية واحدة جمع الله عز وجل كل ما قاله قوم

نوح لنوح والمؤمنين في ردّ دعوتهم ، وهو ردّ سفيه جاهل .

فائدة :

قال ابن كثير في التعقيب على ردّ الكافرين المذكور آنفاً :

(هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه ، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم ، فإنه ليس بعار على الحق ردّالة من أتبعه ، فإن الحق في نفسه صحيح ، سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل ، ولو كانوا أغنياء ، ثم الواقع غالباً إنما يتبع الحق ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته ، كما قال تعالى : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ (الزخرف : ٢٣) ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان - صخر بن حرب - عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال : أشراف الناس أتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ، فقال هرقل : هم أتباع الرسل ، وقولهم (يادي الرأي) ليس بمذمة ولا عيب ، لأن الحق إذا وضع لا يبقى للتروي ولا للفكر مجال ، بل لابد من اتباع الحق - والحالة هذه - لكل ذي زكاء وذكاء ، بل لا يفكر مهنا إلا غبي أو غيبي ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاؤوا بأمر جلي واضح ، وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أني بكر فإنه لم يتلعم » أي ما تردّد ولا تروى لأنه رأى أمراً جلياً عظيماً واضحاً فبادر إليه وسارع ، وقولهم : ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ هم لا يرون ذلك لأنهم عمي عن الحق . لا يسمعون ولا يبصرون ، بل هم في ريبهم يترددون ، في ظلمات الجهل يعمهون ، وهم الأفاكون الكاذبون الأقليون الأرذلون . وفي الآخرة هم الأخسرون) .

○ ○ ○

﴿ قال يا قوم أرأيتم ﴾ أي أخبروني ﴿ إن كنت على بينة من ربي ﴾ أي على برهان وشاهد منه يشهد بصحة دعواي ، أي على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم ، إذ جاءهم بما يحقق حكمة وجودهم وخلقهم ﴿ وأتاني رحمة من عنده ﴾ أي النبوة التي هي أعظم مظهر من مظاهر رحمة الله بخلقه ، وأني رحمة أعظم من رحمة نتعرف بها على الله ورسالاته ﴿ ففُتيت عليكم ﴾ أي أخفيت البينة فلم تهتدكم ، كما لو عتي على القوم دليلهم في الصحراء فبقوا بغير دلالة ، وهؤلاء لم يهتدوا إليها ، ولا عرفوا قدرها ، بل بادروا إلى تكذيبها وردّها ﴿ أنلزمكموها ﴾ أي أنغصبكم

بقبول هذه الرحمة ﴿ وأنتم لها كارهون ﴾ أي لا تريدونها ﴿ وياقوم لا أسألكم عليه ﴾ أي على تبليغ الرسالة ﴿ مالا ﴾ أي أجرة بثقل عليكم إن أدبتموه إلي ، أو يثقل علي إن أيتم دفعه ، وإنما أنا مبلغ عن الله ، ومبتغ بذلك وجهه ﴿ إن أجري إلا على الله ﴾ فإنه المأمول منه عز وجل ، وكأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاماً وأنفة من المجالسة معهم ، ونفاسة منهم أن يكونوا كهؤلاء ، ولذلك قال : ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملائقوا ربهم ﴾ فيشكونني إليه إن طردتهم ، وهو مجازيهم إن كانوا مقتصرين ﴿ ولكي أراكم قوماً تجهلون ﴾ أي تسافهون على المؤمنين ، وتدعونهم أراذل ، أو تجهلون لقاء ربكم ، أو تجهلون أن المؤمنين خير منكم ﴿ وياقوم من ينصرني من الله ﴾ أي من يمنعني من انتقامه ﴿ إن طردتهم أفلا تذكرون ﴾ أي أفلا تتعظون ﴿ ولا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ فأدعي فضلاً بذلك ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ حتى أطلع على ما في نفوس أتباعي وضمائر قلوبهم ﴿ ولا أقول إني ملك ﴾ حتى تقولوا لي ما أنت إلا بشر مثنا ﴿ ولا أقول للذين تردوني أعينكم ﴾ أي تحقرهم وتعيبهم ﴿ لن يؤتيهم الله خيراً ﴾ أي ولا أحكم على من استرذلم من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتيهم خيراً في الدنيا والآخرة هوأنهم عليه ، مساعدة لكم ونزولاً على هواكم ﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ من صدق الاعتقاد ، وإنما علي قبول ظاهر إقرارهم ؛ إذ لا أطلع على خفي أسرارهم ﴿ إني إذا لمن الظالمين ﴾ إن قلت شيئاً من ذلك ، وهكذا رد عليهم ما قالوه . هذا الرد البليغ الحازم الجازم اللطيف اللين - في الوقت نفسه - فلم تبق كلمة لهم إلا رد عليها ، ولا زعماً إلا دحضه ، وبيّن موقفه الربائي الذي لا يتزعزع عنه ، وعلمنا من جملة ما علمنا ألا نبيع المؤمنين بالمتكبرين ، وألا يكون هذا محل مساومة مهما كان وضع المؤمنين ، ومهما ادّعى أن فيهم ما فيهم ، وهذا درس عظيم للدعاة ، فقد لا يستجيب لشأنهم إلا أقل الناس في مقاييس الناس ، فهؤلاء ينبغي أن يكونوا عند الداعية أغلى الناس ، وألا يميل عنهم إلى غيرهم .

ولنعهد إلى السياق :

فبعد أن قامت عليهم الحجة اتخذوا الموقف الذي يتخذه كل مبطل ، وهو رفض الحق والإعراض عن أهله ﴿ قالوا ياتوح قد جادلنا فأكثر جدالنا ﴾ أي حاججتنا فأكثر من ذلك ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ من العذاب ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ في وعدك ﴿ قال إنما يأتيكم به الله إن شاء ﴾ أي ليس إلا تبيان بالعذاب إلي ، وإنما هو إلى

من كفرتم به ، فهو الذي يتولى عقابكم ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي فلا تقدرّون على الهروب منه فإنه لا يعجزه شيء ﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ أي بضلكم والتقدير : إن كان الله يريد أن يغويكم لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم ، أي لا شيء يجدي معكم بإبلاغكم وإنذاري إياكم ونصحي ، إذا كان الله يريد أن يغواءكم ودماركم ؛ بسبب من ظلمكم وكبركم ﴿ هو ربكم ﴾ فينصرف فيكم ؛ لأنه مالك أزمنة الأمور ، المنصرف الحاكم العادل الذي لا يجور ، له الخلق وله الأمر ﴿ وإليه ترجعون ﴾ فيجازيكم على أعمالكم فهو المبدئ المعيد ، مالك الدنيا والآخرة ، وهكذا تقابل الحجة بالحجة . والموقف يقابل بموقف ، والحسم يقابل بحسم . فإذا وصلت قصة نوح إلى هذا تأني الآن آية معترضة تتحدث عن قوم محمد ﷺ ، وكلامهم والجواب عليهم بما يناسب السياق ، ومجيء هذه الآية هنا مذكّر بأن القصة هنا هادفة ، في التوجيه والإرشاد ، ولفت النظر واتمثيل ، بما يناسب الدعوة الجديدة ، وبما يخدم سياق السورة بشكل عام . ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ أي بل يقولون : اختلقه ، أي بل يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون افتري هذا وافتعله من عنده ﴿ قل إن افتريته فعليّ إجرامي ﴾ أي إن صح أني افتريته فعليّ عقوبة إجرامي أي افترائي ﴿ وأنا بريء مما تجرمون ﴾ أي وأنا بريء من إجرامكم في إسناد الافتراء إليّ ، أي ليس ذلك مفتعلاً ولا مفترى ، لأنني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه . قال ابن كثير في هذه الآية : (هذا كلام معترض في وسط القصة مؤكّد لها ...) أقول : قد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية ليست معترضة بل هي جزء من الحوار بين نوح عليه السلام وقومه ، والمقام محتمل . ثم يعود السياق .

فبعد أن تبينت المواقف قال تعالى : ﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ هذا تقبيل من الله لنوح عليه السلام من إيمانهم ، وأنه غير متوقع ﴿ فلا تبش بما كانوا يفعلون ﴾ أي فلا تحزن عليهم ، ولا بهمتك أمرهم ، وأصل المعنى : فلا تحزن حزن يائس مستكين بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ، فقد حان وقت الانتقام من أعدائك ﴿ واصنع الفلك ﴾ أي السفينة ﴿ بأعيننا ﴾ قال ابن كثير : (بمراي منا) أقول : في ذلك نظمين له من أن يزيغ في صنعته عن الصواب ﴿ ووحينا ﴾ أي وإنا نوحى إليك ولنهملك كيف نصنع ، أي وتعليمنا لك ما نصنعه ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا ﴾ أي ولا تدعني في شأن قومك ، واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك ﴿ إنهم

مفرقون ﴿ أي محكوم عليهم بالإغراق ، وقد قضى به وجفّ القلم ، فلا سبيل إلى كفه ، وقام نوح بالأمر ﴾ ويصنع الفلك وكلّما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴿ أي من عمله السفينة فكانوا يهزأون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق ﴾ قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم ﴿ عند رؤية الهلاك ، وهو محقق عندنا من الآن ﴾ كما تسخرون ﴿ منا عند رؤية الفلك ﴾ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴿ أي يهينه في الدنيا ﴾ ويحل عليه عذاب مقيم ﴿ أي دائم مستمر أبداً فالمراد بالعذاب الأول عذاب الدنيا وهو الغرق ، والمراد بالعذاب الثاني عذاب الآخرة . ثم قصّ الله علينا كيف جاء العذاب ﴾ حتى إذا جاء أمرنا ﴿ أي عذابنا ﴾ وفار الثور ﴿ للمفسرين هنا أقوال فبعضهم قال : المراد بالتثور الإشعار باشتداد الأمر وصعوبته ففي الكلام كناية ، وبعضهم قال : المراد به تثور خبز بعينه ، وبعضهم قال : المراد به وجه الأرض ، والظاهر أنها علامة لنوح من الله ، فإذا كان الأمر كذلك فهو تثور بعينه ﴿ قلنا احمل فيها ﴾ أي في السفينة ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ أي من كل صنف زوجين ﴿ وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ﴾ أنه من أهل النار ، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر بتقديره وإرادته ، جلّ خالق العباد عن أن يقع في الكون خلاف ما أراد ﴿ ومن آمن ﴾ أي واحمل مع المؤمنين من أهلك من آمن من غيرهم ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، كما ستري في سورة (العنكبوت) ، وليس هناك من رواية عن رسولنا عليه الصلاة والسلام في تحديد عدد من ركب في السفينة ، وسنذكر في الفوائد شيئاً له علاقة في هذا الموضوع ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها ﴾ أي مسمين الله ، أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها ، أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها ﴿ إن ربي لغفور ﴾ لمن آمن منهم ﴿ رحيم ﴾ حين خلّصهم ﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾ كأنه قيل : فركبوا فيها يقولون : بسم الله ، والسفينة تجري ، وهم فيها ، وموج الطوفان كأنه الجبال . والموج : هو ما يرتفع من الماء عند اضطرابه بسبب الرياح الشديدة ، شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها ﴿ ونادى نوح ابنه وكان في معزل ﴾ أي عن أبيه وعن السفينة ، أو في معزل عن دبه ﴿ يا بني اركب معنا ﴾ في السفينة ، أي أسلم واركب ولذلك قال : ﴿ ولا تكن مع الكافرين ﴾ فتفرق وتدخل النار ﴿ قال سأوي ﴾ أي سأني ﴿ إلى جبل يعصمني من الماء ﴾ أي يمنعني من الغرق ﴿ قال لا عاصم اليوم من أمر الله ﴾

أي من الطوفان والغرق ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ﴾ أي إلا من رحمه الله ، اعتقد - بجهله - أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال ، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاة ذلك من الغرق فقال له أبوه ما معناه إنه لا يعصمك اليوم معتصم قط من جبل ونحوه سوى معتصم واحد وهو مكان من رحمهم الله ونجّاهم يعني السفينة ، أو لا يعصمك اليوم إلا الله لأن من رحمه الله وحده فهو المعصوم ﴿وَحَالٌ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ أي بين ابنه والجبل أو بين نوح وابنه ﴿فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِقِينَ﴾ أي فصار من المغرقين ، وهكذا كانت نهاية الكافرين والظالمين ، وتأني الآن قصة نهاية الطوفان ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ﴾ أي انشقي ماءك وتشرني ﴿وَيَا سَمَاءُ اقْلَعِي﴾ أي أمسكي ﴿وغيض الماء﴾ أي شرع في النقص ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي وأنجز ما وعد الله نوحاً من إهلاك قومه ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ أي واستقرت السفينة على المستوى بالجودي ﴿وَقِيلَ بُعْداً﴾ أي سحقاً ، والمراد البعد البعيد من حيث إهلاك والموت ، ولذلك تخص هذه الكلمة بدعاء السوء ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي قوم نوح الذين غرقوا ، ويسأل نوح ربه مستعلماً وكاشفاً عن حال ولده الذي غرق ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي وقد وعدتني بنجاة أهلي ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ الذي لا يخلف فكيف غرق ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي أعلم الحكام وأعدلهم ﴿قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي الذين وعدت إنجاءهم لأنني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك ولهذا قال : ﴿وَأَهْلِكَ إِلَّا مِنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ هذا تعليل لانتفاء كونه من أهله ، وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب ، وأن نسيبك في دينك - وإن كان حبشياً وكنت قرشياً - لصيقك ، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحماً فهو أبعد بعيد منك ، وجعلت ذاته عملاً غير صالح للإشعار بمبالغته في السوء ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ﴾ أي بجواز مسأله ﴿عَلِمَ إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فتسأل ما لا يجوز لك أن تسأله ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أي استجيرك من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته ، تأدياً بأدبك ، واتعاضاً بموعظتك ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي﴾ ما فرط مني ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ بالعصمة عن العود إلى مثله ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة ﴿قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ أي بنحية منا أو سلامة من الغرق ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ البركات : هي الخيرات النامية ، وهي في حقه بكثرة ذريته وأتباعه . قال

النفسى : فقد جعل أكثر الأنبياء من ذريته وأئمة الدين في القرون الباقية من نسله ﴿ وعلى أمم ممن معك ﴾ المراد إما الأمم الذين كانوا معه في السفينة لأنهم كانوا معه جماعات ، أو سموا أمماً لأن الأمم تتشعب منهم ، أو المراد وعلى أمم ناشئة ممن معك وهي الأمم إلى آخر الدهر ﴿ وأمم سمنتهم ﴾ في الدنيا بالسعة في الرزق والخفض في العيش ، والتقدير : ومن معك أمم سمنتهم ﴿ ثم يحسبهم منا عذاب أليم ﴾ أي في الآخرة . والمعنى : أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمم مؤمنين ينشئون معك ، ومن ذرية من معك أمم مُمتعون بالدنيا ، منقلبون إلى النار . ثم عَقَّبَ الله عز وجل على قصة نوح مخاطباً رسوله ﷺ لتأخذ القصة مكانها في السياق ، ولتؤدي دورها في التمثيل على بعض المعاني الموجودة في المقطع الأول ﴿ تلك ﴾ أي قصة نوح ﴿ من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك ﴾ أي تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك بجهولة عندك وعند قومك ﴿ من قبل هذا ﴾ أي من قبل هذا الوقت ، أو من قبل إحيائي إليك وإخبارك بها ﴿ فاصبر ﴾ على تبليغ الرسالة ، وأذى قومك ، كما صبر نوح ، وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما كان لنوح ولقومه ﴿ إن العاقبة ﴾ في الفوز والنصر والغلبة ﴿ للمتقين ﴾ الذين عبدوا الله حق العباداة وأطاعوه حق الطاعة . قال ابن كثير في هذه الآية : يقول تعالى لنبه ﷺ : هذه القصة وأشباهها ﴿ من أنباء الغيب ﴾ يعني من أنباء الغيوب السالفة ، نوحيها إليك على وجهها كأنك شاهدها ، ﴿ نوحيها إليك ﴾ أي نعلمك بها وحياً منا إليك ﴿ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها ، حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه ، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح ، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك ، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك ، وأذاهم لك ، فإننا سننصرك ، ونحطوك بعنايتنا ، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة ، كما فعلنا بالمرسلين ، حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ﴾ الآية (غافر : ٥١) ، وقال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنا لهم المنصرون ﴾ الآية (الصفات : ١٧١ ، ١٧٢) ، وقال تعالى ﴿ فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .

قال صاحب الظلال في هذه الآية : (فيحقق هذا التعقيب من أهداف القصص القرآني في هذه السورة :

• حقيقة الوحي التي ينكرها المشركون . فهذا القصص غيب من الغيب ، ما كان يعلمه

النبي ، وما كان معلوماً لقومه ، ولا متداولاً في محيطه . إنما هو الوحي من لدن حكيم خبير .

• وحقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح أبي البشر الثاني . فهي هي . والتعبير عنها يكاد يكون هو التعبير .

• وحقيقة تكرار الاعتراضات والاثهمات من المكذبين على الرغم من الآيات والعبر والبيانات التي لا تمنع جيلاً أن يرددها وقد بدت باطلة في جيل .

• وحقيقة تحقق البشرى والوعيد ، كما يبشر النبي وينذر ، وهذا شاهد من التاريخ .

• وحقيقة السنن الجارية التي لا تتخلف ولا تحاي ولا تحيد : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ فهم الناجون وهم المستخلفون .

• وحقيقة الرابطة التي تربط بين فرد وفرد ، وبين جيل وجيل . إنها العقيدة الواحدة التي تربط المؤمنين كلهم في إله واحد ورب واحد ، يلتفون في الدينونة له بلا منازع ولا شريك (.

فوائد:

١ - بسبب من الصراع العنيف بين الكنيسة والفكر العلماني عند الغربيين ، فقد تتبّع الكثيرون من الغربيين ما له علاقة بقصة نوح عليه السلام ، وكتبوا في ذلك الكتب الكثيرة ، وقد وجد المتبعون لحفريات ما بين النهرين الكثير مما له علاقة بقصة نوح ، كانت بمثابة ردّ على الفكر الإلحادي الذي غلب عليه الإنكار .

وقد تبين من خلال الحفريات ، أنّ قصة الطوفان كانت مشهورة على مدى العصور القديمة عند أهل المنطقة ، ولعلّ من أبرز الآثار التي أشارت إليها ما اشتهر باسم ملحمة (جلجامش) هذه الملحمة الأسطورية التي كتبت - فيما يبدو - بعد الطوفان بقرون كثيرة ، وفيها كلام واضح عن الطوفان ، وعن نوح عليه السلام ، وهذه الملحمة واحدة من آثار كثيرة عثر عليها ، تشير إلى الطوفان وإلى نوح عليه السلام .

٢ - وقف الكثيرون من أئمة البلاغة عند قوله تعالى ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي .. ﴾ ومما قاله الألويسي فيها : (هذا واعلم أن هذه الآية الكريمة قد بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها ، واستدلت مصاقع العرب ، فسفت بنواصيها ، وجمعت

من المحاسن ما يضيق عنه نطاق البيان ، وكان من سمجهرى البلاغة مكان السنان . (.
 (وقد فصل بعض مزايا هذه الآية المهرة المتقنون ، وتركوا من ذلك ما لا يكاد
 يصف الواصفون ، ولا بأس بذكر شيء مما ذكر ، إفادة لجاهل ، وتذكيراً لفاضل
 غافل ، فنقول : ذكر العلامة السكاكي أن النظر فيها من أربع جهات : من جهة علم
 البيان ، ومن جهة علم المعاني ، وهما مرجعا البلاغة ، ومن جهة الفصاحة المعنوية .
 ومن جهة الفصاحة اللفظية .

« وقد ألف شيخنا علاء الدين - أعلى الله تعالى درجته في أعلى عليين - رسالة في
 هذه الآية الكريمة جمع فيها ما ظهر له ، ووقف عليه من مزاياها فبلغ ذلك مائة وخمسين
 مزية .)

أقول : وإن في الآية لمزيداً ، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز وسنقل فيما بعد ما
 قاله النسفي في الآية .

٣ - ما هو الجودي الذي ورد ذكره في القرآن ؟ قال مجاهد : هو جبل في الجزيرة . وقال
 قتادة : قد أبقي الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية
 حتى رآها أوائل هذه الأمة ، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت ، وصارت رماداً
 « ويذكر سفر التكوين أنه جبل أرارات » وقد استطاعت الأقمار الصناعية - ومن قبل
 ذلك أحد الذين تتبعوا هذا الأمر - أن يحددوا مكان بقاياها التي لازالت موجودة حتى
 الآن ، معجزة دائمة على الدهر ، وهي في المنطقة السوفياتية من أرمينيا حالياً ، هكذا
 نقلت إذاعة إسرائيل في إحدى نشراتها والله أعلم .

٤ - من قوله تعالى : ﴿ بسم الله مجربها ومرساها ﴾ نفهم سنة الأنبياء جميعاً في البداية
 بالتسمية ، ولذا تستحب التسمية في شريعتنا في ابتداء الأمور .

٥ - روى أبو القاسم الطبراني بسنده إلى ابن عباس إلى رسول الله ﷺ قال : « أمان
 أمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا : بسم الله الملك » ﴿ وما قدروا الله حق
 قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما
 يشركون ﴾ . ﴿ بسم الله مجربها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ﴾ .

٦ - يذكر ابن كثير عن قصة نوح هنا كلاماً كثيراً منقولاً أكثره عن الإسرائيليات ،
 والإسرائيليات في هذا المقام لا تروى ظمناً ، بل بعضها يجب رفضه ورده ، لظهور

كذبه ، وأول مرجع عندنا في هذا الموضوع هو سفر التكوين ، وهو أحد الأسفار الخمسة التي تشكل التوراة الحالية ، ويسمونها أسفار موسى : وقد ذكرنا في سورة الأعراف أن هذه الأسفار الخمسة لا يمكن أن تكون هي التوراة ، وقد نقل مالك بن نبي في كتاب (الظاهرة القرآنية) عن النقاد الغربيين أنه لم يثبت سفر من أسفار العهد القديم للنقد إلا سفر أرميا ، ومن قرأ الإصحاحات : الخامس ، والسادس ، والسابع ، والثامن ، والتاسع ، من سفر التكوين وهي التي تحدثت عن قصة نوح عرف من خلال قراءته ومطالعة المخرجة مخف كثير من الكلام الموجود فيها ، مما يدل على أنه كلام موضوع مكذوب ، لا يليق أن يذكر في كتاب . من ذلك مثلاً في الكلام عن الله « فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض ، وتأسف في قلبه » وأبرز ما يدلنا على الكذب في هذه الأسفار أن هذه الإصحاحات تذكر رقم (٩٥٠) سنة وتجعلها عمر نوح كله ، فتجعل بقاء نوح في قومه قبل الطوفان (٦٠٠) سنة وتجعل (٣٥٠) سنة بعد الطوفان ، مع أن النص القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يذكر ﴿ فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ . (العنكبوت : ١٤)

إذاً وضع هذا الذي ذكرناه في معرفتنا لقيمة الروايات المذكورة في كتب العهد القديم ، فلننقل من هذه الإصحاحات بعض المعاني ، مادام علماءنا قد نقلوا عن نقل عنها ، فالنقل منها مباشرة أولى : ففي الإصحاح السادس من سفر التكوين من العهد القديم : (فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي . لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم . فيها أنا مهلكهم مع الأرض . اصنع لنفسك فلكاً من خشب جُفَر . تجعل الفلك مساكن . وتعليه من داخل ومن خارج بالقار . وهكذا تصنعه ثلاث مئة ذراع يكون طول الفلك . وخمسين ذراعاً عرضه . وثلاثين ذراعاً ارتفاعه . وتصنع كوى للفلك وتكمله إلى حد ذراع من فوق . وتضع باب الفلك في جاتبه . مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله ، فيها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء . كل ما في الأرض يموت . ولكن أقيم عهدي معك . فتدخل الفلك أنت وبنوك وامراتك ونساء بنيك معك . ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقاتها معك . تكون ذكراً وأنثى . من الطيور كأجناسها . ومن البهائم كأجناسها . ومن كل دواب الأرض كأجناسها . اثنين من كل تدخل إليك لاستبقائها وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمه عندك . فيكون لك ولها

طعاماً . ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله . هكذا فعل) .

وفي الإصحاح السابع : (وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض . وتكاثرت المياه ورفعت الفلك . فارتفع عن الأرض . وتعاضمت المياه . وتكاثرت جداً على الأرض فتغطت جميع الجبال الشاخنة التي تحت كل السماء . خمسة عشر ذراعاً في الارتفاع تعاضمت المياه . فتغطت الجبال ، فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض . من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس . كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض . من الناس والبهائم والذبابات وطيور السماء . وانمحت من الأرض . وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط . وتعاضمت على الأرض مئة وخمسين يوماً) .

وفي الإصحاح الثامن : (وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه . وانسدت بناييع العُمر وطاقات السماء . فامتنع المطر من السماء . ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً . وبعد مئة وخمسين يوماً نقصت المياه . واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أرمراط . وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر . وفي العاشر في أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال .

وحدث من بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها . وأرسل الغراب . فخرج متردداً حتى انشقت المياه عن الأرض . ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها . فرجعت إليه إلى الفلك . فلبث أيضاً سبعة أيام آخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك ، فأنت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها . فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض . فلبث أيضاً سبع أيام آخر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضاً) .

وفي الإصحاح التاسع : (وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم أنثروا واكثروا واملأوا الأرض) .

نقول من الظلال :

إن قوم نوح - عليه السلام - هؤلاء الذين شهدنا مدى جاهليتهم ، ومدى إصرارهم على باطلهم ، ومدى استكبارهم لدعوة الإسلام الخالص التي حملها نوح - عليه السلام - إليهم ، وخلاصتها : التوحيد الخالص الذي يفرد الله - سبحانه -

بالدينونة والعبودية ، ولا يجعل لأحد معه صفة الربوبية .

إن قوم نوح هؤلاء .. هم ذرية آدم .. وآدم - كما نعلم من قصته في سورة الأعراف من قبل وفي سورة البقرة كذلك - قد هبط إلى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها - وهي المهمة التي خلقه الله لها وزوّده بالكفايات والاستعدادات اللازمة لها - بعد أن علّمه ربه كيف يتوب من الزلّة التي زلّها ، وكيف تلقى من ربه كلمات فتاب عليه بها . وكيف أخذ عليه ربه العهد والميثاق - هو وزوجه وبنوه - أن « يتبع » ما يأتيه من هدى الله ، ولا يتبع الشيطان وهو عدو بنه إلى يوم الدين .

وإذن فقد هبط آدم إلى الأرض مسلماً لله متبعاً هدايه . وما من شك أنه علّم بنيه الإسلام جيلاً بعد جيل ، وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض ، حيث لم تكن معها عقيدة أخرى . فإذا نحن رأينا قوم نوح - وهم من ذرية آدم بعد أجيال لا يعلم عددها إلا الله - قد صاروا إلى هذه الجاهلية التي وصفها القصة في هذه السورة . فلنا أن نجزم أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافاتها وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعاً . وأنها انخرقت عن الإسلام إليها بفعل الشيطان المسلّط على بني آدم ؛ وبفعل الثغرات الطبيعية في النفس البشرية . تلك الثغرات التي ينفذ منها عدو الله وعدو الناس ، كلما تراخوا عن الاستمسك بهدى الله ، واتباعه وحده ، وعدم اتباع غيره معه في كبيرة ولا صغيرة .. ولقد خلق الله الإنسان ومنحه قدراً من الاختيار - هو مناط الابتلاء - وبهذا القدر يملك أن يستمسك بهدى الله وحده فلا يكون لعدوه من سلطان عليه ، كما يملك أن ينحرف - ولو قيد شعرة - عن هدى الله إلى تعاليم غيره ، فيجتاله الشيطان حتى يقذف به - بعد أشواط - إلى مثل تلك الجاهلية الكالحة التي انتهت إليها ذراري آدم - النبي المسلم - بعد تلك الأجيال التي لا يعلمها إلا الله .

وهذه الحقيقة .. حقيقة أن أول عقيدة عُرفت في الأرض هي الإسلام القائم على توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده .. نقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم (علماء الأديان المقارنة) وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طوراً متأخراً من أطوار العقيدة ، سبقته أطوار شتى من التعدد والنشئة للآلهة . ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح ، وتأليه الشمس والكواكب .. إلى آخر ما تخبط فيه هذه « البحوث » التي تقوم ابتداءً على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية

وسياسية معينة ؛ يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله وإثبات أن الأديان من صنع البشر ، وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان . ويتزلق بعض من يكتبون عن الإسلام مدافعين ، فيتابعون تلك النظريات التي يقررها الباحثون في تاريخ الأديان - وفق ذلك المنهج الموجه - من حيث لا يشعرون . وبينما هم يدافعون عن الإسلام متحمسين يحطّمون أصل الاعتقاد الإسلامي الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم . حين يقرر أن آدم - عليه السلام - هبط إلى الأرض بعقيدة الإسلام . وأن نوحاً - عليه السلام - واجه ذراري آدم الذين اجتاحهم الشيطان عن الإسلام إلى الجاهلية الوثنية بذلك الإسلام نفسه القائم على التوحيد المطلق . وأن الدورة تجددت بعد نوح فخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية ، وأن الرسل جميعاً أرسلوا بعد ذلك بالإسلام . القائم على التوحيد المطلق وأنه لم يكن قط تطور في العقيدة السماوية في أصل الاعتقاد - إنما كان الترقى والتركيب والتوسع في الشرائع المصاحبة للعقيدة الواحدة . وأن ملاحظة ذلك التطور في العقائد الجاهلية لا يدل على أن الناس صاروا إلى التوحيد بناء على تطور في أصل العقيدة . إنما يدل على أن عقيدة التوحيد على يد كل رسول كانت تترك رواسب في الأجيال التالية - حتى بعد انحراف الأجيال عنها - ترقى عقائدهم الجاهلية ذاتها ؛ حتى تصبح أقرب إلى أصل التوحيد الرباني . أما عقيدة التوحيد في أصلها فهي أقدم في تاريخ البشرية من العقائد الوثنية جميعاً . وقد وجدت هكذا كاملة منذ وجدت ، لأنها ليست نابعة من أفكار البشر ومعلوماتها المترفقة ؛ إنما هي آتية لهم من عند الله سبحانه . فهي حق منذ اللحظة الأولى ، وهي كاملة منذ اللحظة الأولى .

هذا ما يقرره القرآن الكريم ، ويقوم عليه التصور الإسلامي . فلا مجال إذن لباحث مسلم - وبخاصة إذا كان يدافع عن الإسلام - أن يعدل عن هذا الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم ، إلى شيء مما تحبط فيه نظريات علم الأديان المقارنة . تلك النظريات النابعة من منهج موجه كما أسلفنا .

ومع أننا هنا - في ظلال القرآن - لاناقد الأخطاء والمزالق في الكتابات التي تكتب عن الإسلام إذ أن مجال هذه المناقشة بحث آخر مستقل . ولكننا نلم بنموذج واحد نعرضه في مواجهة المنهج القرآني والتقريرات القرآنية في هذه القصة .

كتب الأستاذ العقاد في كتابه (الله) في فصل أصل العقيدة :

... (ترقى الإنسان في العقائد . كما ترقى في العلوم والصناعات ، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته . فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الديانات والعبادات وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى ، وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات .

لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المنفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى .

« وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة ، وهي أظهر ما تراه العيون ونحوه الأبدان ، ولجئوا إلى زمن قريب يقولون بدورانها حول الأرض ، ويفسرون حركاتها وعوارضها كما تفسر الأغاز والأحلام . ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس لأن العقول كانت في ظلام من أمرها فوق ظلام . ولعلها لا تزال .

فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان الدين ، ولا على أنها تبحث عن محال . وكل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة شاملة في عصر واحد ، وأن الناس يستعدون لعرفانها عصرًا بعد عصر ، وطورًا بعد طور . وأسلوباً بعد أسلوب ، كما يستعدون لعرفان الحقائق الصغرى ، بل على نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التي يحيط بها العقل ويتناولها الحس والعيان .

« وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التي آمن بها الإنسان الأول ، ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية ، أو بين أُمم الحضارة العريقة . ولم يكن من المنظور أن يسفر هذا العلم عن شيء غير ذلك ، ولن نكون الديانات الأولى على غير ما كانت عليه من الضلالة والجهالة فهذه هي وحدها النتيجة المعقولة التي لا يترقب العقل نتيجة غيرها . وليس في هذه النتيجة جديد يستغربه العلماء ، أو يبنون عليه جديداً في الحكم على جوهر الدين فإن العالم الذي يخطر له أن يبحث في الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهاً عن شوائب المسخف والغباء ، إنما يبحث عن محال .. »

كذلك كتب في فصل : (أطوار العقيدة الإلهية) في الكتاب نفسه :
(يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأُمم البدائية في اعتقادها

بالآلهة والأرباب :

Polytheism

وهي : دور التعدد

Henotheism

ودور التمييز والترجيح

Monotheism

ودور الوجدانية

ففي دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أرباباً بالعشرات ، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات . ويوشك في هذا الدور أن يكون لكل أسرة رب تعبده ، أو تعويذة تنوب عن الرب في الحضور وتقبل الصلوات والقرابين .

وفي الدور الثاني - وهو دور التمييز والترجيح - تبقى الأرباب على كثرتها ، ويأخذ رب منها في البروز والرجحان على سائرها . إما لأنه رب القبيلة الكبرى التي تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة وتعتمد عليها في شؤون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعاً مطلباً أعظم وألزم من سائر المطالب التي تحققها الأرباب المختلفة ، كأن يكون رب المطر والأقليم في حاجة إليه ، أو رب الزوابع والرياح وهي موضع رجاء أو خشية يعلو على موضع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية .

وفي الدور الثالث تتوحد الأمة ، فتتجمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المنفرقة . ويحدث في هذا الدور أن تفرض أمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة ناجها وصاحب عرشها ، ويحدث أيضاً أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها ، مع بقاءه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمبتوع ، والخاصة للملك المطاع .

ولا تصل الأمة إلى هذه الوجدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ، ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت سائدة في عقول الهمج وقبائل الجاهلية ، فتصف الله بما هو أقرب إلى الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة ، وتقرن العبادة بالتفكير في أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وحكمته العالية ، وكثيراً ما ينمرد الإله الأكبر في هذه الأمم بالربوبية الحققة ، وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحضرة السماوية ... (اغ . اهد . كلام العقاد) .

قال سيد : وواضح سواء من رأي الكاتب نفسه أو مما نقله ملخصاً من آراء علماء الدين المقارن أن البشر هم الذين ينشئون عقائدهم بأنفسهم ، ومن ثم تظهر فيها

أطوارهم العقلية والعلمية والحضارية والسياسية . وأن التطور من التعدد إلى الثنية إلى التوحيد تطور زمني مطرد على الإجمال ..

وهذا واضح من الجملة الأولى في تقديم المؤلف لكتابه : « موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية ، منذ أن اتخذ الإنسان رباً ، إلى أن عرف الله الأحد ، واهتدى إلى نزاهة التوحيد .. » .

والذي لا شك فيه أن الله سبحانه يقرر في كتابه الكريم ، تقريراً واضحاً جازماً ، شيئاً آخر غير ما يقرره صاحب كتاب : (الله) متأثراً فيه بمنهج علماء الأديان المقارنة .. وأن الذي يقرره الله - سبحانه - أن آدم - وهو أول البشر - عرف حقيقة التوحيد كاملة ، وعرف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشائبة من التعدد والثنية ، وعرف الدهنونة لله وحده باتباع ما يلقى منه وحده . وأنه عرّف بنيه بهذه العقيدة ، فكانت هنالك أجيال في أقدم تاريخ البشرية لا تعرف إلا الإسلام ديناً ، وإلا التوحيد عقيدة .. وأنه لما طال الأمد على الأجيال المتتالية من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد .. ربما إلى الثنية وربما إلى التعدد .. ودانت لشتى الأرباب الزائفة .. حتى جاءها نوح عليه السلام بالتوحيد من جديد . وأن الذين بقوا على الجاهلية أغرقهم الطوفان جميعاً ، ولم ينج إلا المسلمون الموحّدون الذين يعرفون « نزاهة التوحيد » وينكرون التعدد والثنية وسائر الأرباب والعبادات الجاهلية . ولنا أن نجزم أن أجيالاً من ذراري هؤلاء الناجين عاشت كذلك بالإسلام القائم على التوحيد المطلق . قبل أن يطول عليهم الأمد ، ويعودوا إلى الانحراف عن التوحيد من جديد . وأنه هكذا كان شأن كل رسول . ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ .

والذي لا شك فيه أن هذا شيء ، والذي يقرره علماء الأديان المقارنة ويتابعهم فيه مؤلف كتاب : (الله) شيء آخر . وبينهما تقابل تام في منهج النظر والنتائج التي ينتهي إليها .. وآراء الباحثين في تاريخ الأديان ليست سوى نظريات يعارض بعضها بعضاً ، فهي ليست الكلمة النهائية حتى في مباحث البشر القانين .

وما من شك أنه حين يقرر الله - سبحانه - أمراً نبيه في كتابه الكريم هذا البيان القاطع ، ويقرر غيره أمراً آخر مغايراً له تمام المغايرة ، فإن قول الله يكون أولى بالاتباع وبخاصة ممن يدانعون عن الإسلام ، ويكتبون ما يكتبون بقصد دفع الشبهات عنه وعن أصل الدين جملة .. وأن هذا الدين لا يخدم بنقض قاعدته الاعتقادية في أن الدين جاء

وحياً من عند الله ، ولم يتدعه البشر من عند أنفسهم ، وأنه جاء بالتوحيد منذ أقدم العصور ولم يحنئ بغير التوحيد في أية فترة من فترات التاريخ ، ولا في أية رسالة . كما أنه لا يخدم بترك قراراته إلى قرارات علماء الأديان المقارنة وبخاصة حين يعلم أن هؤلاء إنما يعملون وفق منهج موجه لتدمير القاعدة الأساسية لدين الله كله ، وهي أنه وحي من الله وليس من وحي الفكر البشري المترفي المتطور . وليس وفقاً على ترفي العقل البشري في العلم المادي والخبرة التجريبية .

ولعل هذه اللمحة المختصرة - التي لا تملك الاستطراد فيها في كتاب الظلال - تكشف لنا عن مدى الخطورة في تلقي مفهوماتنا الإسلامية - في أي جانب من جوانبها - عن مصدر غير إسلامي . كما تكشف لنا عن مدى تغلغل مناهج الفكر الغربية ومقرراتها في أذهان الذين يمشون على هذه المناهج والمقررات ويستفون منها . حتى وهم يتصدون لرد الافتراءات عن الإسلام من أعدائه ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ .

وبعد .. أكان الطوفان عاماً في الأرض ؟ أم إنه كان في تخوم الأرض التي بعث فيها نوح ؟ وأين كانت هذه الأرض ؟ وأين تخومها في العالم القديم وفي العالم الحديث ؟ أسئلة لا جواب عليها إلا الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً ، إلا الإسرائيليات التي لا تستند إلى دليل صحيح .. وليس لها بعد ذلك قيمة في تحقيق أهداف القصص القرآني في كثير ولا قليل .

ولكن هذا لا يمنع من القول بأن ظاهر النصوص القرآنية يلهم أن قوم نوح كانوا هم مجموع البشرية في ذلك الزمان . وأن الأرض التي يسكنونها كانت هي الأرض المعمورة في ذلك الحين . وأن الطوفان قد غم هذه الرقعة وقضى على جميع الخلائق التي تقطنها - فيما عدا ركب السفينة الناجين .

وهذا حسناً في إدراك طبيعة ذلك الحادث الكوني الذي جاءنا خبره من المصادر الوحيد الوثيق عن ذلك العهد السحيق ، الذي لا يعرف « التاريخ » عنه شيئاً . وإلا فبومها أين كان « التاريخ » ؟! إن التاريخ مولود حدث لم يسجل من أحداث البشرية إلا القليل ! وكل ما سجله قابل للخطأ والصواب ، والصدق والكذب ، والتجريح والتعديل ! وما ينبغي قط أن يستفتى ذات يوم في شأن جاءنا به الخبر الصادق . ومجرد استفتائه في مثل هذا الشأن قلب للأوضاع ، وانكاسة لا تصيب عقلاً قد استقرت فيه

حقيقة هذا الدين .

ولقد حفلت أساطير شتى الشعوب وذكرياتها الغامضة بذكر طوفان أصاب أرضها في تاريخ قديم مجهول ، بسبب معصية ذلك الجيل الذي شهد ذلك الحادث الكبير .. وأساطير بنى إسرائيل المدونة فيما يسمونه (العهد القديم) تحوي كذلك ذكرى طوفان نوح ... ولكن هذا كله شيء لا ينبغي أن يذكر في معرض الحديث القرآني عن الطوفان ، ولا ينبغي أن يخلط الخبر الصادق الوثيق بمثل هذه الروايات الغامضة وهذه الأساطير المجهولة المصدر والأسانيد . وإن كان لوجود هذه الأخبار الغامضة عن الطوفان عند شعوب شتى دلالة في أن الطوفان قد كان في أرض هذه الأقوام ؛ أو على الأقل قد رحلت ذكرياته مع ذراري الناجين حين تفرقوا في الأرض بعد ذلك وعمرروا الأرض من جديد .

وينبغي أن نذكر أن ما يسمى (بالكتاب المقدس) سواء في ذلك (العهد القديم) المحتوي على كتب اليهود أو (العهد الجديد) المحتوي على أناجيل النصارى - ليس هو الذي نزل من عند الله . فالتوراة التي أنزلها الله على موسى قد حُرِّفَت نسخها الأصلية على يد البابليين عند سبي اليهود . ولم تعد كتابتها إلا بعد قرون عديدة - قيل ميلاد المسيح بنحو خمسة قرون - وقد كتبها عزرا - وقد يكون هو عزير - وجمع فيها بقايا من التوراة . أما سائرها فهو مجرد تأليف . وكذلك الأناجيل فهي جميعاً لا تحوي إلا ما حفظته ذاكرة تلامذة المسيح وتلاميذهم بعد نحو قرن من وفاة المسيح - عليه السلام - ثم خلطت به حكايات كثيرة وأساطير .. ومن ثم لا يجوز أن يطلب عند تلك الكتب جميعها يقين في أمر من الأمور .

كلمة في السياق:

رأينا أن سورة هود عليه السلام محورها الأمر بعبادة الله ، وقد رأينا كيف أن المقطع الأول قد قرَّر كل ما يحتاجه معنى العبادة .. وبدأت المقطع الثاني وفيه ثلاث قصص تدور حول نفس المحور ، وقد مرت معنا القصة الأولى وهي قصة نوح عيه السلام ، ورأينا فيها كيف أن دعوة نوح كانت دعوة إلى عبادة الله ، وكيف كان موقف قومه ، وكيف كانت مواقفهم ، وكيف كانت العاقبة له ولمن اتبعه ، وكيف عاقب الله قومه ، فقصة نوح هنا جاءت لتأخذ محلها في هذا السياق الخاص لهذه السورة ، كما أخذت محلها في سورة الأعراف ضمن سياقها الخاص بها ، وسنرى القصة تتكرر كل مرة بما يخدم سياق

السورة التي هي فيها . وفي كل مرة نرى شيئاً ما جديداً ونلمح في سياق السورة لنرى قصة هود عليه السلام مع قومه وهي تؤدي نفس ما أدته القصة السابقة مع زيادات .

تفسير المجموعة الثانية

﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً والآية معطوفة على قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه .. ﴾ ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ أي اعرفوه وواحدوه وأطيعوه ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ فهو وحده الإله وهو وحده المستحق للعبادة ﴿ إن أنتم إلا مفتررون ﴾ أي كاذبون بتسمية غيره إلهاً وإعطاء غيره حقوق الألوهية ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني ﴾ أي على الله وكل رسول قد واجه قومه بهذا القول ، لأن شأنهم النصيحة ، والنصيحة لا يحضنها إلا حسم المطامع ، وما دام شيء من المطامع يتوهم فيها لم تنجع ولم تنفع ﴿ أفلا تعقلون ﴾ إذ تردون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله وهو ثواب الآخرة ، ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ﴾ عما سلف من كفركم وذنوبكم بالإيمان به والإحبات له ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ عما يستقبل ويحتمل ﴿ يرسل السماء ﴾ أي المطر ﴿ عليكم مدراراً ﴾ أي كثيرة الدرور ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ إن قوة مال ، أو قوة جسد ، أو قوة عامة للمجموع ﴿ ولا تتولوا مجرمين ﴾ أي لا تعرضوا عني وعما أدعوكم إليه بصرين على إجرامكم وآثامكم . وهكذا دعا هود قومه إلى العبادة والاستغفار ، وهي دعوة القرآن التي سجلتها بداية سورة هود ، وهذا يؤكد وحدة السورة ، ووحدة الدعوة الإسلامية في كل العصور ، ويؤكد صلة سورة هود بمحورها ، ﴿ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة ﴾ وهذه دعوى منهم وكذب ؛ فما من رسول إلا وقد أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . ولكنه الكذب والجحود ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ﴾ أي وما نترك آلهتنا صادرين عن قولك ، أي لن نتركهم بمجرد قولك أتركوهم ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ أي وما يصح من أمثالنا أن نصدقوا مثلك فيما بدعوهم إليه ؛ إتناطاً له من الإجابة ﴿ إن نقول ﴾ أي ما نقول ﴿ إلا اعتراك ﴾ أي أصابك ﴿ بعض آلهتنا بسوء ﴾ أي بجنون وخبل . والتقدير : ما نقول قولاً إلا هذه المقالة ، أي قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء أي : ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك ، بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿ قال إني أشهد الله واشهدوا ألي برىء مما تشركون من دونه ﴾ أي من إشراككم آلهة من

دونه والمعنى : إني أشهد الله أني برىء من جميع الأنداد والأصنام ، واشهدوا أنتم أيضاً أني برىء من ذلك ﴿ فكيّدوني جميعاً ﴾ أي أنتم وأهنتكم ﴿ ثم لا تنظرون ﴾ أي لا تمهلون فإني لا أبالي بكم وبكيّدكم ، ولا أخاف مضرتكم ، وإن تعاونتم عليّ ، وكيف تضرني أهنتكم وما هي إلا جماد لا يضر ولا ينفع ؟! وكيف تستقيم مني إذا نلت منها وصددت عن عبادتها بأن تخيلني وتذهب بعقلي ؟! وكيف أخاف منكم والله ربي ؟! وفي هذا التحدي معجزة ﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ أي هي تحت قهره وسلطانه فهو مالكها ، ذكر توكله على الله ، وثقته بحفظه وكلاءته من كيدهم ، ووصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتغال ربوبيته عليه وعليهم ، ومن كون كل دابة في قبضته وملكه ونحت قهره وسلطانه والأخذ بالناصية : وهي مقدم الرأس تمثيل لذلك ﴿ إن ربي على صراط مستقيم ﴾ أي إن ربي على الحق لا يغلّ عنه أو إن ربي يدل على صراط مستقيم ﴿ فإن تولوا ﴾ أي إن تولوا أي تعرضوا ﴿ فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴾ أي فإن تولوا عما جئكم به من عبادة الله وحده والتوبة إليه ، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغهم رسالة الله التي بعثني بها ، فقوله فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم يفيد في طيه أنه قد ثبت الحجة عليكم ﴿ وبستخلف ربي قوماً غيركم ﴾ أي وبهلككم الله ، ويحيى بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم ﴿ ولا تضرونه ﴾ بتوليكم ﴿ شيئاً ﴾ من ضرر بل يعود وبال ذلك عليكم ﴿ إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ أي رقيب مهيم ، فما تخفى عليه أعمالكم ، ولا يغفل عن مؤاخذتكم ، فهو شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ، ويجزئهم عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ومن كان رقيباً على الأشياء كلها ، حافظاً لها ، كانت الأشياء مفتقرة إلى حفظه عن المضار ، ولا يضر مثلكم مثله ﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ وهو الريح العقيم فأهلككم الله عن آخرهم ﴿ نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ أي بفضل منا لا بعملهم ، أو بالإيمان الذي أنعمنا عليهم ﴿ ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ تكرر نجينا للتأكيد ، أو إن المراد بالعذاب الغليظ عذاب الآخرة ، ولا عذاب أغلظ منه ﴿ وتلك عاد ﴾ في هذا التعبير إشارة إلى قبورهم وأثارهم كأنه قال : سيجوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا ﴿ جحدوا بآيات ربهم ﴾ أي كفروا بها ﴿ وعصوا رسله ﴾ جعلهم عاصين لجميع الرسل لأن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الرسل ﴿ وأتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ أي رؤساءهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل ، تركوا اتباع رسولهم الرشيد ، وأتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴿ وأتبعوا في هذه الدنيا لعة ويوم

القيامة ﴿ لما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين ﴾ ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود ﴿ هذا التعبير يفيد تحويل أمرهم ، وبيعث على الاعتبار بهم ، والحذر من مثل حالهم ، والدعاء (ببعداً) بعد هلاكهم - وهو دعاء بالهلاك - للدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له . وقوله ﴿ لعاد قوم هود ﴾ ذكر النسخي أن فيه فائدة هي أن عاداً عادان : عاد الأولى القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم ، والأخرى إرم . وهكذا تنتهي القصة الثانية في هذا المقطع ، وهي قصة هود لتؤدي دورها في سياق السورة بالتمثيل لعاقبة الذين يتركون دعوة الرسول إياهم لعبادة الله ، وتعرض لنا نوعاً من الشبه التي استقبلت بها الدعوة إلى عبادة الله ، والرد عليها ، وبطلانها .

قال صاحب الظلال تعقيباً على قصة هود في السورة : (ونقف ونقفات قصيرة أمام ما تلهمه قصة هود مع قومه في سياق هذه السورة .. نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول وفي كل رسالة .. دعوة توحيد العبادة والعبودية لله ، المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول : ﴿ قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرة ﴾ ولقد كنا دائماً نفسر « العبادة » لله وحده بأنه « الدينونة الشاملة » لله وحده . في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة . ذلك أن هذا هو المدلول الذي تعطيه اللفظة في أصلها اللغوي .

... ونقف أمام الحقيقة التي كشف عنها هود لقومه وهو يقول لهم : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين ﴾ .. وهي ذات الحقيقة التي ذكرت في مقدمة السورة بصدده دعوة رسول الله ﷺ لقومه بمضمون الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . وذلك في قوله تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾

إنها حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية في الحياة البشرية ، وحقيقة اتصال طبيعة الكون ونواميسه الكلية بالحق الذي يحتويه هذا الدين .. وهي حقيقة في حاجة إلى جلاء وتثبيت ، وبخاصة في نفوس الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، والذين لم تفصل أرواحهم وتشف حتى ترى هذه العلاقة أو على الأقل تستشعرها .

... ونقف أمام تلك المواجهة الأخيرة من هود لقومه ؛ وأمام تلك المفاصلة التي قذف بها في وجوههم في حسم كامل ، وفي تحدٍ سافر ، وفي استعلاء بالحق الذي معه ، وثقة في ربه الذي يجد حقيقته في نفسه بينة : ﴿ قال : إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون . من دونه فكيدوني جميعاً لا تتظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم مامن ذابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أهلككم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً ، إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ .

إن أصحاب الدعوة إلى الله في كل مكان وفي كل زمان في حاجة إلى أن يقفوا طويلاً أمام هذا المشهد الباهر .. رجل واحد ، لم يؤمن معه إلا قليل ، يواجه أعنى أهل الأرض ، وأعنى أهل الأرض ، وأكثر أهل الأرض حضارة مادية في زمانهم) ولنعُد إلى التفسير :

تفسير المجموعة الثالثة

فبعد قصة هود تأتي قصة صالح مع قومه لتؤدي دورها في سياق هذه السورة :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ أي ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ عبادة الله وحده تلكم دعوة الرسل جميعاً من لدن آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام جميعاً ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾ أي ابتداء خلقكم منها ، خلق منها أبائكم آدم ، وخلق أجسادكم منها ﴿ واستعمركم فيها ﴾ أي جعلكم عمّاراً تعمرونها وتستغلونها ، أو جعلكم عمّارها وأراد منكم عمارتها ، ويحتمل أن يكون المعنى : وأطال أعماركم فيها والأول أصح ﴿ فاستغفروه ﴾ أي فاسألوه مغفرته بأن تؤمنوا ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ كلما أذنبتم ﴿ إن ربي قريب ﴾ أي داني الرحمة ﴿ مجيب ﴾ لمن دعاه وهكذا نجد أن طريق الرسل واحدة ودعوتهم واحدة : العبادة والاستغفار .

فائدة :

نلاحظ أن نوحاً قال : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ وأن هوداً قال ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ﴾ وأن صالحاً قال : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض

واستعمركم فيها ﴿ فكان تذكير نوح يرافقه الوعظ ، وكان تذكير هود يرافقه التأنيب ، وكان تذكير صالح يرافقه التذكير بالنعمة ، وكلها طرق يُقصدُ بها ، ولكل منها محله وأهله ، وكل قصة تعرض حججاً وتعرض أجوبة ، وتعطينا عطاءً خاصاً ، وكل ذلك يخدم سياق السورة ، فليست كل قصة تكراراً للأخرى ، فلكل قوم طبيعة ، ولكل قوم عقوبة ، ولكل قوم خطاب ، ولكل قوم رد ، فتأمل جوانب الاتفاق والاختلاف ففي كل ذلك من المعاني مالا ينأهى . ولنعد إلى السياق :

﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾ أي كنت فيما بيننا مرجواً للسيادة والمشاركة في الأمور ، أي كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ماقلت : ﴿ أفتبأننا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿ وإنا لفي شك مما تدعونا إليه ﴾ من عبادة الله وحده ﴿ مريب ﴾ أي موقع في الريبة ، والريبة : قلق النفس وانتفاء الطمأنينة ، وهكذا نجد هنا لغة أخرى في خطاب رجل الدعوة إلى الله ، الشاء على حاله الأول قبل الدعوة ، وإنكار الحق بحجة تقليد الآباء ، وإظهار التشكك في الدعوة ، وهي طرق خبيثة من طرق الصد عن سبيل الله .

فائدة:

يلاحظ أن حجة قوم نوح كانت : بشرية الرسول ، وضحالة رأي أتباعه ، وقلة مكانتهم ، وعدم رؤية الميزة لنوح ومن معه ، مما يجعلهم غير مؤهلين للاتباع ، وكان رد قوم هود منصباً على أنه لا بينة واضحة في دعوة هود ، مع تهديد هود بأهتهم ، وكانت اللغة التي استعملت مع صالح عليه السلام هي ما رأينا ، وهكذا نجد مواقف متعددة ، وأساليب متنوعة ، تسع الحالات التي يصادفها كل داعية إلى الله وهو يدعو إلى عبادة الله واستغفره ، وهكذا تبني سورة هود قصة الدعوة إلى الله من خلال التقرير والتثليل والعرض والقصة ، وتأتي القصص واحدة بعد أخرى ؛ لئلا يرى في كل منها جوانب جديدة ، إن في موضوع الدعوة ، أو في موضوع ردها وحجج الرادين ، أو في مواقف الرسل عليهم السلام ، أو في هاقبة الظالمين . ولنعد إلى السياق :

﴿ قال يا قوم أرايتم إن كنتُ على بينة من ربي ﴾ أي أخبروني إن كنت على بينة من ربي أي على يقين وبرهان فيما أرسلني به إليكم ﴿ وآتاني منه رحمة ﴾ أي نبوة أي : قلمروا أنني على بينة من ربي ، وأنتي نبي على الحقيقة ، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربي في أوامره ﴿ فمن ينصروني من الله ﴾ أي فمن يمنعني من عذاب الله ﴿ إن عصيته ﴾ أي

تبليغ رسالته ومنعكم عن عبادة الأوثان ﴿فما تزيدونني غير تخسير﴾ أي لو تركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده لما نفعتموني ، ولما زدتوني إلا خسارة بأن أنسب إلى الخسار ﴿وياقوم هذه ناقة الله لكم آية﴾ أي معجزة شاهدة على أنني رسول الله ، وقد مرت معنا القصة في سورة الأعراف فلا نذكر هنا إلا ما يحتاجه فهم النص ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ كأنه قال : لكم نفعها وليس عليكم رزقها ، فلا حاجة إن أذيتوها ولذلك قال : ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ من عقر أو نحر أو إيذاء ﴿فياخذكم عذاب قريب﴾ أي عاجل ، وهكذا كان رد صالح إظهار المعجز عن ترك دعوة الله ، والتذكير بالمعجزة ، بينما كان رد هود التحدي لهم ، والتوكل على الله ، وكان رد نوح النقاش المفصل لكل جزء من أجزاء كلامهم ، وفي كل قلوة ، ولكل كلمة محلها ، والناس طبايع ، ولكل طبيعة كلمة تناسبها ، ولكل من الدعاة طبيعة ، والقرآن يسع النفس البشرية كلها ، وفيه لكل نفس ما يناسبها ضمن إطار الحق ودائرته ﴿فمفقروها﴾ أي فذبحوها ﴿فقال﴾ صالح ﴿تمتعوا في داركم﴾ أي استمتعوا بالعيش في بلدكم ، وتوسى البلاد الديار لأنه يدر فيها أي : يتصرف ويحتمل أن يكون المعنى : استمتعوا في دار الدنيا ﴿ثلاثة أيام﴾ أي ثم تهلكون ﴿ذلك وعد غير مكذوب﴾ أي غير مكذوب فيه ﴿فلما جاء أمرنا﴾ أي بالعذاب أو فلما جاء عذابنا ﴿نحننا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ إذ لولا رحمة بهم ما هدام فاستحقوا النجاة ، رحمتهم إذ هدام ، ورحمتهم إذ نجاهم ، والأمر أمره ، والجميع ملكه ﴿ومن خزري يومئذ﴾ تقديره : ونجيتهم من ذلك اليوم وفضيحتهم ، ولا خزري أعظم من خزري من كان هلاكه بغضب الله وانتقامه ، وجاز أن يكون المراد بيومئذ يوم القيامة ﴿إن ربك هو القوي﴾ أي القادر على تنحية أوليائه ﴿العزيز﴾ أي الغالب بإهلاك أعدائه ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ أي الصاعقة وقد ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذوا بالرجفة ويبدو - والله أعلم - أنهم اجتمع عليهم الزلزال والصق ﴿فأصبحوا في ديارهم﴾ أي في منازلهم ﴿جاثمين﴾ أي ميتين ﴿كأن لم يمتوا فيها﴾ أي كأن لم يقيموا فيها ﴿ألا إن نوحا كفروا ربهم﴾ فاستحقوا العذاب ﴿ألا نعوذ لنوح﴾ وقد بعثوا في الدنيا والآخرة .

وهكذا كانت نهاية قوم صالح بالصيحة ، ونهاية قوم هود بالريح ، ونهاية قوم نوح بالطوفان ، وكانت العاقبة نجاة نوح ، وهود ، وصالح ، وهذا هو الدرس الأعظم للدعاة إلى عبادة الله واستغفاره ، وبهذا ينتهي المقطع الثاني في سورة هود . وقبل أن تنتقل إلى

المقطع الثالث نحب أن ننقل بعض النقول ، ونذكر بعض الفوائد .

نقل عن الظلال حول قصة صالح عليه السلام

(ومرة أخرى نجدنا أمام حلقة من حلقات الرسالة على مدار التاريخ ... الدعوة فيها هي الدعوة . وحقيقة الإسلام فيها هي حقيقته ... عبادة الله وحده بلا شريك ، والدينونة لله وحده بلا منازع .. ومرة أخرى نجد الجاهلية التي تعقب الإسلام ، ونجد الشرك الذي يعقب التوحيد - فتمرد كعاد ، هم من ذراري المسلمين الذين نجوا في السفينة مع نوح - ولكنهم انحرفوا فصاروا إلى الجاهلية ، حتى جاءهم صالح ليردهم إلى الإسلام من جديد .

ولقد كان مشركو العرب يطلبون من رسول الله ﷺ خارقة كالخوارق السابقة كي يؤمنوا . فهاهم أولاء قوم صالح قد جاءتهم الخارقة التي طلبوا ، فما أغنت معهم شيئاً ، إن الإيمان لا يحتاج إلى الخوارق . إنه دعوة بسيطة تتدبرها القلوب والعقول . ولكن الجاهلية هي التي تطمس على القلوب والعقول .

ومرة أخرى نجد حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلب من قلوب الصفوة المختارة . قلوب الرسل الكرام . نجدها في قولة صالح التي يحكيها عنه القرآن الكريم : ﴿ قال : يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وأتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ لما تريدونني غير تحسیر ﴾ ... وذلك بعد أن يصف لهم ربه كما يجده في قلبه : ﴿ إن ربي قريب مجيب ﴾ . وما تتجلى حقيقة الألوهية قط في كمالها وجلالها وروائها وجمالها كما تتجلى في قلوب تلك الصفوة المختارة من عباده . فهذه القلوب هي المعرض الصافي الراقى الذي تتجلى فيه هذه الحقيقة على هذا النحو الفريد العجيب .

ثم نقف من القصة أمام الجاهلية التي نرى في الرشد ضلالاً ، وفي الحق عجيبة لا تكاد نتصورها . فصالح الذي كان مرجوياً في قومه لصلاحه ولرجاحة عقله وتخلقه ، يقف منه قومه موقف اليأس منه ، المفجوع فيه ! لماذا ؟ لأنه دعاهم إلى الدينونة لله وحده . على غير ماورثوا عن آبائهم من الدينونة لغيره .

إن القلب البشري حين ينحرف شعرة واحدة عن العقيدة الصحيحة ، لا يقف عند حد في ضلاله وشروده . حتى إن الحق البسيط القطري المنطقي ليدور عنده عجيبة العجائب التي يعجز عن تصورها ؛ بينما هو يستسيغ الانحراف الذي لا يستند إلى منطق

فطري أو منطق عقلي على الإطلاق .

إن صالحاً يناديهم : ﴿ ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ... هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها .. ﴾ فهو يناديهم بما في نشأتهم ووجودهم في الأرض من دليل فطري منطقي لا يملكون له رداً .. وهم ما كانوا يزعمون أنهم هم أنشأوا أنفسهم ولا أنهم هم كفّلوا لأنفسهم البقاء ، ولا أعطوا أنفسهم هذه الأرزاق التي يستمتعون بها في الأرض .. وظاهر أنهم لم يكونوا يجحدون أن الله - سبحانه - هو الذي أنشأهم من الأرض وهو الذي أقدرهم على عمارتها . ولكنهم ماكانوا يتبعون هذا الاعتراف بألوهية الله - سبحانه - وإنشائه لهم واستخلافهم في الأرض ، بما ينبغي أن يتبعه من الدينونة لله وحده بلا شريك ، واتباع أمره وحده بلا منازع .. وهو مايدعوهم إليه صالح بقوله : ﴿ ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غير ﴾ .

فوائد:

١ - لم نتعرض إلى موطن هذه الأقوام التي مرّت معنا في هذا المقطع ، لأن ذلك قد مرّ الكلام عنه في سورة الأعراف ، والوجود الزمني للأقوام المذكورة يتفق مع الوجود الذكري في المقطع ، قوم نوح كانوا أولاً ، ثم قوم هود ، ثم قوم صالح .

٢ - يذكر بعض المفسرين أثناء الكلام عن قصة نوح كلاماً لا أصل له حول ابن نوح يريدون به القرار من أن يكون ابنه الصلي ، وليس لهذا الكلام مبرر ، ولذلك فإن المحققين يرفضونه ، رفضاً باتاً فهو ابن نوح حقاً وصدقاً ، وقد فرقت بينهم العقيدة .

٣ - الإعجاز في القرآن هو حصيلة لمجموعة معان تتضافر لتشكيل الإعجاز ، وقد تكلم الخطابي في رسالته عن إعجاز القرآن عن هذا الموضوع بما يشفي ، وقد جرت عادة المفسرين أو المتكلمين أن يحلّوا سورة أو آية بعينها ، ويركزون عليها لإبراز هذا المعنى . وتكاد تكون آية ﴿ وقيل ياأرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ من الآيات التي يعرضها الكثير على أنها نموذج لتضافر معان متعددة كان كثر عنها الإعجاز ، ولننقل كلام النسفي في الآية كنموذج :

(والنظر في هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان ، وهو النظر فيما فيها من المجاز ، والاستعارة ، والكناية ، وما يتصل بها ، فنقول : إن الله تعالى لما أراد أن يبيّن

معنى : أردنا أن نرد ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ، وأن تقطع طوفان السماء فانقطع ، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغيض ، وأن نقضي أمر نوح - وهو إنحجاز ماكنّا وعدناه من إغراق قومه - فقضي ، وأن نسوي السفينة على الجودي فاستوت ، وأبقينا الظلمة غرقى ، بنى الكلام على تشبيه المراد بالأمر الذي لا يتأتى منه - لكمال هيته - العصيان ، وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ في تكون المقصود تصويراً لافتداده العظيم ، وأن السموات والأرض منقادة لتكوينه فيها مايشاء غير محتنة لإرادته ، فيها تغييراً وتديلاً كأنها عقلاء يميزون قد عرفوه حق معرفته ، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره والإذعان لحكمه ، وتحتّم بذل الجهود عليهم في تحصيل مراده . ثم بنى على تشبيه هذا نظم الكلام فقال عز وجل : ﴿ وقيل ﴾ على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل ، وجعل قرينة إنحجاز الخطاب للجماد وهو (يا أرض ، ويا سماء) ثم قال مخاطباً لهما (يا أرض) و (يا سماء) على سبيل الاستعارة للشبه المذكور ، ثم استعار لغور الماء في الأرض ، البلع الذي هو أعمال الجاذبة في المطعوم للشبه بينهما وهو الذهاب إلى مقر خفي ، ثم استعار الماء للغذاء تشبيهاً له بالغذاء لتقوي الأرض بالماء في الإنبات كتقوي الأكل بالطعام ، ثم قال (ماءك) بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز لاتصال الماء بالأرض كاتصال الملك بالمالك . ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفعل ، للشبه بينهما في عدم التأي . ثم قال ﴿ وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً ﴾ ولم يصرح بمن أغاض الماء ، ولا بمن قضى الأمر وسوى السفينة بعداً . كما لم يصرح بقائل (يا أرض ويا سماء) سلوكاً في كل واحد من ذلك لسبيل الكناية وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر ، وتكوين مكّون قاهر ، وأن فاعلها واحد لا يشارك في فعله ، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره ﴿ يا أرض أبلعي ماءك ويا سماء أقلعي ﴾ ولا أن يكون الغائص والقاضي والمسوي غيره . ثم حتم الكلام بالتعريض تنبيهاً لسالكى مسلكهم في تكذيب الرسل ظلماً لأنفسهم ، إظهاراً لمكان السخط وأن ذلك العذاب الشديد ماكان إلا بظلمهم .

ومن جهة علم المعاني : وهو النظر في فائدة كل كلمة فيها ، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها . وذلك أنه اختير (يا) دون أخواتها لكونها أكثر استعمالاً ، ولدلائها على بُعد المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة والملكوت ، وإبداء العزة والجبروت ، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به ، ولم يقل يا أرضي لزيادة التهاون إذ الإضافة تستدعي القرب . ولم يقل يا أيها الأرض للاختصار ، واختير لفظ الأرض والسماء

لكونهما أخف وأدور . واختير (ابلعي) على ابتلي لكونه أخصر ، وللتجانس بينه وبين (أقلعي) وقيل (أقلعي) ولم يقل عن المطر ، وكذا لم يقل (بأرض أبلعي ماء) فبلعت (وباسماء أقلعي) فأقلعت اختصاراً . واختير (غيض) على غيظ وقيل (الماء) دون أن يقول ماء الطوفان ، و (الأمر) ولم يقل أمر نوح وقومه ، لقصد الاختصار . والاستغناء بحرف العهد عن ذلك ، ولم يقل وسويت على الجودي . أي أقرت على نحو (قيل) و (غيض) اعتباراً لبناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله ﴿ وهي تجري بهم ﴾ إرادة للمطابقة ثم قيل ﴿ بُعِثُوا لِلْقَوْمِ ﴾ ولم يقل ليعبد القوم طلباً للتأكيد مع الاختصار . هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلم . وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل فذلك أنه قَدَّم النداء على الأمر فقيل (بأرض ابلعي ، وباسماء أقلعي) ولم يقل ابلعي بأرض وأقلعي باسماء جرياً على مقتضى الكلام فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التشبيه ، ليتمكن الأمر الوارد عقبه في نفس المنادى قصداً بذلك لمعنى الترشيع . ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء ، وابتدأ به لابتداء الطوفان منها ، ثم أتبع ﴿ وغيض الماء ﴾ لاتصاله بقصة الماء وأخذه بحجزتها . ثم ذكر ما هو المقصود وهو قوله ﴿ وقضى الأمر ﴾ أي أنجز الموعود في إهلاك الكفرة ، وإنجاء نوح ومن معه في الفلك . وعلى هذا فاعتبر .

ومن جهة الفصاحة المعنوية ، وهي كما ترى نظم للمعاني لطيف ، وتأدية لها ملخصة مينة لا تعقيد يُعثر الفكر في طلب المراد ، ولا التواء يشيك الطريق إلى المرتاد .

ومن جهة الفصاحة اللفظية ، فألفاظها كما ترى عربية مستعملة سليمة عن التناثر ، بعيدة عن البشاعة ، عذبة على العذبات ، سلسلة على الأسلات ، كل منها كالماء في السلاسة ، وكالعسل في الحلاوة ، وكالنسيم في الرقة .

ومن ثم أطبق المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية . والله عز شأن التنزيل لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لاتسع الحصر ، ولا تظنون الآية مقصورة على المذكور ، فلعل المتروك أكثر من المسطور . أ هـ .

٤ - بمناسبة قوله تعالى في قصة هود ﴿ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ وبمناسبة ذكر الاستغفار في أول سورة هود : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ نذكر الحديث الشريف :

« من لزم الاستغفار جعل الله له من كل فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » . ونذكر هذه القصة التي ذكرها النسفي :

عن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه وفد على معاوية ، فلما خرج قال له بعض أصحابه : إني رجل ذو مال ولا يولد لي ، علمني شيئاً لعل الله يرزقني ولداً ، فقال الحسن : عليك بالاستغفار فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة فولد له عشرة بنين ، فبلغ ذلك معاوية ، فقال : هلا سأله ثم قال ذلك ! فوفد وفدة أخرى فسأله الرجل ، فقال : ألم تسمع قول هود ﴿ ويزدكم قوة إلى قوتكم ﴾ وقول نوح ﴿ ويمدهم بأموال وبنين ﴾ .

كلمة في السياق :

وهكذا سارت سورة هود وهي تشيد صرح عبادة الله من خلال التفرير والتثليل والعرض والقصة ، وبعد أن عرضت ماعرضت ، تعرض علينا في المقطع الثالث قصة إبراهيم ، وقصة لوط عليهما السلام ، وهما قصتا عابدين تولاها الله ، فمن القصتين نفهم تولى الله لأهل العبادة ، كما أن عاقبة قوم لوط ماضية على النسق الذي مر معنا في نجاة الرسل وأتباعهم ، وهلاك المعرضين والرافضين ، وتكاد القصتان أن تكونا قصة واحدة .

المقطع الثالث

في هذا المقطع قصتا إبراهيم ولوط عليهما السلام ، وهما في حكم القصة الواحدة ، إذ أن قصة إبراهيم فيها حديث عن قوم لوط ، فكأنها مقدمة لها ، والقصتان ترياننا رعاية الله لعباده وعباده ، ويمتد هذا المقطع من الآية (٦٩) إلى نهاية الآية (٨٣) وهذا هو :

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَالَتْ أُنْثَى إِن جَاءَ بِعِجْلٍ خَبِيرٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطِ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرُهُمْ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَتُوبِلَتَانِ إِلَهٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا

بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ
اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ
الرُّوحُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٨﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ
مُنِيبٌ ﴿٧٩﴾ يَذْكُرْهُمْ أَغْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ
فِي آيَاتِهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٨٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَ إِلَيْهِمْ وَصَاقِيهِمْ
ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٨١﴾ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ
كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُومُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٨٢﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي
بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٨٣﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ إِيَّايَ رُكْنٌ
شَدِيدٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسِرْ بِاهْلِكَ بِقِطْعٍ
مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ
الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجَلٍ مُّنْقُودٍ ﴿٨٦﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ
الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٧﴾ *

التفسير :

﴿ ولقد جاءت رسلنا ﴾ أي الملائكة ﴿ إبراهيم بالبشرى ﴾ تبشره بإسحق ﴿ قالوا سلاماً ﴾ قال سلام ﴿ وقد رزق عليهم بأبلى من سلامهم ، لأن المنسوب هنا تقديره سلمنا سلاماً وهو يفيد المضي ، والأسم المرفوع هنا يفيد الثبوت والدوام ﴾ فلما لبث أن جاء بعجل حنيد ﴿ أي مشوي بالحجارة الخشنة ، والعجل : الفتى من البقر . والمعنى : ذهب سريعاً فاتاهم بالضيفة ﴾ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه تكبرهم ﴿ أي أنكرهم ﴾ وأوجس منهم خيفة ﴿ أي أضمر منهم خوفاً ﴾ قالوا لا تخف إنا أرسلناك بالعباب ﴿ إلى قوم لوط ﴾ وإنما قالوا لا تخف في الظاهر لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه . قال النسفي : والظاهر أنه أحسن بأنهم ملائكة ، ونكبرهم لأنه تخوف أن يكون نزولهم لأمر أنكره الله عليه أو لتعذيب قومه ، واستدل على ذلك بقولهم : ﴿ إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ قال : وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيما أرسلوا فيه ﴿ وامراته قائمة ﴾ إما وراء السر تسمع تحاورهم ، وإما على رؤوسهم تخدمهم ﴿ فضحكت ﴾ سروراً بزوال الخيفة ، أو بهلاك أهل الخبائث ، أو من غفلة قوم لوط مع قرب العذاب . فجوزيت بالبشارة بالولد بعد الإيأس ﴿ فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق ﴾ أي من بعده ﴿ يعقوب ﴾ بُشِّرَتْ لها يكون له ولد ونسل ، خصت بالبشارة لأن النساء أعظم سروراً بالولد ، ولأنه لم يكن لها ولد وكان لإبراهيم ولد ، وهو إسماعيل ، وقد استدل بهذه الآية - كما استدل بغيرها - على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب ، فكيف يؤمر بذبحه وهو طفل صغير ، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لا خلف فيه ، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه ، فتعين أن يكون هو إسماعيل . قال ابن كثير : وهذا من أحسن الاستدلال وأصححه وأبينه ﴿ قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب ﴾ أي أن يولد ولد من هرمين ، وهو استبعاد من حيث العادة ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله ﴾ أي من قدرته وحكمته ، أنكرت الملائكة تعجبها لأنها كانت في بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور الخارقة للعادات ، فلا تعجبي إذن من أمر الله ، فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فلا تعجبي من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً ، وبعلتك شيخاً كبيراً ، فإن الله على ما يشاء قدير ﴿ رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ أي هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ، ويخصكم بالإععام به يأهل بيت النبوة ، فليست

بمكان عجيب ، وهو تعليل لإنكار التعجب ، كأنه قيل : إياك والتعجب لأن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم ﴿٧٤﴾ إنه حميد ﴿٧٥﴾ أي محمود في جميع أفعاله وأقواله ﴿٧٦﴾ مجيد ﴿٧٧﴾ أي مجّد في صفاته وذاته ﴿٧٨﴾ فلما ذهب عن إبراهيم الرّوع ﴿٧٩﴾ أي الفزع وهو ما أوجس من الخيفة ﴿٨٠﴾ وجاءته البشري ﴿٨١﴾ بالولد ﴿٨٢﴾ يجادلنا في قوم لوط ﴿٨٣﴾ أي لما اطمأن بعد الخوف ، وملء سروراً بسبب البشري ، فزع إلى المجادلة ﴿٨٤﴾ إن إبراهيم حلّيم أوّاه عيب ﴿٨٥﴾ هذا ثناء على إبراهيم بهذه الصفات الثلاثة : الحلّيم وهو غير العجول على كل من أساء إليه ، أو كثير الاحتمال من آذاه ، الصفوح عمن عصاه ، والأوّاه : وهو كثير التأوه من خوف الله ، والنيب : وهو النائب الراجع إلى الله ، وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة ، بينت الآية أن ذلك هو الذي حمله على المجادلة فهم رجاء أن يرفع العذاب ، وبمهلوا لعلهم يتوبون ، فجاءه الجواب ﴿٨٦﴾ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴿٨٧﴾ أي وإن كانت الرحمة ديدنك فدع الجدال في هذا الأمر ﴿٨٨﴾ إنه قد جاء أمر ربك ﴿٨٩﴾ أي قضاؤه وحكمه أي إنه قد نفذ فيهم القضاء وحقّت عليهم الكلمة بالهلاك ، وحلول البأس الذي لا يردّ عن القوم المخرمين ﴿٩٠﴾ وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود ﴿٩١﴾ أي لا يرد بجدال وغير ذلك ﴿٩٢﴾ ولما جاءت رسلنا لوطاً ﴿٩٣﴾ بعد أن خرجوا من عند إبراهيم متوجهين إلى قوم لوط ﴿٩٤﴾ بسوء بهم ﴿٩٥﴾ أي حزن لأنه حسب أنهم إنس ورأى هيئاتهم وجهاتهم ، وخاف عليهم خبث قومه ، وأن يعجز عن مقاومتهم ودفعهم ﴿٩٦﴾ وضاق بهم ذرعاً ﴿٩٧﴾ أي وضاق بمكانهم صدره ، إذ خشي أن ضيقهم ألا يقدر على حمايتهم ، وإن لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء ﴿٩٨﴾ وقال هذا يوم عصيب ﴿٩٩﴾ أي شديد بلاؤه قال صاحب الضلال :

(لقد كان يعرف قومه . ويعرف ما أصاب فطرتهم من انحراف وشذوذ عجيبين . إذ يتركون النساء إلى الرجال ، مخالفين الفطرة التي تهتدي إلى حكمة خلق الأحياء جميعاً أزواجاً ، كي تمتد الحياة بالنسل ماشاء لها الله ، والتي تجد اللذة الحقيقية في تلبية نداء الحكمة الأزلية ، لا عن تفكير وتدبير ، ولكن عن اهتداء واستقامة .

والإشرية تعرف حالات مرضية فردية شاذة ، ولكن ظاهرة قوم لوط عجيبة وهي تشير إلى أن المرض النفسي يعدي كالمرض الجسدي . وأنه يمكن أن يروج مرض نفسي كهذا نتيجة لاختلال المقاييس في بيئة من البيئات ، وانتشار المثل السيء ، عن طريق إغواء البيئة المريضة . على الرغم من مصادمته للفطرة ، التي يحكمها الناموس الذي يحكم الحياة . الناموس الذي يقتضي أن نجد لذتها فيما يلي حياة الحياة لا فيما يصادمها

ويعدمها . والشهوة الجنسي بصادم الحياة ويعدمها ، لأنه يذهب بينور الحياة في تربة خيشة لم تُعدّ لاستقبالها وإحيائها . بدلاً من الذهاب بها إلى التربة المستعدة لتلقيها وإثرائها . ومن أجل هذا تنفر الفطرة السليمة نفوراً فطرياً - لا أخلاقياً فحسب - من عمل قوم لوط . لأن هذه الفطرة محكومة بقانون الله في الحياة الذي يجعل اللذة الطبيعية السليمة فيما يساعد على إتمام الحياة لا فيما يصادمها ويعطلها .

ولقد نجد أحياناً لذة في الموت - في سبيل غاية أُسمى من الحياة الدنيا - ولكنها ليست لذة حسية إنما هي معنوية اعتبارية . على أن هذه ليست مصادمة للحياة ، إنما هي إثمها لها وارتفاع بها من طريق آخر . وليست في شيء من ذلك العمل الشاذ الذي يعدم الحياة وخلاياها .

﴿ وجاءه قومه يهْرَعُونَ إليه ﴾ أي يسارعون إسراعاً ويهرولون هرولة كأنهم يدفعون دفعاً ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ أي لم يزل هذا من سجيّتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الخال ، مرنوا على الفواحش ، وقلّ عندهم استقباحها ، فلذلك جاؤوا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾

للمفسرين في هذا ان مقام قولان : الأول : أن بناته نساء قومه فكأنه لفت نظرهم إلى أزواجهن . الثاني : أنه عرض عليهم بناته ليتزوجوا ، والتقدير هؤلاء بناتي فتزوجوهن فأراد أن يقي أضيافه ببنايه ، وذلك غاية الكرم ، وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزاً في ذلك الوقت ، كما جاز في الابتداء في هذه الأمة ، فقد زوج رسول الله ﷺ ابنته من عتبة بن أبي خب ، وأبي العاص ، وهما كافران وهذا القول أقوى ﴿ فأتقوا الله ﴾ بترك الفاحشة وفعل المباح ﴿ ولا تخزون في ضيفي ﴾ أي ولا تهينوني ولا تفضحوني ، أو لا تخجلوني في حق ضيفي ؛ فإنه إذا خزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزي الرجل ، وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ أي فيه خير يقبل ما أمره به ، ويترك ما أنهاه عنه ، أي أليس فيكم رجل واحد يهتدي إلى طريق الحق وفعل الجميل والكف عن السوء ؟ ﴿ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ﴾ قال ابن كثير : أي إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهن ، وقال آخرون إنك لتعلم ما لنا في بناتك من حاجة ؛ لأن نكاح الإناث أمر خارج عن مذهبنا ؛ فمذهبنا إتيان الذكران ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ أي إنما نريد الرجال ﴿ قال لو أن لي بكم قوة ﴾ أي لفعلت بكم ولصنعت ، أي لو قويت عليكم بنفسي لتكلمت بكم ﴿ أو

آوي إلى ركن شديد ﴿١﴾ أو لو أويت إلى قوي أستاذ إليه ، وأتمتع به فيحميني منكم لفعلت بكم الأفاعيل ، شبه القوي العزيز الذي تمتى نصرته بالركن من الجبل في شدته ومنعته ﴿٢﴾ قالوا يالوط إنا نرسل ربك ﴿٣﴾ أي إن ركنك لشديد فتحن رسل ربك ، وإذا كانوا رسل الله فلن يصل أعداء الله إلى لوط ، ولن يقدروا على ضرره ولذلك قالوا ﴿٤﴾ لن يصلوا إليك ﴿٥﴾ ثم قالوا ﴿٦﴾ فآسر بأهلك بقطع من الليل ﴿٧﴾ أي بطائفة منه أو نصفه ﴿٨﴾ ولا بلغت منكم أحد ﴿٩﴾ أي ولا ينظر أحد منكم إلى ما وراءه ، ويحتمل أنه أمر بعدم تخلف أحد ، ويحتمل بأنه أمر بعدم الالتفات إلى ما يخلف وراءه من أملاك ، والأول أقوى ﴿١٠﴾ إلا امرأتك ﴿١١﴾ أي إلا هي فلا عليك ألا تلتفت ﴿١٢﴾ إنه مصيبها ما أصابهم ﴿١٣﴾ أي إن الأمر هكذا شأنها شأنهم ﴿١٤﴾ إن موعدهم الصبح ﴿١٥﴾ كأنه قال : متى موعد هلاكهم ؟ ففيل له ذلك ، وكأنه أراد أسرع من ذلك فقالوا ﴿١٦﴾ أليس الصبح بقريب ﴿١٧﴾ ﴿١٨﴾ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ﴿١٩﴾ أي حجارة من طين قوية شديدة ﴿٢٠﴾ منضود ﴿٢١﴾ أي متتابع ، أو مجموع معد للعباب ﴿٢٢﴾ مسومة عند ربك ﴿٢٣﴾ أي معلمة للعذاب في خزائنه أو في حكمه ﴿٢٤﴾ وماهي من الظالمين بعيد ﴿٢٥﴾ أي وما هذه النعمة ممن تشبه بهم في ظلمهم بعيد عنه وهكذا انتهى المقطع الثالث :

فوائد :

١- في هذه السورة حكى الله عز وجل لنا قول سارة ﴿١﴾ قالت ياويلي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب ﴿٢﴾ وفي سورة الذاريات حكى الله عز وجل فعلها ﴿٣﴾ فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴿٤﴾ كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب .

٢- بمناسبة قول لوط عليه السلام ﴿١﴾ لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴿٢﴾ يروي ابن كثير حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه » .

٣- بمناسبة قصة لوط عليه السلام وقومه وما عوقبوا به قال ابن كثير :

(وقد ورد في الحديث المروي في السنن عن ابن عباس مرفوعاً : « من وجدتموه

يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به ، وذهب الإمام الشافعي في قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللواط يقتل ، سواء كان محصناً أو غير محصن ؛ عملاً بهذا الحديث ، وذهب الإمام أبو حنيفة أنه يلقي من شاق ، ويتبع بالحجارة ، كما فعل الله بقوم لوط .

٤- وفي هذا المقطع إن في قصة إبراهيم ، أو في قصة لوط ، مجموعة من آداب الضيافة لا تحفى على الناظر منها : الاستقبال الطيب للضيف ، ومنها الترحيل بالطعام له ، ومنها الحرص عليه والدفاع عنه ..

٥- يذكر ابن كثير كثيراً من الروايات بمناسبة هذا المقطع ، كلها مرجعها أهل الكتاب وكما كررنا أكثر من مرة فإن أسفار موسى الخمسة التي تسمى حالياً التوراة أبعد من أن تكون محل ثقة في مجموع نقوطها ، بل إن قارئها ليحس بالجهد البشري المتأخر في صياغتها كما ذكرنا ذلك أثناء الكلام عن سورة الأعراف ، ومن ثم فإنها لا تصلح للاعتدال ، وقد يصلح بعضها للاستئناس في تفصيل لا يخالف نصاً ، مع ملاحظة أنها - لكونها مكتوبة من الروايات الشفهية بعد مئات السنين - دخل عليها تحريف وتبديل وتقديم وتأخير ، وإذا نقلنا عنها فإننا ننقل ضمن حدود ، ولولا أن رسولنا عليه الصلاة والسلام أذن لنا أن نحدث عن بني إسرائيل ولا حرج مانقلنا شيئاً لأن « أقلام النساخ الكاذبة » كما قال سفر أرميا قد أدخلت نصوصاً تنفرز منها النفس ، ومن ذلك ما يذكرونه في هذا المكان من زنى لوط بابنتيه - وحاشاه - فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

إذا نذكرنا هذا كله نقول :

إن ما ذكره القرآن عن إبراهيم ولوط عليهما السلام موجود بشكل مضطرب ومختلط في الإصحاح السابع عشر ، والإصحاح الثامن عشر ، والإصحاح التاسع عشر ، من سفر التكوين ، وقد أعطانا القرآن الحق مما نستطيع به أن نعرف خطأ الكثير من الكلام المضطرب هناك ، وصواب بعضه ، فمن الخطأ فيه أنه يذكر أن الرسل الثلاثة أكلوا ، مع أن السياق هناك يشعر بأن إبراهيم كان عارفاً أنهم رسل الله ، فكيف يأكلون وهم ملائكة ؟ وليكنها أقلام النساخ الكاذبة ، ومن الصواب فيه ذكر ضحك سارة وتعجبها عندما بشرت بآمن ، وكانت سارة سامعة في باب الخيمة وهو وراءه .. الفضحك سارة في باطنها فائلة : أبعد فتاتي يكون لي تنعم وميدي قد شاخ .

ومن الصواب فيه ذكر رغبة إبراهيم في أن يصرف البلاء عن قري قوم لوط ، ولم يفصل القرآن ماهية كلام إبراهيم بل أجمل فقال : ﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ .

فلننقل ما ذكر من جدال إبراهيم إلى نهاية قصة الإهلاك مما هو مذكور في الإصحاح الثامن عشر والتاسع عشر :

في الإصحاح الثامن عشر :

(فتقدم إبراهيم وقال أفتهلك البار مع الأثيم ، عسى أن يكون محسون باراً في المدينة ، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه . حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تمت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم . حاشا لك ، أذيان كل الأرض لا يصنع عدلاً ، فقال الرب إن وجدت في سدوم محسين باراً في المدينة فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم . فأجاب إبراهيم وقال إني قد شرعت أكلّم المولى وأنا تراب ورماد ، ربما نقص الخمسون باراً حمسة أهلك كل المدينة بالخمسة فقال لا أفعل من أجل الأربعين فقال لا يسخط المولى فأنكلم . عسى أن يوجد هناك ثلاثون فقال لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين ، فقال إني قد شرعت أكلّم المولى عسى أن يوجد هناك عشرون فقال لا أهلك من أجل العشرين ، فقال لا يسخط المولى فأنكلم هذه المرة فقط . عسى أن يوجد هناك عشرة ، فقال لا أهلك من أجل العشرة ، وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه) .

وفي الإصحاح التاسع عشر :

(فجاء الملكان إلى سدوم مساء وكان لوط جالساً في باب سدوم ، فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض . وقال ياسيدي بيلاً إلى بيت عبدك وبيننا واغسلا أرجلكما ، ثم تكران وتذهبان في طريقكما - فقالا لا بل في الساحة نبيت . فألح عليهما جداً فمالا إليه ودخلا بيته فصنع لهما ضيافة وخبزاً فطيراً فأكلا .

وقبلما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ كل الشعب من أقصاها . فنادوا لوطاً وقالوا له أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة ، أخرجهما إلينا لتعرفهما فخرج إليهم لوط إلى الباب وأغلق الباب وراءه ، وقال : لا تفعلوا شراً بالإخواني . هو ذا لي ابتنان لم تعرفا رجلاً . أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم . وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما قد دخلا تحت ظل

سقي . فقالوا أبعد إلى هناك . ثم قالوا جاء هذا الإنسان ليتغرب وهو يحكم حكماً . الآن نفعل بك شراً أكبر منهما . فآلحوا على الرجل لوط جداً وتقدموا ليكسروا الباب فسد الرجلان أيديهما وأدخلا لوطاً إليهما إلى البيت وأغلقا الباب . وأما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير إلى الكبير . فعجزوا عن أن يجلدوا الباب .

وقال الرجلان للوط من لك أيضاً ههنا . أصهارك وبنيك وبناتك وكل من لك في المدينة أخرج من المكان . لأننا مهلكان هذا المكان إذ قد عظم صراخهم أمام الرب فأرسلنا الرب لنهلكه . فخرج لوط وكلم أصهاره الآخذين بنانه وقال قوموا اخرجوا من هذا المكان . لأن الرب مهلك المدينة . فكان كميزاح في أعين أصهاره . ولما طلع الفجر كان الملكان معجلان لوطاً قائلين قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لكلا تهلك . يائمه المدينة . ولما توالى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه لشفقة الرب عليه وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة . وكان لما أخرجاهم إلى خارج أنه قال أهرب إلى الجبل . لعل الشر يتركني فأموت . هو ذا المدينة هذه قرية للهرب إليها وهي صغيرة . أهرب إلى هناك . أليست هي صغيرة فتحبها نفسي . فقال له إنني قد رفعت وجهك في هذا الأمر أيضاً أن لا أقلب المدينة التي تكلمت عنها أسرع أهرب إلى هناك لأنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً حتى تجيء إلى هناك . لذلك دُعِيَ اسم المدينة صوغر .

وإذ أشرفت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر . فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريئاً وناراً من عند الرب من السماء . وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض . ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح . وبكر إبراهيم في الغد إلى المكان الذي وقف فيه أمام الرب . وتطلع نحو سدوم وعمورة ونحو كل أرض الدائرة ونظر وإذا دخان الأرض يصعد كدخان الأتون . وحدث لما أخرب الله مدن الدائرة أن الله ذكر إبراهيم وأرسل لوطاً من وسط الانقلاب حين قلب قلب المدن التي سكن فيها لوط .

كلمة في السياق :

نجد في هاتين القصتين قصة إبراهيم ولوط مثليين على القيام بحق الله ، في العبادة والتوبة ، فتجد العبودية الخالصة عند إبراهيم وآل بيته ، والعبودية الكاملة عند لوط ، كما نجد عاقبة الانحرافات عن أمر الرسل عليهم الصلاة والسلام ، نلاحظ أن الأمر بالعبادة يدخل فيه طاعة الله في كل أمر ، كما نلاحظ في القصتين كيف يكرم الله أهل طاعته

بأنواع الكرامة ، نلاحظ أن في قصة لوط معنى هو امتداد للمعنى الذي وجدناه في قصة نوح ، أن القرابة لا تنفع صاحبها إذا لم يكن إيماناً ، فالقصتان امتداد للقصة الثلاث السابقة ، والقصص في هذه السورة بمجموعها تمضي على نسق واحد مع مواضع المقطع الأول ، ونشهد للمقطع الأخير ، وقد لاحظنا أن بداية المقطع الثاني كانت :

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه .. ﴾ ثم عطف عليها قصة هود ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ ثم عطف عليها قصة صالح ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ ثم كان بعد ذلك قصة إبراهيم وأضيافه ، وقوم لوط وبدأت ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴾ ثم تأتي الآن قصة شعيب عليه السلام مع قومه وبدأت بها ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ فكان قصة شعيب معطوفة على قصة قوم نوح وعاد وثمود ، وجعل الله عز وجل في الوسط قصة إبراهيم مبشراً إلى وحدة السورة ، وأن قصتي إبراهيم ولوط عليهما السلام تخدمان في المحور نفسه ، محور العبادة الذي سيعود السياق صريحاً في شأنه في قصة شعيب في المقطع الرابع :

☆ ☆ ☆

المقطع الرابع

ويمتد من الآية (٨٤) إلى نهاية الآية (٩٥) وهذا هو :

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبٌ قَالَ يَبْنَومَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيكُمْ بَعْضَ الَّذِي تُكَفِّرُونَ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَبْنَومَ أَوْفُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْسُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشُعَيْبُ أَصْلَوتَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَبْنَومَ

أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ
إِلَىٰ مَا أَتَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَقَوْمٍ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ
مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾
وَأَسْتَغْفِرُكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنْ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعَبُ
مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا إِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ
عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهَيْتُمُ اعْرُ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَأَتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَ ظَهْرِي يَا
إِنْ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ
سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ
رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ
الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا
بُعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

التفسير :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيب ﴾ أي : وأرسلنا شعيباً إلى ساكني مدين أو إلى بني
مدين قال ابن كثير : وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من
معان بلاداً تعرف بهم يقال لها مدين ، فأرسل الله لهم شعيباً وكان من أشرفهم نسباً
﴿ قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ أمرهم بعبادة الله وحده ، كما أمر كل

رسول ﴿ وَلَا تَقْصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ أي لا تنقصوا المكيال بالمكيال ، ولا تنقصوا الموزون بالميزان بل أدوهاما كاملين أخذاً وعطاءً ﴿ إني أراكم بخير ﴾ أي في معيشتكم ورزقكم فأنتم بثروة وسعة تفتيكم عن التطفيف ، أو المعنى : إني أراكم بنعمة من الله حقها أن تقابل بغير ما تفعلون من شرك وخيانة ﴿ وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ أي مهلك والمراد به إما عذاب الاستئصال في الدنيا ، أو عذاب الآخرة ﴿ ويقوم أرفوا المكيال والميزان بالقسط ﴾ أي أتموها بالعدل ، نهاهم أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي حسن في العقول لزيادة الترغيب فيه ، وجيء به مقيداً بالقسط ليعني : ليكن الإيفاء على وجه العدل والتسوية من غير زيادة ولا نقصان ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أي لا تنقصوا في حقهم شيئاً ، أشياءهم المعنوية وأشياءهم المادية نقصاً حسياً أو معنوياً ﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ العيث : أشد الفساد نحو السرقة والغارة وقطع السبيل ، بدأ بالدعوة إلى عبادة الله ، ثم بالدعوة إلى عدم نقص المكيال والميزان وإيفائهما ، ثم بالدعوة إلى إعطاء الناس القيمة الحقيقية لأشياءهم ، ثم بالدعوة إلى ترك الفساد أصلاً في الأرض .

ثم ذكرهم فقال : ﴿ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي ما يبقى لكم من الحلال بعد التزهد عما هو حرام عليكم خير لكم في الدنيا والآخرة ، بشرط أن تؤمنوا ، والحقيقة أن بقية الله خير للكفرة أيضاً ، لأنهم يسلمون منها من تبعه البخس والتطفيف وما يترتب عليهما من شرور اجتماعية ، إلا أن فائدتها أظهر في حق أهل الإيمان للسلامة من الشرور مع حصول الثواب مع النجاة من العقاب ، بينما لا تظهر الثمرات كاملة مع عدم الإيمان ، ومن ثم نقول : إن النظام الاقتصادي الإسلامي لا يقوم وتظهر ثمراته كاملة إلا في مجتمع مؤمن ، وقد أفادنا النص تعظيم الإيمان والتبني على جلالة شأنه ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أي برقيب ، أي افعلوا ذلك لله عز وجل ، لاتفعلوه ليراكم الناس ؛ إذ الله هو الحفيظ ؛ فاحفظوا نعمه بترك البخس ، واحفظوا أوامره ليحفظكم ويحفظ أموالكم ، فماذا كان جوابهم ؟ لقد كان جوابهم مختلفاً عما عهدناه في الأجوبة التي مرت معنا في الفصوص السابقة ، فالسورة تعرض لنا أكثر من نموذج ﴿ قالوا ﴾ على سبيل التهكم ﴿ يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ قال الحسن : إي والله إن صلاته لتأمر أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم ، وهكذا أنكروا عليه أن يأمرهم وينهاهم ، وهكذا اعتبروا أنهم أحرار في عبادة من

شأنوا ، وأنهم أحرار في النظام الاقتصادي الذي ارتضوه ولو كان ظالماً وهي لغة الكفر في كل زمان ومكان ، ثم قالوا على سبيل الاستهزاء ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ أي أنت العاقل الراشد !؟ وهو منطق كثير ممن يردون دعوة الله مستهزئين بفهم وفقه وعقل الدعاة ، فكأنهم يقولون بكلمتهم المستهزئة : إنك لأنت السفیه الضال ، وكذاب كل رسول في إقامة الحجة ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ أي على بصيرة فيما أدعو إليه ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ ﴾ أي من عنده ﴿ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ قيل : أراد النبوة ، وقيل : أراد الرزق الحلال الذي لا يخالس فيه ولا تطفيف ، ويحتمل الأمرين ، والتقدير : أخبروني إن كنت على حجة واضحة من ربّي ، وكنت نبياً على الحقيقة ، أبلغ لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصي ، والأنبياء لا يبعثون إلا لذلك ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَهْأَلِكُمْ إِلَى مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أي لم أكن لأنهاكم عن أمر وأرتكبه ، ولم أكن لأسبقكم إلى شهواتكم التي يهينكم عنها لأستبد بها دونكم ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ أي ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي وأمري بالمعروف ونهي عن المنكر قدر استطاعتي للإصلاح مادمت متمكناً منه لا ألوفيه جهداً ﴿ وَمَا تَرْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ أي وماكوني موقفاً لإصابة الحق فيما آتي وأذر إلا بمعونة الله وتأيدته ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي اعتمدت في جميع أموري ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي أرجع في كل أموري في السراء والضراء وكل حال ﴿ وَيَاقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ أي لا تجعلنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد ﴿ أَنْ يَصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾ أي فيصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء الأقوام من العذاب ﴿ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ في الزمان ، فهم أقرب الهالكين منكم ، أو في المكان ، فمنازلهم قريبة منكم ، أو فيما يستحق به الهلاك وهو الكفر والمساوىء ، هددهم بالغرق أو الريح أو الرجفة ، بسبب خلافه ، نسأل الله بجمته وكرمه ألا يمنعنا بغض أو شقاق أو خلاف عن أن نقبل الحق الخالص كائناً ما كان ، وقد دل خطابه عليه السلام لهم على أن زمنه متأخر عن زمن قوم لوط ، وعلى هذا فالترتيب في سورة هود بين القصص ترتيب زمني : نوح ثم هود ثم صالح ثم إبراهيم ولوط ثم شعيب ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا مِنْكُمْ ﴾ في سالف ذنوبكم ﴿ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ فيما تستقبلونه في الأعمال السيئة ﴿ إِنْ رَبِّي رَحِيمٌ ﴾ ومن رحمته غفرانه لأهل الجفاء من المؤمنين ﴿ وَدُودٌ ﴾ ومن مودته أنه يحب أهل الوفاء من الصالحين ، ومن تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً ، وهكذا أقام عليهم الحجة إن من خلال النظر في شأنه ، أو النظر في أمر الغابرين ، أو النظر في طبيعة

ما يدعوههم إليه ، فماذا كان جوابهم ؟ كان جوابهم جواب المستكبرين الطغاة :

﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه ﴾ أي ما نفهم ﴿ كثيراً مما تقول ﴾ أي من قولك والظاهر أنهم أرادوا أنهم لا يفهمون صحة مايقول ، لأن كلامه في متبى الوضوح وكيف وهو كما قال الثوري : كان يقال له خطيب الأنبياء ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ أي لا قوة لك ولا عز فيما بيننا ، فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروها ، فما أنت إلا واحد ، وعشيرتك ليست على دينك ﴿ ولولا رهطك ﴾ أي قومك وعشيرتك ﴿ لرجمناك ﴾ أي بالحجارة . والمعنى : ولولا عشيرتك لقتلناك شر قتلة ، وكان رهطه من أهل ملتهم فلذلك أظهروا الميل إليهم ، والإكرام لهم ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ أي ليس لك عندنا شأن ، فأنت لا تعز علينا ، ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ، ونرفعك عن الرجم ، وإنما يعز علينا رهطك ، لأنهم من أهل ديننا . فأجابهم لتقوم عليهم الحجة ﴿ قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله ﴾ قال لهم هذا لأن تهاونهم به وهو نبي الله تهاون بالله ، وحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله ، لأن الله إذ أرسل رسولاً جعل الأدب معه أدباً مع الله ، ألا ترى قوله تعالى ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (النساء : ١٣) ﴿ واتخذتموه وراءكم ظهرياً ﴾ أي : ونسبم الله وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبأ به ، والمعنى : أتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظماً لجناب الرب تبارك وتعالى أن تتألوا نبيه بمساءة ، فقد اتخذتم ربكم وراءكم فبذتموه خلفكم لاتطيعونه ولا تعظمونه ﴿ إن ربي بما تعملون محيط ﴾ أي قد أحاط بأعمالكم علماً فلا يخفى عليه شيء منها وهو مجازيكم عليها ﴿ ويا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ أي على طريقكم وهو تهديد لهم ، أي اعملوا متمكنين من عداوتي مطيقين عليها ﴿ إني عامل ﴾ على طريقتي ﴿ سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي بذله ﴿ ومن هو كاذب ﴾ في دعواكم وزعمكم ﴿ وارقبوا إني معكم رقيب ﴾ أي وانظروا العاقبة إني معكم منتظر ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصبحة الصبيحة فأصبحوا في ديارهم جاثين ﴾ أي هامدين لا حراك بهم ﴿ كان لم يغنوا فيها ﴾ أي كأن لم يعيشوا ويقموا في ديارهم أحياء متصرفين مترددين ﴿ ألا بقداً لمدن ﴾ أي ألا هلاكاً لهم ﴿ كما بعدت ثمود ﴾ لأن طريقهم واحد .

فوائد :

١ - قال ابن كثير : « ذكرنا هنا (أي في سورة هود) أن أتتهم صبيحة ، وفي (الأعراف) رجفة ، وفي (الشعراء) عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها ، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه ، ففي الأعراف لما قالوا ﴿ لنخرجك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾ ناسب أن يذكر هناك الرجفة فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها ، وأرادوا لإخراج نبيهم منها . وههنا لما أسأوا الأدب في مقاتلتهم على نبيهم ذكر الصبيحة التي استلبت منهم وأحمدتهم ، وفي الشعراء لما قالوا ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ قال ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ وهذا من الأسرار الدقيقة .

٢ - يلاحظ أنه في آخر قصة عاد ومدين جاء قبل (لما) حرف الواو ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً ... ﴾ ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً ... ﴾ ﴿ سبنا جاء قبل (لما) في قصة ثمود ولوط حرف الفاء وقد علل ذلك النسفي : أن مجيء الفاء في قصة ثمود ولوط لأنها وقعا بعد ذكر الموعد ﴿ إن موعدهم الصبح ﴾ في قصة لوط و﴿ ذلك وعد غير مكذوب ﴾ في قصة ثمود قال : فجاء بالفاء الذي هو للنسب كقولك وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت ، وأما الآخريات فقد وقعتا مبتدأتين ، فكان حقهما أن تعطفَا بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة .

٣ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ ويأقوم لا يجرمكم شقايا أن يصيبكم ... ﴾ نقل ابن كثير عن ابن أبي حاتم هذه القصة عن ابن أبي ليلى الكندي قال : كنت مع مولاي أمسك دابته ، وقد أحاط الناس بعثمان بن عفان إذ أشرف علينا من داره فقال : ﴿ لا يجرمكم شقايا أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ﴾ يأقوم لا تقتلونني ، إنكم إن قتلتموني كنتم هكذا ، وشبك بين أصابعه .

٤ - بمناسبة قوله تعالى على لسان شعيب : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ... ﴾ ذكر ابن كثير مجموعة روايات نذكرها مع حذف الأسانيد .

روى الإمام أحمد عن حكيم بن معاوية عن أبيه أن أخاه مالكا قال : يا معاوية إن محمداً ﷺ أخذ جبراني ، فانطلق إليّ فإنه قد كلمك وعرفك ، فانطلقت معه فقال : دع جبراني فقد كانوا أسلموا فأعرض عنه فقام مغضباً فقال : أما والله لئن فعلت إن الناس يزعمون إنك لتأمرنا بالأمر وتختلف إلى غيره ، وجعلت أجره وهو يتكلم ، فقال رسول الله ﷺ : « ماتقول ؟ » فقال : إنك والله لئن فعلت ذلك إن الناس ليزعمون

إنك لتأمر بالأمر وتخالف إلى غيره ، قال فقال : « أوقد قالوها - أي قائلوها - ولئن فعلت ماذا إلا علي وما عليهم من ذلك من شيء أرسلوا له جيرانه » . وروى أيضاً عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : أخذ النبي ﷺ ناساً من قومي في تهمة فحبسهم فجاء رجل من قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب فقال : يا محمد علام تحبس جبراني ؟ فصمت رسول الله ﷺ ، فقال : إن ناساً يقولون إنك تنهى عن الشيء وتستخفي به ، فقال النبي ﷺ : « ماتقول ؟ » فجعلت أعرض بينهما كلاماً مخافة أن يسمعها فيدعو على قومي دعوة لا يفلحون بعدها أبداً ، فلم يزل رسول الله ﷺ حتى فهمها فقال : « قد قالوها - أوقائلها منهم ؟ - والله لو فعلت لكان علي وما كان عليهم ، خلّوا عن جيرانهم » . ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الإمام أحمد .. عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال : سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولون عنه ﷺ أنه قال : « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم عنه » إسناده صحيح .

وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث : « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل : اللهم إني أسألك من فضلك » ومعناه والله أعلم مهما بلغكم عني من خير فأنا أؤلاكم به ، ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه . وروى قتادة .. عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : تنهى عن الواصلة ؟ قال : نعم ، قالت : فعله بعض نسائك ، فقال : ما حفظت وصية العبد الصالح إذا ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ وروى عثمان بن أبي شيبة ... عن أبي سليمان الضبي قال : كانت نجبتنا كتب عمر بن عبدالعزيز فيها الأمر والنهي فيكتب في آخرها : وما كنت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح ﴿ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ .

نقول :

قال صاحب الظلال تعليقاً على قصة شعيب عليه السلام :

(وهذا دور من أدوار الرسالة الواحدة بالعقيدة الخالدة ، ينهض به شعيب في قومه أهل مدين .. ومع الدعوة إلى عقيدة التوحيد قضية أخرى ، هي قضية الأمانة والعدالة في التعامل بين الناس ، وهي وثيقة الصلة بالعقيدة في الله ، والدينونة له وحده ، واتباع شرعه وأمره . وإن كان أهل مدين قد تلقوها بدهشة بالغة ، ولم يدركوا العلاقة بين المعاملات المالية والصلاة المعبرة عن الدينونة لله) .

وقال صاحب الظلال تعليقاً على قول قوم شعيب لشعيب :

﴿ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ : فهم لا يدركون - أولاً يريدون أن يدركوا - أن الصلاة هي من مقتضيات العقيدة ، ومن صور العبودية والدينونة . وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ، وبهذا ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم . كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله في التجارة وفي تداول الأموال وفي كل شأن من شؤون الحياة والتعامل . فهي لُحمة واحدة لا يفرق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة .

وقبل أن نخضي طويلاً في تسفيه هذا التصور السقيم لارتباط الشعائر بالعقيدة . وارتباطهما معاً بالمعاملات .. قبل أن نخضي طويلاً في تسفيه هذا التصور من أهل مدين قبل ألوف السنين ، يحسن أن نذكر أن الناس اليوم لا يفرقون في تصورهم ولا في إتكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب . وأن الجاهلية التي نعيش فيها اليوم ليست أفضل ولا أذكى ولا أكثر إدراكاً من الجاهلية الأولى . وأن الشرك الذي كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذي تزاوله اليوم البشرية بجملتها - فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر . والشرعية والتعامل . فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره ، ويجعل الشرعية والتعامل لغير الله ، ووفق أمر غيره .. وهذا هو الشرك في حقيقته وأصله .

وإن كان لا يفوتنا أن اليهود وحدهم اليوم هم الذين يتمسكون بأن تكون أوضاعهم ومعاملاتهم وفق ما يزعمونه عقيدتهم وشريعتهم - وذلك بغض النظر عما في هذه العقيدة من انحراف وما في هذه الشريعة من تحريف - فلقد قامت أزمة في « الكنيسة » مجلس تشريعهم في إسرائيل بسبب أن باخرة إسرائيلية تقدم لركابها - من غير اليهود - أطعمة غير شرعية . وأرغمت الشركة والسفينة على تقديم الطعام الشرعي وحده - مهما تعرضت للخسارة - فأين من يدعون أنفسهم « مسلمين » من هذا الاستعصاك بالدين .

إن بيننا اليوم ممن يقولون : - إنهم مسلمون - من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق . وبخاصة المعاملات المادية .

وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم ، يتساءلون أولاً في استنكار : وما للإسلام وسلوكنا الشخصي ؟ .. ما للإسلام والعري في الشواطئ ؟ ما للإسلام وزی المرأة في الطريق ؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل ؟ ما

للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج ؟ ما الإسلام وهذا الذي يفعله المتحضرون ؟ فأني فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين : ﴿ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ .

وهم يتساءلون ثانيا . بل ينكرون بشدة وعنف . أن يتدخل الدين في الاقتصاد ، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد ، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد .. فما للدين والمعاملات الربوية ، وما للدين والمهارة في الغش والسرقة ما لم يقعا تحت طائلة القانون ، الوضعي ؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده . وينكرون حتى هلى بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية - النظرية الأخلاقية مثلاً - ويعلمونها تخليطاً من أيام زمان .

فلا يذهبن بنا الترفع كثيراً على أهل مدين في تلك الجاهلية الأولى . ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة ، ولكنها تدعي العلم والمعرفة والحضارة . وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في الله ، والسلوك الشخصي في الحياة ، والمعاملات المادية في السوق .. تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود .

وما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب ، ثم ترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض . فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد . والشرك ألوان . منه هذا اللون الذي نعيش به الآن . وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان وفي كل مكان .

كلمة في السياق :

وهكذا رأينا في هذا المقطع كيف أن رسولاً آخر لله قد دعا إلى عبادة الله وحده وإلى الاستغفار ، كما دعا إلى سلوك نظيف يكون أثراً عن عبادة الله ، وكيف ردة عليه قومه ، وماذا كانت عاقبة هذا الرد ، وقد بقي معنا من السورة مقطعان ، مقطع يبدأ بالحديث عن موسى عليه السلام وقصته مع فرعون وقومه وعاقبة هؤلاء ، ثم يعط ويذكر بانياً على ما مر من قبل في السورة ، ومقطع آخر وفيه توجيهات مباشرة لرسول الله ﷺ والمؤمنين مبنية على ما مر من قبله .. في السورة .

المقطع الخامس

بين يدي هذا المقطع :

يبدأ هذا المقطع بالحديث عن موسى عليه السلام ورسالته إلى فرعون ، ولا يذكر مضمون هذه الرسالة ، لأنه قد علم من سياق السورة مضمون رسالات الله وهو عبادة الله ، وفي المقطع حديث عن عاقبة فرعون وقومه ، وتهديد ووعيد لكل ظالم .

يمتد المقطع من الآية (٩٦) إلى نهاية الآية (١٠٨) وهذا هو :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَمُطْعِنًا مُبِينًا ۖ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ
فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۖ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَّ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ۖ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
يَسَّ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ۖ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرْقَانِ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ
﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَلَلًا ۖ ﴿١٠١﴾
وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرْقَانِ ۖ وَهِيَ ظُلُمَةٌ ۖ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۖ ﴿١٠٢﴾
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمُوعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ
يَوْمٌ مَشْهُودٌ ۖ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ۖ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا
بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ سُوءٌ مُّسْتَعِيدٌ ۖ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ ۖ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۖ ﴿١٠٦﴾

خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَيَنَالُ الْجَنَّةَ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٌ ﴿١٠٨﴾

التفسير :

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ بالمعجزات ﴿ وسلطان مبين ﴾ أي وبالْحجة الواضحة ، وقد يراد بالسلطان المبين العصا لأنها أبهر الآيات ، فيكون من ذكر الخاص بعد العام ﴿ إلى فرعون وملأه ﴾ أي قومه ﴿ فأتبعوا ﴾ أي قومه ﴿ أمر فرعون ﴾ أي منهجه ومسلكه وطريقته في الغي ﴿ وما أمر فرعون برشد ﴾ أي ليس فيه رشد ولا هدى وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد ﴿ يقدم قومه يوم القيامة ﴾ فكما اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم ، كذلك هو يقدمهم يوم القيامة ﴿ فأوردتهم النار ﴾ أي فأدخلهم النار وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر ﴿ وبس الوزر ﴾ أي المورد ﴿ المورد ﴾ أي الذي وردوه وكيف يكون أمره رشيداً من هذه عاقبته ؟ والرشد يستعمل في كل ما يحمد ويرتضى ، كما يستعمل الغي في كل ما يذم ، وقد شبه فرعون في الآية بالمتقدم الذي يتقدم الماشية إلى الماء ، وشبه أتباعه بالماشية ، واستعمال لفظة الورد والمورود لا يخفى وجه الإعجاز فيه ، لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش والنار ضده ، فما أبشعها من إمامة إمامته ﴿ وأتبعوا في هذه ﴾ أي الدنيا ﴿ لعنة ﴾ أي اتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا ﴿ ويوم القيامة بس الرقد المرفود ﴾ رقدتهم أي بس العون المعان ، أو بس العطاء المعطى أن يعطوا لعنة الدنيا والآخرة ، وبعد أن ذكر الله تعالى خير مجموعة الأنبياء المذكورين في السورة مع أقوامهم قال : ﴿ ذلك من أنباء القرى ﴾ أي أخبارها أي ذلك النبأ في هذه السورة بعض أنباء القرى المهلكة ﴿ نقصه عليك منها قائم ﴾ أي عامر ﴿ وحصيد ﴾ أي هالك ، فعضها باق ، وبعضها لم يبق له أثر ، شبه النوع الأول بالزرع القائم على ساقه ، وشبه النوع الثاني بالذي حصد ﴿ وما ظلمناهم ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بارتكاب ما به أهلكوا ، من الكفر ، وتكذيب الرسل ﴿ فما أغنت عنهم آلتهم ﴾ أي فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله آلتهم ، حجراً كانت أو بهراً ﴿ التي يدعون من دون

الله ﴿ أي التي يعبدونها ويدعونها من دون الله ﴾ من شيء ﴿ فلا نفعوهم ولا أنقذوهم ﴾ لما جاء أمر ربك ﴿ أي عذابه ﴾ وما زادوهم غير تنبيب ﴿ أي تفسير وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة ، فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة ﴾ وكذلك ﴿ أي ومثل ذلك الأخذ ﴾ أخذ ربك إذا أخذ القرى ﴿ أي : أهلها ، أي : وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بأشباههم ﴾ وهي ظالمة ﴿ لنفسها أو غيرها ، وهو إنذار لكل ظالم لنفسه أو لغيره بوعامة العقاب ﴾ إن أخذه أليم ﴿ أي مؤلم ﴾ شديد ﴿ أي صعب على المأخوذ وهذا تحذير لكل قرية ظالمة وتحذير لكل ظالم فعلى كل ظالم أن يبادر بالتوبة ولا يغتر بالإمهال ﴾ إن في ذلك ﴿ أي فيما قص الله من فصوص الأمم الهالكة ﴾ لآية ﴿ أي لعبرة وعظة ﴾ لمن خاف عذاب الآخرة ﴿ أي لمن اعتقد صحته ووجوده ونهى على ذلك فحذر وخاف ، والآية تتضمن معنى مفهوماً من السياق : إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين لعظة واعتباراً على صدق وعودنا في الآخرة ، ﴾ ذلك يوم ﴿ أي يوم القيامة الذي فيه عذاب الآخرة ﴾ مجموع له الناس ﴿ أي يجمعون للحساب والثواب والعقاب أولهم وآخرهم ﴾ وذلك يوم مشهود ﴿ أي عظيم تحضره الملائكة ، ويجمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تلك حسنة بضاعفها ﴾ وما تؤخره ﴿ أي وما تؤخر اليوم المذكور إلا لانتفاء مدة معدودة ، أو ما تؤخر هذا اليوم إلا لتنتهي المدة التي ضربناها لبقاء الدنيا . قال ابن كثير : أي ما تؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين من ذرية آدم ، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة وهذا قال : ﴾ وما تؤخره إلا لأجل معدود ﴿ أي لمدة مؤقتة لا يزداد عليها ولا ينقص منها ﴾ يوم يأت ﴿ أي يوم القيامة ﴾ لا تكلم نفس ﴿ أي لا تتكلم نفس ﴾ إلا بإذنه ﴿ أي لا يشفع أحد إلا بإذنه ﴾ فمنهم شقي وسعيد ﴿ أي من الناس معذب ومنهم منعم ﴾ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير ﴿ الزفير في الأصل : هو أول نبيق الحمار ﴾ وشهيق ﴿ هو آخره ، أو هما إخراج النفس وردّه ، والزفير عادة يكون بعد الشهيق ، ولكن لما فهم فيه من العذاب أصبح تنفسهم زفيراً ، وأخذهم النفس شهيقاً عياداً بالله من ذلك ﴾ يخالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴿ المراد سنوات الآخرة وأرضها ، وهي دائمة مخلوقة للأبد ﴾ إلا ما شاء ربك ﴿ من تعذيبهم بغير النار من زمهرير وأنواع أخرى من العذاب ، أو المعنى : إلا من شاء ربك إخراجهم

بسبب وجود شيء من الإيمان في قلوبهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَاعَالٌ لِّمَا يَريَدُ ﴾ بالشقي والسعيد ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ قال ابن كثير : معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته بل هو موكول إلى مشيئة الله ، فله المنة عليهم دائماً ، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس ﴿ عِطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ ﴾ أي غير مقطوع ، ولكنه ممتد إلى غير نهاية ، ونلاحظ أن المقطع الأول من السورة ختم بقوله تعالى :

﴿ لَا جِزْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَاجْتَنَبُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۚ مِثْلَ الْقَرِيقِينَ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسَوِيانِ مِثْلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۚ ۞

وهذا المقطع ختم بقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زُلْزَلَةٌ وَشَقِيقٌ ۚ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَاعَالٌ لِّمَا يَريَدُ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عِطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ ۚ ۞

والملاحظ أن المقطعين الأول والخامس انتبها بالكلام عن العاقبة النهائية للكافرين والعابدين ، وما بين ذلك كانت القصص تركز على العاقبة الدنيوية للطرفين ، والعبرة دائماً بالعاقبة ، أما ما يكون قبل ذلك من عتو ، أو انتصار ، أو ظلم ، فهذا كله لا يساوي شيئاً ، وفي هذا درس بليغ للعبادين ، فليحرص المسلمون أن يقوموا بحق الله في عبادته ، وليحاسبوا أنفسهم على كل تقصير ، بملازمة الاستغفار ، والعاقبة في الدنيا والآخرة لهم .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ نذكر الحديث المروي في الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يُجْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ الآية .

كما نلفت نظر أهل البصائر إلى ما نسمع به يومياً - تقريباً - من كارثة تقع في مكان ما في العالم ، من غرق ، أو خسف ، أو حرق ، أو غير ذلك ، فالغافل يمر بهذا كله

وكانه شيء عادي ، وأصحاب القلوب يرون في هذا كله انتقام الله ، ويرون في كل حادثة عبرة ، وفي كل عقوبة عظة لأنفسهم أو لغيرهم .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ نذكر بقوله تعالى : ﴿ لَا تَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ (النبأ : ٢٨) وبقوله تعالى ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ (طه : ١٠٨) وفي حديث الصحيحين في موضوع الشفاعة : « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم » .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ فَعَنِمَ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ ذكر ابن كثير ما رواه أبو يعلى في مسنده عن ابن عمر عن عمر قال : لما نزلت ﴿ فَعَنِمَ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ سألت النبي ﷺ : فقلت يا رسول الله علام نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه ؟ فقال : « على شيء قد فرغ منه يا عمر وَجَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ ، وَلَكِنْ كَلَّ مِيسِرٌ لَمَّا خُلِقَ لَهُ » .

٤ - وفي حكمة قوله تعالى : ﴿ عِطَاءٌ غَيْرُ مُجْدُوذٍ ﴾ بعد الاستثناء في قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عِطَاءٌ غَيْرُ مُجْدُوذٍ ﴾ قال ابن كثير :

(لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة ، أن ثمَّ انقطاعاً ، أو ليساً ، أو شيئاً بل عدم له بالدوام وعدم الانقطاع ، كما بين هناك أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيئته ، وأنه بعدله وحكمته عذبهم ولهذا قال : ﴿ إِنْ رَبُّكَ فَعَالٍ لَمَّا يَرِيدُ ﴾ كما قال ﴿ لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٣) وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله ﴿ عِطَاءٌ غَيْرُ مُجْدُوذٍ ﴾ وقد جاء في الصحيحين : « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال : يا أهل الجنة خلودوا فلاموت ، ويا أهل النار خلودوا فلاموت » وفي الصحيح أيضاً : فيقال : يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تعملوا فلا تبأسوا أبداً) .

٥ - من المواطن التيكثر فيها الجدل بين المفسرين الاستثناء الوارد في الآيات الأخيرة من هذا المقطع ومن ثم اقتضى ذلك أن نقف وقفة بهذه المناسبة :

أقوى الاتجاهات على الإطلاق عند المفسرين أن يقال الأشقياء نوعان : نوع في قلوبهم إيمان ، ونوع ليس في قلوبهم إيمان ، فالاستثناء من أجل أن يظهر الله عز وجل أن ليس كل شقي يبقى أبداً ، بل إن منهم من شاء إخراجهم من النار بعد خلود طويل وهم الذين في قلوبهم إيمان .

والسعداء نوعان : سعيد يدخل الجنة ابتداءً ، وسعيد يتأخر دخوله ، إما لكونه من أهل الأعراف ، وإما لكونه ينجو بعد عذاب ، وهذا النوع خلوده الأبدي قاصر في ابتداءه ، فمن ثم ذكر الاستثناء ليبين أن مدة من دوام السموات والأرض ابتداءً ، لا تكون قسم من السعداء في الجنة .

والاتجاه الثاني : أن يقال ذكر الاستثناء في المقامين ليعلمنا الله عز وجل أن هذا الخلود ليس واحياً بذاته ، بل هو موكول إلى الله ، ليقى المسلم متذكراً أن مشيئة الله مطلقة ، ولولا أن الله عز وجل ذكر في مكان آخر الخلود الأبدي لأهل الجنة وللكافرين من أهل النار ما فهمنا الخلود الأبدي ، وبذلك يعلمنا الله عز وجل أن نذكر مشيئته حتى في القضايا القطعية .

ولي في الاستثناء فهم لم أره لأحد أذكره وأستغفر الله أن أقول على كتابه ما ليس لي به علم ، هذا الفهم هو : أن الاستثناء ورد ليخرج التفسير الذي يطرأ على السموات والأرض عند قيام الساعة . ليبين أن الدوام في النار والجنة ليس فيه أي طارئ ، فيكون المعنى ﴿ فأما الذين شقوا ففي النار خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ من أمر القيامة فإنه لا يطرأ عليهم مثل هذا الطارئ ، بل هو الخلود الأبدي الذي لا يتخلف ولا ينقطع ﴿ إن ربك فعال لما يريد ﴾ من تعذيب أهل نعمته ﴿ وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ من أمر القيامة فإنه لا يكون مثله لأهل الجنة ﴿ عطاء غير محدود ﴾ أي عطاء غير منقطع ، ولتوضح هذا المقام أقول :

إن هذا الكون حادث لكنه أبدي ، يطرأ عليه طارئ ، القيامة فيغير ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ فإذا ما دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فإنهما يكونان خالدين فيها خلوداً يشبه خلود السموات والأرض . وحتى لا يفهم قاهم أن هناك احتمال قيامة ما ، بين الله عز وجل أن ما شاءه من انقطاع الديومة السموات والأرض يوم القيامة مستثنى من هذا الدوام .

وعندي فهم آخر لهذا الاستثناء لم أر مَنْ ذكره وهو :

إن المسلم إذا مات دخل الجنة ، وأن الكافر إذا مات دخل النار ، وهذا وهذا خالداً فيما هما فيه ، إلا ما شاء الله ، أي عند قيام القيامة فعندئذ يخرجان إلى المحشر ولا نار ، حتى يدخلوا الجنة والنار مرة ثانية . ولا أرجع من هذه الاتجاهات إلا الأول ، لأنه هو الذي رجحه المفسرون الثقات .

٦ - من أوائل من طرح أفكاراً ضالة في التاريخ الإسلامي الجهم بن صفوان الذي ينسب إليه الجهميون ، ومن عقائد هذه الفرقة نفي الصفات للذات الإلهية ، ونفي الكلام ، والقول بخلق القرآن . ومن عقائدهم فناء الجنة . قال النسفي : كفرت الجهمية بأربع آيات ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ ﴿ أَكُلُّهَا دَائِمٌ ﴾ (الرعد : ٩٦) ﴿ وما عند الله باق ﴾ (السجدة : ٩٦) ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ (الواقعة : ٢٣) .



المقطع السادس

بين يدي المقطع :

رأينا أن محور سورة هود الأمر بالعبادة ، ورأينا المقطع الأول وأنه فصل في موضوع العبادة ، وفي نهاية العابدين والكافرين ، ورأينا المقاطع التالية ، كيف أنها مثلت لعاقبة الرافضين والعاكدين . والآن يأتي المقطع الأخير ، ونلاحظ أنه مبدوء بذكر العبادة ومنت به ذكر العبادة : فالآية الأولى منه ﴿ فلا تلك في مربة مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل .. ﴾ والآية الأخيرة منه ﴿ وقد غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴾ وفي الوسط قوله تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ... ﴾ وقوله تعالى ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ... ﴾ فالمقطع الأخير جاء بعد كل المقدمات التي تجعل عند الإنسان الاستعداد للتطبيق الخالص ، ومن ثم فهو مقطع عمل في الغالب .

يمتد المقطع من الآية (١٠٩) إلى نهاية السورة (١٢٣) وهذا هو :

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءُ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ

وَإِنَّا لَمُوفُونَهم نَصِيحُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأُخْلِيفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كَلَامَنا لَبُوفِيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ إِنَّهُ رَبُّمَّا يَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَمْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ قُلْ لَّا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِّنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِمْ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ

الْأَمْرُ كُلُّهُ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾

التفسير :

يبدأ المقطع بالنهي عن الشك في ضلال من يعبدون غير الله ﴿فَلَا تُكْ فِي مِرْيَةٍ﴾ أي في شك ﴿فَمَا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ أي كل مشرك فعبادتهم باطلة وجهل وضلال ﴿فَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات ﴿وَإِنَّا لَنُوفِّيهِمْ نَصِيْبَهُمْ﴾ أي حظهم من العذاب ، كما وفينا آباءهم أنصباؤهم ﴿غَيْرِ مَنْقُوصٍ﴾ أي كاملاً . والمعنى : لا تشك بعد ما أنزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادة هؤلاء كما أصاب أمثالهم قبلهم ، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ والمؤمنين ، ووعد للكافرين بالانتقام منهم ، وهكذا علمتنا الآية أن نجزم بضلال الكافرين وأن نجزم بسوء عاقبتهم ، وإذا مر معنا من قبل ما نفهم منه سنة الله عز وجل في استئصال أهل الشرك . وإذا جاء النهي بعد ذلك عن الشك في ضلالهم والوعد بعقابهم ، فقد آن الأوان لنعرف سنته تعالى فيمن استجابوا لدعوة الله إذا انخرقوا ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التوراة ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ اختلف في فهمه اجتهداً في عمله ، واختلف في التأويل ظلماً وبغياً ، وحدث التفرق والخلاف ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أن لا يعاجل المستجيبين لدعوته بالعذاب المستأصل مع كثرة الذنب والخطأ ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ بالعذاب المستأصل لأهل الباطل ، ولكن سنته في هؤلاء ليست كذلك ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ أي من العذاب ، أو من التوراة فلا تأويل باطل ، أي وراءه شك بالكتاب ، أو مما هم فيه من الاختلاف أن يكونوا على خطأ فلا طمأنينة قلب مع الباطل والضلال ﴿مَرِيبٍ﴾ أي بالغ في الريبة ﴿وَإِنْ كُنَّا﴾ من المحسنين والمسيئين أي من المختلفين ﴿لَمَّا لِيُوفِيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي إلا ليجزيهم ربك بعملهم إن خيراً فخير . وإن شراً فشر ، أي إلا ليوفيهم ربك جزاء أعمالهم من إيمان وجحود وحسن وقبح ﴿إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي عليم بأعمالهم جميعها ، جليلها وحقيقها ، صغيرها وكبيرها .

وهكذا علمتنا الآيات الأولى في هذا المقطع أن نجزم بضلال من يعبد غير الله ، وأن نجزم بسوء عاقبته ، كما علمتنا أن من كان من أهل الكتاب فقيه سنة ماضية ألا يستأصله

الله بعذاب ، ولكنه سبحانه على عمله ، ومن خلال العرض نفهم أن علينا أن لا نختلف في كتابنا ، وأن نتمسك بما فيه ، وأن نخضع للحق الذي أنزله ، فلا نتأول ولا نزل فنكون كاليهود .

وإذا استقرت هذه المعاني تأتي الآن مجموعة أوامر ونواهي :

١ - ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾ أي فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها غير عادل عنها ﴿ ومن تاب معك ﴾ أي وليستقم من تاب معك بأن رجع إلى الله مخلصاً .

٢ - ﴿ ولا تطغوا ﴾ أي ولا تخرجوا عن حدود الله ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ لا يغفل عن شيء ، ولا يخفى عليه شيء ، فهو مجازيكم فقفوا عند حدوده .

٣ - ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ أي لا تميلوا إليهم ، ولا ترضوا حالهم ، ولا تتعاونوا معهم على إثم ، ولا تلتحقوا بهم ﴿ فتصمكم النار ﴾ بسبب هذا الركون ﴿ وما لكم من دون الله من أولياء ﴾ يقدرّون على منعكم من عذابه ﴿ ثم لا تصرون ﴾ أفادت (ثم) هنا استبعاد النصرة أبداً ، فالنصرة من الله مستبعدة حال الركون ، أي ثم لا ينصركم هو لأنه حكم بتعذيبكم بسبب الركون .

٤ - ﴿ وأقم الصلاة طرقي النهار ﴾ أي : غلوة وعشية ، دخل في الطرف الأول الفجر ، والطرف الثاني الظهر والعصر ، لأن ما بعد الزوال عشي ﴿ ورزقاً من الليل ﴾ أي وساعات من الليل ، والزلف : جمع زلفة وهي ساعاته القريبة من آخر النهار ، دخل في ذلك المغرب والعشاء ﴿ إن الحسنات ﴾ مطلقاً ﴿ يذهبن السيئات ﴾ مطلقاً وأعظم الحسنات التي تذهب الذنوب الصلوات الخمس ، وفي الحديث : وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى هذه الأوامر ﴿ ذكرى للذاكرين ﴾ أي عظة للمتعتلين وفي قوله (للذاكرين) تصريح بأن الذي يتذكر هو من تحقق بصفة الذكر ، فكان ذاكراً .

﴿ واصبر ﴾ ختم هذه الأوامر والنواهي بالصبر لأنه لا يتم شيء من هذه الأوامر والنواهي إلا بالصبر ، فلا الاستقامة ، ولا الوقوف عند الحدود ، ولا عدم الركون للظالمين ، ولا إقامة الصلوات تكون إلا بالصبر . والمعنى : اصبر على امثال ما أمرت به والانتفاء عما نهيت عنه ، ثم بشر المطيعين والصابرين وسماهم محسنين فقال : ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ بل يثيبهم ويزيدهم ، وفي هذا إشارة إلى أن المحسنين هم من اجتمع لهم تنفيذ هذه الأوامر والنواهي .

وبعد هذه المجموعة من الأوامر والنواهي :

يأتي الآن حصص ونوجيه نحو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبيان حكمة الاختلاف وغير ذلك مما سنرى .

﴿ فلولاً ﴾ أي قبلاً ﴿ كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ﴾ أي أولوا فضل ، يقال : فلان من بقية القوم أي من خيارهم ، ومنه قولهم : في الزوايا خبايا ، وفي الرجال بقايا ﴿ ينهون عن الفساد في الأرض ﴾ بالنهي عن الكفر والمعاصي ﴿ إلا قليلاً من أنجيناً منهم ﴾ أي ولكن قليلاً من أنجيناً من القرون هـوا عن الفساد ، وسائرهم تاركون للنهي ، والنجاة للناجين وحدهم ﴿ والتابع الذين ظلموا ﴾ أي الكافرون والساكتون ﴿ ما أترفوا فيه ﴾ أي شهواتهم ، والمعنى : اتبعوا ما عرفوا فيه التمتع والترفة ، من حب الرياسة والثروة ، وطلب أسباب العيش الحنيء ، ورفضوا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ونبلوه وراء ظهورهم ﴿ وكانوا مجرمين ﴾ هذا هو وصفهم الذي يستحقونه الإجماع ، وهكذا عجب الله - عز وجل - ألا يوجد في القرون الماضية ، بقايا من أهل الخير ، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات ، والفساد في الأرض إلا قليلاً ، هم الذين أنجاهم الله - عز وجل - عند حلول غضبه ، وفجأة نقمته ، ثم بين الله عز وجل ستة في الإهلاك ، فأخبر أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها ، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط فقال : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ ولم يقل صالحين وإنما قال : مصلحون نزه ذاته تعالى عن الظلم ، وجعل من الظلم أن يهلك قرية وأهلها مصلحون ، ومن تتبع ما حل بالبلاد والقرى خلال العصور من عذاب فإنه يجد العذاب مرافقاً للفساد ، ثم بين حكمة الاختلاف ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ أي متفقين على الطاعات والإيمان عن اختيار ، ولكن لم يشأ ذلك ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ أي في الكفر وفي الإيمان ، ولكن شاء اختلافهم لعلمه بما سيختارونه ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ أي إلا المرحومين فهؤلاء متفقون على الحق ، فهؤلاء عصمهم الله عن الاختلاف ، فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ قال مالك : فريق في الجنة وفريق في السعير ، أي خلقهم للذي علم أنهم سيصيرون إليه من اختلاف أو اتفاق ، ولم يخلقهم لغير الذي علم أنهم سيصيرون إليه ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ وهي ﴿ لأملأن جهنم من الجحّة والناس أجمعين ﴾ (السجدة : ١٣) أخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره - لعلمه التام وحكمته النافذة - أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ،

وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس ، وله الحجة البالغة ، والحكمة التامة ، وهكذا حضرت هذه المجموعة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والإصلاح والإنفاق على الخير ، والاجتماع عليه والفرار من أسباب الهلاك في الدنيا والآخرة .
ثم ختمت السورة ببيان حكمة ما ورد فيها وبتوجيهات أخيرة .

﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أي وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أمهم ، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين ، وغذل أعداءه الكافرين ، كل هذا مما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ أي قلبك يا محمد ؛ ليكون لك بمن مضى من أخوانك من المرسلين أسوة ، ومعنى تثبيت فؤاده : زيادة يقينه لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ ﴾ أي السورة ﴿ الْحَقُّ ﴾ فليست خيالاً بل هي وقائع ثابتة ﴿ وَمَوْعِظَةٌ ﴾ يرتدع بها ﴿ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي وذكري يتذكر بها المؤمنون ، وبهذا ندرك مظهراً من مظاهر هذا الإعجاز في القرآن ، كيف أنه اجتمع فيه الحق والتذكير والوعظ ، ونادراً ما تجد هذه الأشياء مجتمعة إلا في كلام الله ، أو في كلام رسوله ﷺ ، أو من كان على قدم رسوله ﷺ ، إن هذا القرآن - الذي هو كلام الله - قد عرض الحق كله بأسلوب الوعظ والتذكير ، وفي ذلك وحده مظهر واضح الدلالة على أنه من عند الله ﴿ وَقُلْ ﴾ يا محمد ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بما جئت به من ربك على وجه التهديد ﴿ اَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي على طريقكم ومنهجكم ، وحالكم وجهتكم التي أنتم عليها ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ أي على طريقنا ومنهجنا ﴿ وَانْتَظِرُوا ﴾ أي بنا ما تنتظرون من الدوائر ﴿ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ أي أن ينزل بكم من الله ما وعد وأوعد ، وقد أنجز الله لرسوله ﷺ وعده ونصره وآيده ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، ومكن لرسول الله ﷺ . ثم ختمت السورة بقوله ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لا تخفى عليه خافية ، عالم غيب السموات والأرض ، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا ﴾ فله الخلق والأمر ، وإليه المرجع والمآب ، فلا بد أن يرجع إليه أمرهم وأمرك ، فيستقم لك منهم ، وإذا كان الشأن كذلك ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ أي فلتجتمع لك العبادة والتوكل ، وقرن العبادة بالتوكل دليل على ارتباطهما ببعضهما فمن لا توكل له لا يستقيم على العبادة . ومن توكل على الله كفاه ﴿ وَمَا يَرْغَبُ بِمِثْلِكَ ﴾ أنت وهم ، وسيجزيك ويجزيهم ، وسينصرك وحزبك في الدارين .

قال صاحب الظلال :

وهكذا نختم السورة بما بدئت به بالتوحيد في العبادة ، والتوبة والإنابة ، والرجعة إلى الله في نهاية المطاف . وذلك بعد طول التطواف في آفاق الكون ، وأغوار النفس ، وأطواء القرون . وهكذا يلتقي جمال التنسيق في البدء والختام ، والتناسق بين القصاص والسياق ، بكمال التوجيه والاتجاه في هذا القرآن . ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ .

كلمة في السياق :

بدأت سورة هود عليه السلام ببيان أن الحكمة من إنزال القرآن على ما هو عليه من أحكام وتفصيل : أن يعبد الله وحده ، ثم بينت السورة في مقاطعها اللاحقة أن الرسل جميعاً بعثوا في ذلك ، وأن أقوامهم عوقبوا بسبب من إعراضهم عن ذلك ، وبين المقطع الخامس أن سنة الله هذه مستمرة في تعذيب الكافرين في الدنيا والآخرة ، وإذا اتضح هذا الأمر فإن المقطع الأخير جاء ليؤكد استحقاق الذين لم يستجيبوا لدعوة رسول الله ﷺ للعذاب ، كما يحلرنا أن نكون كبنی إسرائيل في اختلافهم في الكتاب ، وههنا يأتي أمر بالاستقامة وإقام الصلاة ، وتأتي دعوة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونختم السورة بالأمر بالعبادة كما كان بدؤها بذلك .

فوائد :

١ - يلاحظ أن المقطع الأخير في السورة حوى من جملة ما حوى التوجيهات

التالية :

أ - الحزم بأن المشركين على ضلال ، والحزم بالعقوبة في حقهم .

ب - أن المختلفين من أهل الكتاب يمهئون فلا يستأصلون ، وحسابهم آت .

ج - وجوب الاستقامة ، والوقوف عند الحنود ، وعدم الميل للظالمين ، والركون إليهم ، وإقامة الصلاة ، ووجوب الصبر .

د - وجوب الإصلاح ، والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

هـ - الإقبال على الله بالعبادة والتوكل ، فإذا كانت هذه المعاني كلها قد جاءت في سياق السورة التي محورها العبادة ، عرفنا ارتباط هذه المعاني كلها بموضوع العبادة .

٢ - في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَلَّا لَمَا يُؤْفِكُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَاهُمْ ﴾ كلام كثير حول « لما » وقد اخترنا أنها هنا بمعنى « إلا » كهي في قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾ (الطارق : ٤) وقد طال كلام المفسرين حولها لكثرة القراءات فيها ، أما هي في قراءة حفص فلا تحتل غير ما ذكرنا .

٣ - من الأشياء التي يغفل المسلمون عنها كثيراً في عصرنا الموضوع الذي وَجَّهنا إليه قوله تعالى ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فْتُمْسِكُوا ثَنَارَ ﴾ ذكر النسفي عن الموفق أنه صلى خلف الإمام ، فلما قرأ هذه الآية غشي عليه ، فلما أفاق قيل له فقال : هذا فيمن ركن فكيف بالظالم ، وأفطع الظلم تعطيل كتاب الله ورفضه ، وتجد الكثيرين من المسلمين يركبون إلى من عطّل كتاب الله ورفضه ، ومن الظلم الاعتداء على عباد الله ، وكل أنواع الظلم لا يجوز الركون لأهلها ، بل تجب معاداتهم قال النسفي : (ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية هل يسقى شربة ماء ؟ فقال : لا . فقيل له يموت . فقال دعه يموت) ومن أعظم البلاء أن نرى أن أفطع أنواع الركون يقوم به بعض من يعتبرون - عند العامة - من علماء المسلمين . قال النسفي : وقال سفيان : في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك . وعن الأوزاعي : ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً ، أي أميراً ، فقد كانوا يسمون الأمير عاملاً . وهذا إذا كان العامل ظالماً .

٤ - عن الحسن قال : جعل الله الدين بين لاءين (ولا تطغوا ، ولا تركنوا) فانظر هذا الفقه العظيم لدين الله ، وانظر كيف يفهم العلماء الربانيون دين الله ، وإن أكثر ما يقع فيه الانحراف : الطغيان والركون . فإذا وجد الطاغية ووجد الركون إليه فقد عمّ البلاء وطمّ .

٥ - مما يعين على فهم قوله تعالى : ﴿ إِنْ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ الروايات التالية وقد ذكرها جميعاً ابن كثير نقلها عنه مع حذف الأسانيد ، واختيار أجمع الروايات .

أ - روى الإمام أحمد وأهل السنن عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال : كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعتني الله بما شاء أن ينفعني منه ، وإذا حدثني عنه أحد استحلقتة ، فإذا حلف لي صدقته . وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « مامن مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له » .

ب - وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ . وقال : « من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غُفر له ما تقدم من ذنبه » .

د - وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أرايتم لو أن بياض أحدكم نهرا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيئاً ؟ » قالوا : لا يا رسول الله ، قال : « كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا » .

هـ - روى مسلم في صحيحه ... عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن ، ما اجتنب الكبائر » .

و - وروى الإمام أحمد ... عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله ﷺ كان يقول : « إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة » .

ز - روى ابن جرير ... عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « جعلت الصلوات كفارات لما بينهن » فإن الله قال : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ ﴾ .

ح - روى البخاري ... عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة ، فأتى النبي ﷺ فأخبره ، فأنزل الله ﴿ وَاقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُكُفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُ السَّيِّئَاتِ ﴾ فقال الرجل : يا رسول الله ألي هذا ؟ قال : « لجميع أمتي كلهم » .

ط - روى الإمام أحمد ... عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا من أحب ، فمن أعطاه الدين فقد أحبه ، والذي نفسي بيده ، لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه » قال : قلنا : وما بوائقه يا نبي الله ؟ قال : « غشه وظلمه ، ولا يكسب عبد مالاً حراماً فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » .

ي - روى الإمام أحمد ... عن أبي عثمان قال : كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة ، فأخذ منها غصناً يابساً فهزه حتى نحات ورقه ثم قال : يا أبا عثمان ، ألا تسألني لم أفعل هذا ؟ ، قلت : ولم تفعله ؟ ، قال : هكذا فعل رسول الله ﷺ فقال : إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم صلى الصلوات الخمس تحاثت خطاياه كما يتحات هذا الورق . وقال : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ .

ك - روى الإمام أحمد ... عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن ﴾ .

ل - روى الإمام أحمد ... عن أبي ذر قال : يا رسول الله أوصني ، قال : « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها » قال : قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال : « هي أفضل الحسنات » .

م - روى الحافظ أبو يعلى الموصلي ... عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « ما قال عبد : لا إله إلا الله في ساعة من ليل أو نهار إلا طلست^(١) » ما في الصحيفة من السيئات حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات » .

ن - روى الحافظ أبو بكر البزار ... عن أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله ما تركت من حاجة ولا داجة^(٢) ، فقال رسول الله ﷺ : « تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ » قال : بلى . قال : « فإن هذا يأتي على ذلك » .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنحينا عنهم ﴾ ذكر ابن كثير الحديث : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمتهم الله بعقاب » نسأل الله أن يرزقنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن يرزقنا العفو والعافية وحسن الختام .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ نقول : إن هؤلاء هم الفرقة الناجية كما جاء في الحديث المروي في المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضاً « إن اليهود افرقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى افرقت على

(١) أي ماتت .

(٢) الداجة : هي ما كانت أقل شأنًا من الحاجة .

ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا فرقة واحدة » قالوا : ومن هم يارسول الله ؟ قال : « ماأنا عليه وأصحابي » . رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة .

وحتى الفرقة الناجية إذا حدث بغي وحسد فيما بين أبنائها حدثت فرقة . قال قتادة : أهل رحمة الله أهل الجماعة ، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبنائهم .

٨ - من الأسباب التى فهمناها من السورة ، أن عذاب الاستعصال يمكن أن يصيب الكافرين كما يمكن أن يصيب قرى فسدت ، ولم يبق فيها مصلحون ، ومما فهمناه من السورة أن المختلفين في الكتاب يمهلون :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ﴾ ومن ههنا نفهم سر بقاء فرق أهل الكتاب ، كما نفهم سر بقاء الفرقة الإسلامية الضالة وعدم استعصالها . فذلك جزء من السنن الإلهية .

كلمة أخيرة في سورة هود :

قلنا إن محور سورة هود من سورة البقرة ، هو قوله تعالى : ﴿ ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ وقد رأينا أن السورة في مقاطعها جميعاً فصلت موضوع العبادة وما يدخل فيها وما ينبثق عنها ، وما هي عاقبة أهلها وعاقبة المعرضين عنها ، وكل ذلك على نسق عجيب تلقي فيه البدايات بالنهايات وتنسجم الأواسط مع هذه البدايات والنهايات ، وكل ذلك يجري على نسق واحد مع الوحدة القرآنية الشاملة ، فتفصل سورة هود في محورها من سورة البقرة ، وفيما ينسجم مع تفصيل سورة يونس لمحورها من سورة البقرة كذلك .

جاء في سورة هود الدرس الأول ، وفيه تقرير معان ، ثم جاءت قصص توضح هذه المعاني ، ثم جاء درس الأخير وفيه تعقيبات وتوجيهات تنسجم مع الدرس الأول ومع قصص السورة .

يقول صاحب الظلال ذاكراً عالي الدرس الأخير من تعقيبات تنسجم مع مسرى السورة وسياقها : « والتعقيب الأول في هذا الدرس تعقيب مباشر على القصص :

﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذهم أليم شديد ﴾ .

والتعقيب الثاني يتخذ مما نزل بالقرى من عذاب موحياً بالخوف من عذاب الآخرة الذي يعرض في مشهد شاخص من مشاهد يوم القيامة : ﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما تؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقوا ففي النار هم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ .

يليه تعقيب آخر مستمد من عاقبة القرى ، ومن مشهد القيامة ، لتقرير أن المشركين الذين يواجههم محمد - ﷺ - شأنهم شأن من قبلهم في الخالين . وإذا كان عذاب الاستئصال لا يقع عليهم في الأرض ، فذلك لكلمة سبقت من ربك إلى أجل ، كما أجل العذاب لقوم موسى مع اختلافهم فيما جاءهم من كتاب . ولكن هؤلاء سيوفون أعمالهم على وجه التأكيد . فاستقم أيها الرسول على طريقك أنت ومن تاب معك ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا وأشركوا ، وأقم الصلاة واصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين : ﴿ فلاتك في مرة مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لوفوهم نصيبهم غير منقوص . ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب . فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تتصرون . وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

ثم عودة إلى القرون الخالية التي لم يكن فيها إلا قليل من الذين ينهون عن الفساد في الأرض . أما الكثرة فكانت ماضية فيما هي فيه ، فاستحقت الهلاك . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون : ﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنحينا عنهم ، واتباع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ .

وكشف عن سنة الله في كون الناس مختلفين في مناهجهم واتجاهاتهم . ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . ولكن إرادته اقتضت إعطاء البشر قدراً من الاختيار : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ .

وفي النهاية يسجل السياق غرضاً من أغراض هذا القصص هو تثبيت قواد النبي ﷺ ، ويؤمر الرسول أن يلقي للمشركين كلمته الأخيرة ، وبكلهم إلى ما ينتظرهم من غيب الله . وأن يعبد الله ويتوكل عليه ، ويدع له أخذ الناس بما يعملون : ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به قؤادك ، وجاءك في هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانظروا إنا منتظرون . والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله . فاعبدوه وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .

وبهذا ينتهي الكلام عن سورة هود عليه السلام ، وهذا أوان الشروع في تفسير سورة يوسف عليه السلام .

سورة يوسف

وهي السورة الثانية عشرة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثالثة من المجموعة الأولى من قسم
المئين ، وآياتها مائة وإحدى عشرة
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

نقل عن الألوسي في سورة يوسف عليه السلام :

قال الألوسي : (وسبب نزولها على ماروي عن سعد بن أبي وقاص أنه أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه على أصحابه زماناً فقالوا : يا رسول الله لو قصصت علينا فنزلت ، وقيل : هو تسلية الرسول ﷺ عما يفعله به قومه بما فعلت إخوة يوسف عليه السلام به ، وقيل : إن اليهود سألوه ﷺ أن يحدّثهم بأمر يعقوب وولده رشأن يوسف وما انتهى إليه فنزلت ، وقيل : إن كفار مكة أمرتهم اليهود أن يسألوا رسول الله ﷺ عن السبب الذي أحل بني إسرائيل بمصر فسألوه فنزلت . ويُبعد القولين الأخيرين - فيما زعموا - ما أخرجه البيهقي في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن خبراً من اليهود دخل على رسول الله ﷺ فوافقه وهو يقرأ سورة يوسف فقال : يا محمد من علمكها ؟ قال : الله علمها ، فمعجب الخبر لما سمع منه فرجع إلى اليهود فقال لهم : والله إن محمداً ليقرأ القرآن ، كما أنزل في التوراة ، فانطلق بنفر منهم حتى دخلوا عليه فعرفوه بالصفة ونظروا إلى خاتم النبوة بين كتفيه فجعلوا يستمعون إلى قراءة سورة يوسف فتعجبوا وأسلموا عند ذلك ، وفي القلب من صحة الخبر ما فيه ، ووجه مناسبتها للتي قبلها اشتغالها على شرح ما قاساه بعض الأنبياء عليهم السلام من الأقارب ، وفي الأولى ذكر ما لقوا من الأجانب ، وأيضاً قد وقع فيما قبل ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ﴾ ووقع هنا حال يعقوب مع أولاده ، وما صارت إليه عاقبة أمرهم مما هو أقوى شاهد على الرحمة ، وقد جاء عن ابن عباس . وجابر بن زيد أن يونس نزلت . ثم هود . ثم يوسف ، وعد هذا وجهاً آخر من وجوه المناسبة) .

كلمة في سورة يوسف ومحورها :

تبدأ سورة يوسف بقوله تعالى : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ۝ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ... ﴾ .

وتنتهي سورة يوسف بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

تأمل هذه البداية والنهاية وتذكر : أن سورة يونس جاءت مفصلة للآية الأولى في

البقرة : ﴿ اَلَمْ ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيْهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِيْنَ ﴾ .

وأن سورة هود مفصلة لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ ﴾ .

وسرى أن سورة الرعد تأتي مفصلة لقوله تعالى : ﴿ إِنْ اِلٰهَ اِلٰهٌ اِلَّا اِلٰهُ اَحَدٌ يَّسْتَحْيِ اَن يَضْرِبَ مِثْلًا مَّا بَعُوْضُهُ فَمَا فَوْقَهَا ... ﴾ .

فانفروض على حسب نظريتنا التي مشينا عليها أن يكون محور سورة يوسف ما بين قوله تعالى في البقرة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنْ اِلٰهَ اِلٰهُ اِلَّا اِلٰهُ اَحَدٌ يَّسْتَحْيِ اَن يَضْرِبَ مِثْلًا مَّا بَعُوْضُهُ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ .

وأول آية تصادفنا بعد قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ ﴾ الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً ... ﴾ هي : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ وإذا تأملنا مقدمة سورة يوسف ونهايتها ، أفر كنا أن محور السورة هو هذا . فسورة يوسف تبدأ بتقرير أن منزل الكتاب على محمد ﷺ هو الله ، وأن محمداً ﷺ قبل أن ينزل عليه هذا القرآن كان من الغافلين ، وتختتم السورة بنفي أن يكون هذا القرآن مفترى من دون الله ، وما بين ذلك تأتي قصة يوسف عليه السلام ، بتفصيل وترتيب عجيبين ليكون ذكرها في هذا المقام دليلاً على أن هذا القرآن من عند الله ، وعلى أنه لا يرق إليه ريب ولا شك ، وأنه لا يكون إلا من عند الله بما حواه من تفصيل لكل شيء وهداية ورحمة .

وإذن فسورة يوسف فيها الدليل على : أن منزل هذا القرآن هو الله ، وأن هذا القرآن لا يمكن أن يكون مكتوباً على الله ، وأن ذكر قصة يوسف على مثل هذا البيان والتفصيل والكمال والعظمة والصدق والدقة والبلاغة في اللفظ والأسلوب والعرض وبما يصدق ما في الكتب السماوية السابقة ، كل ذلك دليل على أن مثل هذا الكمال لا يصدر إلا عن المحيط علماً بكل شيء وهو الله حل شأنه .

إن محور سورة يوسف هو قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اِلٰهِ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ ﴾ . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ إن السورة تؤكد أن هذا القرآن تنزيل من الله على قلب محمد ﷺ وتقيم الدليل على ذلك بما حوته من إعجاز .

لقد ختمت سورة يوسف بقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . فهذا الختام يوحي أن سورة يوسف علامة ونموذج على هذا التصديق ، وعلى هذا التفصيل ...

ومن تأمل ما وصلنا من الكتب السابقة ، وجد دليل هذا التفصيل والتصديق ، ولو أن الكتب السابقة وصلتنا بلا تحريف ولا تبديل ، لكننا أقدر على التدليل ، ولكن إذا كان إرميا من عهده يتحدث عن أقلام النساخ الكاذبة ، فماذا نقول نحن ؟!

ومع كل التحريف والتبديل فإننا نجد مع ذلك كيف أن هذا القرآن تفصيل لكل شيء وتصديق الذي بين يديه . ولنضرب مثلاً على التفصيل :

نلاحظ مثلاً أن أسفار موسى عليه السلام الخمسة ، والتي يسميها بعضهم التوراة ، والتي تؤكد أنها ليست التوراة ، وإنما التوراة جزء منها مع التحريف والتبديل كما أثبتنا ذلك أثناء الكلام عن سورة الأعراف - هذه الأسفار الخمسة تكاد تكون موجودة في القرآن ، وهي جزء من المعاني الموجودة فيه .

فسفر التكوين مثلاً ، والذي يتألف من قصة آدم ، ثم قصة نوح ، ثم قصة إبراهيم ، ثم قصة يعقوب ويوسف ، نجده كله تقريباً في القرآن ، ما عدا حشواً لا يترتب عليه فائدة ، أو كذباً مختلفاً كما سنرى . وسفر الخروج مثلاً يكاد يكون محتوي في سورة الأعراف وغيرها . وسفر العدد يكاد يكون محتوي في سورة الأعراف ، وسورة المائدة ، وسفر اللاويين وسفر الشية نجدهما مبثوثين في القرآن في أمكنة متفرقة . وإذا تأملت ما في الزبور من معان ، وما في الإنجيل من قصص ومعان ، وأخبار الرسل ، وتاريخ بني إسرائيل ، نجده كله يكاد يكون موجوداً في القرآن ، حتى إن قارئ القرآن ، وقارئ كتب العهد القديم والجديد ، يكاد لا يستغرب ما يقرأ ، فإذا كان هذا بعض ما في هذا القرآن أدركنا راحة من رشايات كون هذا القرآن ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ .

وأما كون هذا القرآن ﴿ وتصديق الذي بين يديه ﴾ فإنك نجد أن كثيراً مما تعرض له القرآن موجودة أصوله في الكتب السابقة ، ولو أن هذه الكتب قد وصلتنا كما أنزلت لرأينا المطابقة الكاملة ، ولكن هذه الكتب حُرِّفت وبُذلت . ولنضرب مثلاً على التحريف والتبديل الذي يراه القارئ بوضوح في سفر التكوين ، الذي ذكر فيه قصة يوسف وإخوته .

نجد مثلاً في الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين كلاماً عن سارة ، وشيخوختها ، بينما نجد في الإصحاح العشرين أنها من الجمال بحيث تكون محل طمع الملوك . وفي الإصحاح الحادي والعشرين : كلام عن هاجر وإسماعيل ، وأن إبراهيم طرحهما في بركة بئر السبع ، مع أن البداهة التاريخية تحكم أن العرب المستعربة من نسل إسماعيل ، وقريش من نسل إسماعيل ، والعرب أعرف الخلق بأنسابها ، ولم تزل قصة زمزم والحرم متوارثة عند العرب ، فأني تحريف مثل هذا التحريف ! .

وفي الإصحاح الثاني والعشرين دعوى أن الذبيح إسحاق مع أن الإصحاح يقول « خذ ابنك وحيدك ، فكيف يكون الذبيح إسحاق وهو ليس الإبن الوحيد لإبراهيم بنص التوراة نفسها .

ونلاحظ أيضاً أن التوراة الحالية تذكر أكثر من تعليل لسمية بئر السبع ففي كل مرة يذكر سبب يختلف عن الآخر للتسمية ، وهذا يدل على التناقض .

وكثير من الإصحاحات تنسب الرزا للأنبياء بالبنات وغيرهن .

وفي الإصحاح الخامس والثلاثين نجد العبارة التقليدية التي تدل على أن كتابة هذه الأسفار كانت متأخرة جداً وهي عبارة « إلى اليوم » .

كما نلاحظ في هذا الإصحاح أنه يذكر أن رأوبين بن يعقوب زنى بسريرة أبيه وفي الإصحاح الثامن والثلاثين أن يهوذا زنى بكنته ، وأمثال هذا السخف كثير كل هذا وأمثاله مما أشرنا إلى بعضه أثناء الكلام عن سورة الأعراف يرينا مقدار التحريف الذي حدث في هذه الأسفار ، ومن ثم كان القرآن مصدقاً بالجملة لما بين يديه مما نراه الآن ، ولو كان التحريف لم يطرأ لرأينا التصديق التفصيلي مع التصديق الإجمالي :

وإذا كانت التوراة الحالية قد كُتبت في عصور متأخرة جداً - كما تشهد نصوصها - وأعظم ما يشهد لذلك ما نقلناه من قبل ، وهو ما ورد في آخر سفر التثنية في الإصحاح الرابع والثلاثين عن موث موسى ، ودفن في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم .

فهذا يدل على أن الأسفار ليست التوراة بل فيها بعض التوراة ويدل على أن هذه الأسفار الخمسة كُتبت بعد آماد متطاولة جداً .

ومن ثم نجد التخاليف ، والتحريف ، والتعديل ، والنقص ، والإسفاف ، ونعلم فضل الله على هذه الأمة إذ جعل قرآنها محفوظاً بحفظه ، ونعلم أن القيمة التاريخية للروايات السابقة لاتساوي شيئاً ، ومن ثم نرى أن النقل عن هذه الكتب يعطيها اعتباراً لا تستحقه لطبائنة أهلها فيها ، وتفصيلهم في حفظها ، ولولا أن رسولنا عليه الصلاة والسلام سمح لنا أن نحدث عن بني إسرائيل ما نقلنا ، وبمناسبة الكلام عن قصة يوسف عليه السلام نقول : إن قصة يوسف في سفر التكوين تمتد من الإصحاح السابع والثلاثين ، إلى نهاية الإصحاح الخمسين ، تستوعب حوالي (٢٤) صفحة مكتوبة بحروف صغيرة ، وكثافة سطور ، ولكن شتان بين الموجود في القرآن والموجود هناك ، إن في الأسلوب ، أو العرض ، أو البلاغة ، أو الإحاطة والشمول ، أو في ذكر التفاصيل التي تحتاجها العبرة ، ونفي الحشو الذي لا يترتب عليه شيء ، هذا مع الاختصار ، وفوق كل هذا فهذه رواية الله لهذه القصة لم تشب ولم تخالط ، وتلك رواية الخونة والكاذبين والمحرفين ، وكثيراً ما نقل المفسرون المسلمون عن التوراة في تفسير سورة يوسف على ما فيها ، ونحن سنسير على سنتهم فننقل في الحدود التي فصلت معنى ذكره القرآن ، ولا نلتفت إلى ماسوى ذلك ، وحتى هذا الذي ننقله نجب أن نذكر في شأنه أننا لا نذكره إلا لمجرد الاستئناس ، ومن تلوق طعم الحق في هذا القرآن عرف نوع طعم ما سواه ، وإذا جرتنا الكلام إلى هذه النقطة ننقل ما ذكره ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ في هذه السورة لمناسبتة هذا المقام مع حذف الأسانيد وترك المكرر قال :

(ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة ، المشتعلة على مدح القرآن ، وأنه كافٍ عن كل ما سواه من الكتب ، ما رواه الإمام أحمد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله : أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبي ﷺ قال : فغضب ، وقال « أمتوكون (١) فيها يا ابن الخطاب ؟ » والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني » وروى أيضاً ... عن الشعبي عن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة ، فكتب لي جوامع من التوراة ، ألا أعرضها

(١) اليهود : هو النحير .

عليك ؟ قال : فتغير وجه رسول الله ﷺ ، قال عبدالله بن ثابت : فقلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، قال : فسرى عن النبي ﷺ وقال : « والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه لضللتهم ، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين » . وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي ... عن خالد بن عرفة قال : كنت جالساً عند عمر إذ أتني برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس (١) ، فقال له عمر : أنت فلان بن فلان العبدى ؟ قال : نعم . قال : وأنت النازل بالسوس ؟ قال : نعم ، فضربه بقناة معه ، قال : فقال الرجل : ما لي يا أمير المؤمنين ؟ فقال له عمر : اجلس ، فجلس فقرأ عليه : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ألر تلك آيات الكتاب المبين ۝ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ۝ نحن نقص عليك أحسن القصص ... ﴾ إلى قوله تعالى .. ﴿ لمن الغافلين ﴾ فقرأها عليه ثلاثاً وضربه ثلاثاً فقال له الرجل : ما لي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أنت الذي نسخت كتاب دانيال ، قال : مرني بأمرك أتبعه ، قال : انطلق فاحمه ، بالحميم (٢) والصوف الأبيض ، ثم لا تقرأه ولا تقرأه أحداً من الناس ، فكن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأنهلكك عقوبة ، ثم قال : اجلس ، فجلس بين يديه ، فقال : انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ثم جئت به في أديم فقال لي رسول الله ﷺ : « ما هذا في يديك يا عمر ؟ » قال : قلت : يا رسول الله كتاب نسخته ليزداد به علماً إلى علمنا ، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه ، ثم نودي بالصلاة جامعة ، فقالت الأنصار : أغضب نبيكم ﷺ ، السلاح السلاح ، فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ ، فقال : « يا أيها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه . واختصر لي اختصاراً ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية ، فلا تتهوكوا ولا يغرركم المتهوكون » فقال عمر : فقامت ، فقلت : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبك رسولاً ، ثم نزل رسول الله ﷺ ، وقد روى الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي ... عن سليم بن عامر أن جبير بن نفيّر حدثهم أن رجلين كانا يحمص في خلافة عمر رضي الله عنه ، فأرسل إليهما فيمن أرسل من أهل حمص ، وكانا قد اكتبا من اليهود صلاصة (٣) ، فأخذاها معهما يستفتيان فيها أمير المؤمنين . يقولان : إن

(١) السوس : بلدة بخوزستان دانيال .

(٢) الحميم : هو الماء الساخن .

(٣) أي : صُحُفاً .

رضيها لنا أمير المؤمنين ازدادنا فيها رغبة ، وإن نهانا عنها رفضناها ، فلما قلما عليه قالوا :
 إنا بأرض أهل الكتاب ، وإنا نسمع منهم كلاماً تقشع منه جلودنا ، أفناخذ منه أو
 نترك ؟ فقال : لعلكما كتبنا منه شيئاً ، فقالا : لا ، قال : سأحدثكما : أنطلقت في
 حياة النبي ﷺ حتى أتيت خير ، فوجدت يهودياً يقول قولاً أعجبنى ، فقلت : هل
 أنت مكشي مما تقول ؟ قال : نعم . فأتيت بأديم ، فأخذ يملئ عليّ حتى كتبت في
 الأكرع^(١) ، فلما رجعت قلت : يأتي الله ، وأخبرته ، قال : اتني به ، فأنطلقت
 أرغب عن المشي رجاء أن أكون جئت رسول الله ببعض ما يحب ، فلما أتيت به قال :
 « اجلس اقرأ عليّ » فقرأت ساعة ، ثم نظرت إلى وجه رسول الله ﷺ فإذا هو يتلون ،
 فتحيّرت من الفرق ، فما استطعت أن أجز من حرفاً ، فلما رأى الذي بي رفعه ثم جعل
 يتبعه رسماً رسماً فيمحوه بريقه وهو يقول : « لا تتبعوا هؤلاء فإنهم قد هوكوا وشهوكوا »
 حتى بما آخره حرفاً حرفاً . قال عمر رضي الله عنه : فلو علمت أنكما كتبنا منه شيئاً
 جعلنكما نكالا لهذه الأمة ، قالوا : والله ما نكتب منه شيئاً أبداً ، فخرجنا
 بصلاصفتها ، فحفروا لها فلم يأثروا أن يعمقوا ، ودفنوها ، فكان آخر العهد منها . وهكذا
 روى الثوري ... عن عبدالله بن ثابت الأنصاري عن عمر بن الخطاب بنحوه . وروى
 أبو داود في المراسيل ... عن عمر بن الخطاب بنحوه . والله أعلم .

قلنا هذه النقول بين يدي سورة يوسف عليه السلام ، ليعلم أن ما سنتقله أثناء
 تفسيرها ليس من أجل أن نستهدي فيه ، بل إما لردّه مقيمين الحجة على أهله ، أو
 لنستأنس حيث استأنس العلماء في قضية يحتملها النص القرآني ، أو لنقارن .

.....

تألف سورة يوسف عليه السلام من مقدمة ، وقصة وخاتمة ، والقصة نفسها تتألف
 من مشاهد فلتبدأ عرض المقدمة .

(١) الأكرع : جمع كراع وهو مادي من عظم الساق .

مقدمة سورة يوسف عليه السلام

وهي ثلاث آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْأَرْثُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

التفسير :

﴿الْأَرْثُ﴾ هي هنا تؤدي ما يؤديه أمثالها من إشارة إلى الإعجاز ، ومن إشارة إلى مفاتيح الوحدة القرآنية ، ومن إشارة إلى جرس السورة ، إلى غير ذلك ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ أي هذه آيات الكتاب وهو القرآن الذي من خصائصه أنه واضح جلي ، يفصح عن كل الأشياء بغاية البيان فيفسرها ويبيّنها . والإشارة في تلك إلى آيات هذه السورة الظاهر أمرها في الإعجاز ، والتي تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر ﴿إنا أنزلناه﴾ أي أنزلنا هذا القرآن ﴿قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون﴾ أي لكي تفهموا معانيه ، وتعملوا ، وتحققوا . فتكونوا عقلاء حقاً . والمثمة بنزول القرآن على العرب واضحة لما في ذلك من تشریف للعرب والعربية ، والمثمة على العالم بنزول هذا القرآن بهذه اللغة . لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها ، وأكثرها نأدية للمعاني فهي أشرف اللغات ، كما أن القرآن أشرف الكتب ، كما أن محمداً ﷺ أشرف الرسل ، وقد نزل القرآن في أشرف البقاع ، بسفارة أشرف الملائكة ، وايندبىء إنزاله في أشرف شهور السنة : وهو رمضان . فأكمل من كل الوجوه . ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ القاص : هو الذي يأتي بالقصة على حقيقتها . والقصص إما بمعنى

المقصود ، أو بمعنى الاختصاص واشتقاق القصص من قص أثره إذا اتبعه ، لأن الذي يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً ، وعلى أن معنى القصص : الاختصاص ، يكون المعنى : نحن نقص عليك أحسن الاختصاص ، والمقصود يدل عليه ما بعده . والمراد بأحسن الاختصاص أنه اقتصر على أمدع طريقة وأعجب أسلوب ، فإنك لا ترى اختصاصة في كتب الأولين مقارباً لاختصاصه في القرآن ، وعلى أن معنى القصص المقصود يكون المعنى : نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث . وإنما كان أحسن لما يتضمن من العبر والحكم والعجائب ، عدا عن كونه حقاً وواقعياً ﴿ بما أوحينا إليك ﴾ أي بإحساننا إليك ﴿ هذا القرآن وإن كنت من قبله ﴾ أي من قبل الوحي ﴿ لمن الغافلين ﴾ يعني وإن الشأن والحديث إنك كنت من قبل إحيائنا إليك هذا القرآن من الجاهلين به .

فوائد :

١ - من الأسباب التي تجعل القصص القرآني أحسن القصص أن غيره إما واقعي ، أو خيالي . فإن كان خيالياً فإنه لا يصلح أن يكون هادياً ولا موجهاً ، ولا يصلح أن يكون ميزاناً يوضع فيه كل شيء في محله ، من عواطف ، وعقلايات ، وغير ذلك ، وإن كان واقعياً فقد يغيب بعضه أو يزداد عليه ، أو لا يكون مقتطفاً للموضوع بما يشمل الزمان والمكان ، والغيب والشهادة ، والدنيا والآخرة . أما القصة القرآنية فنجدناها قد استكملت ما لم يستكمل في غيرها ، هذا مع كونها جاءت بأبلغ عبارة ، وأعظم أسلوب وأوجز عرض ، هذا مع أنك تجد في كل آية من المعاني والتوجيهات والهداية مالا يحيط به إلا الله الذي أنزله .

٢ - في قوله تعالى : ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ دليل على أن التذكير الكامل لا يكون إلا بهذا القرآن ، فإذا كان رسول الله ﷺ وهو أكمل الخلق فطرة ، وأصفاهم قلباً ، وأعظمهم عقلاً . كان من قبل القرآن غافلاً ، فما بال غيره ! فلا تذكر إلا بهذا القرآن . وبهذا الوحي . وكل طريق آخر للتذكير طريق قاصر ، ومن مظاهر الكمال في تذكير القرآن أنه يذكر بالغيب والشهادة في شؤون الدنيا والآخرة ، بما يسع الخلق ، ويدل على الخالق بما يسع النفس والعقل والقلب والروح ...

٣ - ورد في أسباب نزول قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ... ﴾ أكثر من رواية ذكرها ابن كثير وهذه هي مع حذف

الأسانيد : روى ابن جرير عن ابن عباس قال : قالوا : يا رسول الله لو قصصت علينا ؟ فنزلت : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ وروى أيضاً ... عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : أنزل على النبي ﷺ القرآن قال : فتلاه عليهم زماناً ، فقالوا : يا رسول الله لو قصصت علينا ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ ألر تلك آيات الكتاب المبين ﴾ إلى قوله ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ثم تلاه عليهم زماناً ، فقالوا : يا رسول الله لو حدثتنا ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ الآية . وذكر الحديث . ورواه الحاكم أيضاً .

وروى ابن جرير بسنده عن المسعودي عن عون بن عبد الله قال : مل أصحاب رسول الله ﷺ ملة ، فقالوا : يا رسول الله حدثنا . فأنزل ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ ثم ملوا ملة أخرى ، فقالوا : يا رسول الله ، حدثنا فوق الحديث ، ودون القرآن - يعنون القصص - فأنزل الله عز وجل ﴿ ألر تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ الآية ، فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث ، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص .

كلمة في السياق :

رأينا أن محور سورة يوسف هو قوله تعالى في سورة البقرة :

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ .

ونلاحظ أن المقدمة ذكرت أن الله عز وجل يقص في هذا القرآن أحسن القصص ، وكيف أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان قبل الوحي غافلاً ، فلم يكن متعلماً ولا مقبلاً على التعلم ، وقد وصف القرآن في هذه المقدمة بالبيان ، فأن يكون كتاب هذا شأنه في مثل هذا البيان ، وفي مثل هذا الحسن ، وفي اختيار القصة الهادفة ، وأن يكون منزلاً على مثل محمد ﷺ في أميته ، وعدم تعلمه ، إن هذا كله لا يمكن أن يكون ، لولا أن هذا القرآن من عند الله ، فالسورة إذن تعالج موضوع الريب والشك بشكل يختلف عما عاجته سور أخرى ، فإذا اتضح هذا فلتنتقل إلى عرض مشاهد قصة يوسف عليه السلام :

☆ ☆ ☆

المشهد الأول

ويمتد من الآية (٤) إلى نهاية الآية (٦) وهذا هو :

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١﴾ قَالَ يَبْنِي لَاتَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ
كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ
تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ
مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٣﴾

التفسير :

﴿ إِذْ قَالَ يَوْسُفُ لِأَبِيهِ ﴾ أي اذكر يا محمد قصة يوسف إذ قال لأبيه . وأبوه هو
يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام جميعاً ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ ﴾ من الرؤيا وهي
المنام لا الرؤية ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ الشمس
والقمر هما أبواه ، والأحد عشر كوكباً إخوته . هذا هو تأويله الذي سنراه في آخر
السورة . وقد فهم يعقوب الرؤيا التي يشير تعبیرها إلى خضوع إخوته له ، وتعظيمهم
إياه تعظيماً زائداً ، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً ، فخشي يعقوب
عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك فيبغضوه له الفوائل
حسداً منهم له . ولهذا قال له ﴿ قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ
كَيْدًا ﴾ أي فيحتالوا لك حيلة يهلكونك فيها ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ أي
ظاهر العداوة ، فيحملهم الشيطان على الحسد والكيد . ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي ومثل ذلك
الاجتناء الذي دلت عليه رؤياك ﴿ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أي يختارك وبصطفيك لنبوته
﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أي تعبیر الرؤيا وتفسيرها ، أو تأويل أحاديث
الأنبياء ، والأول أقوى ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أي يارسالك ، والإيحاء إليك ،
وإدخالك الجنة . ﴿ وَهَلَىٰ آلَ يَعْقُوبَ ﴾ أي أهل يعقوب وهم نسله ، وإتمام نعمته
عليهم بأن يصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ ﴾
وهو الخليل ﴿ وَإِسْحَاقَ ﴾ ابن إبراهيم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ يعلم من يحق له الاجتناء
﴿ حَكِيمٌ ﴾ يضع الأشياء مواضعها .

فوائد :

١ - بمناسبة رؤيا يوسف عليه السلام يذكر بعض المفسرين حديثاً في أسماء هذه الكواكب ، وهو حديث مردود من حيث السند .

٢ - ومن وصية يعقوب لابنه يوسف عليه السلام بعد أن قص عليه الرؤيا . أخذ ابن كثير هذا الأدب . قال ابن كثير : ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر كما ورد في حديث « استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها فإن كل ذي نعمة محسود » .

٣ - يلاحظ أن التوراة الحالية المخرفة تذكر أن أم يوسف ماتت يوم ولدت بنيامين ، ومن ثم فإن من سيسجد له لن تكون أمه المباشرة بل هي زوجة أبيه ، وهذا أحد اتجاهين عند المفسرين .

٤ - بمناسبة ذكر رؤيا يوسف عليه السلام يذكر ابن كثير حديثين متعلقين في موضوع الرؤيا . قال : ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به ، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر ، وليتفل عن يساره ثلاثاً ، وليستعذ بالله من شرها ، ولا يحدث بها أحداً ، فإنها لن تضره » وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن من رواية معاوية بن حيدة القشيري أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبر ، فإذا عُبرت وقعت » .

٥ - روى الإمام أحمد عن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » ورواه البخاري كذلك . وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فأكرم الناس يوسف » نسي الله ابن نسي الله ابن نسي الله ابن خليل الله « قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فمن معادن العرب تسألوني ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » .

٦ - يلاحظ أن الأب قد أطلق على الجد وجد الجد في قوله تعالى : ﴿ وَ عَلَى آبَائِكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ .

٧ - قصة يوسف أصل أصيل في فهم موضوع الرؤى ، وللرؤى في حياة البشرية

أهمية كثيرة ، والرؤيا الصادقة هي البقية الباقية من معاني النبوة ، لأن الرؤيا في حق الأنبياء وحي قال ابن عباس : (رؤيا الأنبياء وحي) .

٨ - في الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين قصة رؤيا يوسف وهذه هي :
(ثم حلم أيضاً حلماً آخر وقصته على إخوته ، فقال : إني حلمت حلماً أيضاً ، وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي وقصته على أبيه ، وعلى إخوته . فأنشده أبوه ، وقال له : ما هذا الحلم الذي حلمت به ، هل نأتي أنا وأملك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض . فحسده إخوته ، وأما أبوه فحفظ الأمر) هذا كل ما ذكر حول قصة الرؤيا على أبيه ، ومن ثم نجد أن القرآن صدق ما قبله إجمالاً ، وقد فصل القرآن ما لم يفصله النص التوراتي المنقول إلينا .

وبمناسبة الكلام عن رؤيا يوسف قال صاحب الظلال : (وهذه المناسبة نذكر كلمة عن الرؤى والأحلام ، وهي موضوع هذه القصة وهذه السورة . إننا ملزمون بالاعتقاد بأن بعض الرؤى تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد .

ملزمون بهذا أولاً من ناحية ما ورد في هذه السورة من وقوع مصداق رؤيا يوسف ، ورؤيا صاحبه في السجن ، ورؤيا الملك في مصر . وثانياً من ناحية ما نراه في حياتنا الشخصية من تحقيق رؤى تنبؤية في حالات متكررة بشكل يصعب نفى وجوده .. لأنه موجود بالفعل .

والسبب الأول يكفي .. ولكننا ذكرنا السبب الثاني لأنه حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها إلا بتعنت .

فما هي طبيعة الرؤيا ؟ .

نقول مدرسة التحليل النفسي : إنها صور من الرغبات المكبوتة تنفخ بها الأحلام في غياب الوعي . وهذا يمثل جانباً من الأحلام . ولكنه لا يمثلها كلها . (وفرويد) ذاته - على كل تحكمه غير العلمي وتمحله في نظريته - يقرر أن هناك أحلاماً تنبؤية .

فما طبيعة هذه الأحلام التنبؤية ؟ .

وقبل كل شيء نقرر أن معرفة طبيعتها أو عدم معرفته لاعلاقة له بإثبات وجودها وصدق بعضها . إنما نحن نحاول فقط أن ندرك بعض خصائص هذا المخلوق البشري العجيب ، وبعض سنن الله في هذا الوجود .

ونحن نتصور طبيعة هذه الرؤيا على هذا النحو .. إن حواجز الزمان والمكان هي التي تحول بين هذا المخلوق البشري وبين رؤية ما نسميه الماضي أو المستقبل ، أو الحاضر المحجوب . وإن ما نسميه ماضياً أو مستقبلاً إنما يحجبه عنا عامل الزمان ، كما يحجب الحاضر البعيد عنا عامل المكان . وإن حاسة ما في الإنسان لانعرف عنها تستيقظ أو تقوى في بعض الأحيان ، فتغلب على حواجز الزمان وترى ما وراءه في صورة مبهمه ، ليست علماً ولكنها استشفاف ، كالذي يقع في اليقظة لبعض الناس ، وفي الرؤى لبعضهم ، فتغلب على حواجز المكان أو حواجز الزمان ، أو هما معاً في بعض الأحيان . وإن كنا في نفس الوقت لا نعلم شيئاً عن حقيقة الزمان . كما أن حقيقة المكان ذاتها - وهي ما يسمى بالمادة - ليست معلومة لنا على وجه التحقيق : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ . وأستطيع أن أكذب كل شيء قبل أن أكذب حادثاً وقع لي ، وأنا في أمريكا وأهلي في القاهرة . وقد رأيت فيما يرى النائم ابن أخت لي شاباً وفي عينه دم يحجبها عن الرؤية . فكتبت إلى أهلي أستفسر عن عينه بالذات . فجاءني الرد بأن عينه قد أصيبت بنزيف داخلي وأنه يعالج .. ويلاحظ أن النزيف الداخلي لا يرى من الخارج ، فقد كان منظر عينه لمن يراها بالعين المجردة منظراً عادياً . ولكنها كانت محجوبة عن الإبصار بالنزف الداخلي في قاعها . أما الرؤيا فقد كشفت عن هذا الدم المحجوب في الداخل . ولا أذكر غير هذه لأنها وحدها تكفي .)

ولنتقل إلى المشهد الثاني في القصة :

☆ ☆ ☆ المشهد الثاني

ويمتد من الآية (٧) إلى نهاية الآية (٢٠) وهذا هو :

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِلَّاسِّاطِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالَ الْيُوسُفُ لِأَخِيهِ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَمَا مَنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَحُلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ أَخِيهِ يَلْتَفِتُهُ بَعْضُ

السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَبْنَابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ
وَإِنَّا لَهُ لَنَنصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾
قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾
قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا نَلَحِسُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا
أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْحَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنْبِتَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَآبَاؤُهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَبْنَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ
عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكُلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ وَعَلَى
فَرْصِهِ يَبْرُ كَذِبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ
الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتِ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ
قَالَ يَا بَشْرَى هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ ١٠ ١٩ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ
يَخْسِ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢١﴾

التفسير :

﴿ لقد كان في يوسف وإخوته ﴾ أي في قصتهم وحديثهم ﴿ آيات للساقلين ﴾ أي علامات ودلالات على قدرة الله وحكمته في كل شيء ، وعبرة ومواعظ لمن سأل عن قصتهم واستخبر عنها ، فإنها خير عجيب يستحق أن يخبر عنه . وفي ورود هذه القصة في القرآن آيات على نبوة محمد ﷺ ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله ، إذ تلاها محمد ﷺ على الخلق دون أن يسمعها من أحد ، ودون أن يتلو كتاباً ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه ﴾ بنيامين ، وهو أخوه الشقيق من أمهما راحيل ﴿ أحب إلى أبينا منا ونحن

عصبة ﴿ أي جماعة فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة والمعنى : أنه يفضلهما في المحبة علينا وهما صغيران لا كفاية فيهما ونحن عشرة رجال كفاة نقوم بمرافقته ، فنحن أحق بزيادة المحبة منهما ، لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما ﴾ ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ أي في غلط في تدبير أمر الدنيا ، إذ لو وصفوه بالضلالة في الدين لكفروا ، وخطوئه عندهم أن قدم يوسف وأخاه عليهم وأحبهما أكثر ﴾ ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم ﴾ أي أرضاً مجهولة بعيدة عن العمران ، يقولون : هذا الذي يراحمكم في محبة أبيكم لكم ، أعدموه من وجه أبيكم ليخلو لكم وحدكم . إما بأن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحون منه وتخلون أنتم بأبيكم . ومعنى يخل لكم وجه أبيكم : أي يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم ، والمراد سلامة محبة لهم ممن يشاركونهم فيها ﴾ ﴿ وتكونوا من بعده ﴾ أي من بعد يوسف أي من بعد كفايته بالقتل أو التغريب . أو من بعد قتله أو طرحه ﴾ ﴿ قوموا صالحين ﴾ أي تائبين إلى الله مما جنيت عليه ، أضمروا التوبة قبل الذنب . أو المعنى : أو يصلح حالكم عند أبيكم ومعه ﴾ ﴿ قال قائل منهم ﴾ أجمله لأنه لا فائدة من تعيينه ﴾ ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ أي لا اتصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله ، صرفهم الله عن قتله لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إفضائه وإتمامه من الإبقاء إليه بالنوبة . ومن التحكين له في مصر ﴾ ﴿ وألقوه في غيابة الجب ﴾ أي في مقر البئر ، وما غاب منه عن عين الناظر فذلك أقل من القتل لأن القتل عظيم ﴾ ﴿ يلقطه بعض السيارة ﴾ أي بعض الأقوام الذين يسرون في الطريق ﴾ ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ به شيئاً . أي إن كنتم عازمين على ما تقولون . قال محمد بن إسحاق بن يسار : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير الفرع الذي لا ذنب له وبالكبير القاني ذي الحق والحرمة والفضل والخطر عند الله ، مع حق الوالد على ولده ، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيه على كبر سنه ، ورقة عظمه ، مع مكانه من الله ، ممن أحبه طفلاً صغيراً ، وبين ابنه على ضعف قوته وصغره سنه ، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه . يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين ، فقد احتملوا أمراً عظيماً . رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه .

ولما تواطئوا على أخذه وطرحه في البئر ﴾ ﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصبون ﴾ أي لم نخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونشفق عليه ، وهذه توطئة ودعوى ، وهم يريدون خلاف ذلك . دل هذا على أن عادته حفظه منهم ، وأنه كان متخوفاً عليه منهم ، لا كما تزعم الرواية الحالية للتوراة المخرقة أن يعقوب أرسله إليهم

ابتداءً ، وأن التآمر عليه كان بعد إذ رآوه قادمًا من عند أبيه ، فهذا يتناقض مع القراءة التي عليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ أرسله معنا ﴾ أي ابعته معنا ﴿ غدا يوقع ﴾ أي يتسع في أكل الفواكه وغيرها ﴿ ويلعب ﴾ بما يباح كالصيد والرمي والركض ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ من أن يناله مكروه ﴿ قال إني ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ أي إني ليحزنني ذهابكم به . أي يشق علي مفارقتة مدة ذهابكم به إلى أن يرجع . وذلك لغرط محبة له لما يتوسم فيه من الخير العظيم ، وشمائل النبوة ، ولما كان عليه من الكمال في الخلق والخلق صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ أي وأعشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم ، فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون ، اعتذر إليهم بأن ذهابهم به مما يحزنه ، لأنه كان لا يصر عنه ساعة ، وأنه يخاف عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه ، برعيهم ولعبيهم . فأخذوا من فمه هذه الكلمة ، وجعلوها عندهم فيما فعلوه ، وقالوا محبين له عنها في الساعة الراحة ﴿ قالوا لمن أكله الذئب ونحن عصبة ﴾ أي فرقة مجتمعة مقتدرة على الدفع ﴿ إنا إذا لخاسرون ﴾ أي إن لم نقدر على حفظ بعضها فنحن إذا عاجزون عن حماية أي شيء ، ومن ذلك مواشيها وغيرها . وقد أجابوا عن عنده الثاني دون الأول ، لأن الأول كان يغيظهم ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ﴾ أي وعزموا على إلقائه في البئر ، وفي قوله تعالى ﴿ وأجمعوا ﴾ تبشيع لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب ، وقد أدخلوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكراماً وبسطاً وشرحاً لصدرة وإدخالاً للسرور عليه ﴿ وأوحينا إليه ﴾ أي إلى يوسف في ذلك الحال الضيق نطياً لقلبه وتثبيتاً . قال النسفي : أوحى إليه في الصغر ، كما أوحى إلى يحيى وعيسى عليهما السلام ﴿ لتبنيهم بأمرهم هذا ﴾ أي لتحدثن إخوتك بما فعلوه بك ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أنك يوسف ، لعلو شأنك ، وكبرياء سلطانك ، وفي ذلك إشعار له ألا يحزن مما هو فيه ، فإن له من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً ، وسينصرك الله عليهم ويعليك ، ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع ، وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك . ويحتمل أن يكون المعنى : وأوحينا إليه وهم لا يشعرون . أي أنساه بالوحي ، وأزلنا عن قلبه الوحشة وهم لا يشعرون لتبنيهم بأمرهم هذا ، والأول أقوى وأوجه وأصح . وسياق القصة يشهد له ﴿ وجاوزوا آباءهم عشاء ﴾ أي في ظلمة الليل ﴿ يكون ﴾ مظهرين الأسف والجزع والتفهم لأبيهم على يوسف . والظلمة أستر للمعتذر الكاذب . وأنسب للمنتصع . قال الأعمش : لأنصتق بأكية بعد إخوة

يوسف . وفي كلمة الأعمش تنبيه كرم للمسلم ألا يكون غراً . ثم قالوا معذرين عما وقع فيما زعموا ﴿ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستيق ﴾ أي نسابق في الغنم ، أو في الرمي ﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ أي ثيابنا وأمتعتنا ﴿ فأكله الذئب ﴾ وهو الذي كان قد جزع منه وحذر منه ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ أي بمصدق ﴿ ولو كنا صادقين ﴾ أي ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة فإنك لا تصدقنا لشدة محبتك ليوسف ، فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا مع أن واقع الحال أننا صادقون ﴿ وجاؤوا على قميصه بدم كذب ﴾ أي مكذوب مفترى من أجل أن يؤكدوا ما تمالأوا عليه من المكيدة . ولكن ذلك لم يرج على نبي الله يعقوب . بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه ﴿ قال بل سئلت لكم أنفسكم ﴾ زينت أوسهلت ﴿ أمراً ﴾ عظيماً ارتكبتموه ﴿ فصبر جميل ﴾ فأمرني صبر جميل ، أو فصبر جميل أجمل ، أي فاصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرج الله بهونه ولطفه ، والصبر الجميل : هو مالا شكوى فيه إلى الخلق ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ أي على الرزء فيه ، أو على ما تذكرون من الكذب والهمال . ثم أخبر تعالى عما جرى ليوسف عليه السلام في الحب حين ألقاه إخوته وتركوه في ذلك الحب وحيداً فريداً . ﴿ وجاءت سيارة ﴾ أي رفقة تسير ، والسياق يعرفنا إنها سائرة إلى مصر ﴿ فأرسلوا واردهم ﴾ أي الذي يرد الماء ليستقي للقوم ﴿ فأدلى دلوه ﴾ أي أرسل الدلو ليملاها ، ويظهر أن يوسف نشب بالدلو ، فنزعه وأخرجه واستبشر به ﴿ قال يابشرى ﴾ وفي قراءة يابشراي ﴿ هذا غلام وأسرؤه بضاعة ﴾ أي وأخفوه متاعاً للتجارة ، إذ البضاعة ما يقطع من المال للتجارة ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ أي عليم بما فعل الجميع وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه ، ولكن له حكمة وقتراً سابقاً ، وفي هذا درس لرسولنا عليه الصلاة والسلام وأتباعه أن الله عالم بما يصيبهم من الأذى ، وهو قادر على الإنكار . ولكنه سيملي للظالمين ثم يجعل العاقبة والحكم عليهم كما جعل ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته . ﴿ وشروءه بثمن بخس ﴾ أي وباعوه بثمن مخسوس أي ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً . وهل البائع هنا السيارة في مصر كما تدل الآية اللاحقة ، أو إخوة يوسف . قولان للمفسرين . رجح ابن كثير أن البائع هنا إخوته ، وعمل فقال : لأن قوله ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ إنما أراد أخوته لا أولئك السيارة ، لأن السيارة استبشروا به وأسرؤه بضاعة ، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه . فترجح من هذا أن الضمير في شروءه إنما هو لإخوته . أقول : والذي رجحه ابن كثير هو

الذي يتفق مع رواية التوراة الحالية . وقد نقل ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد والضحاك هذا الرأي . ﴿ دراھم معدودة ﴾ هذا تفسير للثمن البخس الذي باعوه فيه ، ومعنى معدودة أي قليلة تُعدُّ عدّاً . ولا توزن لقلتها . ورواية التوراة الحالية كما سنرى ، أنهم باعوه بعشرين درهماً ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ ومن ثم باعوه بثمن طفيف . ويحتمل أن يكون المعنى واشترى الرفقة يوسف من إخوته ، وكانوا فيه غير راغبين لأنهم اعتقدوا أنه آبق . وأن وجوده في البئر بسبب فراره من أسياه ، وأن أسياه باعوه لهم لأن من طبعه الإباق أي الفرار من أسياه . وقد ذهب قتادة إلى أن الضمائر كلها في الآية تعود على السيارة . والمعنى وباعه السيارة في مصر بثمن بخس ، وكانوا فيه من الزاهدين ، بسبب أنهم في الأصل لم يدفعوا فيه ثمناً ولم يعرفوا له قيمة . ولو كنا نثق برواية التوراة الحالية ما التفتنا إلى تفسير قتادة ، ولكن لعدم ثقتنا بروايتها ذكرناه . لأنه المتبادر إلى الذهن من السياق ولا يترتب على الخلاف عمل ، والعبرة قائمة على أي من المحملين حملنا الآية .

فوائد :

١ - إخوة يوسف كما هم مذكورون في التوراة الحالية :

١ - رأوبين بن لئة وهو أكبرهم سناً .

٢ - شمعون بن لئة وهو الثاني في السن .

٣ - لاوي بن لئة وهو الثالث في السن .

٤ - يهوذا بن لئة وهو الرابع في السن .

٥ - دان بن بلهة جارية راحيل وهو الخامس في السن .

٦ - نفتالي بن بلهة وهو السادس في السن .

٧ - جاد بن زلفة جارية لئة وهو السابع في السن .

٨ - أشير بن زلفة وهو الثامن في السن .

٩ - يساكر بن لئة وهو التاسع في السن .

١٠ - زبولون بن لئة وهو العاشر في السن .

١١ - يوسف بن راحيل وهو الحادي عشر في ترتيب السن .

١٢ - بنيامين بن راحيل وهو أصغر الإخوة على حسب رواية التوراة الحالية وبه

ماتت أمه راحيل حين ولادته .

وعلى هذا فإن الشمس والقمر : أبوه وزوجة أبيه .

٢ - في الإصحاح السابع والثلاثين من سفر التكوين من التوراة الحالية . أن سن يوسف عندما حلم أحلامه سبع عشرة سنة ، وفي هذا الإصحاح « فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام » وفي هذا الإصحاح قصة التآمر والتففيذ مخلوطة بكثير من التحريف ، ومن تأمل الإصحاح وجده يدل على مافيه من تحريف ، فالتآمر والتففيذ كانا في الإصحاح في ساعة واحدة ، ومع أن الإصحاح يذكر أن رأوين هو الذي اقترح إلقاءه في البئر ، واقترح ترك قتله ، ومع أنهم نفذوا ذلك مباشرة ، ثم مرّت قافلة الإسماعيليين فاقترح يهوذا ؟ أن يبيعه . ثم يذكر الإصحاح أن قافلة تجار مديانيين ؟ هي التي أخرجه . ثم يقول الإصحاح : « وباعوا يوسف للإسماعيليين » فهل البائع إخوته كما اقترح يهوذا ، أو البائع المديانيون ؟ ثم يذكر الإصحاح « ورجع رأوين إلى البئر وإذا يوسف ليس في البئر ، فمزق ثيابه ثم رجع إلى إخوته وقال : الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب » . فكيف يتم التوفيق بين هذا الكلام : الجميع ألقوه في الحب ، ويهوذا يقترح يبيعه بعد ذلك ، ثم يباع ، ثم يبحث عنه رأوين ، فأين كان رأوين وهو الذي اقترح إلقاءه في البئر ، وباشر معهم التنفيذ والبيع ؟ . ثم يذكر الإصحاح بعد هذا « فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المعزى وغمسوا القميص في الدم ، وأرسلوا القميص الملون وأحضروه إلى أبيهم وقالوا ... » وفي الإصحاح أن يعقوب هو الذي قال إن الوحش قد افترس ابنه وليس فيه شك يعقوب في الأمر ، مع أن فيه رفض يعقوب للتنزية . ويلاحظ أن الرواية تذكر أن القميص قد غمس في الدم ؛ ولا تذكر الرواية أن القميص كان ممزقاً لأنهم خلعوه عن يوسف قبل إلقاءه في الحب ، فهل يغيب عن مثل يعقوب أن يتعرف على كون الوحش لم يأكله من خلال القميص . وهكذا نجد أن التحريف يفضح نفسه . فالحمد لله الذي جعل القرآن معصوماً محفوظاً ، وجعله يدل على صدقه وكونه حقاً بألفاظه ومعانيه . فمن قرأ ما ذكره القرآن في هذا المقام ، وما تنقله التوراة عرف الحق من الباطل . ولنتقل هذا المقطع من هذا الإصحاح بعد أن رأينا ما فيه مما يؤكد ما هو المشهور المعروف أن هذه الأسفار قد جمعت بعد مئات السنين وكتبت من الروايات الشفهية ، فهي لا تساوي - من حيث الثبوت - أمام النقد العلمي شيئاً ، فمن أراد الحق ، فليس أمامه إلا القرآن ، ليعرف الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ولا أدل من ظهور التحريف في هذا الإصحاح بالذات من هذين التعبيرين :

« واجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين » .

« وأما المديانيون فباعوه في مصر لفوطيفار خفي فرعون رئيس الشرط » ففي التعبير الأول كان الإسماعيليين هم المشترين ، وفي التعبير الثاني كان المديانيون هم البائعين في مصر ولرئيس شرطة فرعون . فإذا كنت تجد في صفحة واحدة من التناقضات ما ذكرنا فهل تبقى أي قيمة لروايات هذه الكتب ؟ لقد أنقذ القرآن البشرية من الشك بأصل الوحي . إذ أعطاهما الصيغة الكاملة للحق فيما تعرض له ، فشتان بين كلام الله الذي لم يشب وبين الكلام الذي خالطه ما خالطه ، ومن أجل أن يتضح لك جلال القرآن فاقراً رواية الأسفار وتذكر ملاحظناه عليها : « فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليمتدوه . فقال بعضهم لبعض : هَؤُذَا هَذَا صاحب الأحلام قادم . فالآن هلم نقتله ونطرحه في إحدى الآبار ونقول وحش ردىء أكله ، فنرى ماذا تكون أحلامه فسمع رأوين وأنقذه من أيديهم ، وقال لا نقلته ، وقال لهم رأوين : لا تسفكوا دماً . اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمتدوا إليه بدأ . لكي ينقذه من أيديهم ليردّه إلى أبيه . فكان لما جاء يوسف إلى إخوته أنهم غلغوا عن يوسف قميصه القميص الملون الذي عليه . وأخفوه وطرحوه في البئر . وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء . ثم جلسوا ليأكلوا طعاماً ، فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد ، وجمالهم حاملة كثيرآء ، ولبساناً ولاذناً ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر . فقال يهوذا لإخوته : ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه . تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا . فسمع له إخوته . واجتاز رجال مديانيون تجار . فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة ، فأتوا يوسف إلى مصر . ورجع رأوين إلى البئر وإذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه . ثم رجع إلى إخوته وقال الولد ليس موجوداً . وأنا إلى أين أذهب .

فأخلوا قميص يوسف وذبخوا تيساً من المعزى وغمسوا القميص في الدم ، وأرسلوا القميص الملون وأحضرروا إلى أبيهم . وقالوا وجدنا هذا . حَقَّقْ أقميص ابنك هو أم لا ؟ فتحققه وقال قميص ابني وحش ردىء أكله . افترس يوسف اقتراساً . فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة . فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه . فأنى أن يتعزى وقال : إني أنزل إلى ابني نالحاً إلى الهاوية . وبكى عليه أبوه .

وأما المديانيون فباعوه في مصر لفيوطيفار نخصي فرعون رئيس الشرط .

٢ - يذكر بعض المفسرين أثناء قصة يوسف اسم مَنْ أخرج يوسف من البئر وهو اسم عربي ، ويسمون فرعون مصر الذي كان يحكم مصر أثناء بيع يوسف في مصر ويعطونه اسماً عربياً ، وليس في ذلك من دليل لا من كتاب ، ولا سنة ، ولا رواية عربية ، ولا رواية يهودية ، لأن قصة يوسف لم تكن معروفة عند العرب أصلاً ، ولأن الرواية اليهودية لم تذكر شيئاً من هذا ، ولا يترتب على ذكر الاسم من حيث العظة والعبرة شيء ، إلا أن الملاحظ أن رواية التوراة الحالية تذكر اسم الإسماعيلين نسبة إلى إسماعيل عليه السلام فتكون القافلة عربية . أما هل كانت مصر وقتذاك محكومة من قبل العرب ؟ .

الذي يذكره قاموس لاروس أن مصر كانت محكومة من قبل الهكسوس من سنة ٢١٦٠ إلى سنة ١٥٨٠ قبل الميلاد ، وأن مجيء بني إسرائيل إلى مصر كان في تلك الفترة ، والهكسوس الذين يسمونهم الرعاة اجتاحتهم مصر من فلسطين . فهذا يؤكد أنهم كانوا عرباً . كما يذكر قاموس لاروس أن اليهود قد اضطهدوا في ظل الملوك الوطنيين ، وهذا يعني أن الاضطهاد كان بعد زوال حكم الهكسوس . فإذا كانت التوراة الحالية تذكر أن مدة بقاء بني إسرائيل في مصر كانت (٥٧٠) سنة ، فهذا يعني أن مجيء يوسف إلى مصر كانت بعد فترة من حكم الهكسوس ، فإذا صح أن فرعون موسى كان رعمسيس الثاني الذي تؤكد الوثائق أنه أصدر منشوراً عصمه على مصر ، يعلن فيه ألوهيته ، وهذا مما يرجح أنه فرعون موسى . فعندئذ يكون مجيء بني إسرائيل إلى مصر في حوالي سنة (١٧٩٥) قبل الميلاد أي في أواسط حكم الهكسوس . لأن رعمسيس الثاني قد مات كما يذكر قاموس لاروس سنة ١٦٢٥ ق . م فهي إذن سنة الفرق ، وهي سنة الخروج من مصر . والله أعلم .

وعلى كل حال تبقى هناك قضية لاخلاف عليها هي أن مجيء يوسف إلى مصر كان في زمن الهكسوس ، وأن الخروج كان في ظل حكم الوطنيين لمصر ، ومن ثم نلاحظ أن الإصطلاحات التي يذكرها القرآن أثناء الكلام عن يوسف تختلف عنها في غيرها ، فهنا في قصة يوسف تستعمل كلمة الملك ، بينما في قصة موسى تستعمل كلمة فرعون . ونلاحظ أن بعض المفسرين المسلمين ، كما ذكرنا ، يسمون اسم ملك مصر في زمن دخول يوسف إلى مصر اسماً عربياً هو الريان بن الوليد ، ويسمون اسم الذي استخرجه

من البشر اسماً عربياً هو مالك بن الخزاعي . أما من أين أتوا بهذه التسميات ، وما مقدار الثقة بها ؟ فهذا الذي لا نستطيع الجرم بشيء منه ، ولكن أن يكون الذي استنقذه عربياً ، وأن يكون حاكم مصر وقتذاك عربياً فذلك جائز . ينقل ابن كثير عن محمد بن إسحاق أن ملك مصر وقتذاك هو الريان بن الوليد رجل من العماليق . أي من الكنعانيين لأن أرض كنعان كانت تسمى بها فلسطين قديماً . وسكانهاهم الكنعانيون والعماليق من الكنعانيين . والذي يذكره قاموس لاروس أن الهكسوس اجتاحت مصر من قبل أرض كنعان .

٤ - هناك خلاف بين المفسرين حول نبوة إخوة يوسف . فهل هم أنبياء ، وإذا كانوا أنبياء فكيف وقعوا في هذه المعصية ؟ الذين قالوا إنهم أنبياء قالوا كان ذلك قبل النبوة . قال ابن كثير : وأعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف ، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك ، ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك ، وفي هذا نظر . ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل . ولم يذكروا سوى قوله تعالى ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ (البقرة : ١٣٦) وهذا فيه احتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب . يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل ، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون . ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف ، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم . والله أعلم .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ فَصَبِرْ جَمِيلٌ ﴾ ذكر ابن كثير حديثاً مرسلًا هو : سئل رسول الله ﷺ عن قوله ﴿ فَصَبِرْ جَمِيلٌ ﴾ فقال : « صبر لا شكوى فيه » . ونقل عن الثوري قوله « أنه قال : ثلاث من الصبر : أن لا تحدث بوجعك ، ولا بمصيبتك ، ولا تزكي نفسك » .

٦ - في القسم الذي يتحدث عن يعقوب ويوسف عليهما السلام مما يسمونه التوراة الحالية كلام مذهل ، يعجب الإنسان كيف يوجد مثله في كتاب ديني يقص الحق للأسوة والعمل إذ فيه حديث عن أن رأوين بن يعقوب زنى ببلهة سرية أبيه وأم إخوته دان ونفتالي ، وأن يهوذا زنى بكنته زوجة ابنه ، وأن بنت يعقوب دينة بنت ليثة قد زنى بها ابن حمور الجوتي . ومثل هذا الكلام يرد في التوراة الحالية حتى في حق الأنبياء ، وهذا كله يدل على أن اليهود - عليهم اللعنة - الذين هم أجراً الناس على قتل الأنبياء .

هم أجراً الناس كذلك على تشويه سمعتهم ، فما أحلى الحق الذي جاءنا به القرآن وما أغضبه ، وما أطراه ، وما أسخف من يعرض عنه إلى سواه . ولنتقل إلى المشهد الثالث من قصة يوسف عليه السلام .



المشهد الثالث من قصة يوسف عليه السلام

ويمتد من الآية (٢١) إلى نهاية الآية (٣٥) وهذا هو :

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأُمِّهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَخْذُمَهُ
وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَآئِلُ يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ
غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ رَءَاهُ اثْنَيْ
عَشَرَ عَامًا وَكَذَٰلِكَ تَجْرِي الْأُمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَوَدَتْهُ الْمَتَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ
نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ
مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ
بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لَنَصَرَفَ عَنْهُ الشُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ
﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْأُخْرَىٰ سَبَّحَهُمَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ
مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ قَبْلِي فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذَّابِينَ
﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ

قَبِصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ
 أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ
 نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنَّا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا
 فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ
 مُتَّكِفًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ
 أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ
 ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَوَاسْتَعَصَمَ
 وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ
 أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ
 الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
 الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آلَ لَيْثٍ لَيَّسْجَنُهُ حَتَّىٰ يَحِينُ ﴿٣٥﴾

التفسير :

﴿ وقال الذي اشتراه من مصر ﴾ وهو عزيز مصر وقتذاك كما سنعرف من السياق
 ﴿ لامراته أكرمي مثواه ﴾ أي اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً ، أي حسناً مرضياً ..
 وقد فسر المضحك ذلك بطيب معاشه ولين لباسه . ووطىء فراشه ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾
 أي لعله إذا تدرب وراض الأمور وفهم مجاريها ، نستظهر به على بعض ما نحن بسيله
 ﴿ أو نتخلده ولداً ﴾ أي أو نتبناه ونقيمه مقام الولد ﴿ وكذلك ﴾ أي وكما أنقذنا

يوسف من إخوته وعطفنا عليه قلب العزيز ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر وجعلناه يتصرف فيها بأمره ونبيه ﴿وَلِنَعْلَمَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي من تعبير الرؤيا ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أي فعال لما يشاء لا يمنعه أحد عما يشاء ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه وفعله لما يريد ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أي يوسف ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي متى استعداد قوته أي استكمل عقله وغم خلقه ﴿آتَيْنَاهُ حِكْمًا﴾ أي حكمة وهو العلم مع العمل ، واجتناب ما يجهل فيه ، أو حكماً بين الناس وفقهاً ﴿وَعِلْمًا﴾ أي آتيناه مع الحكم العلم . وقد فسرهما ابن كثير بأنهما النبوة ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ في هذا تنبيه على أنه كان محسناً في عمله ، تقياً في عصفوان أمره ، وفي ذلك بشارة لكل محسن ﴿ورأودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ أي طلبت من يوسف أن يواقعها ، فحاولته على نفسه ودعته إليها ، وذلك أنها أحبت حياً شديداً لحسنه وجماله وبهائه ، فحملها ذلك على أن تتجمل وتبلى الوسائل للوصول ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي تعال وأقبل ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله معاذاً ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ أي إن الشأن والحديث أنه سيدي ومالكي أي زوجها ﴿أَحْسَنُ مَثْوًى﴾ أي أكرمني فما جزاؤه أن أخونه في أهله ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي الخائنون أو الزناة ، ويحتمل أن يعود الضمير على الله عز وجل ، والأول أقوى ، ذكرها بحق سيده عليه ، ألا يخونه في أهله ، فلعلها تذكر حق زوجها عليها فلا تخونه ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ هَمَّ عزم ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ هَمَّ طبع بلا عزم ، أو همَّ خطرة ، ولا صنع للعبد فيما يخطر بالقلب ولا مؤاخذه عليه . ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ أي رأى آية من آيات الله تزرجه عن المطاوعة ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الثبوت ثبتناه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ أي خيانة السيد ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي الزنا ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي من جملة عبادنا ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ أي الذين أخلصهم الله لطاعته . أي كما أريناه برهاناً صرفة عما كان فيه ، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره ؛ إنه من عباد الله المجتبيين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ أي وتسابقا إلى الباب ، هي للطلب ، وهو للهرب . نفر منها يوسف فأسرع يريد الباب ليخرج ، وأسرعت وراءه تمنعه من الخروج ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي اجتذبت من خلفه فانشق قميصه حين هرب منها إلى الباب ، وتبعته تمنعه ﴿وَأَلْقَى سَيْدُهَا لَهَا الْبَابَ﴾ أي وصادقاً بعلمها مقبلاً ، يريد أن يدخل ، فلما رآته احتالت لتبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة ، ولتخويف يوسف طمعاً في أن يواطئها خيفة منها ومن مكرها ﴿قَالَتْ مَا

جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴿ أي فاحشة ﴾ ﴿ إلا أن يسجن ﴾ أي يحبس ﴿ أو عذاب أليم ﴾ أي يضرب ضرباً شديداً مرجعاً ، ولم تصرح بذكر يوسف وأنه أراد بها سوءاً لأنها قصدت العموم أي كل من أراد بأهلك سوءاً فحقه أن يسجن أو يعذب ، لأن ذلك أبلغ فيما قصدت من تخويف يوسف . فلما عرضته للسجن والعذاب ووجب عليه الدفع عن نفسه ، ولم يعد مجال للمسر عليها وعدم فضيحتها انتصر يوسف عليه السلام لنفسه بالحق ، وتبرأ مما رمنه به من الخيانة ﴿ قال هي روادتي عن نفسي وشهد شاهد من أهلها ﴾ وفي كونه من أهلها تكون شهادته أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وكانت شهادته ﴿ إن كان قميصه قد من قبل ﴾ أي من قدامه ﴿ فصدقت ﴾ أي في قولها إنه راودها على نفسها لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره ، فقدت قميصه ، فيصح ما قالت ﴿ وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر ﴾ أي من ورائه ﴿ فكذبت وهو من الصادقين ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبه أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها ، فقدت قميصه من ورائه ﴿ فلما رأى ﴾ زوجها ﴿ قميصه قد من دبر ﴾ علم براءة يوسف وصدقه وكذبها ﴿ قال إنه من كيدكن ﴾ أي إن هذا البهت واللطخ الذي لطخت به عرض هذا الشاب من جملة كيدكن . وقد وجه الخطاب لها ولعامه جنسها ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ لأنهن أَلُف كيداً ، وأعظم حيلة ، وبذلك يغلبن الرجال . ثم قال آمراً ليوسف عليه السلام بكتمان ما وقع ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ أي اضرب عن هذا صفحاً ، أي فلا تذكره لأحد ﴿ واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ أي من جملة القوم المتعمدين للذنب . ويبدو أنه كان ثيناً سهلاً لدرجة أنه لم تثر غيخته ، أو أنه عذرها لأنها رأت مالا صبر لها عنه ، ولم يحدث شيء ، ولا نتوقع ممن يعيشون في الترف ولا دين لهم حاجزاً إلا مثل هذه المواقف ، بل أسوأ منها من الديانة والقيادة . وما يجري في عصرنا لا يحتاج معه هذا الكلام إلى دليل ﴿ وقال نسوة في المدينة ﴾ أي وقالت جماعة من النساء في المدينة التي وقعت فيها الحادثة ﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ أي تحاول غلامها من نفسه وتدعوه إلى نفسها ، لتنال شهوةها منه ﴿ قد شغفها نجاً ﴾ أي قد شغفها حبه يعني خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد ﴿ إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ أي في خطأ واضح وبُعْد عن طريق الصواب ، أي في صنعها هذا من حبها فتاها ، ومرادتها إياه عن نفسه ، وهكذا شاع الخبر وانتشر وذلك دأب ما يجري في القصور والصالونات - عندما لا يوجد تدبير عندهم - أن رائحة الفضائح لا تزال عابقة فيها ﴿ فلما

سمعت ﴿ أي زوجة العزيز ﴾ بمكرهن ﴿ أي باغتيابهن لها ، وقولهن ما قلته ، سُميت
 الغيبة في هذا المقام مكرراً لأنها في خفية وحال غيبة كما يخفي الماكر مكره ، أو سُمي
 قولهن مكرراً لأنهن أردن من كلامهن شيئاً آخر . قال محمد بن إسحاق : بل بلغهن حسن
 يوسف فأحبين أن يرينه فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ، ومشاهدته ، فعند ذلك
 ﴿ أرسلت إليهن ﴾ أي دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿ وأعتدت ﴾ وهيات ﴿ هن
 متكئات ﴾ أي ما يتكئن عليه من فرش ونمازق ، قصدت بذلك الهيئة وهي قعودهن
 متكئات ، مسترخيات ، والسكاكين في أيديهن - كما سنرى - أن يدهشن عند رؤيته ،
 ويشغلن عن نفوسهن ، فيجرحن أيديهن وهن لا يشعرن ﴿ وآتت كل واحدة منهن
 سكيناً ﴾ وكان هذا مكيدة منها ومقابلة هن في احتيالهن على رؤيته ، دل ذلك على أن
 الترف كان في تلك المرحلة موجوداً . فكون الحاكمين وقتذاك هم الرعاة الهكسوس لم
 يحل دون أن تفرقهم بمصر في نعمها ﴿ وقالت اخرج عليهن ﴾ يبدو أنها كانت قد
 وضعت في مكان لا يرينه فيه أثناء الدخول والجلوس لثم المفاجأة ﴿ فلما رأينه أكبرنه ﴾
 أي أعظمته وهين ذلك الحسن الرائق ، والجمال الفائق ﴿ وقطعن أيديهن ﴾ أي
 وجرحنها ، كن يقطعن الطعام الذي في أيديهن فدهشن لما رأينه ، فخدشن أيديهن
 وكان لسان حالها وقتذاك يقول : أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا ، فكيف ألام أنا ؟
 ﴿ وقلن حاش لله ﴾ تنزيهاً لله من صفات العجز ، وتعجباً من قدرته على خلق جميل
 مثل يوسف ﴿ ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ نفين عنه البشرية لغرابة جماله ،
 وأثبتن له الملكية ، وثبتن بها الحكم لما ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك ، كما ركز
 فيها أن لا أقبح من الشيطان . وكان لسان الحال يقول : وما نرى عليك من لوم بعد هذا
 الذي رأيناه ﴿ قالت فذلكن الذي لمثني فيه ﴾ تقول هذا معذرة إليهن بأن هذا حقيق
 أن يُحب لجماله وكأله ، ولا يلام من يحب مثله ، هذا منطقها ، وهو منطق من لا يحجزها
 دين ولا عقل ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أي بالغ في الامتناع والتحفظ ،
 ولا يزال مستزيداً منهما ، ثم قالت تنوعده ﴿ ولئن لم يفعل ما أمره ﴾ من إعطائي مرادي
 منه ﴿ ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ أي من المذللين المهانين ، مع السراق والسفك
 والأباق في السجن ، كما سرق قلبي وأبق مني وسفك دمي بالفراق ، فلا يهنا له ثم طعام أم
 شراب أو نوم ، كما منعني هنا كل ذلك . ومن لم يرض بمثل في الحرير على السرير أميراً ،
 فليكن في السجن على الحصير جسيماً . فلما سمع يوسف تهديدها ﴿ قال رب السجن
 أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ أي من ركوب المعصية أي الفاحشة ، ولم قال يدعونني

والسياق لم يذكر غيرها يبدو أنه رأى رغبة الجميع به ، وإجماع الجميع على أن عليه أن يرحم سيده فيعطى مرادها وهو منطلق الناس إذا لم يكن إيمان ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن ﴾ أي أميل إليهن ، والصبوة الميل إلى الهوى ، ومنه الصبا لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيمها وروحها ﴿ وأكن من الجاهلين ﴾ أي من الذين لا يعلمون بما يعلمون لأن من لا جدوى لعلمه فهو ومن لم يعلم سواء أو من السفهاء ، وهكذا فرغ إلى الله في طلب العصمة ، مينا أنه إن وكل إلى نفسه فليس له في محنة الجمال طاقة إن استمر الامتحان . واختار السجن على سعي امتحان الشهوة ، فما أصعب هذا الامتحان ، وما أكمل يوسف عليه السلام ، إذ أنه مع شبابه وجماله وكاله تدعوه سيده وهي امرأة عزيز مصر ، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة ، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء توبته . ﴿ فاستجاب له ربه ﴾ أي أحاب دعاءه ﴿ فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع ﴾ لدعوات الملتجئين إليه ﴿ العليم ﴾ بكل حال ﴿ ثم بذلهم ﴾ أي ثم ظهر لهم من المصلحة ﴿ من بعد ما رأوا الآيات ﴾ وهي الشواهد على براءته ، كقصة القميص ، وشهادة الشاهد ، وجرح الأيدي ، وغير ذلك . ﴿ ليسجنن حتى حين ﴾ أي إلى زمان ، فكأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه ، وطاوعها زوجها لإبداء عذر الحال ، وإرخاء السر على القيل والقال ، ولإيهام أنهم سجنوه لأنه راودها عن نفسها ، وإنهم سجنوه لذلك ، ولهذا نلاحظ أن يوسف عليه السلام امتنع فيما بعد من الخروج إلا بعد إثبات البراءة ، وما كان سجنه - والله أعلم - إلا باستئصال المرأة زوجها المطواع على رأيها . قال النسفي : وقد طمعت أن يذله السجن ويسخره لها ، أو خافت عليه العيون ، وظنت فيه الظنون ، فألجأها الخجل من الناس والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب لتشتفي بخبره إذا منعت من نظره أهد . أقول : ومن ثم لم تقترح في الأصل إلا السجن أو العذاب ، ولم تذكر القتل وهذا يدل على تمكن الحب .

فوائد :

١ - هذه الآيات من سورة يوسف يقابلها فيما يسمونه التواراة الحالية الإصحاح التاسع والثلاثون من سفر التكوين ، وفيه أن فوطيفار خصي فرعون ورئيس الشرط هو الذي اشترى يوسف وسلمه شئون البيت ، وفيه مراودة امرأته ليوسف ورفض يوسف وجوابه لها (هو ذا سيدي لا يعرف معي مالي البيت وكل ماله قد دفعه إلى يدي ليس هو

في هذا البيت أعظم مني ولم يمسك عني شيئاً غيرك لأنك امرأته فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطيء إلى الله (والملاحظ أن هذا المعنى سجله القرآن ﴿ إنه ربي أحسن مثوإي إنه لا يفلح الظالمون ﴾ فتأمل عظمة هذا القرآن ، إذ يأتي بأعظم المعاني وأغزرها وأصدقها بأوجز تعبير وألطفه وأدقه وأصدقفه ، ثم إن الإصحاح لا يحدثنا عن كثير من التفاصيل ، وإن كان يحدثنا بإجمال عن خلو البيت مرة ، وإمساكها يوسف وهربه منها . وفي الإصحاح غلط وخطأ وكذب وعدم دقة ونقص . لانغنى على المتأمل ومن أمثالها تعرف نعمة الله إذ أنزل هذا القرآن فيه بيان وتفصيل لكل شيء ، ومن مثل هذا نعرف كيف أن هذه السورة جاءت لتحقيق إقامة الحجة على إعجاز هذا القرآن من خلال هذا العرض الصادق والعجيب لقصة يوسف عليه السلام .

٢ - نلاحظ أن التوراة الحالية لم تذكر اسم زوجة سيد يوسف إلا أن المفسرين المسلمين يذكرون أن اسمها زليخا ، وبعضهم يسميها راعيل . وذكر ابن إسحاق أن زليخا كانت أخت الملك الريان بن الوليد ، وليس هناك من مصدر لمثل هذا إلا روايات أهل الكتاب المعاصرين للمفسرين وكثير منها لا يصح الاتكاء عليه أصلاً .

٣ - عند قوله تعالى ﴿ وقالت هبت لك ﴾ يقف المفسرون وقفات طويلة فلتراجع ، وقد اخترنا في شأنها ما حكاه الكسائي أنها لغة لأهل حوران وقعت لأهل الحجاز ومعناها تعال : وفي الكسمة قراءات أخرى ونحن في هذا الكتاب نمشي على قراءة حفص .

٤ - وعند قوله ﴿ وهم بها ﴾ كلام كثير للمفسرين وهم متفقون بأن همه غير همها ، همها عزم ، فما هو همه ؟ سنرى الجواب وقد ذهب بعضهم إلى أن الهم لم يحدث أصلاً واعتبروا أن قوله تعالى ﴿ وهم بها ﴾ متصل بما بعده ﴿ وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾ أي لولا أن رأى برهان ربه لهم بها هم طبع ، ولكنه رأى برهان ربه فلم يهم ، إلا أن بعضهم يرفض هذا الرأي لأن علماء العربية لا يرون أن مثل هذا الوجه يقبله استقراء لغة العرب ، وبعضهم قال هم بها ، أي هم بضربها ، وأجود شيء أن يحمل همه على أنه خطرة نفس لم يقبلها قلبه ، فهي من نوع الهم الموجود في الحديث المخرج في الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى : إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشرة أمثالها ، وإن هم بسيسة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإنما تركها من جرأتي ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها » .

٥ - وفي تفسير (البرهان) في قوله تعالى : ﴿ لَوْ لَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ كلام كثير للمفسرين كذلك ، وليس في هذا الكلام الكثير من شيء يمكن أن يكون قاطعاً في هذا الموضوع ، والثبوت الحالية ساكتة عن مثل هذا وأكثر المفسرين على أنه رأى صورة أبيه يعقوب عاضاً على إصبعه بضمه . ذكر ذلك ابن كثير عن ابن عباس ، وسعيد ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن سيرين ، والحسن ، وقتادة ، وأبي صالح ، والضحاك ، ومحمد بن إسحق وغيرهم . إلا أن الذي يرجحه النسفي أن البرهان هو النظر في دلائل التحريم . ذكر ذلك بعد أن ذكر القول الذي يورده بعضهم في معرض : أنه همّ بها فأراه الله صورة يعقوب ... قال : (وبذل على بطلانه قوله : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ ولو كان ذلك منه أيضاً لما برأ نفسه من ذلك ، وقوله ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ ولو كان كذلك لم يكن السوء مصروفاً عنه . وقوله ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ ولو كان كذلك لحانه بالغيب . وقوله ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ولأنه لو وجد منه ذلك لذكرت توبته واستغفاره كما كان لأدم ونوح وذي النون وداود عليهم السلام . وقد سمّاه الله مخلصاً ، فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام وجاهد نفسه بمجاهدة أولى العزم ناظراً في دلائل التحريم حتى استحق من الله الثناء . قال ابن جرير : والصواب أن يقال إنه رأى أية من آيات الله تزجره عما كان همّ به . وجائز أن يكون صورة يعقوب وجائز أن يكون صورة الملك ، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك ، ولا حجة قاطعة على تعيين شيء من ذلك ، قال ابن كثير : فالصواب أن نطلقه كما قال الله تعالى) .

٦ - يختار ابن جرير أن الشاهد الذي شهد ليوسف كان صبياً في المهد . ويختار غيره أنه كان رجلاً . قال ابن كثير بعد أن نقل كلام ابن جرير وقد ورد منه حديث مرفوع ، فقال ابن جرير ... عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « تكلم أربعة وهم صغار » فذكر فيهم شاهد يوسف ، ورواه غيره عن حماد بن سلمة عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : « تكلم أربعة صغار : ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم » للألوسي تحقيق عند قوله تعالى ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ تنقله كله لما فيه من فوائد ، قال : (ذهب جمع إلى أنه كان ابن خالها ، وكان طفلاً في المهد أنطقه الله تعالى ببرأته عليه السلام ، فقد ورد عنه ﷺ « تكلم أربعة في المهد وهم صغار : ابن ماشطة ، ابنة فرعون ،

وشاهد يوسف عليه السلام . وصاحب جريج . وعيسى ابن مريم عليهما السلام . وتعقب ذلك الطيبي بقوله : يرده دلالة الحصر في حديث الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى ابن مريم ، وصاحب جريج ، وصبي كان يرضع من أمه فمرّ راكب حسن الهيئة فقالت : أمه اللهم أجعل ابني مثل هذا فترك الصبي الثدي ، وقال اللهم لا تجعلني مثله » ا . هـ ، ورده الجلال السيوطي فقال . هذا منه جار على عادته من عدم الاطلاع على طرق الأحاديث ، والحديث المتقدم صحيح أخرجه أحمد في مسنده . وابن جبان في صحيحه . والحاكم في مستدركه وصححه من حديث ابن عباس ، ورواه الحاكم أيضاً من حديث أبي هريرة ، وقال صحيح على شرط الشيخين ، وفي حديث الصحيحين المشار إليه أنفاً زيادة على الأربعة « الصبي الذي كان يرضع من أمه فمرّ راكب » الخ فصاروا خمسة وهم أكثر من ذلك ، ففي صحيح مسلم تكلم الطفل في قصة الأخدود ، وقد جمعت من تكلم في المهد فبلغوا أحد عشر ، ونظمناها فقلت :

تكلم في المهد النبي محمد وبقي وعيسى والخليل ومريم
وميرى جريج ثم شاهد يوسف وطفل لذي الأخدود يرويه مسلم
وطفل عليه مرّ بالأمّة التي يقال لها تزني ولا تتكلم
وما شقة في عهد فرعون طفّلها وفي زمن الهادي المبرك يختم

ا هـ ، وفيه أنه لم يُرد الطيبي الطعن على الحديث الذي ذكر كما توهم ، وإنما أراد أن يبين أن الحديث الدال على الحصر وغيره تعارضاً وذلك يحتاج إلى التوفيق .

٧ - ورد أكثر من حديث يتكلم عن حسن يوسف ، ومن ذلك ما ورد في الحديث الصحيح في حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مرّ بيوسف عليه السلام في السماء الثالثة . قال : « فإذا هو قد أعطي شطر الحسن » وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطي يوسف وأمه شطر الحسن » قال السهيلي : معناه أن يوسف عليه السلام كان على النصف من حسن آدم عليه السلام ، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها ، ولم يكن في ذريته من يوازيه في جماله ، وكان يوسف قد أعطي شطر حسنه . أقول : قال بعضهم لقد أعطي محمد ﷺ الحسن كله . فليوسف شطره ، ولمحمد ﷺ كله :

وأجمل منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما نشاء

٨ - بمناسبة استعصام يوسف عليه السلام بورد ابن كثير الحديث الوارد في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال ، فقال إني أخاف الله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

ملاحظات :

١ - من قصة يوسف تعرف أن أقطع فتنه يمكن أن تمر بإنسان هي فتنه الجمال ، ومن ثم نلاحظ أن يوسف استقبل الإلقاء في البئر بصبر ، واستقبل العبودية بصبر ، واستقبل السجن بصبر ، ولكنه شكاه هذه الشكوى الحارة عندما تعرض لفتنة الجمال ، قال ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ وقال قبل ذلك : ﴿ رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ ففتنة الجمال هي الفتنة التي تعصف برأس الحكيم ؛ ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام « ما تركت بعدي فتنة أضرب على الرجال من النساء » .

٢ - إن كثيراً من الناس يتساهلون في إدخال أنواع من الرجال إلى بيوتهم بحيث يكون بين هؤلاء الرجال والنساء علاقة : من ذلك من يوصل الحاجيات إلى البيوت ، أو أصدقاء الرجل ، أو غير ذلك من خدام وتابع ، وفي كل صورة من هذه الصور نوع تعرض وتعرض للفتنة ، إلا إذا ضبطت هذه الأمور ضوابط الشرع .

٣ - من المعروف عن العرب شدة الحمية في شأن العرض وخاصة في بيوتاتهم الكريمة ، فإذا لاحظنا هذا الموقف الذي وقفه عزيز مصر من زوجته مع افتراض أنه هكسوسي فهذا يدعونا إلى افتراض أن النفسية الحاكمة وقتذاك قد داخلها من الترف والفساد ، ما أفقدها خصائصها الأصيلة ، وهذا لا يكون إلا إذا كان الترف والفساد قد استمر أكثر من جيل ، وهذا يدعونا إلى أن نستأنس في أن مجيء يوسف كان - تقريباً - في أواسط حكم الهكسوس لمصر ، إذ يكون هذا الترف والفساد بدأ بنخر النظام حتى سقط في النهاية بعد حوالي قرنين ونيف من مجيء يوسف وبني إسرائيل إلى مصر . ومن خلال تسجيلنا لهذه الملاحظة المستمدة من قصة يوسف في القرآن ، ومما عرفناه مما لم يذكره القرآن ، ندرك كيف أن إعجاز هذا القرآن لا يتناهى ، وندرك كيف أن شيئاً ما

لا يمكن أن ينقض حرفاً من القرآن ، ونذكر كيف أن سورة يوسف فيها دليل ودليل على إعجاز القرآن بطريقة مفردة . وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن محورها من سورة البقرة هو قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ .



المشهد الرابع

ويمتد من الآية (٣٦) إلى نهاية الآية (٤٢) وهذا هو :

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ
 إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ
 مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَّأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ
 قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ
 بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنْ
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَبِي السِّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَّاحِدُ
 الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ
 اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ
 وَلَٰكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَبِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبُّهُ

مَحْرَأَ وَأَمَّا الْآخِرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَّ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ۖ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٣٧﴾

التفسير :

﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ تحدد التوراة الخالية أنهما ساقى المثلث وخبازه ﴿ قال أحدهما ﴾ أي الساقى ﴿ إلى أراي ﴾ أي في المنام ﴿ أعصر محراً ﴾ أي عساً ، وهي إما من باب تسمية العنب بما يؤول إليه ، أو على لغة أهل عُثْمَانَ . إذ يسمون العنب محراً ﴿ وقال الآخر ﴾ أي الخباز ﴿ إلى أراي أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبشاً بتأويله ﴾ أي أخبرنا بتأويل ما رأيته ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ أي من الذين يحسنون تعبير الرؤيا ، أو من المحسنين في العمل إلى أهل السجن ﴿ قال لا بأتیکما طعام نرؤفانه ﴾ في يومكما ﴿ إلا بأتیکما بتأويله ﴾ أي ببيان ما هيته وكيفيته ﴿ قبل أن يأتیکما ذلكما ﴾ أي التأويل والإخبار بالمغيبات ﴿ مما علمني ربي ﴾ أي مما أوحى به إلی ربي ، ولم أقنه عن تكهن وتنجم ﴿ إلى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ هذا تعليل لما قبله . أي علمني ذلك وأوحى به إلی لأنني رفضت واجتبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر ، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد ﴿ واتبعت ملة آباءي إبراهيم وإسحق ويعقوب ﴾ أي هجرت طريق الكفر والشرك وسنكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وهكذا يكون حال من سنكت طريق الهدى والتبع طريق المرسلين ، وأعرض عن طريق الضالين فإن الله يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم ، ويجعله إماماً يفتدى به في الخير ، وداعياً إلى سبيل الرشاد ﴿ ما كان لنا ﴾ أي ما صبح لنا معشر الأنبياء ﴿ أن نشرك بالله من شيء ﴾ صنماً كان أو غيره ﴿ ذلك ﴾ أي التوحيد ﴿ من فضل الله علينا ﴾ إذ أوحاه إلينا وأمرنا به ﴿ وعلى الناس ﴾ إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ فضل الله ، فيشركون به ولا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم فينبعونهم ، وهكذا لما استعبراه ووصفاه بالإحسان ، اتخذها فرصة فوصف نفسه بما هو فوق علم

العلماء ، وهو الإخبار بالغيب ، وأنه ينسبهما بما يُحتمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ، ويصفه هما ، فيقول اليوم يأتيكما طعام كذا وضعام كذا . فيكون كذلك ، ثم ذكر الآباء ليريهما أنه من بيت النبوة ، بعد أن عرّفهما أنه نبي يوحى إليه بما ذكر من أخبار الغيوب ، ليقوي ثقتهما به ، وجعل ذلك كله تخلصاً إلى أن يذكر هما التوحيد كما سيأتي ، ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما ويقبح إليهما الشرك . قال النسفي : وفيه أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده ، وغرضه أن يقتبس منه لم يكن من باب التزكية .

فائدة :

روى ابن أبي حاتم عن عطاء عن ابن عباس أنه كان يجعل الجد أباً (أي في الإرث) ويقول : والله لمن شاء لأعنته عند الحجر ما ذكر الله جَدّاً ولا جَدَّة . قال الله تعالى يعني إخباراً عن يوسف : ﴿ وَاتَّبَعَتْ مَلَأَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ... ﴾ .

.....

ولنعد إلى السياق . فبعد هذه المقدمة التي قدمها يوسف أقبل على الفتيين بالخطابة والدعاء هما إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ماسواه من الأوثان التي يعبدونها قومهما ، فقال : ﴿ يَا صَاحِبِي السَّجْنِ ﴾ في هذا النداء خطاب هما بصفة صحة المكان إيماناً لهما ﴿ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ الذي ذل كل شيء لعز جلاله ، وعظمة سلطانه ، أي أن تكون لكما أرباب شتى يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا خير لكما ، أم أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية ؟ ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أننا وأمثالكم ممن على دينكم ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ أي من دون الله ﴿ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي من حجة ولا برهان والمعنى سميتم مالا يستحق الأنوهمية آفة ، ثم طفقتم تعبدونها فكأنكم لاتعبدون إلا أسماء لا مسميات لها ما أنزل الله بتسميتها حجة ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ أي ما الحكم في أمر العبادة والدين إلا لله ، ثم بين ما حكم به فقال : ﴿ أَمْرٌ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ فكل نوع من أنواع العبادة يؤدي لغيره شرك وكفر وضلال ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أي النابت الذي دلت عليه البراهين . والمعنى : هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد وإخلاص العمل لله هو الدين المستقيم الذي أمر الله به ، وأنزل فيه الحجة والبرهان والذي يحبه ويرضاه ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فلهذا كان أكثرهم مشركين ، وهكذا جعل سؤالهما

سبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام ، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير ، والإقبال عليه . والإنصات إليه ، ولما فرغ من دعوتهما شرع في تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال فقال : ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً ، ولكنه لم يعينه لكلاً يحزن ذاك ، ولهذا أبهمه ﴿ وأما الآخر فيسلب فتاكل الطير من رأسه ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً ، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه ، وهو واقع لا محالة ﴿ قضى الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ أي قطع وتم ما تستفتيان فيه من أمركما وشأنكما ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما ﴾ الظان هو يوسف عليه السلام ، فإن كان تأويله بطريق الاجتهاد فالظن على حقيقته ، وإن كان بطريق الوحي فالظن بمعنى اليقين ، وكان كلامه للناجي في ظنه ، وهو الساقى ، ويبدو أنه قال ذلك خفية عن الآخر لكلاً بشعره أنه هو المطلوب ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ أي اذكر قصتي عند ربك ، وهو الملك ، وصفني بصفتي ، وقصّ عليه قصتي لعله يرحمني ويخلصني مما أنا فيه ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ أي ففسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك ، وكان ذلك النسيان من جملة مكايده الشيطان لكلاً يخرج نبي الله من السجن ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ أي مكث في السجن بضع سنين ، والبضع ما بين الثلاث إلى التسع . وأكثر المفسرين على أن مدة مكثه سبع سنين . وبهذا ينتهي المشهد .

فوائد :

١ - هذا المشهد الذي مرّ معنا موجود في التوراة الحالية في الإصحاح الأربعين من سفر التكوين . ولكن شتان بين العرضين وليس لنا ما نأخذه من هذا الإصحاح إلا أن هناك قضية خلافية بين المفسرين حول قوله تعالى : ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ . هل الضمير يعود على يوسف أو على الساقى والراجع عن مفسرينا أن الضمير يعود على الساقى ، والتوراة الحالية ترجع هذا الاتجاه إذ تقول : (ولكن لم يذكر رئيس السقاة يوسف بل نسيه) كما أن في هذا الإصحاح كلام يوسف للساقى (وتذكرني لفرعون وتخرجني من هذا البيت لأنني قد سرقت من أرض العبرانيين وهنا أيضاً لم أفعل شيئاً حتى وضعوني في السجن) وليس في الإصحاح دعوة يوسف للساقى وزميله ، وليس في الإصحاح ذكر لنسب الذي به سجنا سوى أنهما أذنيا . وبعض المفسرين المسلمين يذكر أن سبب سجنهما توهم فرعون أنهما عمالاً على ستمه في طعامه وشرابه ، وفي الإصحاح مزيد تفصيل حول الرؤيا وتعبيرها ، وفيه تصريح بأن يوسف واجه كلاً من

الاثنين بتعبير رؤياه صراحة ، وهذه المناسبة نقول : إن من يتأمل هذا المشهد ويقارنه بما ورد في هذا الشأن في سفر التكوين يجد في هذا المشهد وحده معجزة ، فأصحاح سفر التكوين لا تكاد تجد فيه أي مظهر من مظاهر النبوة وعديها وكلامها ودعوتها ، بينما تجد القرآن يذكر لك الموضوع كأنك تراه بكل حيثياته الهادية ، وبكل مايدل على شخصية يوسف كما هي في نبوتها وما يثبني بهذه النبوة من هدى . وللمقارنة ننقل الإصحاح كله . الإصحاح الأربعين : (وحدث بعد هذه الأمور أن ساقى ملك مصر والحجاز أذنيا إلى سيدهما ملك مصر ، فسخط فرعون على خصيّه رئيس السقاة ورئيس الخبازين ، فوضعهما في حبس بيت رئيس الشرط في بيت السجن المكان الذي كان يوسف محبوساً فيه . فأقام رئيس الشرط يوسف عندهما فخدمهما ، وكانا أياماً في الحبس . وحلما كلاهما حلماً في ليلة واحدة كل واحد حلمه كل واحد بحسب تعبیر حلمه . ساقى ملك مصر وخبازه المحبوسان في بيت السجن . فدخل يوسف إليهما في الصباح ونظرهما وإذا هما مفتان . فسأل حصي فرعون اللذين معه في حبس بيت سيده قائلاً لماذا وجهكما مكمدان اليوم : فقالا له حلمنا حلماً وليس من يعبره . فقال لهما يوسف أليست لله التعابير . قصاً علي . فقصّ رئيس السقاة حلمه على يوسف وقال له كنت في حلمي وإذا كرمة أمامي . وفي الكرمة ثلاثة قضبان وهي إذا أفرخت طلع زهرها وأنضجت عناقيدها عباً . وكانت كأس فرعون في يدي ، فأخذت العنب ، وعصرته في كأس فرعون وأعطيت الكأس في يد فرعون . فقال له يوسف هذا تعبيره . الثلاثة القضبان هي ثلاثة أيام . في ثلاثة أيام أيضاً يرفع رأسك ويردك إلى مقامك ، فتعطي كأس فرعون في يده كالعادة الأولى حين كنت ساقبه . وإنما إذا ذكرتني عندك حينما يصير لك خير تصنعه إلي إحساناً وتذكرني لفرعون وتخرجني من هذا البيت لأنني قد سرقت من أرض العبرانيين . وهنا أيضاً لم أفعل شيئاً حتى وضعوني في السجن .

فلما رأى رئيس الخبازين أنه عبر جيداً قال ليوسف كنت أنا أيضاً في حلمي ، وإذا ثلاثة سلال خُوارى على رأسي . وفي السل الأعلى من جميع طعام فرعون من مصنعة الخبز . والظبور تأكله من السل عن رأسي . فأجاب يوسف وقال : هذا تعبيره ، الثلاثة سلال هي ، ثلاثة أيام . في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك عنك ويعنقك على حشة وتأكل الظبور لحمك عنك .

فحدث في اليوم الثالث يوم ميلاد فرعون أنه صنع وليمة لجميع عبيده ورفع رأس رئيس السقاة ورأس رئيس الخبازين بين عبيده . ورد رئيس السقاة إلى سقته . فأعطى

الكأس في يد فرعون . وأما رئيس الخبازين فعلقه كما عبر هما يوسف . ولكن لم يذكر رئيس السقاة يوسف بل نسيه) .

٢ - عندما ذكر الله لنا في سورة الأنعام أسماء ثمانية عشر رسولاً ذكر هناك من جنتهم يوسف عليه السلام . ثم بعد ذلك قال الله عز وجل ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ وعلى هذا فيوسف عليه السلام قدوة ، وهذا المشهد الذي مر معنا يعطينا إذن القدوة لمن ابتلى بالسجن ، ومما نلاحظه في هذا الموضوع أن يوسف عليه السلام كان محسناً في سجنه ، وإن إحسانه كان عاماً مع أن من حوله كانوا مشركين ، وأنه كان لا يترك فرصة تمر إلا ويدعو فيها إلى الله . وقد استنتج بعض المفسرين أن يوسف عليه السلام كان في السجن مشتهراً بالجود والأمانة ، وصدق الحديث ، وحسن السمات ، وكثرة العبادة ، ومعرفة التعبر ، والإحسان إلى أهل السجن ، وعبادة مرضاهم ، والقيام بحقوقهم . ونلاحظ أن يوسف عليه السلام لم يستنكف أن يقول لساقى الملك ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ ولكنه طلب جميل وبأسلوب عفيف .

٣ - التوراة الحالية تذكر أن سن يوسف عندما ألقاه إخوته في البئر كان سبعة عشر عاماً ، وتذكر أنه عندما خرج من السجن كان سنه ثلاثين سنة . وتذكر أنه بقي سنتان بعد خروج الساقى من السجن . فإذا اعتبرنا رأى أكثر المفسرين أن مدة سجنه كانت سبع سنين تكون المسألة على الشكل التالي : أن المراودة كانت وسنه ثلاث وعشرون ، وأن رؤيا الفتيتين كانت وسنه ثمانية وعشرون سنة ، وعلى هذا فإن رواية التوراة الحالية تفيد أنه بقي في السجن سبع سنين وليس في المسألة نص قاطع .

٤ - هناك اتجاه للمفسرين أن الرؤيتين للفتيتين كانتا مختلفتين ، ورواية التوراة الحالية ترجح الرأي الآخر كما رأينا وهو الرأي الذي يقول : إنهما رؤيان حقيقة وهو ما نرجحه .

٥ - بمناسبة قول يوسف عليه السلام بعد تعبيره الرؤيتين ﴿ قضى الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ يذكر ابن كثير الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ « الرؤيا على رجل طائر مالم تُعبر فإذا عُبرت وقعت » . وفي مسند أبي يعلى عن أنس مرفوعاً « الرؤيا لأول عابر » أي : تقع كما يفسرها أول مفسر . أقول : على شرط أن يكون المعبر يُعبر عن علم لا عن جهل .

٦ - قصة يوسف عليه السلام تعتبر ركناً من أركان علم التعبير لأن فيها أربع رؤى وتعبيراتها ، ولقد قاس المعبرون على ذلك واستنبطوا قواعد ، واستخرجوا أسساً بنوا عليها علم التعبير ، والملاحظ : أن علم التعبير عند المسلمين هو أوسع منه عند غيرهم ، فلقد كتب علماء المسلمين في هذا الموضوع الكتب المطولة وأساس ذلك كله ماورد في الكتاب والسنة من تأويل الرؤى .

نقل عن الظلال :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ إِنْ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ . أَمْرٌ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ . ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ . وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قال صاحب الظلال :

(إِنْ الْحُكْمَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ ، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته . إذ الحاكمية من خصائص الألوهية . من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته ؛ سواء ادعى هذا الحق فرد ، أو طبقة ، أو حزب ، أو هيئة . أو أمة ، أو الناس جميعاً في صورة منظمة عالية . ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته ، وادّعاها فقد كفر بالله كفراً بواحاً ، يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة ، حتى يحكم هذا النص وحده .

وادعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدعى من دائرة الدين القيم ، وتجعله منازعاً في أولى خصائص ألوهيته - سبحانه - فليس من الضروري أن يقول : ما علمت لكم من إله غيري . أو يقول : أنا ربكم الأعلى . كما قالها فرعون جبهة . ولكنه يدعي هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن ينحى شريعة الله عن الحاكمية ، ويستمد القوانين من مصدر آخر . وبمجرد أن يقرر أن الجهة التي تملك الحاكمية - أي التي تكون هي مصدر السلطات - جهة أخرى غير الله سبحانه . ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية . والأمة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاوله الحكم بشريعة الله ، ولكنها ليست هي مصدر الحاكمية التي تعطى القانون شرعيته . إنما مصدر الحاكمية هو الله . وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين يخلطون بين مزاوله السلطة وبين مصدر السلطة . فالتناس بجملتهم لا يملكون حق الحاكمية إنما يملكه الله وحده . والناس إنما يزاولون تطبيق ما شرعه الله بسلطانه ، أما ما لم يشرعه الله فلا سلطان له ولا شرعية ، وما أنزل الله به من سلطان .

ويوسف - عليه السلام - يعطى القول بأن الحكم لله وحده فيقول : ﴿ أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ . ولا نفهم هذا التعليل كما كان يفهمه الرجل العربي إلا حين ندرك معنى « العبادة » التي يختص بها الله وحده .

إن معنى عِبَد في اللغة : دان ، وخضع ، وذل ... فعندما نزل هذا النص أول مرة كان المقصود به هو الدينونة لله وحده ، والخضوع له وحده ، واتباع أمره وحده ، سواء تعلق هذا الأمر بشريعة تعبدية ، أو تعلق بتوجيه أخلاقي ، أو تعلق بشريعة قانونية . فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العبادة التي خصَّ الله - سبحانه - بها نفسه ، ولم يجعلها لأحد من خلقه .

وحين نفهم معنى العبادة على هذا النحو نفهم لماذا جعل يوسف - عليه السلام - اختصاص الله بالعبادة تعليلاً لاختصاصه بالحكم . فالعبادة - أي الدينونة - لا تقوم إذا كان الحكم لغيره . وسواء في هذا حكمه القدرى القهري في حياة الناس وفي نظام الوجود ، وحكمه الشرعى الإرادى في حياة الناس خاصة . فكله حكم تتحقق به الدينونة .

ومرة أخرى نجد أن منازعة الله الحكم تخرج المنازع من دين الله - حكماً معلوماً من الدين بالضرورة - لأنها تخرجه من عبادة الله وحده .. وهذا هو الشرك الذي يخرج أصحابه من دين الله قطعاً . وكذلك الذين يقرون المنازع على ادعائه ، ويدّعون له بالطاعة وقلوبهم غير منكورة لاغتصابه سلطان الله وخصائصه .. فكلهم سواء في ميزان الله . ويقرر يوسف - عليه السلام - أن اختصاص الله - سبحانه - بالحكم تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة . هو وحده الدين القيم : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ . وهو تعبير يفيد القصر . فلا دين قيم سوى هذا الدين ، الذي يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم ، تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة . ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وكونهم « لا يعلمون » لا يجعلهم على دين الله القيم . فالذي لا يعلم شيئاً لا يثبت الاعتقاد فيه ولا تحقيقه .. فإذا وجد ناس لا يعلمون حقيقة الدين ، لم يعد من الممكن عقلاً وواقعاً وصفهم بأنهم على هذا الدين . ولم يبق جهلهم عذراً لهم يسبغ عليهم صفة الإسلام . ذلك أن الجهل مانع للصفة ابتداءً . فاعتقاد شيء فرع عن العلم به .. وهذا منطق العقل والواقع .. بل منطق البهانة الواضح) ولنتقل إلى المشهد الخامس في القصة .

المشهد الخامس

وَيَمْتَدُّ مِنَ آيَةِ (٤٣) إِلَى نِهَآيَةِ آيَةِ (٥٧) وَهَذَا هُوَ :

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعُ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ
 وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ ^{٤٣} يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونًا فِي رُبْعَيْنِ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾
 قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا تَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي لَهَا
 مِنْهَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٤﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ
 أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ
 لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ تَزَرَّعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا
 فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا فَمَا تَأْكُونَ ﴿٤٦﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ
 ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ هُنَّ إِلَّا قَلِيلًا فَمَا تُوَحِّصُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ
 ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِصُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُوتَنِي بِهِ فُلَبَّأُ
 جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
 إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٤٩﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رُودَتْكُمْ يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ
 حَشَى لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْأَعْنَى حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا
 رُودَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ

وَأَنْتَ اللَّهُ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٤٣﴾ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ
 بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهَرَّةٍ
 أَسْتَخْلِصُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٤٥﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي
 عَلَى نَحْرَآئِنِ الْأَرْضِ إِنَِّّي حَفِظْتُ عَلِيمٌ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّالِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ
 مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٧﴾
 وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٤٨﴾

التفسير :

﴿ وقال الملك ﴾ ملك مصر ﴿ إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ﴾ أي مهازيل والنحف : الهزال الذي ليس بعده ﴿ وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ﴾ أي وسبعاً يابسات ﴿ يا أيها الملأ ﴾ أي يا أعيان المملكة من الحكماء والعلماء والسحرة ﴿ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ أي تؤولون وتفسرون ، ومعنى عبرت الرؤيا : أي ذكرت عاقبتها وآخر أمرها ، ونحوه أولت الرؤيا إذا ذكرت مآلها وهو مرجعها ﴿ قالوا أضغاث أحلام ﴾ أي تخاليطها وأباطيلها ، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان ، وأصل الأضغاث : ما جمع من أخلاط انبيات وحزم من أنواع الخشيش فاستعيرت لذلك والتقدير : أضغاث من أحلام ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ يحتمل كلامهم أنهم أرادوا بالأحلام المنامات الباطلة ، فقلنا ليس لها عندنا تأويل إنما التأويل للمنامات الصحيحة ، ويحتمل أنهم اعترفوا بنقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بخابرين ﴿ وقال الذي نجا ﴾ من القتل ﴿ منهما ﴾ من صاحبي السجن وهو الساقى ﴿ وأذكر بعد أمة ﴾ أي وتذكر يوسف وما شاهد منه بعد مدة ، وهذه المدة تحددها التوراة الحالية بأنها ستان ، وتذكره كان حين استفتى الملك في رؤياه ، وأعضل على الملك تأويلها . وعندئذ تذكر التاجي يوسف وتأويله رؤيا هو رؤيا صاحبه وطلبه إليه أن يذكره عند الملك فقال : ﴿ أنا أنبئكم

بتأويله فأرسلون ﴿ أي أنا أخيركم بتفسيره عمن عنده علمه فابعثوني إليه لأسأله ، فبعثوه فجاء فقال : ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾ أي أيها البليغ في الصدق وإنما قال له ذلك لأنه ذاق وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء تفسيرها كما أول ﴿ أفنسا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعل أرجع إلى الناس ﴾ أي إلى الملك وأعوانه ﴿ لعلهم يعلمون ﴾ الحق في أمرها ، وفضلك ومكانك من العلم فيطلقونك من محتك ، فعند ذلك ذكر له يوسف تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصّاه به ، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك ﴿ قال : تزرعون سبع سنين دأباً ﴾ أي متواليات وكلامه يفيد الأمر والتقدير : إزرعوا سبع سنين متواليات ﴿ فما حصدتم فذروه في سنبله ﴾ كي لا يأكله السوس ﴿ إلا قليلاً مما تأكلون ﴾ في تلك السنين كأنه قال : إن أمامكم سبع سنين مخصبة بمطرة ، فمهما استغلتم في هذه السبع السنين فادعروه في سنبله ليكون أبقي له ، وأبعد عن إسراع الفساد إليه ، إلا المقدار الذي تأكلونه ، وليكن قليلاً لا تسرفوا فيه لتنتفعوا في السبع الشداد ، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات لذلك قال : ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ﴾ أي بمحلات ﴿ يأكلن ما قدمتم هن ﴾ أي في السنين المخصبة ﴿ إلا قليلاً مما تحصنون ﴾ أي تحمزون ونخبثون ﴿ ثم يأتي من بعد ذلك ﴾ أي من بعد أربع عشرة سنة ﴿ عام فيه يفاث الناس ﴾ أي يأتهم الغيث وهو المطر ﴿ وفيه يعصرون ﴾ العنب والزيتون وغير ذلك ، فيتخذون الأشربة والأدهان ، أول البقرات السمات ، والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب ، والعجاف واليابسات بسنين مجدية ، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا أن العام الثامن بعد الشدة يحيى مباركاً ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي ﴿ وقال الملك ﴾ بعد أن رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه وأيقنه فعرف فضل يوسف عليه السلام وعلمه ﴿ أنتوني به ﴾ أي أخرجوه من السجن وأحضروه ﴿ فلما جاءه الرسول ﴾ ليخرجه من السجن ﴿ قال أرجع إلى ربك ﴾ أي إلى الملك ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي يكيدهن عليم ﴾ أي إن كيدهن عظيم لا يعلمه إلا الله وهو مجازم عليه ، امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك وورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه ، مما نسب إليه ، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه بل كان ظلماً وعدواناً . قال النسفي : (إنما تثبت يوسف ، وتأني في إجابة الملك ، وقدم سؤال النسوة ؛ ليظهر براءة ساحته ، عما رمي به وسجن فيه ، لئلا يتسلق به الحاسدون إلى تقييح أمره عنده ، ويجعلوه سُلماً إلى حظ

منزلته لديه ، ولئلا يقولوا ما غلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير ، وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب إنقاء الوقوف في مواقفها) والملاحظ أنه لم يذكر سيده مع ما صنعت به وتسييت فيه من السجن والعذاب ، واقتصر على ذكر المقطعات أيديهن ، وذلك من كمال كرمه وحسن أدبه ، ورجع الرسول إلى الملك برسالة يوسف ، فدعا الملك النسوة المقطعات أيديهن ، ودعا امرأة العزيز فإما أنهن معروفات أو أن يوسف حدّد أسماءهن ﴿ قال ﴾ أي الملك هن ﴿ ما خطبكن ﴾ أي ما شأنكن ﴿ إذ راودتني يوسف عن نفسه ﴾ أي هل وجدتن منه ميلا إلبكن ﴿ قلن حاش لله ﴾ تعجباً من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ أي من ذنب ﴿ قالت امرأة العزيز الآن خصخص الحق ﴾ أي ظهر واستقر ﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ أي في قوله هي راودتني عن نفسي ، ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة ، واعترافهن على أنفسهن أنه لم يتعلق بشيء مما قذف به ﴿ ذلك ليعلم أي لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴾ هذا الكلام هل هو كلام امرأة العزيز ؟ أو قول يوسف معللاً سبب امتناعه من الخروج حتى تثبت براءته ؟ فولان للمفسرين وقد رشح ابن تيمية وابن كثير أن هذا من تنمة كلام امرأة العزيز ، ولم يذكر ابن جرير وابن أبي حاتم إلا القول الذي يدل على أنه من كلام يوسف ، وعلى القول أن هذا من تنمة كلام امرأة العزيز يكون المعنى : إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ولا وقع المخذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة ، فامتنع ، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرئ نفسي ﴾ تقول المرأة لست أبرئ نفسي ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ﴾ أي إلا من عصمه الله ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ ذكرت بغفران الله الذنب ، وبرحمة الله مستعطفة ، راجية وعلى القول بأن هذا كلام يوسف يكون المعنى : ﴿ ذلك ﴾ أي امتناعي عن الخروج ﴿ ليعلم ﴾ أي العزيز ﴿ أني لم أخنه بالغيب ﴾ أي بظهر الغيب في حرمه ، أو ليعلم الملك أني لم أخن العزيز بظهر الغيب ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ أي وليعلم أن الله لا يسدّد كيد الخائنين ، وكأنه تعريض بامرأته في عيانتها أمانة زوجها ، ثم أراد أن يتواضع لله ، ويهضم نفسه ؛ لئلا يكون لها مركزياً ، وليبين أن ما فيه من الأمانة بتوفيق الله وعصمته فقال : ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ أي من الزلل وما أشهد لها بالبراءة الكلية ، ولا أزكيها

في عموم الأحوال أو في هذه الحادثة ، لما ذكرنا من أهم الذي هو الخطرة البشرية لأمر طريق القصد والعزم ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ أي إن النفس البشرية بطبيعتها تأمر بالسوء ، وتحمل عليه لما فيه من شهواتها وحفظها ﴿ إِلَّا مَارَحِمَ رَبِّي ﴾ أي إلا البعض الذي رحمه ربى بالعصمة ، أو إلا وقت رحمة ربى . يعني أنها أمارة بالسوء في كل وقت إلا وقت العصمة ، أو إن النفس لأمارة بالسوء ، ولكن رحمة ربى هي التي تصرف الإساءة ، وبعد أن ذكر النفسى وقرر هذا الوجه ، وهو أن هذا كلام يوسف ذكر وجه أن يكون هذا كلام امرأة العزيز إلا أنه وجهه غير التوجيه الذي وجهه إياه ابن كثير ، وهذا كلامه : (وقيل هو من كلام امرأة العزيز أي ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي قلت ﴿ لِيَعْلَم ﴾ يوسف ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ ﴾ ولم أكذب عليه في حال الغيبة ، وحثت بالصدق فيما سألت عنه ﴿ وَمَا أَرَىءَ نَفْسِي ﴾ مع ذلك من الخيانة ، فإنني قد نخته حين قر مني وقلت ﴿ مَا جِزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يَسْجَنَ ﴾ وأودعته السجن ، وتريد الاعتذار مما كان منها ، إن كل نفس ﴿ لِأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَارَحِمَ رَبِّي ﴾ إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ﴿ إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ استغفرت ربها واسترحمتها مما ارتكبت ، وإنما جعل من كلام يوسف ، ولا دليل عليه ظاهر ، لأن المعنى يقود إليه ، وقبل هذا من تقديم القرآن وتأخيرها ، أي قوله ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَم ﴾ متصل بقوله ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قُطِعَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ .

وسواء كان كلام امرأة العزيز ، أو كان كلام يوسف عليه السلام ، فالدرس المستفاد منه لا يتغير ، أن العقوبة الحميدة للأمانة ، والعاقبة الذليلة للخيانة . ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴾ حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ، ونزاهة عرضه مما كُتب إليه ﴿ أَنْتُوْنِي بِهِ أَسْتَخْلَصْهُ لِنَفْسِي ﴾ أي أجعله خالصاً لنفسي ، أي أجعله من خاصتي ، وأهل مشورتي . ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ أي خاطبه الملك ، وعرفه ، ورأى فضله وبراعته ، وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكإل ﴿ قَالَ ﴾ أي الملك ليوسف ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ ﴾ أي ذو مكانة ومنزلة ﴿ آمِينَ ﴾ أي مؤتمن على كل شيء ﴿ قَالَ ﴾ يوسف ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ أي ولني على خزائن أرضك مصر ، والخزائن هي الأهرام التي يجمع فيها الغلات ، لما يستقبلونه من المسنين التي أخبرهم بشأنها ، فيتصرف ضم على الوجه الأحوط ، والأصلح ، والأرشد ﴿ إِنْ حَفِظْتُ ﴾ أي أمين أحفظ ما استحفظنيه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي عالم بوجوده التصرف ، هذا تعليل لطيف ، وصف نفسه بالأمانة ، والكفاية ، وهما طلبة الملوك ممن يولونه ، وهما الصفتان اللتان يحتاجهما

كل عمل . وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إفضاء أحكام الله ، وإقامة الحق ، وبسط العدل ، وتمكين مما لأجله بعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك ، فضله ابتغاء وجه الله ، لأحب الملك والدنيا . قال النسفي . (قالوا : وفيه دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عمالة من يد سلطان جائر ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة الظلمة ، وإذا علم النبي ، أو العام أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ، ودفع الظلم إلا بتسكين الملك الكافر أو الفاسق فله أن يستظهر به ، وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه ، ولا يعترض عليه في كل ما رأى ، وكان في حكم التابع له) .

﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ أي ومثل ذلك التمكين الظاهر مكنا ليوسف في الأرض . أرض مصر . وتمكين الإقدار وإعطاء المكنة ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ أي كل مكان أراد أن يتخذ منزلاً لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ، ودخولها تحت سلطانه ﴿ نصيب برحمتنا ﴾ أي بعطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم ﴿ من نشاء ﴾ أي من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ كما لم نضيع صبر يوسف على أذى إخوته ، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز ، فلهذا أعقبه الله عز وجل النصر والتأييد في الدنيا ﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ يخبر تعالى أن ما ادخره الله يوسف عليه السلام ، ومن كان على قدمه من المؤمنين المتقين في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما حوله من التصرف ، والنفوذ في الدنيا .

فوائد :

١ - هذا المشهد الذي مرّ معنا موجود في التوراة الحالية في الإصحاح الحادي والأربعين وليس في الإصحاح كثير من التفاصيل فليس فيه أن رئيس السقاة يقص على يوسف الرؤيا ، ثم يرجع بذلك إلى الملك ، وليس فيه طلب يوسف سؤال النسوة وما جرى فيه ، وذلك غير مستغرب . لأن التوراة الحالية روايات مجموعة بعد زمن طويل من نزولها . ولعل من أعظم الأدلة على أن التوراة الحقيقية كانت ضالعة ، هذا النص الموجود في سفر الملوك الثاني في الإصحاح الثاني والعشرين والإصحاح الثالث والعشرين وفيهما : (فقال جلقيا الكاهن العظيم لشافان الكاتب قد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب . وسلم جلقيا السفر لشافان فقرأه فلما سمع المثلث كلام سفر الشريعة مرق نياه ... إذهبوا واسألوا الرب لأجلي ولأجل الشعب ولأجل كل يهوذا من جهة كلام

هذا السفر الذي وجد لأنه عظيم هو غضب الرب الذي اشتعل علينا من أجل أن آباءنا لم يسمعوا لكلام هذا السفر وقرأ في آذانهم كل كلام سفر الشريعة الذي وجد في بيت الرب) فإذا كان سفر الشريعة قد عثر عليه في زمن الملك يوشيا الذي لم يكن بينه وبين سبي بابل إلا ملكان هما : يهو آحاز ، ويهو يانيم فعما بالك ببقية التوراة ، وما بالك بما جرى لها بعد سبي بابل ، فإذا عرفنا أن المعروف أن التوراة قد جُمعت من الروايات الشفهية بعد غزو بابل ، أدركنا ما طرأ عليها ، وعرفنا نعمة الله الذي أنزل هذا القرآن ، مستوعباً التوراة والإنجيل والزبور ، وزالداً على الجميع ، بمجموع ما فيه ، ومن ثم نجد فيه مثل هذا الكمال . فهذا الفصل الذي رأيناه من قصة يوسف يستوعب ما ورد في الإصحاح الحادي والأربعين : ويزيد عليه بتفصيلات كثيرة هي من اللباب في باب الهداية . هذا مع الدقة والصدق والخلو من الحشو والخطأ والباطل ، وتحريفات أقلام النساخ الكاذبة ، وتلاحظ أن الإصحاح الحادي والأربعين في التوراة الحالية يفصّل قصة زواج يوسف عليه السلام من بنت كاهن أون ، وليس في ذلك أي إشارة إلى أن زوجته هذه هي زوجة سيده ، وإنما أشرنا إلى هذا المعنى لأن بعض المفسرين يستطردون في هذا المقام فينقلون نقولاً إما أنها من روايات أهل الكتاب ، أو من اختلاق القصاص ، وليس عليها من دليل قالم من كتاب أو سنة أو حتى رواية توراة مختلطة ، فإذا استقرت هذه المعاني أصبح بإمكاننا أن ننقل الإصحاح كله ، ومن قراءته يدرك القارئ الفارق العظيم بين القرآن وغيره ، ويرى مظهراً من مظاهر الإعجاز ، ويعرف بذلك كيف أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر ، ويعرف ألم كانت سورة يوسف نموذجاً على الإعجاز الذي ينفي الرب عما أنزل الله على محمد ﷺ وهذا هو الإصحاح الحادي والأربعون : (وحدث من بعد سنتين^(١) من الزمان أن فرعون رأى حلمًا . وإذا هو واقف عند النهر . وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر حسنة المنظر وسمينة اللحم . فارفعت في روضة . ثم هو ذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها من النهر قبيحة المنظر ورقيفة اللحم . فوقفت بجانب البقرات الأولى على شاطئ النهر فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرقيفة اللحم البقرات السبع الحسنة المنظر والسمينة . واستيقظ فرعون ثم نام فحلم ثانية ، وهو ذا سبع سنابل طالعة في ساق واحد سمينة وحسنة ، ثم هو ذا سبع سنابل رقيقة وملفوفة بالريخ الشرقية ثابتة ، وراءها . فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل

(١) ثم بعد عروج الفارين من السجن بسنتين .

السبع السمينة الممتلئة ، واستيقظ فرعون وإذا هو حلم . وكان في الصباح أن نفسه
انزعجت فأرسل ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها ، وقصّ عليهم فرعون
حلمه ، فلم يكن من يعبره لفرعون : ثم كلم رئيس السفاة فرعون قائلاً أنا أتذكر اليوم
عصا ياي . فرعون سحق على عبديه فجعلني في حيس بيت رئيس الشرط أنا ورئيس
الخبازين ، فحلمنا حلماً في ليلة واحدة . أنا وهو حلمنا كل واحد بحسب تعبير حلمه .
وكان هناك معنا غلام عبراني عبد لرئيس الشرط فقصصنا عليه فعبّر لنا حلمنا . عبّر
لكل واحد بحسب حلمه . وكما عبّر لنا هكذا حدث . ردّني أنا إلى مقامي ، وأما هو
فعلّقه فأرسل فرعون ودعا يوسف فأسرعوا به من السجن ، فحلق وأبدل ثيابه ودخل
على فرعون فقال فرعون ليوسف حلمت حلماً وليس من يعبره . وأنا سمعت عنك قولاً
إنك تسمع أحلاماً لتعبّرهما فأجاب يوسف فرعون قائلاً ليس لي . الله يجيب بسلامة
فرعون .

فقال فرعون ليوسف إني كنت في حلمي واقفاً على شاطئ النهر . وهو ذا سبع
بقرات طالعة من النهر سمينة اللحم وحسنة الصورة فارتعت في روضة ، ثم هو ذا سبع
بقرات أخرى طالعة وراءها مهزولة وفيحة الصورة جداً ورقيقة اللحم . لم أنظر في كل
أرض مصر مثلها في الفباحة . فأكلت البقراث الرقيقة والقيحة البقراث السبع الأولى
السمينة . فدخلت أجوافها ولم يعلم أنها دخلت في أجوافها فكان منظرها قبيحاً كما في
الأول . واستيقظت ثم رأيت في حلمي ، وهو ذا سبع سنابل طالعة في ساق واحد ممتلئة
وحسنة ثم هو ذا سبع سنابل يابسة رقيقة ملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها فابتلعت
السنابل الرقيقة السبع الحسنة فقلت للسحرة ولم يكن من يخبرني .

فقال يوسف لفرعون حلم فرعون واحد ، قد أخبر الله فرعون بما هو صانع ،
البقراث السبع الحسنة ، هي سبع سنين ، والسنابل السبع الحسنة هي سبع سنين ، هو
حلم واحد ، والبقراث السبع الرقيقة القبيحة التي طلعت وراءها هي سبع سنين ،
والسنابل السبع الفارغة الملفوحة بالريح الشرقية تكون سبع سنين جوعاً ، هو الأمر الذي
كلمت به فرعون . قد أظهر الله لفرعون ما هو صانع هو ذا سبع سنين قادمة شبعاً
عظيماً في كل أرض مصر ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعاً . فينسى كل الشيع في أرض
مصر ، ويتلف الجوع الأرض ولا يعرف الشيع في الأرض من أجل ذلك الجوع بعده .
لأنه يكون شديداً جداً . وأما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين فلأن الأمر مقرر من
قبل الله والله مسرع ليصنعه .

فالآن لينظر فرعون رجلاً بصيراً ويجعله على أرض مصر . بفعل فرعون فيوكل نظاراً على الأرض ، ويأخذ خمس غلة أرض مصر في سبع سني الشبع ، فيجمعون جميع طعام هذه السنين الجيدة القادمة ويخزنون قمحاً تحت يد فرعون طعاماً في المدن ويحفظونه . فيكون الطعام ذخيرة للأرض لسبع سني الجوع التي تكون في أرض مصر . فلا تنقرض الأرض بالجوع . فحسن الكلام في عيني فرعون . وفي عيون عبيده ، فقال فرعون لعبيده هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله . ثم قال فرعون ليوسف بعدما أعلمك الله كل هذا ليس بصير وحكيم مثلك ، أنت تكون على بيتي وعلى فعلك يقبل جميع شعبي . إلا أن الكرسي أكون فيه أعظم منك . ثم قال فرعون ليوسف انظر . قد جعلتك على كل أرض مصر . وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف . وألبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب في عنقه . وأركبه في مركبته الثانية . ونادوا أمامه اركعوا . وجعله على كل أرض مصر . وقال فرعون ليوسف أنا فرعون فبدونك لا يرفع إنسان يده ولا رجله في كل أرض مصر .

ودعا فرعون اسم يوسف صفنات فتنيح وأعطاه أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون زوجة . فخرج يوسف على أرض مصر ، وكان يوسف ابن ثلاثين سنة لما وقف قدام فرعون ملك مصر ، فخرج يوسف من لدن فرعون واجتاز في كل أرض مصر .

وأنثرت الأرض في سبع سني الشبع بحزم . فجمع كل طعام السبع الذي حوالها جعله فيها ، وخزن يوسف قمحاً كرميل البحر كثيراً جداً حتى ترك العدد إذ لم يكن له

عدد وولد ليوسف ابنان قبل أن تأتي سنة الجوع . ولدتهما له أسنات بنت فوطي فارع كاهن أون . ودعا يوسف اسم البكر قنسي قائلاً لأن الله أنساني كل تعبى وكل بيت أبي ، ودعا اسم الثاني أفرايم قائلاً لأن الله جعلني مُشبراً في أرض مدلتى .

ثم كملت سبع سني الشبع الذي كان في أرض مصر . وابتدأت سبع سني الجوع تأتي كما قال يوسف . فكان جوع في جميع البلدان . وأما جميع أرض مصر فكان فيها خبز . ولما جاءت جميع أرض مصر وصرخ الشعب إلى فرعون لأجل الخبز قال فرعون لكل المصريين اذهبوا إلى يوسف . والذي يقول لكم افعلوا وكان الجوع على كل وجه الأرض . وفتح يوسف جميع ما فيه طعام وباع للمصريين . واشتد الجوع في أرض مصر . وجاءت كل الأرض إلى مصر إلى يوسف لشترى قمحاً . لأن الجوع كان شديداً في كل الأرض . ()

٢ - لفت نظرنا سيدنا رسول الله ﷺ إلى مواقف في قصة يوسف عليه السلام ، رحمة بهذه الأمة . فلتر ذلك :

في المسند والصحاحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال : رسول الله ﷺ :
 « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ الآية (والمعنى : وإذا لم نشك نحن فإن إبراهيم لم يقل كلمة شكاً) ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي » وفي هذا الشأن بيان للرخصة رحمة بأفراد هذه الأمة ، حتى لا يظن أحد من هذه الأمة أن عليه أن يقف موقف يوسف في رفض الخروج حتى تثبت البراءة ، وفي لفظ الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن علیم ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتعت العذر » .

وروى عبد الرزاق عن عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ : « لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه ما أحبتهم حتى أشرت أن يخرجوني ، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين أتاه الرسول ، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ، ولكنه أراد أن يكون له العذر » قال ابن كثير : هذا حديث مرسل . وكما قلنا فإن رسولنا عليه الصلاة والسلام يعطي هذه الأمة رخصة في هذا المقام : وإلا فما لوقف الله ﷻ رسوله ﷺ موقفاً إلا وتصرف فيه التصرف الأعلى والأكمل والأرقى .

٣ - في طلب يوسف الولاية من سلطة كافرة بناءً على كفايته ، وأمانته في القيام بمضمونها ، وقوله ما يشبه الوزارة في دولة كافرة ، وهو محل القدوة ، دليل على أن حكم الله في هذا الموضوع مرتبط بمصلحة الإسلام والمسلمين ومصلحة الخلق ، وهو موضوع يحتاج إلى موازنات كثيرة ، وشورى من أهلها إن وجدوا ، وقد غلط ناس ظنوا أن المشاركة في وزارة أو غيرها في كل سلطة كافرة حرام بإطلاق ، وفي ثناء يوسف عليه السلام على نفسه دليل على أنه يجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره للحاجة .

وهاتان قضيتان مهمتان في عصرنا . ففي عصرنا حيث يتحكم الكفر ويحكم . وحيث فرضت أنظمة كافرة على أقطار إسلامية ، تجدد بعض المسلمين يترددون في المشاركة في الحكم ، أو في رفضه ، وتجدهم يترددون في ترشيح أنفسهم لمناصب

الدولة ، والذي تفهمه من قصة يوسف عليه السلام أنه يستطيع المسلم أن يركي نفسه في بعض الحالات ، وأن يستلم منصباً من مناصب الدولة إذا كان في ذلك خدمة لدين الله ، أو مصلحة للمسلمين ، أو منفعة عامة للخلق ، لا يرافقها إثم ، ويتدخل في هذا الموضوع عامل النية ، وموقف أهل الحق . فإذا ارتأى أهل الحق لأحدهم أن يفعل شيئاً فعليه أن يفعل على شرط تصحيح النية . وفي كتابنا (دروس في العمل الإسلامي) بيان هذا الموضوع ، وليس كلامنا في عمل يتنافى مع العقيدة ، أو يضطر صاحبه للنفاق ، أو لعمل آثم . والموازنة دائماً بين الجيد والأجود ، والعزيمة والرخصة ، واختيار أخف الشرين ، وأهون الضررين صعبة . وتحتاج إلى توفيق إلهي . إن الذين يُحْطَئُونَ المسلم الصالح الذي يقبل وزارة في بلد كاهند الحالية يحكمون على الإسلام بالدمار هناك ، والذين يُقْبَلُونَ التعال ويركبون متن النفاق للوصول إلى وزارة لا يخدمون فيها إلا الكفر ، ليسوا إلا طلاب دنيا .

والمقاعدة إذا وَجَدَ أهل الشورى من أهل الحق ، ورأوا رأياً ، أو رأيت أكثريتهم رأياً فهو الفیصل في كل زمان ومكان . لأن قضايا الحياة من التعقيد بحيث لا يسمع المسلمون فيها موقف لين ، أو موقف صلب . ولقد قال الألوسي عند قوله تعالى حكاية عن يوسف ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ (وفيه دليل على جواز مدح الإنسان نفسه بالحق إذا جهل أمره ، وجواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل ، وإجراء أحكام الشريعة ، وإن كان من يد الخائر أو الكافر ، وربما يجب عليه الطلب إذا توقف على ولايته إقامة واجب مثلاً وكان متعبناً لذلك ، وما في الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ « يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة ، فأنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها » والمراد في غير ما ذكر) اهـ كلام الألوسي

٤ - مر معنا أن الرؤيا لأول عابر ، ونلاحظ أن حاشية فرعون ومن عرض عليهم رؤياه قالوا عنها أضغاث أحلام ، وهم أول من قال فيها كلمة ، ومع ذلك لم تعتبر كلمتهم ، ومن هنا نفهم ، أن الرؤيا لأول عابر يعلم ، أما الجهلة فهؤلاء ليسوا معبرين ، وإنما هم متقولون ، فالعبرة للعابر الأول الذي اتصف بأهنية التعبير .

٥ - للألوسي تحقيق في التفريق بين الرؤيا والحلم يذكره بمناسبة قوله تعالى ﴿ قالوا أضغاث أحلام ﴾ وهذا هو كلامه قال : (والأحلام جمع حلم بضمه وبضمين المنامات الباطلة على مانص عليه جمع ، وقال بعضهم : الرؤيا والحلم عبارة عما يراه النائم

مطلقاً ، لكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن ، وغلب الحلم على خلافه ، وفي الحديث « الرؤيا من الله تعالى والحلم من الشيطان » وقال التوربشتي :
 الحلم عند العرب يستعمل استعمال الرؤيا ، والتفريق من الاصطلاحات التي سنها
 الشارع عليه السلام للفصل بين الحق والباطل كأنه كره أن يسمى ما كان من الله تعالى وما كان
 من الشيطان باسم واحد ، فجعل الرؤيا عبارة عن القسم الصالح ؛ لما فيها من الدلالة على
 مشاهدة الشيء بالبصر والبصيرة ، وجعل الحلم عبارة عما كان من الشيطان ؛ لأن أصل
 الكلمة لم تستعمل إلا فيما يخيل للحالم في منامه من قضاء الشهوة بما لاحقيقة له) أهـ
 وهو كلام حسن .

ولنتقل إلى المشهد السادس :



المشهد السادس

ويمتد من الآية (٥٨) إلى نهاية الآية (١٠١) وهذا هو :

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَشْتَوْنِي بِأُخْ لَكُمْ مِنْ أَيْكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ أَجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا أُنْقِلِبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَ نَحْتَلْ وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّه خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْيِي هَٰذِهِ بَضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلًا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَزَدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٌ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُتَوَقَّوْا مِنْ اللَّهِ لَنَأْتِنِّي بِهِ إِنْ لَا أَنْ يَخَاطَبُكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحُكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ

حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ
 يَغْتُوبَ قُضَاهَا وَإِنَّه لَدُوٌّ عَلَيْهِ لَمَّا عَلَنَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
 ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أُخِيهِ ثُمَّ أَدْنَىٰ
 مُوْذَنٌ أَبْتِهَآ الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسْرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا
 نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ
 مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جزَاؤُهُ ؟ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ
 ﴿٧٤﴾ قَالُوا جزَاؤُهُ مِنْ وَجَدَنِي رَحْلِيهِ ۖ فَهُوَ جزَاؤُهُ ۚ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾
 فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاؤِ أُخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهُمَا مِنْ وِعَاؤِ أُخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ
 مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ تَشَاءُ وَفَوْقَ
 كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا
 يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾
 قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۚ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَبِى نَأْخُذُ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ۚ إِنَّا إِذَا
 لَنَظَّاهُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ

أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى
يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ
فَقُولُوا يَتَابَنَّا إِنْ أَبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَيْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ
﴿٨١﴾ وَسَعَلَ الْقَرْيَةُ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمْرُ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾
قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا
إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَقَوْلَىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَاسَتَرُ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ
مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ
تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ
اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا
مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا
عَلَيْهِ قَالُوا يَتَابُهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرْجَةٍ فَأَوَفَّ لَنَا
الْكَيْلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنْ اللَّهُ يُجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلَيْكُمْ مَا فَعَلْتُمْ
بِیُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَوَلَيْكَ لَأَنْتَ یُوسُفَ قَالَ أَنَا یُوسُفَ
وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَشِقْ وَيَصْبِرُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيطِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا

تَذَرِبَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا
 بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ
 ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ
 ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ الْقَهْ عَلَى
 وَجْهِهِ ۖ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾
 قَالُوا بَنَاهَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ
 رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ
 ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا
 وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي
 إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ
 بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾
 رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾

التفسير :

﴿ وجاء إخوة يوسف ﴾ اجتاروا ﴿ فدخلوا عليه فعرفهم ﴾ بلا تعريف ﴿ وهم له
 منكرون ﴾ أي لا يعرفونه لأنهم فارقوه وهو صغير حدث ، وباعوه للسيارة ، وما كانوا

يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه ، فلهذا لم يعرفوه وهو فيما هو فيه ،
وأما هو فعرفهم ، وفي الإصحاح الثاني والأربعين من التوراة الخرفة الخالية ذكر إرسال
بعض أولاده مصر ليشتروا قمحاً وفيه (ولما نظر يوسف إخوته عرفهم فتسكروا لهم
وتكلم معهم بحفاة وقال لهم من أين جئتم فقالوا من أرض كنعان لنشتري طعاماً ،
وعرف يوسف إخوته وأما هم فلم يعرفوه) ﴿ ولما جهّزهم بجهازهم ﴾ أي أوفى لهم
كبلهم وحملهم أحمامهم ﴿ قال اتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ أي بنيامين ﴿ ألا ترون
أني أوفى الكيل ﴾ أي أنتم ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ أي المضيفين ، وقد رأوا من حسن
إزاله وضيافته الكثير ، وفي هذا ترغيب لهم على الرجوع إليه ثم رهبهم فقال : ﴿ فإن لم
تأتوني به فلا كيل لكم عندي ﴾ أي فلا أبيعكم طعاماً ﴿ ولا تقربون ﴾ أي فإن لم
تأتوني به فلا تأتوا إلي ﴿ قالوا سنراود عنه أباه ﴾ أي سنخادعه عنه ونختال حتى نزرعه
من يده ﴿ وإنا لفاعلون ﴾ ذلك لا محالة ، لانفرط فيه ولا تنواني عنه ، وعدوه أنهم
سيحرصون على مجيئه إليه بكل ممكن ، ولا يقون مجهوداً في هذا الشأن ﴿ وقال
لفتيانه ﴾ أي لغلمانه الكيانيين ﴿ اجعلوا بضاعتهم ﴾ أي التي قدموا بها ليجتاروا عوضاً
عنها ﴿ في رحالهم ﴾ أي في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿ لعلهم يعرفونها ﴾ أي
لعلهم يعرفون حق ردها ، وحق التكرم بإعطاء البدلين ﴿ إذا انقلبوا إلى أهلهم ﴾
وفرغوا ظروفيهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع
إلينا ، وقد تكون الحكمة في فعله أنه عشي ألا يجدوا بضاعة بها يرجعون ، أو ظناً منه أن
ما فيهم من الديانة يعيدهم لرد الأمانة ، أو أنه لم ير أن من الكرم أن يأخذ من أبيه
وإخوته ثمناً ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم ﴾ بالضعام وأخبروه بما فعل ﴿ قالوا يا أبانا منع منا
الكيل ﴾ يشيرون إلى ما قاله يوسف لهم ﴿ فأرسل معنا أخانا نكتل ﴾ فيه لرفع المانع
من النكيل ، ونكتل من الضعام ما نحتاج إليه ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ عن أن يناله
مكرهه ، وكانت ككمتهم يوم أخذوا يوسف وقد وعدوه بحفظه وهذا قال لهم ﴿ هل
أمتكم عليه إلا كما أمتكم على أخيه من قبل ﴾ يعني بأنكم قلتم في يوسف كما تقولون في
أخيه ، ثم ختم بضمانكم ، فما يؤمنني من مثل ذلك ، وكان لسان حاله يقول هل أنتم
صانعون به كما صنعتم بأخيه من قبل ، تغيبونه عني ، وتقولون بيني وبينه ﴿ قاله خير
حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ أي سيرحم كبري وضعفني ، ووجدني بولدي ، وأرجوا
من الله أن يرده علي ، ويجمع شملنا به ، لأنه خير الحافظين وأرحم الراحمين ﴿ ولما فتحو
متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبي ﴾ أي ما نطلب في القول

ولانتجاوز الحق وهذه علامة صدقنا في قولنا . أو ما نطلب وراء ما فعل بنا ، أو أي شيء نطلب وراء هذا ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا وغير أهلنا ﴾ أي إذا أرسلت أخانا معنا ، نأتي بالثمرة إلى أهلنا ﴿ ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ﴾ أي وسق بعير باستصحاب أخينا ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ أي سهل متيسر في مقابلة أن يأخذوا معهم أحدهم فقط . وهذه الحكمة الرئيسية في وضع بضاعتهم في رحالهم أن يوسف أراد أن تكون لهم حجة في الغي ، بأخيهم ﴿ قال لن أرسله معكم حتى تكونوا موفياء من الله ﴾ أي حتى تعطوني ما أتوثن به من عند الله أي أراد أن يحلفوا له بالله ، لأن الحلف بالله مما يؤكد به اليهود ﴿ لتأثني به إلا أن يحاط بكم ﴾ أي إلا أن تغلبوا فلم تطيقوا الإتيان به ، أي لا تمتنعوا من الإتيان به إلا للإحاطة بكم ، بأن تغلبوا كلكم فلا تقدرتون على تخييصه ﴿ فلما أتوه موثقهم ﴾ بأن حلفوا له ، أكدّه عليهم ﴿ قال الله على ما نقول ومكيل ﴾ أي الله على ما نقوله من طلب الموثق وإعطائه ومكيل ، أي رقيب مطلع ﴿ وقال يائسي لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ الجمهور على أنه يخاف عليهم العين جماعتهم ، وجلالة أمرهم ، ولم يأمرهم بالتفرق في الكثرة الأولى لأنهم ، كانوا مجتهولين ، وقيل : إنه أحب ألا يفطن بهم فيكادهم ، وهذا من كمال التأديب وكال الاحتياط . ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ أي إن كان الله أراد بكم سوءاً لم ينفعكم ، ولم يدفع عنكم ما أشرت عليكم من التفرق ، وهو مصيبكم لا محالة . أي إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضائه ، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع ﴿ إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ بين ضم أنه لا حاكم إلا الله ، ومن ثم أمرهم بالتوكل عليه ، والتوكل : تفويض الأمر إلى الله تعالى والاعتداد به .

﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ﴾ أي متفرقين ﴿ ما كان يعني عنهم ﴾ أي دخولهم من أبواب متفرقة ﴿ من الله من شيء ﴾ أي ما يعني عنهم ذلك شيئاً قط ، وقد حدث لهم ما ساءهم بعد من إضافة السرقة إليهم ، واقتضاهم بذلك ، وأخذ أخيهما بوجدان الصواع في رحله . وتضاعف المصيبة على أبيهم ﴿ إلا حاجة لي نفس يعقوب قضائها ﴾ وهي شفقتهم عنهم ، أو هي دفع إصابة العين لهم ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾ أي وإنه لذو علم لتعليمنا إياه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ذلك أي علم الأنبياء ﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ﴾ أي ضم إليه أخاه بنيامين ﴿ قال إني أنا أخوك ﴾ يوسف ﴿ فلا تبش ﴾ أي فلا تحزن ﴿ بما كانوا يعملون ﴾

بنا فيما مضى ، فإن الله قد أحسن إلينا ، وجمعنا على خير . ويبدو أنه أمره بكتان ذلك عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعهم عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده ، معزراً مكرماً معضماً ﴿ فلما جهّزهم بجهازهم ﴾ أي هبأ أسباغهم ، وأوفى الكيل لهم ﴿ جعل السقاية ﴾ هي مشربة من فضة . وفي التوراة الحالية (وطاسي طاس الفضة تضع في قم عدل الصغير) . ﴿ في رحل أخيه ﴾ أي في متاع بنيامين ﴿ ثم أذن مؤذن ﴾ أي نادى مناد ﴿ أيتها العير ﴾ العير : هي الإبل التي عليها الأحمال والمراد : يا أصحاب الجمال ﴿ إنكم لسارقون ﴾ فلما سمعوا التهمة ﴿ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ﴾ أي صاعه الذي يكيل به ﴿ ولمن جاء به حمل بعير ﴾ أي وسق بعير من طعام . مكافأة لمن حصله ﴿ وأنا به زعيم ﴾ أي كفيل أن أؤديه لمن جاء به ، فتعجبوا أن يرمى أمثاهم بمثل هذه التهمة ، مع ما دل عليه حالهم من أمانتهم ، إذ ردّوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم كما تذكر التوراة الحالية ، لذلك قالوا ﴿ قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ﴾ أي ما كنا نوصف قط بالسرقة . والمعنى : لقد تحققت وعلمتم منذ عرفتمونا أنه ليس من سجايانا الإفساد والسرقة ﴿ قالوا فما جزاؤه ﴾ الضمير يعود إما إلى السارق ، أو إلى المسروق ﴿ إن كنتم كاذبين ﴾ أي في جحودكم وادّعاءكم البراءة ، أي شيء تكون عقوبته إن وجدنا فيكم الآخذ ﴿ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه ﴾ أي السارق يُدفع إلى المسروق منه ، وفي التوراة الحالية (فقال نعم بحسب كلامكم هكذا يكون الذي يوجد معه يكون لي عبداً وأما أنتم فتكونون أبرياء) ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ أي هذه شريعتنا أن نجزي السارق بالاسترقاق ، وهذا الذي أراد يوسف أن يصل إليه ، ولهذا بدأ بأوعيتهم يفتشها قبل وعاء أخيه ثورية ﴿ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ﴾ أي فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة . وفي التوراة الحالية (ففتش مبتدئاً من الكبير حتى انتهى إلى الصغير ، فوجد الطاس في عدل بنيامين) ﴿ ثم استخرجها ﴾ أي السقاية ﴿ من وعاء أخيه ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم . وإلزامهم إلزاماً لهم بما يعتقدونه ، ﴿ كذلك كلفنا ليوسف ﴾ أي مثل ذلك الكيد العظيم كلفنا ليوسف ، أي علمناه إياه ، ثم فسّر الله ما كاد ليوسف فقال : ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ أي في شريعته ، وإنما قبض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه ، وهو كان يعلم ذلك من شريعته ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ أي ما كان ليأخذه إلا بمشيئة الله وإرادته ، فيه ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ هذا ثناء ضمنى على يوسف إذ المعنى : نرفع

درجات في العلم من نشاء ، كما رفعا درجة يوسف عليه السلام ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ أي وفوق كل ذي علم أرفع درجة منه في علمه ، أو فوق العلماء كلهم عليم هم دونه في العلم وهو الله عز وجل . قال الحسن البصري في تفسيرها : ليس عالم إلا فوفه عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجل . وقال سعيد بن جبير : كنا عند ابن عباس فحدث بحديث عجيب ، فتعجب رجل فقال : الحمد لله ، فوق كل ذي علم عليم ، فقال ابن عباس : بش ما قلت ، الله العليم فوق كل عالم .

نقل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك .. ﴾ قال صاحب الظلال : (إن هذه النصّ يحدد مدلول كلمة « الدين » - في هذا الموضع - تحديداً دقيقاً .. إنه يعني : نظام الملك وشرعه .. فإنه نظام الملك وشرعه ما كان يجعل عقوبة السارق هو أخذه في جزاء سرقته . إنما هذا نظام يعقوب وشرعية دينه ، وقد ارتضى أخوة يوسف تحكيم نظامهم هم وشريعته ، فطبقها يوسف عليهم عندما وجد صواع الملك في رحل أخيه .. وعبر القرآن الكريم عن النظام والشرعية بأنها « الدين » هذا المدلول القرآني الواضح هو الذي يغيب في جاهلية القرن العشرين عن الناس جميعاً . إنهم يقصرون مدلول « الدين » على الاعتقاد والشعائر .. ويعدون كل من يعتقد في وحدانية الله وصدق رسوله ويؤمن بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، ويؤدي الشعائر المكتوبة .. داخلاً في « دين الله » مهما تكن دينونه بالطاعة والخضوع ، وإقراره بالحاكمة لغير الله من الأرباب المتفرقة في الأرض .. بينما النص القرآني هنا يحدد مدلول « دين الملك » بأنه نظام الملك وشريعته وكذلك « دين الله » فهو نظامه وشريعته ..

إن مدلول « دين الله » قد هزل وانكمش حتى صار لا يعني في تصور الجماهير الجاهلية إلا الاعتقاد والشعائر .. ولكنه لم يكن كذلك يوم جاء هذا الدين منذ آدم و نوح إلى محمد عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وإفراده سبحانه بالأنوهمية في الأرض مثل إفراده بالأنوهمية في السماء ، وتقرير ربوبيته وحده للناس أي : حاكميته وشرعه وسلطانه وأمره وكان مفرق الطريق دائماً بين من هم في دين « الله » ومن هم في « دين الملك » أن الأولين يدينون لنظام الله وشرعه وحده ، وأن الآخرين يدينون لنظام الملك وشرعه . أو يشركون فبدنوا الله في الاعتقاد والشعائر ويدنوا لغير الله في النظام والشرائع !

وخير لنا من أن ندافع عن الناس - وهم في غير دين الله - ونلتبس لهم المعاذير ،
ونحاول أن نكون أرحم بهم من الله الذي يقرر دينه وحدوده ! خير لنا من هذا كله أن
نشرع في تعريف الناس حقيقة مدلول « دين الله » ليدخلوا فيه أو يرفضوه ..

هذا خير لنا وللناس أيضاً .. خير لنا لأنه يعفينا من تبعة ضلال هؤلاء الجاهلين بهذا
وخير للناس لأن مواجهتهم بحقيقة ما هم عليه - وأنهم في دين المثلث لافي دين الله - قد
تهزهم هزة تخرجهم من الجاهلية إلى الإسلام ومن دين المثلث إلى دين الله !

كذلك فعل الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - وكذلك ينبغي أن يفعل الدعاة
إلى الله في مواجهة الجاهلية في كل زمان ومكان .. ولنتابع عرض القصة :

﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ أي يوسف ﴿ فأسرّها يوسف في
نفسه ﴾ أي مقلتهم إنه سرق كأنه لم يسمعها ﴿ ولم يبيدها لهم قال أنتم شر مكاناً ﴾ أي
أنتم شر منزلة في السرقة ، وكأنه أراد سرقة من أبيه ﴿ والله أعلم بما تصفون ﴾ أي بما
تقولون أو تكذبون من اتهامكم بنيامين وأخيه بالسرقة ، ولما تعين أخذ بنيامين وتقرر
بمقتضى اعترافهم شرعوا يترفقون له ، ويعطفونه عليهم ﴿ قالوا يا أيها العزيز إن له أبا
شيخاً كبيراً ﴾ في السن ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ أي بدله يكون عندك عوضاً عنه على
وجه الاسترقاق أو الاسترهان ، فإن أباه يتسلى به . وفي التوراة الحالية المخرفة في
الإصحاح الرابع والأربعين من سفر التكوين نجد : (ثم تقدم إليه يهوذا وقال استمع يا
سيدي ليتكلم عبدك كلمة في أذني سيدي . ولا يحج غضبك على عبدك . لأنك مثل
فرعون . سيدي سأل عبده قائلاً هل لكم أب أو أخ فقلنا نسيدي لنا أب شيخ وابن
شيخوخة صغير مات أخوه وبقي هو وحده لأمه وأبوه بحبه . فقلت نعبيدك انزلوا به إلي
فأجعل نظري عليه . فقلنا لسيدي لا يقدر الغلام أن يترك أباه ، وإن ترك أباه يموت .
فقلت لعبيدك إن لم ينزل أخوكم الصغير معكم لا تعودون تنظرون وجهي . فكان لما
صعدنا إلى عبدك أي أننا أخبرناه بكلام سيدي ، ثم قال أبونا ارجعوا اشتروا لنا قليلاً من
الطعام . فقلنا لا نقدر أن ننزل وإنما إذا كان أخونا الصغير معنا ننزل . لأننا لا نقدر أن
ننظر وجه الرجل وأخونا الصغير ليس معنا . فقال لنا عبدك أي أنتم تعلمون أن امرأتني
ولدت لي اثنين . فخرج الواحد من عندي وقلت إنما هو قد افترس افتراساً . ولم أنظره
إلى الآن . فإن أخذتم هذا أيضاً من أمام وجهي وأصابته أذية تنزلون شيتني بشر إلى
الخابية . فالآن متى جئت إلى عبدك أي والغلام ليس معنا ونفسه مرتبطة بنفسه يكون

منى رأى أن الغلام مفقود أنه يموت . فينزل عبيدك شبيه عبيدك أينما يحزن إلى الهاوية . لأن عبيدك ضمن الغلام لأنى قائلًا إن لم أجد به إليك أصر مذنباً إلى كل الأيام . فالآن بيمكث عبيدك عوضاً عن الغلام عبداً لسيدي ، وبصعد الغلام مع إخوته . لأنى كيف أصعد إلى أنى والغلام ليس معي لكلا أنظر الشر الذي يصيب أنى)

ولنا على هذا النفل ملاحظة سريعة هي أن النص قد البدل بأنه يهوذا ، بينما النص القرآني ترك ليوسف الخيار في أن يأخذ من يشاء ، وهذا من تعريف التسخار كما سنرى في آخر القصة .

وبعد أن اقترحوا أن يأخذ أحدهم مكانه أثوا عليه ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ أي إلينا فأنتم إحسانك ، أو بشكل مطلق أي من عادتلك الإحسان فاجر على عادتك ولا تغيرها ﴿ قال معاذ الله أن نأخذ ﴾ أي نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ ﴿ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ إذ هو منطق العدل ، ولم يكن ذلك إلا كما قلتم واعترفتم وألزمتم به أنفسكم ﴿ إنا إذا لظالمون ﴾ أي إن أخذنا بريئاً بمن وقع بمثل ما رأيتم ، أي إن أخذنا بدينه ظلماً ، لأنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصاع في رحله ، واستعباده فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم ؟! ﴿ فلما استئسوا منه ﴾ أي فلما يسوا من يوسف وإجابته إياهم ، أو فلما يسوا من تخلص أعبيهم بنيامين ﴿ خلصوا ﴾ أي انفردوا عن الناس ﴿ نحيلاً ﴾ أي يتناجون فيما بينهم يديرون أمرهم على أي صفة يذهبون ، وماذا يقولون لأبيهم في شأن أخيهم ﴿ قال كبيرهم ﴾ هل المراد هنا كبيرهم في السن فيكون رؤوبين ؟ أو المراد به كبيرهم في الشأن ، والعقل والوفاء فيكون يهوذا ؟ وهو رواية التوراة الحالية ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ أي لتردنه إليه ، وقد تعذر هذا ﴿ ومن قبل ما قرطم في يوسف ﴾

أي مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه . والمعنى: ومن قبل هذا فصرتم في شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أبيكم ، أو ومن قبل هذا تفريطكم كائن في يوسف ، وبسبب هذا ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ أي فنن أفرق أرض مصر ﴿ حتى يأذن لي أبي ﴾ أي في الرجوع إليه راضياً عني ﴿ أو يحكم الله لي ﴾ إما بالخروج منها أو بالموت ، أو بتخلص بنيامين ، أو بالإبقاء إلى يعقوب ببراءتنا ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ لأنه لا يحكم إلا بالعدل ، ثم أمرهم أن يغفروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون عذراً لهم عنده ،

وَيَنْتَصِلُوا إِلَيْهِ وَيَرَوْا مِمَّا وَقَعَ ، فَقَالَ : ﴿ ارجعوا إلى أيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا ﴾ أي وما شهدنا عليه بالسرقه إلا بما علمنا من سرقته وثيقنا ، إذ الصواع استخرج من وعائه ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ أي وما علمنا أنه سيسرق ، حين أعطيناك الموائيق ، وما كنا في الغيب عالمين أنه سرق له شيئاً عندما سألنا جزاء السارق ، فقلنا ما قلنا ﴿ وأسأل القرية التي كنا فيها ﴾ أي مصر . أي أرسل إلى أهلها فاسألهم عن كنه القصة ﴿ والعير التي أقبلنا فيها ﴾ أي والغافلة التي رافقناها عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته ﴿ قال ﴾ أي بعد أن رجعوا إليه ، وقالوا له ما قال لهم أخوهم ﴿ بل سئلت لكم أنفسكم أمراً ﴾ هذا مثل قوله لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب ، اتهمهم بسبب سابقتهم وبدلالة حالهم . كأنه قال : من أدري ذلك الرجل أن السارق يُسرق لولا فتواكم وتعليمكم ﴿ فقصير جهيل ﴾ أي لاشكوي معه ، ثم ترجى من الله تعالى : أن يرد عليه أولاده الثلاثة : يوسف ، وبنيامين ، ومن بقي في مصر فقال ﴿ عسى الله أن يأتيني بهم ﴾ ولم يقل بهما لأنهم أصبحوا ثلاثة ﴿ جميعاً إنه هو العليم ﴾ بحالي في الحزن والأسى ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره الذي لم يبتلي بذلك إلا لحكمة ﴿ وتولى عنهم ﴾ أي وأعرض عنهم كراهة لما جاؤوا به ﴿ وقال يا أسفا ﴾ أي يا أسفى ، والأسف : أشد الحزن والحسرة ﴿ على يوسف ﴾ جدد له حزن الابنين الحزن الدفين الأول ، دل هذا على أن الرزء فيه مع تقادم عهده كان غصاً عنده وطرباً ﴿ وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ أي مملوء من الغيظ على أولاده ، ولا يظهر ما يسوؤهم وعلى هذا فمعنى كظيم : ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق . وفسرها بعضهم بأنه كتيب حزين . ﴿ قالوا تالله تفتأ ﴾ أي لا نفتأ أي لا نزال ﴿ تذكر يوسف ﴾ أي لا تفارق تذكر يوسف ﴿ حتى تكون خرضاً ﴾ أي ضعيف القوة مشغياً على الهلاك ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ حقيقة أي إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك العجز أو الهلاك . قالوا له هذا رقة له ، وشفقة عليه ، ورأفة به ، وهم في الظاهر سب ما هو فيه ، دل ذلك على مبلغ حزنه . قال النسفي : ويجوز للنبي أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ لأن الإنسان مجبول على ألا يملك نفسه عند الحزن ، ولذلك حمد صبره ﴿ قال إنما أشكو بثي ﴾ البث : أصعب أغم الذي لا يصبر عليه صاحبه فيثبه إلى الناس أي ينشره ﴿ وحزني إلى الله ﴾ أي إنما أشكو إلى ربي داعياً له ، وملتجئاً إليه فخلوني وشكائبي ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ أي وأعلم من رحمته أنه يأتيني

بالفرج من حيث لا أحسب ، وأهلها إشارة إلى تيقنه أنه سيلقى يوسف ، ويأخذ ما رأى يوسف في رؤياه ، أو لعله أشار إلى معرفته من قبل الوحي أن يوسف لم يموت ، ثم ندب بنيه إلى الذهاب في الأرض مستعلمين أخبار يوسف وأخيه ﴿ يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسُّوْا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِي ﴾ أي فتعرفوا منهما ، وتطلبوا خبرهما ، والتجسس يكون في الخير ، والتجسس يكون في الشر ، ثم نهضهم وبشرهم وأمرهم أن لا يئأسوا من رُوح الله ، وألا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه ، فإنه لا يقطع الرجاء ولا يئأس من رُوح الله إلا القوم الكافرون فقال ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ ﴾ أي ولا تنظتوا من رحمة الله وفرجه ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي إن الأمر والشأن ﴿ لَا يَيْئَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ لأن من آمن يعلم أنه منقلب في رحمة الله ونعمته ، وأما الكافر فلا يعرف رحمة الله ولا تقلبه في نعمته ، فيئأس من رحمته ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ تقدير الكلام فذهبوا فدخلوا مصر ، ودخلوا على يوسف ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ ﴾ أي الهزال من الشدة والجوع ، أو أنهم شكوا الضر من الجذب والقحط وقلة الطعام ﴿ وَجئنا ببضاعة مُزْجَاة ﴾ أي مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً لها ﴿ فَآزِفٌ لَنَا الْكِيلُ ﴾ أي أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك ﴿ وَتَصَدِّقْ عَلَيْنَا ﴾ أي وتفضل علينا بالمساحة والإعماض عن رداءة البضاعة ، أو زدنا على حقنا ، أو هب لنا أحنانا ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ خاطبوه بلغة الإيمان . وعندئذ كشف لهم نفسه ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِي ﴾ أي هل علمتم قبح ما فعلتم يوسف وأخيه ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ لا تعلمون قبحه ، أو إذ أنتم في حد السفه والغبش . أو إذ أنتم عاصون . قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل . قال ابن كثير : والظاهر - والله أعلم - أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك . والله أعلم لما ضاق الحال واشتد الأمر ، فرج الله تعالى من ذلك الضيق ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ لَا تُت يَوْسُفَ ؟ ﴾ والاستفهام هنا يدل على الاستعظام . أي إنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من زمن وهم لا يعرفونه ، وهو مع هذا يعرفهم ، ويكتم نفسه ﴿ قَالَ أَنَا يَوْسُفَ وَهَذَا أَخِي ﴾ وإنما ذكر أخاه وهم قد سألوه عن نفسه لأنه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوه عنه ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ بالألفة بعد الفارقة . ذكر نعمة الله بالسلامة والكرامة ، ولم يبدأ بالملامة والعتاب ﴿ إِنَّهُ مِنْ يَتَى ﴾ الله بترك معصيته ، وفعل طاعته ﴿ وَيَصْبِر ﴾ على قضاء الله وقدره ، وعن المعاصي وعلى الطاعة ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيْعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ والسباق يدل على أن المحسن من

اجتمع له التقوى والصبر . وقد قالوا في تفسيرها : من يتق مولاه ، ويصبر على بلواه ، لا يضيع أجره في دنياه وعقباه ﴿ قالوا ﴾ معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق ، والسعة والملك ، والتصرف والنبوة أيضاً على قول من لم يجعلهم أنبياء . وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه ﴿ تالله لقد آفرك الله علينا ﴾ أي اختارك وفضلتك علينا ﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ أي وإن شأننا وحالنا أننا كنا خاطئين متعمدين للإثم ، لم نتق ولم نصبر ، ولسان الحال يقول : لاجرم أن الله أغرك بالملك ، وأذلنا بالتمسك بين يديك ﴿ قال لا تريب عليكم اليوم ﴾ أي لا تأنيب عليكم ، ولا عتب ، ولا تعيير ، وقوله اليوم يفيد أنني لا أثريبكم اليوم ، وهو اليوم الذي هو مظنة التريب ، فما ظنكم بغيره من الأيام ، ثم زادهم الدعاء بالمغفرة فقال ﴿ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ أي إذا رحمتكم وأنا الفقير القنور ، فما ظنكم بالغني الغفور ﴿ اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ﴾ أي بصر بصيراً ، أو يأت إلي وهو بصير ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ أي بجميع آل يعقوب . لينعموا بآثار ملكي كما اغتموا بأخبار ملكي ﴿ ولما فصلت العير ﴾ أي خرجت من مصر ﴿ قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفقدون ﴾ أي لولا أن تنسبوني إلى الحرف والكبر ، إذ التفيد النسبة إلى الفند : وهو الحرف وإنكار العقل ، والمعنى : لولا تفنيذكم إياي لصدقتوني ﴿ قالوا ﴾ أي أسباطه ﴿ تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ أي لفي خطئك القديم من حب يوسف ، أو لفي نفس ذهابك القديم عن الصواب في إفراط محبتك ليوسف ، وعلى كل فقد قالوا كلمة غليظة ما ينبغي أن يقال لأب ، فكيف إذا كان رسولاً ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾ أي حامل القميص ﴿ ألقاه على وجهه ﴾ أي طرح البشير القميص على وجه يعقوب ﴿ فارتد بصيراً ﴾ أي فرجع مبصراً ﴿ قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ إشارة إلى أقواله السابقة ﴿ إني لأجد ريح يوسف ﴾ أو ﴿ لا تيأسوا من روح الله ﴾ أو ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ ، فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين : ﴿ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾ أي سل الله مغفرة ما ارتكبنا في حقك وحق ابنك ، إنا ثبنا واعترفنا بخطايانا ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي ﴾ آخر الاستغفار إما لوقت ، أو ليتعرف حالهم في صدق التوبة ، أو إلى أن يسأل يوسف هل عفا عنهم ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾ أي من تاب إليه تاب عليه ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه ﴾ أي ضم إليه ﴿ أبويه ﴾ أي يعقوب وزوجه ، أي خالته ، والحالة أم ﴿ وقال ﴾ هم بعد ذلك ﴿ ادخلوا مصر إن شاء الله آمين ﴾

من الجور والقمط والجهد ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ أي على السرير ، أي
أجلسهما معه على سريريه ﴿ وغشوا له سجداً ﴾ أي سجد له أبواه وإخوته الباقون ،
وكانوا أحد عشر رجلاً ﴿ وقال يا أبت هذا تأويل ﴾ أي تعبير وتفسير ﴿ رؤيائي من
قبل ﴾ وهي التي قصها الله تعالى في ابتداء القصة ﴿ قد جعلها ربي حقاً ﴾ أي صادقة
﴿ وقد أحسن بي ﴾ أي إلى ﴿ إذ أخرجني من السجن ﴾ ولم يذكر الحب لقوله لا
تريب عليكم ، وهذا من كمال ذوقه ولطفه ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾ أي من البادية
لأنهم كانوا أصحاب مواش ينتقلون في المياه والمناجع ﴿ من بعد أن نزع الشيطان ﴾
أي أفسد ﴿ بيني وبين إخوتي ﴾ ﴿ إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ أي لطيف التدبير لما
يشاء ، أي إذا أراد أمراً قَبَضَ له أسباباً ، وقدره ويسره ﴿ إنه هو العليم ﴾ أي بمصالح
عباده ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريد ، فإن أضر الآمال
إلى آجال فلجحمة ، أو حَكَمَ بالاختلاف بعد الاختلاف فلجحمة ، وكل أفعاله حكمة ،
ثم دعا بعد أن تمت عليه النعمة باجتماعه بأبويه وإخوته وما من الله به عليه من النبوة
والملك ﴿ رب قد آتيتني من الملك ﴾ أي السلطان ﴿ وعلمتني من تأويل
الأحاديث ﴾ أي تعبير الرؤيا ، أو تفسير كتب الله ، واستعماله للفظ (من) في الخالين
وهي تفيد التبعض إشارة إلى أنه لم يؤت إلا بعض ملك الدنيا ﴿ فاطر السموات
والأرض ﴾ أي يا خالق السموات والأرض ﴿ أنت ولي في الدنيا والآخرة ﴾ أي
أنت تتولاني بالنعمة في الدارين ، بوصل الملك الثاني بالملك الباقي ، ﴿ توقني مسلماً ﴾
طلب الوفاة على حال الإسلام مع أنه رسول معصوم ليقندي به قومه ، ومن بعده ممن
ليس بمؤمنون العاقبة ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ من آباءي أو على العموم . وهكذا انتهت
القصة ولم يبق من السورة إلا خاتمتها .

فوائد :

١ - هذا المشهد الطويل الأخير موجود في التوراة الحالية من الإصحاح (٤٢) إلى
الإصحاح (٤٧) من سفر التكوين وتحريف النساخ والرواة في هذه الإصحاحات
ظاهر ، فمثلاً تذكر رواية التوراة الحالية أن يوسف عليه السلام في الرحلة الأولى احتجز
أحد إخوته وهو شمعون ، ويعتمد هذا بعض المفسرين . يُذكر هذا في الإصحاح الثاني
والأربعين ولكننا نلاحظ بعد ذلك أن الإصحاح الثالث والأربعين يذكر كيف أن الجوع
غضَّ يعقوب وأهله حتى أمرهم بالعودة إلى مصر قرضوا إلا أن يأخذوا بنيامين ، وليس
في هذا التباطؤ ما يشير إلى أن هناك أنحاً يحتاج إلى إنقاذ . وفي هذا الإصحاح نجد هذا

النص (وخذوا أخاكم وقوموا ارجعوا إلى الرجل والله القدير يعطيكم رحمة أمام الرجل حتى يطلق لكم أخاكم الآخر وبنيامين وأنا إذا عدمت الأولاد عدمتهم) فما معنى أن يقول : حتى يطلق لكم أخاكم الآخر وبنيامين . مع أن بنيامين على حسب هذه الرواية لم يرح بعد . والإصحاحات هذه لا تذكر إلا رحلتين ثم الجلاء العام إلى مصر . فهذا النقل الذي نقلناه يدل على التحريف الواقع ، وهو أن رحلة من الرحلات قد أغفلت . وهي الرحلة الثانية التي أخذ فيها بنيامين . فبقي بسبب ذلك أحد إخوته في مصر من أجله ، وغلط موضوع الرحلة الثانية في موضوع الرحلة الأولى والثالثة ، إذ الإصحاحات تذكر أنه بعد اكتشاف سرقة بنيامين مباشرة كشف يوسف نفسه ، فليس بين الإعلان عن عبودية بنيامين وكلام يهوذا له ، ثم كشفه لهم أنفسهم إلا دقائق فما الفائدة إذن من كل العملية التي عملها يوسف في وضع الصاع في رحل أخيه إذا كان الأمر كذلك ؟ ثم لا نجد إطلاقاً أي كلام عن شعون الذي احتجزه يوسف في المرة الأولى على زعم رواية التوراة الحالية بعد العودة . كل هذا يدل على أن الزمن قد عمل في تحريف الرواية ، وأن أقلام النساخ الكاذبة قد عملت عملها ، والله عز وجل في القرآن قد صحح الخطأ وبيّن لنا الحقيقة . وهذا النص الذي نقلناه وحده كاف ليرينا نوعاً من أنواع الإعجاز في هذا القرآن ، ومن ثم فإننا لا نستطيع أن نأخذ من هذه الإصحاحات شيئاً يعتد به ، بل على العكس نقول إن هذه الإصحاحات فيها من النقص والتحريف والإجمال ما أكمله القرآن وسدده وفصله ، فمثلاً تذكر الإصحاحات أنه بعد اكتشاف الصاع في رحل بنيامين (وحمل كل واحد على حماره ورجعوا إلى المدينة) فلا تذكر الجمال مع أن النص القرآني يقول ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ فهل من المعقول في رحلة كهذه أن يكون الحمار هو أداة الحمل ، الظاهر أن الحمار لركوبهم ولا بد أن يكون معهم جمال ، وفي الإصحاحات كما رأينا في النقل عن خطاب يهوذا ليوسف اقتراح من يهوذا أن يحل محل بنيامين في العبودية ، والقرآن يذكر أن كبيرهم هو الذي بقي في مصر من أجل بنيامين ، وكبيرهم هو رؤوبين ، مع أن التوراة تذكر أن الذي احتجز أول مرة هو شعون ، ومع أن المفسرين المسلمين يحتفلون أن يكون المراد بكلمة كبيرهم ، كبيرهم في الرأي ، أو رئيسهم في رحلتهم ، إلا أننا نؤثر ألا نجزم في هذا الموضوع برأي ونبقي النص القرآني على ظاهره . حتى إن ابن كثير يرفض رواية التوراة جملة في كون أم يوسف راحيل كانت مينة عندما ورد يعقوب عليه السلام إلى مصر ، أخذاً بظاهر النص القرآني ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ إلا أن مفسرين آخرين لا

يستبعدون أن يكون المراد هنا خالته زوجة أبيه لأن حكمها حكم الوالدة .

وخلال الكلام عن يوسف هنا يذكر بعض المفسرين روايات كثيرة مرجعها كلام أهل الكتاب وليس في ذكرها كبير طائل ما دام الأصل الأكبر لروايات أهل الكتاب لا يمكن الاعتماد عليه في هذا الموضوع

٢ - تذكر الإصحاحات المذكورة أن عدد بيت يعقوب عندما سكنوا مصر كان سبعين نفساً ، كما تذكر أن الهجىء إلى مصر بعد سنتين من سني الجوع ، وأنهم سكنوا في أرض جاسان وهي تقع شمالي القاهرة الحالية ، وإلى الغرب من قناة السويس الحالية ، وفيها أن يعقوب عاش بعد دخولهم مصر سبع عشرة سنة ، فكانت أيام يعقوب مئة وسبعاً وأربعين سنة ، وأنه أوصى ألا يدفن في مصر بل يدفن في أرض آبائه ، وقد فعل يوسف ما أوصاه به أبوه ، وأما يوسف فقد دفن في أرض مصر ، ولكنه أوصى أن يحمل إذا خرج بنو إسرائيل من مصر .

٣ - يلاحظ أن سفر التكوين الذي هو السفر الأول من أسفار التوراة ينتهي بكلام عن يوسف ، وإذا استعرضناه فإننا لا نجد أمراً فيه ذا شأن إلا وهو موجود في القرآن بشكل أصح وأدق ، حتى إنك لا تجد شيئاً غريباً عنك إلا بعض تفصيلات لا تفيد ذكراً ولا عظة ولا تشريعاً ولا شيئاً ، وما من شيء فيه قد ذكره القرآن إلا وقد ذكره في السياق المناسب والمكان الذي يكون فيه أكثر عطاءً . فمثلاً في الإصحاح التاسع والأربعين نجد وصية يعقوب لأولاده عند موته ، وقد قصّ القرآن علينا هذه الوصية في سورة البقرة ، وهي الوصية الحقيقية التي تتفق مع منطق الأنبياء ، أما في هذا الإصحاح فلا نجد مثل هذه الوصية الجامعة للجميع ، وإنما نجد كلاماً عن كل ولد من الأولاد وبهذه المناسبة نقول إنه يوجد في هذا الإصحاح هذا النص (لا يزول قضيبي من يهوذا ومشتري بين رجله حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب) وفي كتابنا (الرسول ﷺ) بينا في الفصل الخامس كيف أن أصل هذا النص لا يمكن أن يحمل إلا على أنه بشارة برسولنا عليه الصلاة والسلام ، فإذا اتّضح ما أسلفنا علمنا كيف أن هذا القرآن مصدّق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه ، وفي قصة يوسف نموذج على ذلك ، ومن ثم جاءت في السياق الكلي للقرآن في محور التدليل على أن هذا القرآن من عند الله لا ريب في ذلك .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ نقل ابن كثير عن ابن جرير بسنده إلى محارب بن دثار قال : كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد فيسمع إنساناً يقول : اللهم دعوتني فأجبت ، وأمرتني فأطعت ، وهذا السّحر فاغفر لي ، قال :

فاستمع الصوت ، فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود فسأل عبد الله عن ذلك فقال :
 إن يعقوب أخطر بنيه إلى السحر بقوله ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾
 ٥ — بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَاخْرُؤْا لَهُ سُجْدًا ﴾ قال ابن كثير : (وقد كان هذا سائغاً
 في شرائعهم ، إذا سَلَّمُوا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى
 شريعة عيسى عليه السلام ، فحرم هذا في هذه الأمة ، وجعل السجود مختصاً بجناب
 الرب سبحانه وتعالى ، هذا مضمون قول قتادة وغيره . وفي الحديث أن معاذاً قدم الشام
 فوجدهم يسجدون لأساقفتهم ، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ ، فقال : « ما هذا يا
 معاذ ؟ » فقال : إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم ، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول
 الله ، فقال : « لو كنتُ امرأةً أحدًا أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها
 لعظم حقه عليها » . وفي حديث آخر : أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طرق
 المدينة - وكان سلمان حديث عهد بالإسلام - فسجد للنبي ﷺ . فقال : « لا تسجد
 لي يا سلمان واسجد للحبي الذي لا يموت » . والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم ،
 لهذا خَرَّوْا لَهُ سُجْدًا ، فعندها قال يوسف : ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد
 جعلها ربي حقاً ﴾ أي هذا ما آل إليه الأمر ، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر كما
 قال تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله ﴾ (الأعراف : ٥٣) أي يوم
 القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر .

٦ — يذكر ابن كثير روايات متعددة عن المفسرين في الزمن الذي كان بين إلقاء
 يوسف في الحبس وبين لقائه بأبيه ، ومرجع هذه الروايات كلها روايات أهل الكتاب .
 وإذا رجعنا إلى التوراة الحالية فإن المدة التي يمكن استخلاصها هي اثنان وعشرون عاماً ،
 إذ ألقى في الحبس وهو ابن سبع عشرة عاماً ، وخرج من السجن وهو ابن ثلاثين .
 وكانت سنو الشعب سبعاً ، وجاء يعقوب إلى مصر بعد سنتين من الجوع .

٧ — بمناسبة قوله تعالى على لسان يوسف : ﴿ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ .
 قال ابن كثير : (وهذا الدعاء يحتمل أن يكون يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره ،
 كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه
 عند الموت ويقول : « اللهم في الرفيق الأعلى » ، ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام
 واللاحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره ، لا أنه سأله ذلك منجزاً ، كما يقول
 الداعي لغيره : أمانك الله على الإسلام ، ويقول الداعي : اللهم أحيينا مسلمين ونوفنا
 مسلمين وألحقنا بالصالحين . ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً ، وكان ذلك سائغاً في ملتهم

كما قال قتادة : قوله (توفي مسلماً وأحقني بالصالحين) لما جمع الله شمله ، وأقر عينه ، وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملوكها ونصارها ، اشتاق إلى الصالحين قبله ، وكان ابن عباس يقول : ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام ، وكذا ذكر ابن جرير والسدي عن ابن عباس أنه أول نبي دعا بذلك ، وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الإسلام ، وكما أن نوحاً أول من قال : ﴿ رب اغفر لي ولوالدي وللمن دخل بيتي مؤمناً ﴾ (نوح : ٢٨) ويحتمل أنه أول من سأل إنجاز ذلك ، وهو ظاهر سياق قول قتادة ، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا . روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ... عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان ولا بد متمنياً الموت فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » . وأخرجاه في الصحيحين . وعندهما : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، إما محسناً فيزداد ، وإما مسيئاً فلعله يستعتب . ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » . وروى الإمام أحمد ... عن أبي أمامة قال : جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ورفقنا ، فبكى سعد بن أبي وقاص . فأكثر البكاء ، وقال ياليتني مت ، فقال النبي ﷺ : « يا سعد أعندي تمنى الموت ؟ » وردد ذلك ثلاث مرات ، ثم قال : « يا سعد إن كنت خلقت للجنة فما طال من عمرك وحسن من عملك فهو خير لك » . وروى الإمام أحمد ... عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، ولا يدع به من قبل أن يأتيه ، إلا أن يكون قد وثق بعمله ، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله ، وإنه لا يزيد المؤمن عمله إلا خيراً » . وهذا فيما إذا كان الضر خاصاً به ، وأما إذا كان فتنه في الدين فيجوز سؤال الموت ، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهديدهم بالقتل ﴿ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ (الأعراف : ١٢٦) وقالت مريم لما أ جاءها المخاض - إلى جذع النخلة ﴿ ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ (مريم : ٢٣) لما علمت من أن الناس يقذفونها بالفاحشة لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت ووضعت وقد قالوا : ﴿ يا مريم لقد جننت شيئاً فرياً . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوءاً وما كانت أمك بغياً ﴾ (مريم : ٢٧ ، ٢٨) فجعل الله لها من ذلك الحال فرجاً ومخرجاً ، وأنطق الصبي في المهد بأنه عبد الله ورسوله ، فكان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه ، وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي في قصة المنام والدعاء ، الذي فيه « وإذا أردت يقوم فتنه فافبطني

إليك غير مفتون . . . وروى الإمام أحمد ... عن محمود بن لبيد مرفوعاً : أن النبي ﷺ قال : « اثنتان يكرههما ابن آدم : يكره الموت والموت خير للمؤمن من الفتنة ، ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب » فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت ، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ، ولا يزداد الأمر إلا شدة فقال : اللهم خذني إليك فقد سئمتهم وسئمتوني . وقال البخاري رحمه الله لما وقعت له تلك الفتنة وجرى له مع أمير خراسان ما جرى . قال : اللهم توفي لي إليك ، وفي الحديث : « إن الرجل يمر بالقبر — أي في زمان الدجال — فيقول باليتي مكانك » لما يرى من الفتن والزلازل والبلابل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون .

٨ — أكثر المفسرين على أن السبب الذي دعا يعقوب إلى توصية أبنائه في الدخول من أبواب متفرقة هو خشيته عليهم من العين وليس في ذلك نص عن رسولنا عليه الصلاة والسلام إلا أن النصوص كثيرة في إثبات أن العين حق وفي كتاب الأساس في السنة وفقها نجد تفصيل ذلك .

٩ — لا يوجد شيء في التوراة الحالية يشير إلى ماهية السرقة التي اتهم بها يوسف والتي أشار إليها إخوته بقولهم : ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَه مِنْ قَبْلِ﴾ وليس عن رسولنا عليه الصلاة والسلام كلام في هذا الموضوع ، إلا أن ابن كثير ينقل عن محمد بن إسحق عن مجاهد القصة التالية — والله أعلم بصحتها ولا ندري من أين نقلها مجاهد : — قال مجاهد : « كان أول ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغني أن عمته ابنة إسحاق ، وكانت أكبر ولد إسحاق ، وكانت إبناً لمنطقة^(١) إسحاق وكانوا يتوارثونها بالكبر ، وكان من أحبها ممن وليها كان له سلمٌ لا ينزع فيه ، يصنع فيه ما يشاء ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته ، وكان لها به ولَه ، فلم تحب أحداً حبها إياه ، حتى إذا ترعرع وبلغ سنون نأقت إليه نفس يعقوب عليه السلام فأتاها فقال : يا أختي سلمى إلي يوسف ، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة ، قالت : فوالله ما أنا بتاركته ، ثم قالت : فدعه عندي أياماً أنظر إليه وأسكن عنه لعل ذلك يسليني عنه — أو كما قالت — فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : فقدت منطقة إسحاق عليه السلام ، فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ .

فالتحست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف ، فقالت : والله إنه لي لسلم أصنع فيه ما شئت ، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، ما أستطيع غير ذلك ، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت ، قال : فهو الذي يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾

١٠ - بمناسبة الكلام عن يوسف عليه السلام تكثر الروايات الإسرائيلية التي ينقلها بعضهم على أنها أحاديث وهي ليست كذلك وابن كثير نقل الكثير منها ورده ولم نشأ أن نخرج عليه

١١ - من استعطاف إخوة يوسف ليوسف من أجل أخيهام وهم لا يعرفون أنه يوسف ندرك أن الشفاعة إلى الحاكم في محلها جائزة ، إلا أنها في الإسلام خصت بما دون الحدود ، أما الحدود إذا وصلت إلى السلطان فلا يجوز لأحد أن يشفع فيها وفي كتاب الأساس في السنة وفقهها مزيد بيان .

١٢ - من قصة يوسف عليه السلام ندرك طرفاً من حكمة الله في أفعاله ، فما من فعل لله إلا وهو عين الحكمة ، ولكن قصور النظر وسوء الفهم وعمى القلب تبعد عن رؤية حكمة الله في أفعاله ، فمن رأى المحن المتوالية التي أصابت يوسف عليه السلام وآله ، وما ترتب على ذلك من دخول يعقوب إلى مصر لتنشأ أمة جديدة في ظروف مواتية ، ومن رأى كيف أن هذا كان عبرة للخلق جميعاً ، حتى قصة الله في توراته وقرآنه ، أدرك كثرة الحكيم .

١٣ - إن دروس قصة يوسف عليه السلام كثيرة ، ومن أهمها أنه لا عاقبة لكيد الظالمين ولا لخياتهم ، وأن العاقبة للاستقامة في كل حال ، فليستقم العبد على أمر الله لتكون له العاقبة في الدنيا والآخرة .

١٤ - من خلال قصة يوسف عليه السلام ندرك كثيراً من الخصائص العالية والنازلة للنفس البشرية عامة

١٥ - بعض المفسرين ظن - كأثر عن تسمية يوسف بالعزير - أنه حل محل سيده في منصبه ، إلا أننا نلاحظ أن المنصبين مختلفان . ورواية التوراة الحالية تذكر أن منصب سيد يوسف كان رئيس الشرطة ، بينما منصب يوسف كان شيئاً آخر يمكن أن يسمى أنه نائب الملك المفوض ، أو الوزير المفوض ، ومن ثم فإننا نرجح أن كلمة العزيز كانت لقباً لكل ذي منصب خطير كالقب الباشا مثلاً في مصر قديماً .

١٦ - في كتاب مالك بن نبي (الظاهرة القرآنية) كلام عن قصة يوسف في القرآن مقارنة مع قصة يوسف في التوراة الخالية ، وتعنيق عليها ، وكانت له ملاحظات قيمة ، ولكنه وقع في عدة أخطاء في هذا الفصل فاقتضى التنويه ، ومن ملاحظاته في هذا الفصل بعد أن قارن بين فقرات من الرواية التوراتية الخالية لقصة يوسف وبين آيات من القرآن : (إن سوق التاريخ واحد تماماً في كلتا الروايتين ، ومع ذلك فإن التأمل السريع يكشف لنا عن عناصر خاصة تميز كلتيهما على حدة ، فرواية القرآن تنغمر في مسحة روحانية نشعر بها في صفات الشخصيات وكلماتها التي يتحرك بها المشهد القرآني ، فهناك قدر كبير من حرارة الروح في كلمات يعقوب ومشاعره في القرآن ، فهو نبي أكثر منه أباً ، وتبرز هذه الصفة على الأخص في طريقته في التعبير عن بأسه عندما يعلم باختفاء يوسف ، كما تتجلى في طريقته في تصوير أمه حين يدفع بنيه إلى أن يتحسسوا من يوسف وأخيه ، وامرأة العزيز نفسها تتحدث في الرواية القرآنية بلغة تليق بضمير إنساني وحره الندم ، وأرغمته ضهارة الضحية ونزاهتها على الاستسلام ، فإذا بالمخاطبة تعرف في النهاية بغلظتها ، وتقر بخطيئتها ، وفي السجن يتحدث يوسف بلغة روحية محنقة ، سواء مع صاحبيه ، أم مع السجنان ، فهو يتحدث كنبي يؤدي رسالته إلى كل نفس يرجو صلاحها) .

مختارات من تعليقات صاحب الظلال على قصة يوسف :

إن القصة تعرض شخصية يوسف — عليه السلام — وهي الشخصية الرئيسية في القصة — عرضاً كاملاً في كل مجالات حياتها ، بكل جوانب هذه الحياة ، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك المجالات . وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرضت لها تلك الشخصية الرئيسية في القصة ، وهي ابتلاءات متنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها .. ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء . وابتلاءات الفتنة بالشهوة ، والفتنة بالسلطان . وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات ، ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفن كلها نقياً خالصاً متجرداً في وقفته الأخيرة ، متجهاً إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع كما أسلفنا في نهاية الفقرة السابقة .

وإلى جانب عرض الشخصية الرئيسية في القصة تعرض الشخصيات الخيطة بدرجات متفاوتة من التركيز . وفي مساحات متناسبة من رفعة العرض ، ومن أبعاد متفاوتة من مركز الرؤية ، وفي أوضاع خاصة من الأضواء والظلال .. وتتعامل القصة مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة ، متمثلة في نماذج متنوعة : نموذج يعقوب الوالد المحب المنهوف والتي المنظم الموصول .. ونموذج إخوة يوسف وهواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة ، ومواجهة آثار الجريمة ، والضعف والخيرة أمام هذه المواجهة ، متميزاً فيهم أحدهم بشخصية موحدة السمات في كل مراحل القصة وموافقها . ونموذج امرأة العزيز بكل غرائزها ورغائبها واندفاعاتها الأنثوية ، كما تصنعها وتوجهها البيئة المصرية الجاهلية في بلاط الملوك ، إلى جانب طابعها الشخصي الخاص الواضح في تصرفها ووضوح انطباعات البيئة .. ونموذج النسوة من طبقة العلية في مصر الجاهلية والأضواء التي تلقى على البيئة ، ومنطقها كما يتجلى في كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها ، في إغرائهن كذلك ليوسف وتهديد امرأة العزيز له في مواجهتهن جميعاً . وما وراء أستار القصور ودسائسها ومناوراتها ، كما يتجلى في سجن يوسف بصفة خاصة .. ونموذج « العزيز » وعليه ظلال طبقة وبيته في مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه . ونموذج « الملك » في خطفة يتوراى بعدها كما توارى العزيز في منطقة الظلال بعيداً عن منطقة الأضواء في مجال العرض المتناسق وتبرز الملامح البشرية واضحة صادقة بواقعية كاملة في هذا الحشد من الشخصيات والبيئات ، وهذا الحشد من المواقف والمشاهد . وهذا الحشد من الحركات والمشاعر . وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعي الكامل مع تنوع الشخصيات وتنوع المواقف :

● إخوة يوسف والأحفاد الصغيرة في قلوبهم تكبر وتتضخم حتى تحجب عن ضمائرهم هول الجريمة وبشاعتها ونكارتها وضخامتها . ثم تزين لهم « المحلل الشرعي » الذي يخرجون به من تلك الجريمة . ملاحظاً في هذا واقعيتهم في بيئتهم الدينية - وهم أولاد نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم صلوات الله وسلامه وانطباعات هذه البيئة في تفكيرهم ومشاعرهم وتقاليدهم ، وحاجتهم النفسية - من ثم - إلى مرور للجريمة ، وإلى طريقة للتدخل من نكارتها وبشاعتها .

● وامرأة العزيز في صراع الشهوة التي تعمي عن كل شيء في اندفاعها الهائج الكاسح ، فلا تحفل بحياء أنثوي ولا كبرياء ذاتي ، كما لا تحفل مركزاً اجتماعياً ولا فضيحة عائلية . والتي تستخدم - مع ذلك - كل مكر الأنثى وكيدها ، سواء في تبرئة نفسها

أو حماية من تهوى من جرائم التهمة التي ألصقتها به ، وتحديد عقوبة لا تؤدي بحياته . أو رد الكيد للنسوة من ثغرة الضعف الغريزي الشهوي الذي تعرفه فبين من معرفتها لنفسها ، أو التبرّج بشهوانيتها أمام انكشاف ضعف عزيمتها وكبريائها أمام من تهوى ، ووقوف نسوتها معها على أرض واحدة ، حيث تبدو فيها الأنثى متجردة من كل تحمل المرأة وحياتها ، الأنثى التي لا تحس في إرواء هوائها الأنثوية أمراً يُعاب أصلاً . ومع صدق التصوير والتعبير عن هذا النموذج البشري الخاص بكل واقعيتها . وعن هذه اللحظة الخاصة بكل طبيعتها .

— ... يوسف العبد الصالح — الإنسان — وهو يواجه الفتنة بكل بشريته — مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه — وبشريته مع نشأته وتربيته ودينه يمثل بمجموعها واقعيتها بكل جوانبها .. لقد ضعف حين همت به ، ولكن الخيط الآخر شده وأنقذه من السقوط فعلاً . ولقد شعر بضعفه إزاء كيد النسوة . ومنطق البيئة ، وجو القصور ، ونسوة القصور أيضاً . ولكنه تمسك بالعروة الوثقى .. ليست هنالك شدة واحدة مزورة في واقعية الشخصية وطبيعتها ، وليس هنالك رائحة من مستنقعات الجاهلية ووحلها الفني . ذلك أن هذا هو الواقع السليم بكل جوانبه .

● والعزیز . وشخصيته بطبيعتها الخاصة . وبطبيعة سميت الإمارة ، ثم بضعف النخوة ، وغلبة الرباء الاجتماعي وستر الظواهر وإنقاذها وفيه تم كل خصائص يثته .

● والنسوة . نسوة هذا المجتمع بكل ملامحه .. اللَّفْظ بسيرة امرأة العزيز وفتاها الذي راودته عن نفسه ، بعدما شغفها حباً والاستنكار الذي تبدو فيه غيرة النسوة من امرأة العزيز أكثر مما يبدو فيه استنكار الفعل ، ثم وهنتن أمام طلعة يوسف . ثم إقرارهن الأنثوي العميق بموقف المرأة التي كن يملطن به ويستنكرن موقفها ، وإحساس هذه المرأة بهذا الإقرار الذي يشجعها على الاعتراف الكامل ، وهي آمنة في ظل استسلامهن لأنوثتهن كما تصنعها يثتهن الخاصة وتوجهها . ثم ميلهن كلهن على يوسف بالإغراء والإغواء ، رغم ما أنطقتن به الوهلة الأولى من نظافته وطهارته البادية من قوطن : ﴿ حاش الله ما هذا بشراً ، إن هذا إلا فلك كرم ﴾ . نأخذ ذلك من قولة يوسف عليه السلام : ﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ .. فلم تعد امرأة العزيز وحدها تراوده ، ولكن عادت نسوة تلك الطبقة يحملنها تطارده .

● والبيئة التي تتجلى سماتها من خلال ذلك كله . ثم من خلال ذلك التصرف في أمر

يوسف ، على الرغم مما بدا من براءته . ذلك التصرف المقصود به مواراة المضيحة ودفن معاملها ؛ ولأيهم أن يذهب برىء كيوسف ضحيته : ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ .

— فإذا تابعنا شخصية يوسف - عليه السلام - فإننا لا نفتقد في موقف واحد من مواقف القصة ملامح هذه الشخصية ، المنبثقة من مقوماتها الذاتية البيئية الواقعية ، المتمثلة في كونه « العبد الصالح - الإنسان - بكل بشريته ، مع نشأته في بيت النبوة وتربيته ودينه » ..

فهو في السجن وظلماته - مع الظلم وظلماته - لا يغفل عن الدعوة لدينه ، في كياسة وتلطّف - مع اخزم والفصل - وفي إدراك لطبيعة البيئة ومداخل النفوس فيها .. كما أنه لا يغفل عن حسن تمثيله بشخصيته وأدبه وسلوكه لدينه هذا الذي يدعو إليه في سجنه . وهو - مع هذا كله - بشر ، فيه ضعف البشر فهو يتطلب الخلاص من سجنه ، بمحاولة إيبصال خبره إلى الملك ، لعله يكشف المؤامرة الظالمة التي جاءت به إلى السجن المظلم . وإن كان الله - سبحانه - شاء أن يعلمه أن يقطع الرجاء إلا منه وحده : ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما : اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه . فلبث في السجن بضع سنين ... ﴾

ثم تطالعنا ملامح هذه الشخصية كذلك بعد بضع سنين ، وقد رأى الملك رؤياه ، فحار في تأويلها الكهنة والسدنة ، حتى تذكر صاحب السجن يوسف - بعدما نمت التربية الربانية للعبد الصالح . فاطمأن إلى قدر الله به واطمأن إلى مصيره - حتى إذا ما طلب الملك - بعد تأويله لرؤياه - أن يأتيه به ، أجاب في هدوء المظمن الوائق ؛ وتمنّع عن مغادرة سجنه إلا بعد تحقيق مهمته وتبرئة سمعته :

.....

ومنذ هذه اللحظة التي تحلت فيها شخصية يوسف مكتملة ناضجة واعية ، مطمئنة ساكنة واثقة ، نجد هذه الشخصية تنفرد على مسرح الأحداث وتتورأى تماماً شخصيات ننتك والعزير والنسرة والبيئة .

.....

ومنذ هذه اللحظة نجد هذه الشخصية تواجه ألواناً أخرى من الابتلاءات ، تختلف في صبغتها عن الألوان الأولى ، وتواجهها بذلك الاكتمال الناضج الواعي ، وبذلك الطمأنينة الساكنة الراضية .

● نجد يوسف وهو يواجه - للمرة الأولى - إخوته بعد ما فعلوا به تلك الفعلة القديمة ؛ وهو في الموقف الأعلى - بالقياس إليهم - والأقوى .. ولكننا نجد سمة الضبط واضحة في أفعاله وتصرفاته .

● ونجد أنه وهو يدبر - بتدبير الله له - كيف يأخذ أخاه . فنلمح الشخصية الناضجة الواعية الحكيمة المطمئنة ، الضابطة الصابرة .

ثم نلتقي به وقد استوفت المحنة يعقوب أجلها ، وقدر الله أن تنقضي الابتلاءات التي نزلت به وبنيه ، وحنَّ يوسف إلى أبيه وأهله ، ورقَّ لإخوته والضَّرَّ بإديهم ، فكشف لهم عن نفسه في عتاب رقيق ، وفي عفو كريم ، يحىء في أوانه ، وكل الملابس توحى به ، وتتوقعه من هذه الشخصية بسماتها تلك .

.....

وفي النهاية يحىء ذلك الموقف الجليل الرائع موقف اللقاء الجامع ويوسف في أوج سلطانه ، وأوج تأويل رؤياه وتحقق أحلامه .. وإذا به ينسلخ من هذا كله وينتهي جانباً بنفرد بربه ، ويناجيه خالصاً له ، وذلك كله مطروح وراءه : ﴿ رب قد آتيتي من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث . فاطر السماوات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة . توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ إنها شخصية موحدة متكاملة ، بكل واقعيتها الممثلة لمقوماتها الواقعية في نشأتها وبيئتها .

.....

● ويعقوب .. الوالد المحب الملهوف ، والنبي المطمئن الموصول ، وهو يواجه بالاستشارة والخوف معاً تلك الرؤيا الواعدة التي رآها يوسف ، وهو يرى فيها بشائر مستقبل مرموق ، بينما هو يتوجس خيفة من الشيطان وفعله في نفوس بنيه . فتتجلى شخصيته بواقعيتها الكاملة في كل جوانبها .

... ثم نجد هذه الشخصية كذلك بكل واقعيتها البشرية النبوية ، وبنوه يرادونه عن يوسف ثم وهم يفاجئونه بالفجيرة .

.... ثم نلتقي بهذه الشخصية - بكل واقعيتها تلك - وبنوه يرادونه مرة أخرى على السلوة الباقية له .. أخى يوسف .. وقد طلبه منهم عزيز مصر - يوسف - الذي لا يعرفونه في مقابل أن يعطيهم كيلاً يفتانوا به في السنوات العجاف .

.... ثم نلتقي به في فجيئته الثانية ، والدأ ملهوفاً ونبيّاً موصولاً .. ذلك بعد أن دبر الله

ليوسف كيف يأخذ أخاه . فيختلف أحد أبناء يعقوب - صاحب الشخصية الخاصة فيهم - متوافقاً مع سماته التي صاحبت مواقفه كلها في القصة . مشفقاً أن يقابل أباه بعد الموثق الذي آتاه إياه ، إلا أن يأذن له أبوه أو يحكم له الله .

وفي آخر مواقف المحنة الطويلة للشيخ المبلى نجد ذات الملامح وذات الواقعية وهو يشم ريح يوسف في قميصه ، ويواجه غيظ بنيه وتبكيهم فلا يشك في صدق ظنه بربه

.....

إنها الشخصية الموحدة الخصائص والملاحم ، الواقعية المشاعر والتصرفات ، الممثلة لكل واقعية ذاتها وظروفها ويبتها بلا تزوير ولا نقص ولا تحريف .

.....

والواقعية الصادقة الآمنة النظيفة السليمة في الوقت نفسه ، لاتقف عند واقعية الشخصيات الإنسانية التي تحفل بها القصة في هذا المجال الواسع ، في هذا المستوى الرائع . ولكنها تتجلى كذلك في واقعية الأحداث والسرود والعرض وصدقها وطبيعتها في مكانها وزمانها ، وفي بيتها وملابسها . فكل حركة وكل خالجة وكل كلمة نجىء في أوانها ؛ ونجىء في الصورة المتوقعة لها . ونجىء في مكانها من مسرح العرض . متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميتها ودورها وطبيعة جريان الحياة بها .. الأمر الملحوظ في الشخصيات أيضاً كما قررنا من قبل هذا ..

حتى لحظات الجنس في القصة ومواقفه أخذت مساحتها كاملة - في حدود المنهج النظيف اللائق « بالإنسان » - في غير تزوير ولا نقص ولا تحريف للواقعية البشرية في شموها وصدقها وتكاملها - ولكن استيفاء تلك الملاحظات لمساحتها المتناسفة مع بقية الأحداث والمواقف - لم يكن معناه الوقوف أمامها كما لو كانت هي كل واقعية الكائن البشري ؛ وكما لو كانت هي محور حياته كلها ، وهي كل أهداف حياته التي تستغرقها . كما تعاول الجاهلية أن تفهمنا أن هذا وحده هو الفن الصادق .

إن الجاهلية إنما تسمح الكائن البشري باسم الصدق الفني . وهي تقف أمام لحظة الجنس كما لو كانت هي كل وجهة الحياة البشرية بجملتها ، فتنشئ منها مستقراً واسعاً عميقاً ، مزيناً في الوقت ذاته بالأزهار الشيطانية .

وهي لا تفعل هذا لأن هذا هو الواقع ، ولا لأنها هي مخلص في تصوير هذا . الواقع . إنما تفعله لأن « بروتو كولات صهيون » تريد هذا تريد تجريد « الإنسان » إلا

من حيوانيته حتى لا يوصم اليهود وحدهم بأنهم هم الذين يتجردون من كل القيم غير المادية ، وتريد أن تفرق البشرية كلها في وحل المستنقع كي تنحصر فيه كل اهتماماتها ، وتستغرق فيه كل طاقاتها ؛ فهذه أضمن سبيل لتدمير البشرية حتى نجثو على ركبتيها خاضعة لملك صهيون المرتقب الملعون . ثم تتخذ من الفن وسيلة إلى هذا الشر كله ، إلى جانب ما تتخذه من نشر المذاهب « العلمية » المؤدية إلى ذات الهدف . تارة باسم « الداروينية » وتارة باسم « الفرويدية » وتارة باسم « الماركسية » أو « الاشتراكية العلمية » وكلها سواء في تحقيق المخططات الصهيونية الرهيبة .

والقصة بعد ذلك تتجاوز الشخصيات والأحداث لرسم ظلال الفترة التاريخية التي تجري فيها أحداث القصة ، وتتحرك فيها شخصياتها الكثيرة ، وتسجل سماتها العامة ، فترسم مسرح الأحداث بأبعاده العالمية في تلك الفترة التاريخية . ونكتفي ببعض اللوحات والسهام التي ترسم تلك الأبعاد :

● إن مصر في هذه الفترة لم يكن يحكمها الفراعنة من الأسر المصرية ؛ إنما كان يحكمها « الرعاة » الذين عاش إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام قريباً منهم ، فعرفوا شيئاً عن دين الله منهم : فأخذ هذا من ذكر القرآن للملك بلقب « الملك » في حين يسمى الملك الذي جاء على عهد موسى - عليه السلام - من بعده بلقبه المعروف « فرعون » ومن هذا يتحدد زمن وجود يوسف - عليه السلام - في مصر . فهو كان ما بين عهد الأسرة الثالثة عشرة والأسرة السابعة عشرة ، وهي أسر « الرعاة » الذين سماهم المصريون « الهكسوس » كراهية لهم ، إذ يقال : إن معنى الكلمة في اللغة المصرية القديمة : « الخنازير » أو « رعاة الخنازير » وهي فترة تستغرق نحو قرن ونصف قرن .

إن رسالة يوسف عليه السلام كانت في هذه الفترة . وهو كان قد بدأ الدعوة إلى الإسلام .. ديانة التوحيد الخالص .. وهو في السجن وقرر أنها دين أبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وقررها في صورة واضحة كاملة دقيقة شاملة (اهـ) .

كلمة في السياق

عندما نقرأ قصة يوسف - عليه السلام في القرآن ، ونقرأها في التوراة الحالية المخرفة ، نجد نفسك أمام كلام في القرآن هو القصة في البلاغة والعذوبة ، وتجد كلاماً تدلّك معانيه على أنه كلام الله من خلال ما يعطيك من عبر ومن عظات ومن دروس

ترفع النفس البشرية إلى درجات رفيعة ، بينما لا نحس هذا الإحساس أثناء قراءتك للتوراة الحالية المحرفة بسبب ما طرأ على هذه التوراة من تحريف ، ولأن الله جعل للقرآن الهيمنة على كل كتاب سابق ، فإذا وَجد الإنسان مثل هذا الكمال في العرض ، ومثل هذه الدقة في تفصيل حق ضاعت تفصيلاته حتى عند أهله ، ندرك كيف أنه بهذه السورة تقوم الحجة على الخلق في أن هذا القرآن من عند الله ، وهذا يؤكد ملاحظتنا أن محور سورة يوسف هو قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ... ﴾ وقد لاحظنا كيف أن السورة بدأت بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ فَمَنْ نَقِصْ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ قصة يوسف في هذه السورة دليل على أن هذا القرآن منزل من عند الله على رسول الله محمد ﷺ ، وهذه السورة - لمن تأملها - تقطع دابر كل ريب في أي قلب راغب بالحق ، حريص عليه ، ويتكامل هذا المعنى في آذاننا بعد استعراضنا لخاتمة السورة .

خاتمة السورة

ونمتد من الآية (١٠٢) إلى نهاية الآية (١١١) وهذه هي :

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَتَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَلِ مِنِّي سَبِيلٌ ادْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَّشَأٍ وَلَا يَرُدُّ بَأْسَنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

التفسير :

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف عليه السلام والخطاب لرسول الله ﷺ

﴿ من أنباء الغيب ﴾ أي من أخبار الغيوب السابقة ﴿ نوحيه إليك ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة والعظة وإقامة الحجة ﴿ وما كنت لديهم ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً ضم ﴿ إذ أجمعوا أمرهم ﴾ أي عزموا على ما هموا به من إلقاء يوسف عليه السلام في البئر ﴿ وهم يَمْكُرُونَ ﴾ أي يوسف ويغفون له الفوائل ، والمعنى : أن هذا الباء غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي ، لم تحضر بني يعقوب حين اتفقوا على إلقاء أخيه في البئر ، ولست ممن درس ويدرس حتى تتعلم مثل ذلك بواسطة الدراسة ، فلا كتب أهل الكتاب موجودة عندك ، ولا مترجمة ، ولا يوجد من تأخذ عنه ، إذ لو كان لعرف ، وليس هذا شائعاً عند قومك حتى تعرفه ، فقامت الحجة على كل أحد بأن هذا القرآن من عند الله يوحيه إليك ، ومع وضوح الحجة في هذا الأمر وقيام الدليل القطعي ، فالأمر ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت ﴾ أي ولو اجتهدت كل الاجتهاد على إيمانهم ﴿ بمؤمنين ﴾ لا بسبب من قصور الحجة ، ولا بسبب من قصور الدليل ، ولكن لانطماس عين البصيرة وصمم القلب والكبر ، الذي يمنع من الانصياع للحق ، هذا مع أنك يا محمد متبرع بتعليمهم لا تطلبهم على ذلك بأجر ، مع أنه لا علم في هذا العالم أشرف ولا أكرم ولا أعظم مما تعلمهم إياه وتدعوهم إليه ولذلك قال ﴿ وما تسألهم عليه ﴾ أي على التبليغ أو على القرآن أو على الهدى ﴿ من أجر ﴾ مال أو غيره أي وما تسألهم على هذا النصيح والدعاء إلى الخير والرشد من مكافأة ، وإنما تفعله ابتغاء وجه الله ، ونصحاً لخلقك ، وفي هذا دليل آخر على أنك رسول الله ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أي ما هو إلا عظة من الله للعالمين ، وحث على طلب النجاة بواسطة رسول من رسله من أجل أن يتذكروا ويهتدوا وينجوا في الدنيا والآخرة .

ملاحظة حول السياق :

نلاحظ في السورة السابقة على سورة يوسف أنه بعد ذكر القصص قال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلتهم التي يدعون من دون الله من شيء ﴾ . فبعد أن ذكر هناك القصص ، ذكر الحكمة من إيرادها ، وهي إقامة الحجة على ضرورة عبادة الله ، وترك عبادة غيره ، إذ لم تنفع عبادة غيره هذه القرى ، بل دمرهم وهكذا يأتي اسم الإشارة (ذلك) ليبين الحكمة من إيراد هذه القصص في ما يحقق هدف السورة ضمن

محورها الأمر بالعبادة ، وههنا في قصة يوسف عليه السلام نلاحظ أنه بعد ما قصّ الله علينا قصة يوسف قال : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ، وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ليبين لنا ربنا الحكمة من إيراد هذه القصة بما يحقق الهدف من إيرادها ضمن المحور العام لها ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ بما يقوم به الحجة على الخلق فلنتنبه إلى هذا المعنى الذي تستشعر فيه وحدة السورة ، مع وحدة الربط بينها وبين السياق القرآني العام

ولنعد إلى السياق :

لقد رأينا فيما مرّ من خاتمة السورة أن الحجة على الناس تقوم بذكر قصة يوسف في القرآن ، ولكن يحول دون الإيمان بحسب عن الآيات ، ثم تأتي الآن آية لتبين أن عمى هؤلاء عن الآيات والحجج في السورة يجري على نسق واحد ، مع عماهم عن آيات الله في الأرض والسماء ، ومن ثم قال تعالى : ﴿ وكأين من آية ﴾ أي من علامة ودلالة على الخالق وصفاته ﴿ في السموات والأرض يمرون عليها ﴾ على الآيات ﴿ وهم عنها ﴾ أي عن الآيات ﴿ معرضون ﴾ أي لا يعتبرون بها ، وإذا آمنوا فإن إيمانهم يرافقه شرك فقال : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله ﴾ وبأنه خلقهم وخلق السموات والأرض وما فيها من آيات ﴿ إلا وهم مشركون ﴾ بوثن أو بشر أو حجر أو قمر أو شمس أو طبيعة أو غير ذلك ، فقد أقام الله الحجة على خلقه بهذا القرآن ، ومع ذلك لم يؤمن أكثرهم ، وأقام الحجة على خلقه بآياته في الكون ومع ذلك لم يلتفتوا إليها ، وأكثر من يلتفت إليها يؤمن بالله على شرك ، فليس القصور في الحجة ، ولكن في العمى والسلوك المنحرف ، ثم أُنذر الله عز وجل هؤلاء فقال : ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية ﴾ أي عقوبة تغشاهم وتشملمهم ﴿ من عذاب الله ﴾ إن لم يؤمنوا واستمروا على شركهم ﴿ أو تأتيهم الساعة ﴾ أي القيامة ﴿ بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بإتيانها فإذا كان الأمر أنهم بين مدهامة عذاب الله ، أو مدهامة القيامة ، فكيف لا يؤمنون ، وكيف يشركون ، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يعلن أمام جحودهم وأمام شركهم . ﴿ قل هذه سبيلي ﴾ أي طريقى ومسلكى وسنتي ، والإشارة في الآية إلى الدعوة السابقة المتمثلة بالإيمان والتوحيد والمعنى : هذه سبيل التي هي الدعوة إلى الإيمان والتوحيد : ثم فسّر هذه السبيل بقوله ﴿ ادعوا إلى الله على بصيرة ﴾ أي ادعوا إلى دينه

بحجة واضحة غير عمياء مع يقين وبرهان ﴿ أنا ومن اتبعني ﴾ أي أدعوا إلى سبيل الله أنا ، ويدعو إليه من اتبعني ، فهو ومن اتبعه عليه الصلاة والسلام يدعون إلى الله على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي ، أو المعنى : أن رسول الله ﷺ ومن اتبعه على حجة وبرهان لا على هوى ﴿ وسبحان الله ﴾ أي وأنزهه وأجله وأعظمه وأقدسّه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عدل أو ند أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير أو أن يكون معه فاعل ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ مع الله غيره ، فسيبله عليه الصلاة والسلام ، وسبيل أتباعه الدعوة إلى الإيمان والتوحيد على بصيرة ، مع تنزيههم الله وإخلاصهم في توحيدِهِ ، فإذا لم يجتمع للداعية إلى الله هذه المعاني لا يكون على قدم رسول الله ﷺ : الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، مع التلبس الكامل بالتنزيه والتحقق بالتوحيد ، مع الدعوة البصيرية المبصرة التي لا تلبس حجتها الواضحة ، وما أقل من تجتمع له هذه المعاني في عصرنا ، وحتى في العصور التي جاءت بعد عصر السلف ، وهكذا أقام الله عز وجل الحجة لرسالة رسولنا ﷺ بمضمونها وبمحاله عليه الصلاة والسلام حال أتباعه ، بعد أن أقام الحجة عليهم - كما رأينا - بمضمون قصة يوسف .

ومن الآية الأخيرة ندرك أن دعوة رسول الله ﷺ تقوم على الدعوة إلى الإيمان والتوحيد بالبرهان المبصر والحجة الواضحة ، مع التلبس بكمال التنزيه وكال التوحيد ، واجتماع هذه المعاني هي سبيل رسول الله ﷺ ، ومشكلة عصرنا أن كثيراً من الدعاة إلى الله لا يعطون الدعوة إلى الإيمان والتوحيد مداها ، كما أن الكثيرين منهم يدعون إلى جوانب ليست الحجة فيها واضحة ، فمن من الدعاة قد تحقق بالتنزيه الكامل لله إقراراً واستشعاراً ، ومن من الدعاة من لا يسير إلا على ما قامت عليه الحجة العقلية أو النقلية ، ومن من الدعاة يعطي الدعوة إلى التوحيد والإيمان مكانهما الصحيح الأول . ومن من الدعاة لا يعارض الصحيح بالضعيف ويتلبس بما دلّ عليه حديث موضوع ، ويناقض عقلاً بنقل ، أو نقلاً بعقل .

نقول من الظلال :

ننقل هنا ثلاثة نقول من الظلال : الأول حول قوله تعالى : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون ﴾ . قال صاحب الظلال : (والآيات الدالة على الله وحدانيته وقدرته كثيرة مبثوثة في تضاعيف الكون . معروضة للأنظار والبصائر . في السموات وفي الأرض يمرّون عليها صباح مساء ، آناء الليل

وأطراف النهار . وهي ناطقة تكاد تدعو الناس إليها . بارزة تواجه العيون والمشاعر . موحية تخاليل للقلوب والعقول ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ولا يحسون إبقاعها العميق .

وإن لحظة تأمل في مطلع الشمس ومغيبها . لحظة تأمل في الظل الممدود بنقص بلطف أو يزيد . لحظة تأمل في الخضم الزاهر ، والعين الفوارة والنبع الروي . لحظة تأمل في البتة النامية ، والبرعم الناعم ، والزهرة المنفتحة ، والحصيد الهشيم ، لحظة تأمل في الطائر السابح في الفضاء ، والسمك السابح في الماء ، والدود السارب ، والتحلل الدائب ، وسائر الحشود والأهم من الحيوان والحشرات والهوام .. لحظة تأمل في صبح أو مساء في هدأة الليل أو في زحمة النهار .. لحظة واحدة يتسمّع فيها القلب البشري إلى إبقاعات هذا الوجود العجيب .. إن لحظة واحدة لكافية لارتعاش هذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب والتأثر المستعجب . ولكنهم ﴿ يمررون عليها وهم عنها معرضون ﴾ لذلك لا يؤمن الأكثرون !

وحتى الذين يؤمنون ، كثير منهم يتدسس الشرك - في صورة من صورهِ - إلى قلوبهم . فالإيمان الخالص يحتاج إلى بقضة دائمة تنقي القلب أولاً بأول كل خالجة شيطانية وكل اعتبار من اعتبارات هذه الأرض في كل حركة وكل تصرف لتكون كلها لله . خالصة له دون سواه ، والإيمان الخالص يحتاج إلى حسم كامل في قضية السلطان على القلب وعلى التصرف والسلوك فلا تبقى في القلب ديمونة إلا لله سبحانه ولا تبقى في الحياة عبودية إلا للمولى الواحد الذي لا راد لما يريد)

والنقل الثاني من الظلال حول قوله تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ .. قال صاحب الظلال : (مشركون قيمة من قيم هذه الأرض في تقديرهم للأحداث والأشياء والأشخاص . مشركون سببا من الأسباب مع قدرة الله في النفع أو الضرر سواء . مشركون في الدينونة لقوة غير قوة الله من حاكم أو موجه لا يستمد من شرع الله دون سواه . مشركون في رجاء يتعلق بغير الله من عبادة على الإطلاق . مشركون في تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس . مشركون في جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضرر ولكن لغير الله . مشركون في عبادة يلاحظ فيها وجه مع وجه الله .. لذلك يقول رسول الله - ﷺ - : « الشرك فيكم أخفى من ديب الثعلب » وفي الأحاديث نماذج من هذا الشرك الخفي ، روى الترمذي - وحسنه - من رواية ابن عمر ، « من

حنف بغير الله فقد أشرك » وروى أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ - : « إن الرقي والتائم شرك » وفي مستند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « من علق ثيماً فقد أشرك » وعن أبي هريرة - بإسناده - قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه » وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد بن أبي فضالة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله ، فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » .

وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أسوف ما أعاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : « الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء » ؟

فهذا هو الشرك الخفي الذي يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان . وهناك الشرك الواضح الظاهر ، وهو الدينونة لغير الله في شأن من شؤون الحياة الدنيوية في شرع يتحاكم إليه - وهو نص في الشرك لا يجادل عليه ...

والأمر في مثل هذه الشؤون يتجاوز منطقة الإثم والذنب بالمخالفة حين يكون طاعة العبيد .. إنه عندئذ لا يكون ذنباً ولكنه شرك ، لأنه يدل على الدينونة لغير الله فيما يخالف أمر الله .. وهو من هذه الناحية أمر خطير .. ومن ثم يقول الله .. ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ ..

والنقل الثالث حول قوله تعالى :

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ قال صاحب الفلال : (هذه طريقي فمن شاء فليتابع ، ومن لم يشأ فأنا سائر في طريقي المستقيم وأصحاب الدعوة إلى الله لا يد لهم من هذا التمييز ، لا بد لهم أن يعلنوا أنهم أمة واحدة يفترون عمن لا يعتقد عقيدتهم ، ولا يسلك مسلكهم ، ولا يدين لقيادتهم ، ويتميزون ولا يختلطون ولا يكفى أن يدعو أصحاب هذا الدين إلى دينهم ، وهم متميعون في المجتمع الجاهلي ، فهذه الدعوة لا تؤدي شيئاً ذا قيمة إنه لا بد لهم منذ اليوم الأول أن يعلنوا أنهم شيء آخر غير الجاهلية وأن يتميزوا بتجمع خاص

آصرته العقيدة المتميزة وعنوانه القيادة الإسلامية .. لا بد أن يميزوا أنفسهم من المجتمع الجاهلي وأن يميزوا قيادتهم من قيادة المجتمع الجاهلي أيضاً !

إن اندغامهم وتبعيةهم في المجتمع الجاهلي ، وبقاءهم في ظل القيادة الجاهلية يذهب بكل السلطان الذي تحمله عقيدتهم وبكل الأثر الذي يمكن أن تنشئه دعوتهم وبكل الجاذبية التي يمكن أن تكون للدعوة الجديدة

وهذه الحقيقة لم يكن مجازاً فقط هو الدعوة النبوية في أوساط المشركين .. إن مجازها هو مجال هذه الدعوة كنما عادت الجاهلية قعلت على حياة الناس .. وجاهلية القرن العشرين لا تختلف في مفوماتها الأصلية ، وفي ملامحها المميزة عن كل جاهلية أخرى واجهتها الدعوة الإسلامية على مدار التاريخ .

والذين يظنون أنهم يصلون إلى شيء ، عن طريق التبع في المجتمع الجاهلي والأوضاع الجاهلية والتدسس الناعم من خلال تلك المجتمعات ومن خلال هذه الأوضاع بالدعوة إلى الإسلام .. هؤلاء لا يدركون طبيعة هذه العقيدة ولا كيف ينبغي أن تطرق القلوب ! ..

إن أصحاب المذاهب الإلحادية أنفسهم يكشفون عن عنوانهم وواجهتهم ووجهتهم أفلا يعلن أصحاب الدعوة إلى الإسلام عن عنوانهم الخاص ؟ وطريقهم الخاص ؟ وسيلهم التي تفرق تماماً عن سبيل الجاهلية ؟ اهـ

ولنعد إلى السياق :

﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ﴾ لا ملائكة ﴿ نوحى إليهم ﴾ قلست بدعاً من الرسل حتى يستغرب الناس بعثتك ﴿ من أهل القرى ﴾ أي المدن لأنهم أحلم وأرق طباعاً وأطف ، وأكثر ألفة وتألفاً لكثرة العشرة والخلطة ، فأرسالك إذن على نفس السنة ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾ أي من الأمم المكذبة للرسل كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فمن نظر اعبر وآمن . فالله عز وجل يلفت نظر هؤلاء إلى مجموعة سنن له من تأملها آمن ، وانتفى ريبه وشكّه برسالة رسول الله وبالكتاب المنزل عليه ، وفي الوقت نفسه فمن نظر وتدبر عاقبة الماضين في نجاة المؤمنين وإهلاك الكافرين انعط وآمن ﴿ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ﴾ الله ، بفعل طاعته واجتناب معصيته ﴿ أفلا تعقلون ﴾ عن الله آياته وسننه ، ثم بين الله سنته في نصرة رسله أنها لا تأتي بسرعة ، وفي قصة يوسف عليه السلام نموذج ﴿ حتى إذا

استئس الرسل ﴿ أي بسوا من إيمان القوم ﴾ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴿ أي وظن أقوامهم أن الرسل قد أخلفوا ما وعدوه ، أو وظن المرسل إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل ، أي كذبتهم الرسل في أنهم ينصرون عليهم ولم يصدقوهم فيه ، وهناك قراءة بتشديد الذال ، ومعناها على هذا : وأيقن الرسل أن قومهم كذبوهم ﴾ وجاءهم نصرنا ﴿ أي جاء الأنبياء والمؤمنين بهم النصر فجأة من غير احتساب ﴾ فتجنى من نشاء ﴿ أي النبي ومن آمن به ﴾ ولا يرد بأسنا ﴿ أي عذابنا ﴾ عن القوم المحرمين ﴿ أي الكافرين ﴾ لقد كان في قصصهم ﴿ أي لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم وكيف جعلنا العاقبة لهم كما رأيت نموذج ذلك في قصة يوسف ﴾ عبرة لأولي الألباب ﴿ أي عظة لأصحاب العقول ، وقد رأينا في قصة يوسف كيف نقل من غيابة الحب إلى نهاية الحب ، ومن الحصر إلى السرب . فصارت عاقبة الصبر سلامة وكرامة ، ونهاية المكر وخامة وندامة ﴾ ما كان حديثاً يفترى ﴿ أي ما كان القرآن حديثاً مفترى كما زعم الكفار ، ولا يتصور أن بالإمكان أن يفترى هذا القرآن على الله إلا مجنون ﴾ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴿ أي من الكتب المنزلة من السماء فهو بصدق ما فيها من الصحيح ، وببني ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، ويحكم عليها بالنسخ أو التغير ، وقد رأينا في قصة يوسف نموذجاً ، وكتاب هذا شأنه منزل على الرسول الأمي ما كان ليكون إلا من عند الله ﴾ وتفصيل كل شيء ﴿ من تحليل وتحريم ، ومحجوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات ، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات ، والإخبار عن الأمور الجليلة ، وعن الغيوب المستقبلية المجملة والتفصيلية ، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات ، ونزاهه عن مماثلة المخلوقات ، وباجملة فإن القرآن تفصيل لكل شيء يحتاج إليه في الدين لأنه كما قال النسفي : القانون الذي تستند إليه السنة والإجماع والقياس ، ومن هذه الآية ومن قوله تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ فهم العلماء أنه ما من قضية إلا والله فيها حكم ، عرفه من عرفه ، وجهله من جهله ، وكتاب هذا شأنه لا يمكن أن يكون إلا من عند الله ﴾ وهدى ﴿ من الضلال ﴾ ورحمة لقوم يؤمنون ﴿ بالله وأبيه في الدنيا والآخرة .

وكتاب هذا شأنه فيه الهدى في كل أمر ، وفيه الرحمة في شأن الدنيا والآخرة ، في شأن الخسد والقلب ، في شأن الروح والعقل ، في شأن الفرد واجتماع ، كتاب هذا شأنه لا يمكن أن يكون إلا من عند الله ، وهكذا حطمت سورة يوسف الريب في سياقها العام ،

وأعطت في كل آية من آياتها دورساً لا تنتهي ، ومن دروسها العامة ما قاله النسفي : قال أبو منصور رحمه الله : في ذكر قصة يوسف عليه السلام وإخوته تصير لرسول الله ﷺ على أذى قريش كأنه يقول : إن إخوة يوسف مع موافقتهم إياه في الدين ومع الأخوة عملوا يوسف ما عملوا من الكيد والمنكر ، وصبر على ذلك ، فأنت مع مخالفتهم إياك في الدين أخرى أن تصبر على أذاهم ، ومن دروسها : أن على أهل الإيمان أن يشقوا بحسن العاقبة .

وبمناسبة قوله تعالى ﴿ حتى إذا استئس الرسل ... ﴾

قال صاحب الظلال :

تلك سنة الله في الدعوات لابد من الشدائد ولا بد من الكروب حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة . ثم يحيى النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي تتعلق بها الناس . يحيى النصر من عند الله فهنجو الذين يستحقون النجاة ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين ، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون ويحل بأس الله باجرامهم ، مدمراً ماحقاً لا يقفون له ولا يصد عنه ولي ولا نصير .

ذلك كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً . فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعوى بدعوة لا تكلفه شيئاً أو تكلفه القليل . ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعياء . والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة لذلك يشفقون أن يدعواها فإذا ادعوا عجزوا عن حملها وطروحها وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون الذين لا يتخلون عن دعوة الله ولو ظنوا أن النصر لا يجيئهم في هذه الحياة !

إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل إما أن تربح ربحاً معيناً محدوداً في هذه الأرض وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربحاً وأيسر حصيلة ، والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية - والمجتمعات الجاهلية هي التي تدين لغير الله بالطاعة والاباع في أي زمان أو مكان - يجب أن يوطن نفسه على أنه لا يقوم برحلة مريخة ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل ، إنما ينبغي له أن يستيقن أنه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال ، ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود ، ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاعها على الدعوة إلى الله ، باستثارة شهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات ... ويجب أن

يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة للتكاليف وأن الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثير لتكاليف أيضاً وأنه من ثم لا تنضم إليها - في أول الأمر - الجماهير المستضعفة المستخفة إنما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله التي تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة ، وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا .

وأن عدد هذه الصفوة يكون دائماً قليلاً جداً ولكن الله يفتح بينهم وبين قومهم بالحق بعد جهاد بطول أو يقصر ، وعندئذ فقط تدخل الجماهير في دين الله أفواجا ، وفي قصة يوسف ألوان من الشدائد في الحب ، وفي بيت العزيز ، وفي السجن وألوان من الاستيئاس من نصرة الناس .. ثم كانت العاقبة خيراً للذين اتقوا - كما هو وعد الله الصادق الذي لا يخيب - وقصة يوسف نموذج من قصص المرسلين فيها عبرة لمن يعقل ، وفيها تصديق ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل ، على غير صلة دراسية بين محمد ﷺ وهذه الكتب فما كان ممكناً أن يكون ما جاء به حديثاً مفترى ، فالأكاذيب لا يصدق بعضها بعضاً ولا تحقق هداية ولا يسروح فيها القلب المؤمن الروح والرحمة : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يوقنون ﴾ . اهـ

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ يذكر ابن كثير مجموعة من الأحاديث والآثار ينتظمها أنها في موضوع الشرك الخفي أو الظاهر . وكعادتنا في حذف الأسانيد والاكتفاء برواية من المكرر نقل الروايات التالية :

(في الصحيحين : أن المشركين كانوا يقولون في تليينهم : لييك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك) وفي صحيح مسلم : أنهم كانوا إذا قالوا : لييك لا شريك لك قال رسول الله ﷺ : « قد قد » أي حسب حسب لا تزيدوا على هذا ، وقال الله تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ (لقمان : ١٣) وهذا هو الشرك الأعظم : يعبد مع الله غيره ، كما في الصحيحين : عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » . وقال الحسن البصري في قوله : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ قال : ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس وهو مشرك بعمله ذلك يعني قوله : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا

قليلًا ﴿ (النساء : ١٤٢) ﴾ وثُمَّ شَرِكَ آخَرَ خَفِيَ لَا يَشْعُرُ بِهِ غَالِبًا فَاعْلَهُ ، كَمَا رَوَى حَمَادُ بْنُ سُلَيْمَةَ عَنْ عُرْوَةَ قَالَ : دَخَلَ حَذِيفَةُ عَلَى مَرِيضٍ فَرَأَى فِي عَضْدِهِ سِرًّا فَقَطَعَهُ - أَوْ انْتَزَعَهُ - ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ . وَفِي الْحَدِيثِ : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ » . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ . وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُمَا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ رُقِيَ وَالتَّمَائِمُ وَالتَّوَلَّى شَرِكًا » . وَفِي لَفْظٍ لِهَمَّا « الطَّيْرَةُ شَرِكٌ ، وَمَا مِنَّا إِلَّا .. » ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِيهِ بِالتَّوَكُّلِ » . وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ ... عَنْ زَيْنَبِ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَتْ : كَانَ عَبْدُ اللَّهِ إِذَا جَاءَ مِنْ حَاجَةٍ فَاتَّهَى إِلَى الْبَابِ تَتَحَنَّنُ وَهَرَقَ كَرَاهَةً أَنْ يَهْجُمَ مِنَّا عَلَى أَمْرٍ يَكْرَهُهُ ، قَالَتْ : وَإِنَّهُ جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَتَتَحَنَّنُ وَعِنْدِي عَجُوزٌ تَرْقِيَنِي مِنَ الْخَمْرَةِ ، فَأَدْخَلْتُهَا تَحْتَ السَّرِيرِ ، قَالَتْ : فَدَخَلَ فَجَلَسَ إِلَى جَانِبِي فَرَأَى فِي عُنُقِي خَيْطًا ، فَقَالَ : مَا هَذَا الْخَيْطُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : خَيْطُ رَقِي لِي فِيهِ ، فَأَخَذَهُ فَقَطَعَهُ ، ثُمَّ قَالَ : إِنْ آَلَ عَبْدُ اللَّهِ الْأَغْنِيَاءَ عَنِ الشَّرِكِ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنْ الرُّقَى وَالتَّمَائِمُ شَرِكٌ » .

قَالَتْ : قُلْتُ لَهُ : لَمْ تَقُولْ هَذَا وَقَدْ كَانَتْ عَيْنِي تَقْذِفُ ، فَكُنْتُ أَخْتَلِفُ إِلَى فُلَانِ الْيَهُودِيِّ يَرْقِيهَا ، فَكَانَ إِذَا رَقَاهَا سَكُنَتْ ، فَقَالَ : إِنَّمَا ذَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ ، كَانَ يَنْخَسِهَا بِيَدِهِ ، فَإِذَا رَقَاهَا كَفَّ عَنْهَا ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولِي كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَذْهَبَ الْبَاسُ رَبَّ النَّاسِ أَشْفَى أَنْتَ الشَّاقِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ ، شِفَاءٌ لَا يَغَادِرُ سَقَمًا » . وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عِيسَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَكْبَمٍ وَهُوَ مَرِيضٌ نَعُودُهُ ، فَقِيلَ لَهُ : لَوْ تَعَلَّقْتَ شَيْئًا ، قَالَ : أَتَعَلَّقُ شَيْئًا وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكُلَّ إِلَيْهِ » . وَفِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَقْبَةَ ابْنِ عَامِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ » . وَفِي رَوَايَةٍ « مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا تُحْمِ اللَّهُ لَهُ ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدْعَةً فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ » . وَرَوَى مُسْلِمٌ ... عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَنَا أُغْنِي الشَّرِكَاءَ عَنِ الشَّرِكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتَهُ وَشَرِكُهُ » . وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ ... عَنْ أَبِي سَعِيدٍ بِنِ أَنَسٍ فَضَالَةً قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا جُمِعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ يَنَادِي مُنَادٌ : مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ اللَّهُ فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ أُغْنِيَ الشَّرِكَاءَ عَنِ الشَّرِكِ » . وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ ... عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ لَيْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنْ أَخَوفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشَّرِكُ الْأَصْغَرُ » . فَالْتَمِسُوا : وَمَا الشَّرِكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « الرِّبَاءُ » ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا

جاء الناس بأعماهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا ، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟ . وروى الإمام أحمد ... عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « من ردت الطيرة عن حاجته فقد أشرك » . قالوا : يا رسول الله ما كفارة ذلك ؟ قال : « أن يقول أحدهم : اللهم لا خير إلا بخيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك » . وروى الإمام أحمد ... عن رجل من بني كاهل قال : خطبنا أبو موسى الأشعري فقال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من ديب النمل ، فقام عبد الله بن حرب وقيس بن المضارب فقالا : والله لنخرجن مما قلت أو لنأتين عمر مأذوناً لنا أو غير مأذون ، قال : بل أخرج مما قلت خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من ديب النمل » . فقال له من شاء الله أن يقول : فكيف تنفيه وهو أخفى من ديب النمل يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه » . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه النسائي من حديث يعلى بن عطاء سمعت عمرو بن العاص سمعت أبا هريرة قال : قال أبو بكر الصديق : يا رسول الله علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي ، قال : « قل : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر الشيطان وشركه » . وزاد الإمام أحمد في رواية له في آخره : « وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم » .

٢ — بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القري ﴾ ثار قضيتان : الأولى : أنه لا نبوة ولا رسالة في النساء . والقضية الثانية : أنه لا نبوة في أهل البادية : وفي القضية الأولى يقول ابن كثير بمناسبة الآية : (يخبر تعالى أنه أرسل رسوله من الرجال لا من النساء وهذا قول جمهور العلماء ، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة ، وأن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع ، وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل . وأم موسى . ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات ، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، ويقولون : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ الآية (القصص : ٧) ، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام ، ويقولون تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ (آل عمران : ٤٢) وهذا القدر حاصل نحن ، ولكن لا يلزم

من هذا أن يكنَّ نيات بذلك ، فإن أراد القائل بنوتهن هذا القدر من التشريف فهذا لا شك فيه ، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك البوة بمجرد أم لا ؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة ، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم : إنه ليس في النساء نية ، وإنما فيهن صدقات كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾ (المائدة : ٧٥) فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية ، فلو كانت نية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام ، فهي صديقة بنص القرآن .

وفي القضية الثانية نقول : من المعروف أن المدينة أكثر ملاءمة لتمر الأخلاق الاجتماعية ، والبلاغ على أهلها أسهل : ومن ثم كانت سنة الله ألا يرسل رسولاً من أهل البادية . قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ من أهل القرى ﴾ لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود ، فالقرية في الآية إذن تقابل البادية وليس شرطاً أن تكون القرية كبيرة ، وأما يعقوب عليه السلام فسكنه في البادية عارض ، ولذلك ذكرهم يوسف عليه السلام بئمة الله عليهم ، فقال : ﴿ وجاء بكم من البدو ﴾

٣ — ينقل ابن كثير كلاماً كثيراً للمفسرين في قوله تعالى : ﴿ حتى إذا استئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ إذ هذه الآية من الآيات التي يستخدم حول فهمها النقاش ، وما ذكرناه أثناء التفسير هو أجود ما يقال فيها فتأمله . ولنذكر هنا روايتين ذكرهما ابن كثير على نفس النسق الذي اعتمدناه .

روى الأعمش عن مسلم عن ابن عباس في قوله ﴿ حتى إذا استئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ قال : لما أيسر الرسل أن يستجيب لهم قومهم ، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم جاءهم النصر على ذلك ﴿ فنجى من نشاء ﴾ .

وروى ابن جرير بعنده عن إبراهيم بن أبي حمزة الجزري قال : سأل فتى من قريش سعيد بن جبير قال : أخبرنا أبا عبد الله كيف هذا الحرف ، فإني إذا أتيت عليه تمثيت أن لا أقرأ هذه السورة ﴿ حتى إذا استئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ قال : نعم حتى إذا استئس الرسل من قومهم أن يصدقوهم ، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا ، فقال الضحاک بن مزاحم : ما رأيت كالיום قط رجلاً يدعى إلى علم فيتركاً ، لو رحلت إلى اليمن في هذه كان قليلاً .

كلمة في سورة يوسف :

قلنا إن محور سورة يوسف في السياق القرآني العام هو قوله تعالى — والله أعلم — ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

وقد جاءت سورة يوسف مبتدأة بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۚ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴾ . ثم بدأت القصة ، ثم جاءت الخاتمة . ومن تأمل مقدمة السورة وخاتمها ، والقصة فيها ، علم يقيناً أن هذا القرآن من عند الله ، وانتفى لديه كل شك وريب ، وأن هذا القرآن منزل على محمد ﷺ الذي كان من قبل إنزاله عليه من الغافلين ، كما نصّت مقدمة السورة . فالسورة إذن من حيث ارتباطها بمحورها تحقق هدفاً عدا عن أهدافها الخاصة . وهكذا نجد أن كل سورة من السور تحقق بالنسبة للسياق القرآني العام الذي تمثل به الوحدة القرآنية العظمى هدفاً مرتبطاً بهذا السياق ، عدا عما تحققه من أهداف في سياقها الجزئي .

سورة الرعد

وهي السورة الثالثة عشرة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الرابعة من المجموعة الأولى من
قسم المثين ، وآياتها ثلاث وأربعون
وهي مكية

(وبعضهم يرى أنها مدنية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَاصْحَابِهِ

وَرَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا . إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

قال الألوسي في تقديمه لسورة الرعد : (جاء من طريق مجاهد عن ابن عباس وعلي بن أبي طلحة : أنها مكية وروى ذلك عن سعيد بن جبير قال سعيد بن منصور في سننه : حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر قال : سألت ابن جبير عن قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ هل هو عبد الله بن سلام ؟ فقال : كيف وهذه السورة مكية . وأخرج مجاهد عن ابن الزبير وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس ، ومن طريق ابن جريج وعثمان بن عطاء عنه ، وأبو الشيخ عن قتادة : أنها مدنية إلا أن في رواية الأخير استثناء قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارَعَةٌ .. ﴾ الآية فإنها مكية . وروى أن أولها إلى آخر ﴿ وَلَوْ أَنْ قَرَأْنَا ﴾ الآية مدني ، وبقاياها مكى . وفي الإتيان : يؤيد القول بأنها مدنية ما أخرجه الطبراني وغيره عن أنس : أن قوله تعالى ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ﴾ إلى قوله ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴾ نزل في قصة إريد بن قيس ، وعامر بن الطفيل حين قدما المدينة على رسول الله ﷺ ، ثم قال والذي يجمع به بين الاختلاف أنها مكية إلا آيات منها . وهي ثلاث وأربعون آية في الكوفي .. ووجه مناسبتها لما قبلها أنه سبحانه قال فيما تقدم : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ فأجمل سبحانه الآيات السماوية والأرضية ، ثم فصل جل شأنه ذلك هنا أتم تفصيل ، وأيضاً أنه تعالى قد أتى هنا بما يدل على توحيده عز وجل ما يصلح شرحاً لما حكاه عن يوسف عليه السلام من قوله ﴿ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .. ﴾ وأيضاً في كل من السورتين ما فيه نسبة له ﷺ ، هذا مع اشتراك آخر تلك السورة وأول هذه فيما فيه وصف القرآن كما لا يخفى ، وجاء في فضلها ما أخرجه ابن أبي شيبة والمروزي في الجنايز أنه كان يستحب إذا حضر الميت أن يقرأ عنده سورة الرعد ، فإن ذلك يخفف عن الميت ، وأنه أهون لقبضه وأيسر لشأنه) اهـ

وقال صاحب الظلال في سورة الرعد :

(هذه السورة من أعاجيب السور القرآنية التي تأخذ في نفس واحد ، وإيقاع واحد ، وجو واحد ، وعطر واحد من بدئها إلى نهايتها ، والتي تنعم النفس وترحم بالصورة والظلال والمشاهد والخواج والتي تأخذ النفس من أقطارها جميعاً ، فإذا هي مهرجان من أنصوري والمشاعر والإيقاعات والإشراقات ، والتي ترتاد بالقلب آفاقاً وأكواناً وعوالم وأزماناً وهو مستيقظ ، مبصر ، مدرك ، شاعر بما يموج حوله من المشاهد والموجبات . إنها ليست ألفاظاً وعبارات ، إنما هي مطارق وإيقاعات . صورها ظلالها . مشاهدتها

موسيقاها . لمساعها الوجدانية التي تكمن وتتوزع هنا وهناك

.....

وهذه السورة تطوف بالقلب البشري في مجالات وآفاق وآماد وأعماق ، وتعرض عليه الكون كله في شتى مجالاته الأتخاذة : في السموات المرفوعة بغير عمد ، وفي الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى . وفي الليل يغشاها النهار . وفي الأرض الممدودة وما فيها من رواس ثابتة وأنهار جارية وجنات وزروع ونخيل مختلف الأشكال والطعوم والألوان ، ينبت في قطع من الأرض متجاورات ويسقى بماء واحد - وفي البرق يخيف ويطمع ، والرعد يسيح ويحمد ، والملائكة تخاف وتخشع ، والصواعق يصيب بها من يشاء ، والسحاب الثقال والمطر في الوديان . والزبد الذي يذهب جفاء ، ليبقى في الأرض ما ينفع الناس .

وهي تلاحق ذلك القلب أينما توجه : تلاحقه بعلم الله النافذ الكاشف الشامل ، يلم بالشارد والوارد ، والمستخفي والسارب ويتعقب كل حي ، ويحصي عليه الخواطر والخواجج . والغيب المكنون الذي لا تدركه الظنون مكشوفاً لعلم الله ، وما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد .

إنها تقرب لمدارك البشر شيئاً من حقيقة القوة الكبرى المحيطة بالكون ظاهره وخفيه جليله ودقيقه ، حاضره وغيبه . وهذا القدر الذي يمكن لمدارك البشر تصوره هائل مخيف ترجف له القلوب ، وذلك إلى الأمثال المصورة تتمثل في مشاهد حية حافلة بالحركة والانفعال إلى مشاهد القيامة . وصور النعيم والعذاب وخلجات الأنس في هذا وذلك . إلى وقفات على مصارع الغابرين وتأملات في سير الراحلين . وفي سنة الله التي مشيت عليهم فإذا هم دائرون .

كلمة في سورة الرعد ومحورها في السياق القرآني العام :

إن محور سورة الرعد من سورة البقرة هو قوله تعالى :

﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا رَسُولٌ كَذَبْتَ كَثِيرًا وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا بَلْ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ - الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾
والدليل على ذلك :

١ - نلاحظ أن مقدمة السورة كانت : ﴿ أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ

من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴿ فتأمل قوله تعالى : ﴿ والذي أنزل إليك من ربك الحق ﴾ من أول سورة الرعد وقوله ﴿ فأما الذين آمنوا فليعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ من آيتي سورة البقرة

٢ — لاحظ قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ﴾ ثم لاحظ في سورة الرعد : ﴿ الله الذي رفع السموات ﴾ ﴿ وهو الذي غط الأرض ﴾ ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ . ﴿ هو الذي يريكم البرق ﴾ ﴿ الله يسطر الرزق ﴾ لتجد أن الله يعرفنا عليه جل جلاله في سورة الرعد كما عرفنا على ذاته الكريمة هناك .

٣ — لاحظ في سورة البقرة : ﴿ أن يضرب مثلاً ﴾ ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ... ﴾ ولاحظ في سورة الرعد : ﴿ كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ .. ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ ويلاحظ بشكل بارز في سورة الرعد كثرة الأمثال .

٤ — لاحظ في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ فأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ وفي سورة الرعد ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ... ﴾ ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ... ﴾ ولاحظ في سورة البقرة ﴿ فأما الذين آمنوا فليعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ .

وفي سورة الرعد : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب . الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدفعون بالحنّة السيئة أولئك هم عُقى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقى الدار . والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم اللعنة ولهم سوء الدار . ﴾

فأنت تلاحظ نقاط التشابه الكثيرة بين سورة الرعد وبين الآيتين اللتين قلنا إنهما محور سورة الرعد من سورة البقرة ، ثم هما بآيتين بعد قليل من قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ والتي قلنا عنها إنها محور سورة يوسف ، كما أن سورة الرعد تأتي مباشرة بعد سورة يوسف . وعلى هذا فسورة الرعد تفصيل لقضايا مجملة في الآيتين من سورة البقرة ، فهي تعريف على الله ، وهي عرض لأقوال للكافرين ، وفيها أمثال كثيرة بضر بها الله عز وجل ، وفيها تدليل على أن هذا القرآن حق ، وفيها تفصيل لسمات الذين يستحقون الاهتداء بهذا القرآن ، وفيها تفصيل لصفات الفاسقين ، وفيها وفيها مما ستره من خلال التفسير ، مما يؤكد لك أن ما اتجهنا إليه في هذا التفسير صحيح ، إن في موضوع الوحدة القرآنية ، أو في محاور السور بناء على ذلك

ولعلنا لاحظنا أن نوعية التفصيل في القرآن تختلف عن أي نوع من أنواع التفصيل المعروف عند البشر ، لقد ظهر الله عز وجل في القرآن كما ظهر في هذا الكون ، فهو الظاهر بآياته ، سواء كانت آياته في الكون ، أو آياته في القرآن . وكما أنك ترى الكون أجزاءً وأجزاءً ، وكل جزء فيه يرجع إلى أصل كبير ، ثم تجدد الأشياء كلها ترجع إلى نوع عجيب من الوحدة يعرفه العالمون . كما أشرنا إليه في كتابنا عن الله جل جلاله . فكذلك هذا القرآن يظن الجاهل أنه لا رابطة بين آياته فضلاً عن سوره ، ولكن من فتح الله على قلبه يرى كيف أن هذا القرآن كهذا الكون ، تجده على أدق نظام ، وعلى أدق ترتيب ، وعلى أدق انسجام ، وعلى أعظم مظهر من مظاهر الوحدة الكلية التي تربط بين آياته وسوره ، مما لا يعرف حتى العالمون عنه إلا القليل . ونحب قبل أن نبدأ عرض سورة الرعد أن نلفت النظر إلى أن قضية الضلال والهداية وأسبابهما ، وهي من المعاني الرئيسية في سورة الرعد فليتنبه لذلك لأن فهم هذه القضية بشكل جزءاً عظيماً من أجزاء المعرفة الصحيحة . تتألف السورة من مقدمة هي آية واحدة ، وثلاثة مقاطع كما سنرى .

المقدمة :

وهي آية واحدة وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرَّتِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

التفسير :

في هذه المقدمة ثلاثة معان :

١ - ﴿الْمَرَّتِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ﴾ تلك إشارة إلى آيات هذه السورة ، والمراد بالكتاب - والله أعلم - في هذا المقام هذا الجزء منه ، وهو هذه السورة من باب ذكر العام وإرادة الخاص ، والإشارة بتلك تفيد التفضيم والتعظيم . والمعنى : تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة في بابها . فهذا هو المعنى الأول ، وفيه تنبيه على جلالة هذه السورة في هذا القرآن الجليل .

٢ - ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ﴾ أي القرآن كله ﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ الله ﴿الْحَقُّ﴾ فالقرآن كله حق ، وهو مُنْزَلٌ من الله على محمد ﷺ ، فهذا هو المعنى الثاني

٣ - ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بأن هذا القرآن من عند الله أنزله على محمد عبده ورسوله ﷺ ، دل ذلك على أن الأقل هم الذين يؤمنون ، أربط ذلك بمحور سورة الرعد من سورة البقرة : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهكذا جاءت المقدمة مشيرة إلى موضوع السورة ، ورابطة إياه بالمحور ، ثم بعد ذلك تأتي المقاطع الثلاثة في السورة ، داعية إلى الإيمان ، مبرهنة على أن هذا القرآن حق ، مقبلة المحجة على الكفر وأهله .

المقطع الأول

ويتمد من الآية (الثانية) حتى نهاية الآية (السابعة) وهذا هو :

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿١﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْثِي الْحَبَّ السَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضْلُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَؤِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْنَا لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤﴾ وَیَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْمَأ أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٦﴾

التفسير :

﴿ الله الذي رفع السموات ﴾ أي خلقها مرفوعة ﴿ بغير عمد ترونها ﴾ أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها ، أي ترون السموات مرفوعة بغير عمد فلا حاجة إلى إيهان على ذلك مع الرؤية ، وذلك دليل قدرته عز وجل وحكمته ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ استواء يليق بجلاله . قال ابن كثير : من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل . ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ لمنافع عباده ، ومصالح بلاده ، وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر في الدلالة على التسخير الذي فيه المصلحة للخلق ﴿ كل يجري لأجل نفسى ﴾ وهو انقضاء الدنيا بقيام الساعة ﴿ يدبر الأمر ﴾ قال النسفي : أمر ملكوته وربوبيته ﴿ يفصل الآيات ﴾ أي يُبينها ، وآياته هنا كتابه المنزل ﴿ لعلكم توفقون ﴾ أي لعلكم توقنون بأن هذا المدبر والمفصل لا بد لكم من الرجوع إليه ، وهكذا عرفنا أن الله عز وجل جعل تدبيره وتمصيل آياته علامتين تدلان على الرجوع إليه ، فمن لم ير في كل تدبيره في خلقه ، وفي كل تفصيله في آياته ، ما يدل على الرجوع إليه ، فإنه لم يعرف حكمة التدبير والتفصيل . وهكذا عرفنا أن التدبير والتفصيل علامتان على اليوم الآخر ، فلم يكن التدبير عبثاً ، ولم يكن التفصيل عبثاً ، بل من أجل أن تعرف أيها الإنسان أنك راجع إليه فمحاسب .

﴿ وهو الذي قد الأرض ﴾ قال ابن كثير : أي جعلها ممتعة ممتدة في الطول والعرض ﴿ وجعل فيها رواسي ﴾ أي جبلاً راسيات ، أي ثابتات في أمكنتهن ﴿ وأنهاراً ﴾ أي وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون ﴿ ومن كل الثمرات ﴾ أي وجعل فيها من كل الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ﴿ جعل فيها زوجين اثنين ﴾ أي ومن كل الثمرات جعل فيها الصغير والكبير ، والحلو والحامض ، هكذا فسر النسفي في هذا المقام الزوجية ، وقال ابن كثير : أي من كل شكل صنفان . ولم يفسر ما المراد بالصنف ، وفي فوائد هذا المقطع كلام عن هذا الموضوع فإنه من مواضيع التي لثقافة العصر تأثير في تبيانها ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ أي يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعد ما كان أبيض منيراً ، وقد رأينا في سورة الأعراف كيف دلّ على هذا التعبير على دوران الأرض ﴿ إن في ذلك ﴾ أي في الأرض بما هي عليه والجبال ورسوها ، والأنهار وجريانها ، والثمرات والزوجية فيها ، وغشيان الليل النهار ﴿ لآيات ﴾ أي لدلالات وعلامات على أن لها صانعاً عليمًا حكيمًا قادراً ﴿ لقوم

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤﴾ أما الذين لا يفكرون فإنهم عمي عن رؤية الآيات ﴿٥﴾ وفي الأرض قطع متجاورات ﴿٦﴾ أي أراض يجاور بعضها بعضاً ، ثم هي مع التجاور مختلفة ، فهذه طيبة نبت ما ينفع الناس ، وهذه سبخة مالحة لا تنفع الناس ، وهذه تربتها حمراء ، وهذه بيضاء ، وهذه صفراء ، وهذه سوداء ، وهذه محجرة ، وهذه سهلة ، وهذه مرملة ، وهذه سميكة ، وهذه رقيقة ، بقاع مختلفة مع كونها متجاورة متلاحقة ، ما بين كرمة إلى زهيدة ، وما بين صلبة إلى رخوة ، وذلك دليل على قادر مريد مدبر موقع لأفعاله على وجه دون وجه ﴿٧﴾ وجنات من أعناب ﴿٨﴾ أي وفي الأرض حدائق وبساتين من أعناب ﴿٩﴾ وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ﴿١٠﴾ الصنوان : جمع صنو وهي الشجرة لها رأسان وأصلها واحد ، فالصنوان : هو الأصول المجتمعة في منبت واحد ، كالرمان والتين وبعض النخيل ونحو ذلك ، وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار ، أي وفي الأرض أنواع الزروع ، وأنواع النخيل ذات الساق الواحدة ، أو السيقان المتعددة ﴿١١﴾ يُسْقَى بماء واحد ويُفَضَّل بعضها على بعض في الأكل ﴿١٢﴾ أي في الثمر ، فهذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها ، وطعومها ورائحتها وأوراقها ، فهذا في غاية الخلاوة ، وهذا في غاية الحموضة ، وهذا في غاية المرارة ، وهذا بين بين ، وهذا اجتمع فيه هذا وهذا ، وهذا أصفر ، وهذا أبيض ، وهذا أسود ، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء ، ثم يكون هذا الاختلاف الكثير ، الذي يكاد لا ينحصر ولا ينضب ﴿١٣﴾ إن في ذلك ﴿١٤﴾ أي في اختلاف الأراضي وجنات الأعناب والزروع والنخيل المتعدد الأصل وغير المتعدد ، واختلاف الثمرات مع كون الماء الذي به نماء النبات واحداً ﴿١٥﴾ لآيات ﴿١٦﴾ لدلالات على الخالق المختار المريد العظيم ﴿١٧﴾ لقوم يعقلون ﴿١٨﴾ أما الذين لا عقول لهم فإنهم لا يرون هذه الآيات رؤية عاقلة ، تدلهم على الله ، ثم إنه بعد أن أقام النص القرآني الحجة على وجود الله ، وعلى قدرته ، وعلى اليوم الآخر ، فإنه بعد ذلك يعرض علينا بطريقة القرآن المعجزة ثلاثة مواقف للكافرين هي : إنكارهم لليوم الآخر ، واستعجالهم العذاب ، واقتراحهم الآيات ، وهذه المواقف الثلاثة تعرض بعد أن تقدم الرد عليها فيما سبق من الآيات ، فالله المذبر للأمر المفصل للآيات ، الرافع للسموات ، المسبطر على العرش ، المسكر للشمس والقمر ، الجاعل الأرض على ما هي عليه ، الخالق للجنات بما تؤدي به مهمتها ، الخالق الأنهار ، الخالق الثمار ، الخالق الليل والنهار ، الجاعل الأرض أنواعاً ، اخترج من الماء الواحد أنواع الثمار ، هذا الإله لا يعجزه أن يعيد خلق الإنسان وأن يبعثه

من جديد ، ولا يعجزه أن يعاقب من كفر بأنواع العذاب الدنيوي ، ثم إن آياته أكثر وأكبر وأبهر من أن يقترح عليه آيات أخرى تدل عليه ، كيف ومن آياته ما رأيناه لمن تفكر وعقل ، فإذا انضح هذا قلنر كيف عرض القرآن هذه المواقف للكافرين في السياق الذي تبطل فيه هذه المواقف قبل عرضها

الموقف الأول :

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تَرَابًا إِنَّا لَقِيَ خَلْقَ جَدِيدٍ ﴾ أي فقوهم هذا حقيق بأن يُتعجب منه ؛ لأن من قدر على إنشاء ما عُدّد عليك كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره ، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب ، كيف وقد شاهدوا من آياته وآثار صفاته ما هو أعجب مما كذبوا به ، وهكذا بين لنا القرآن أن البعث بديهة من البدييات لمن عرف الله وعرف آياته ، ثم بين أن هؤلاء الذين يستبعدون البعث ولا يؤمنون باليوم الآخر إنما هم كفار بالله أصلاً ، ومن ثم قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ ﴾ إذ لو كانوا يؤمنون بالله ويعرفونه حق المعرفة لآمنوا بالبعث ، دل ذلك على أن الإيمان بالله يستتبع - بالضرورة - الإيمان باليوم الآخر ، فمن عرف قدرة الله لا يستكثر عليها أن تعبد الخلق ، ومن عرف عدله عرف ضرورة وجود اليوم الآخر ، ومن عرف حكمته عرف ضرورة وجود اليوم الآخر ، ومن عرف عزته وانتقامه وكرمه ورحمته عرف ضرورة اليوم الآخر ، ﴿ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ جزاء لهم على كفرهم بالله واليوم الآخر ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أي ماكنون فيها أبداً ، لا يخلون عنها ولا يزولون ، وقد دل تكرار (أولئك) على تعظيم الأمر . هذا هو الموقف الأول من مواقف الكافرين ، وقد رأينا كيفية عرضه ، وعرفنا أن العجب هو عدم الإيمان باليوم الآخر وليس الإيمان به ، وأي عجب أعجب من أن يدعي الإنسان معرفة الله ثم لا يرتب على ذلك ما تقتضيه هذه المعرفة .

الموقف الثاني :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ ﴾ أي هؤلاء الكافرون المكذبون ﴿ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ أي بالعقوبة ﴿ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أي قبل العافية ، من شدة كفرهم ﴿ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ ﴾ أي عقوبات أمثالهم من المكذبين ، فما لهم لم يعتبروا بها ؟ والمثلة : العقوبة ، لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة ، لقد أوقع الله نقمته بالأمم المكذبة الحالية ، وجعلهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم ، ومع ذلك فهؤلاء يستعجلون العذاب وما استعجلاهم إلا لعدم إيمانهم ولكفرهم .

﴿ وَإِنْ رِبْكَ لَدُوٌّ مَغْفِرَةٌ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس ، مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار ، وهذا سر عدم إيقاع ما رغبوا به من الاستعجال بالعقوبة ﴿ وَإِنْ رِبْكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ومن ثم فإنه لا يفوته هارب ولا مسيء ، فهو بمهل ولا بهمل .

الموقف الثالث :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ فهم لا يكتفون بالآيات المنزلة على رسول الله ﷺ عناداً مع كثرتها ، وكفى بهذا القرآن معجزة تضمنت معجزات لا تنتهي ، ومن ثم قبل لرسول الله ﷺ في مقابلة افتراحاتهم المتعنتة ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ﴾ أي أنت رجل أرسلت منذراً مخوفاً لهم من سوء العاقبة ، وناصحاً كغيرك من الرسل ، وما عليك إلا الإتيان بما يصح به أنك رسول منذر ، وصحة ذلك حاصلة بأي آية كانت ، والآيات كلها سواء في حصول صحة الرسالة بها ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي من الأنبياء يهديهم إلى الدين ويدعوهم إلى الله بآية تخص بها ، لا بما يريدون ، فليست بدعاً من الرسل ، إذن فكما أن كل أمة أرسل لها رسول فأنت رسول لهذه الأمة ، ويحتمل أن يكون المراد بالهادي في الآية (الله عز وجل) فهو الذي يهدي من يستحق الهداية ، وإنما مهمة الرسول ﷺ الإنذار ، فهؤلاء الذين لم يؤمنوا ويقترحوا الآيات ، عليك إنذارهم ، والله هو الهادي من يستحق الهداية ، وهؤلاء لا يستحقون الهداية ، وهذا الاتجاه الثاني في التفسير هو الذي نرجحه لأنسجامه مع محور المقطع في سورة البقرة كما سنرى .

قوائد :

١ - في كتابنا عن الرسول ﷺ أثناء الكلام عن المعراج قلنا إن السماء في القرآن تطلق ويراد بها مطلق العلو ، وتطلق ويراد بها الكون ممّا سوى الأرض ، وتطلق ويراد بها السموات السبع التي سقفها عرش الرحمن ، وفي سورة البقرة عند قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ... ﴾ رَجَعْنَا أَنْ النُّجُومَ وَالْمَجَرَاتِ وَالتَّجْوَمَ قَبْلَ الْأَرْضِ ، وَأَنْ الْأَرْضَ قَدْ خَلَقَتْ قَبْلَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ الَّتِي هِيَ غَيْبِيَّةٌ - عَلَى الْأَكْثَرِ - وَفِي سُورَةِ هُودٍ بَيْنَا أَنْ أَوَّلَ مَخْلُوقٍ هُوَ الْعَرْشُ ثُمَّ الْمَاءُ ، وَهَهُنَا فِي سُورَةِ الرِّعْدِ بِمُنَاسَبَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ نَرْجِعُ أَنْ الْمُرَادُ فِي السَّمَاوَاتِ هُنَا لَيْسَتْ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ الْغَيْبِيَّةُ الَّتِي نُؤْمِنُ بِهَا غَيْباً ، وَلَكِنْ الْمُرَادُ بِهَا مَا سِوَى الْأَرْضِ بَقَرِيَّةٌ ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ فَحُجَّتْ لَا

نرى إلا هذه النجوم والمهرات والكواكب ، وقد رجحنا من قبل أن هذه مخلوقة قبل الأرض والسموات السبع ، وللموضوع تنمة ستأتي في مناسباتها .

٢ - في كتابنا عن الله عز وجل : إن في ظاهرة الحكمة ، أو في ظاهرة الإرادة ، أو في ظاهرة العناية ، فصلنا بما يخدم قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ وبما يرينا كيف أن مثل هذا التسخير المدهش لصالح الحياة على الأرض دليل على الخالق عز وجل بما لا يقبل شكاً ولا نقضاً . فليراجع

٣ - قد يفهم كثير من الخاطئين قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ فهماً خاطئاً ، فيظن أن المراد بالمد هنا النسطيح الذي يقابل الكروية ، والكروية ثابتة في القرآن في أكثر من آية - كما نرى في هذا التفسير - فاقنضى التنبية . وقد رأينا كيف فسّر ابن كثير المد في الآية ، وفي كتابنا عن الله عز وجل نقلنا ما يدل على أن الأرض لو كانت أصغر مما هي عليه لما أمكن في قوانين هذا الكون أن تنشأ عليها الحياة ، فالله عز وجل يشير إلى هذه النعمة التي هي مظهر علمه وحكمته وقدرته في هذا المقام ؛ ليدلّل بآثار صفاته على صفاته وأسمائه التي تدل على ذاته جلّ جلاله

٤ - في عصرنا هذا أدرك الإنسان - أكثر من أي عصر مضى - معنى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْ فِيهَا رِوَاسِي ﴾ إذ كتب الجغرافيا والجيولوجيا مليئة بالنص على أنه لولا الجبال لكانت القشرة الأرضية مُعرّضة بشكل هائل للتشفقات والزلازل والاضطرابات بما يستحيل معه نشوء الحياة وهو موضوع سيرر معنا في محله بشكل أكثر تفصيلاً

٥ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلْ فِيهَا زَوْجِينَ اثْنين ﴾ قال صاحب الظلال : (والمشهد الأول يتضمن حقيقة لم تعرف للبشر من طريقة علمهم وبحسبهم إلا قريباً ، هي أن كل الأحياء - وأولها النبات - تتألف من ذكر وأنثى ، حتى النباتات التي كان مظهرها أن ليس لها من جنسها ذكور ، تبين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة في زهرة ، أو متفرقة في العود وهي حقيقة تنضامن مع المشهد في إثارة الفكر إلى تدبر أسرار الخلق بعد تملي ظواهره .)

٦ - عند قوله تعالى ﴿ وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ قال النسفي (وهي أرجى آية في كتاب الله حيث ذكر المغفرة مع الظلم وهو بدون التوبة ، فإن التوبة تزيلها وترفعها) اهـ ولنلاحظ أنه اجتمع في الآية اقتران ذكره المغفرة بشدة العقاب لتربية الرجاء والخوف في القلب ، فهما جناحا القلب في سيره إلى الله . روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ

لنّاس على ظلمهم ﴿ الآية قال رسول الله ﷺ : « لولا عفو الله وتجاوزة ما هنا أحدًا العيش ، ولولا وعيده وعقابه لا نكل كل أحد »

٧ — عند قوله تعالى : ﴿ ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ يذكر ابن كثير حديثاً رواه الترمذي بإسناد حسن غريب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : ﴿ ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ قال : « الذقل والفارسي والخلو والخامض » .

٨ — رجحنا أن السموات المذكورة في قوله تعالى : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ أن المراد ما سوى الأرض ، وليس المراد فيها السموات السبع ، خصوصاً لأننا لانراها ، وقد ذهب ابن كثير أن المراد بها السموات السبع وسنقل لك من قوله لئرى تصويره للسموات السبع ، ثم نرى من خلال ذلك صحة ما ذهبنا إليه :

قال : « فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض ، وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها ، وأرجائها ، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء ، ويحدها ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام ، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام ، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت ، وبينهما من بُعد المسير خمسمائة عام ، وسمكها خمسمائة عام ، وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة كما قال تعالى : ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ﴾ الآية (الطلاق : ١٢) وفي الحديث : « ما السموات السبع وما فيها وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، والكرسي في العرش المجيد . كذلك الحلقة في تلك الفلاة » . وفي رواية : « والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل » اهـ .

فإذا كانت السموات السبع كما ذكر والله عز وجل قال ﴿ ترونها ﴾ وهو يرجع أن ترونها عائدة إلى السموات فهو يقول : أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها ، وهذا هو الأكمل في القدرة . ونحن لا نرى هذه السموات السبع التي ذكرها ، وإنما نرى ما سوى الأرض من الأكوان المنظورة ، فدل ذلك على أن ما ذهبنا إليه هو الأرجح ، والذي نحب أن نلفت نظرك إليه هنا أنك ترى ابن كثير كغيره من المفسرين يرون أن ما بين الأرض والسماء الدنيا خمس مائة سنة ، وهكذا القسبة بين كل سماء ، وهذا يرجع ما ذهبنا إليه أن المراد بالسموات السبع المذكورة ، والتي يتحدث عنها القرآن والسنة ، ويتكلم عنها المفسرون ، أنها سموات غيبية مغيبة عنا ، إذ لو لم تكن كذلك وكانت النجوم والنجرات داخل السماء الدنيا — كما يذهب بعضهم — لكان البعدين الأرض والسماء أكثر من خمسمائة سنة ، مهما كان نوع السنة التي يقاس بها هذا البعد ، وهو

موضوع سنرى حيثياته فيما يأتي من هذا التفسير .

٩ - فهم الحسن البصري من قوله : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب ﴾ الآية : أن الآية تلفت النظر إلى معنى آخر غير المعنى الخرفي ، واعتبر أن في الآية مثلاً بدليل ختمها بقوله تعالى ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ فقد مثل اختلاف القلوب في آثارها وأنوارها وأسرارها باختلاف قطع الأرض في أنهارها وأزهارها وثمارها

كلمة في السياق :

نلاحظ أن هذا المقطع عرّفنا على الله بلفت نظرنا إلى أفعاله - عز وجل - ومظاهر قدرته ، ثم عدّد لنا مواقف للكافرين تتنافى مع معرفة الله عز وجل ، ونختم المقطع بقوله تعالى ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ فإذا تذكّرنا قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ... ﴾ وتذكّرنا أن هذا النص تأسيس لموضوع الآية اللاحقة من سورة البقرة ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ... ﴾ ثم تأملنا معاني سورة الرعد ، فإننا نجد أن المقطع الأول من سورة الرعد تأسيس لمعاني المقطعين اللاحقين بما يفصل آيتي سورة البقرة ، إذ سورة الرعد كلها تعريف على الله وأفعاله ، وعرض لأقوال الكافرين ومواقفهم ، وردّ عليها ، وتبيان لقضية الضلال والهداية ، ومن يستحق الهداية ، ومن يستحق الضلال ، وإقامة حجة على مسارب الضالين . والمقطع الأول من سورة الرعد يضع أساساً في إقامة الحجة على منكري ، البعث وعلى المستعجلين بالعذاب ، وعلى مقترحي الآيات ، فليس هؤلاء حجة ، بل الحجة قائمة عليهم ، فالمقطع الأول في سورة الرعد يفصل معاني الآية الأولى من الآيتين اللتين تُشكّلان محور سورة الرعد من سورة البقرة ، لكنّه تفصيل على طريقة القرآن المعجزة في التفصيل ، ولتر المقطع الثاني في سورة الرعد ، وسنجد فيه تفصيلاً واضحاً لغير السورة من سورة البقرة :

المقطع الثاني من سورة الرعد

ويمتد من الآية (٨) إلى نهاية الآية (٢٥) وهذا هو :

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَنِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِّغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ

وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلِيفَهُ فَنَشَبَهُ انْخَلَقَ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّبِيلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ سَوَاءُ الْحِسَابِ وَمَا أُولَٰئِكَ بِهِمْ مِنْ عِلْمٍ يُنْزِلُ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعِمَّةَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢١﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْعَلَيْكَ بِدَعْوَانِهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٢﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ

الْأَلْعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾

التفسير :

كما بدأ المقطع الأول بالتعريف على الله ، ثم بنى على هذه المعرفة ، كما هو الحال في الآيتين اللتين هما محور هذه السورة من سورة البقرة ، وبما فصل بعضاً من معاني الآيتين فكذلك هذا المقطع : فتأمله : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ﴾ يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء ، وأنه محيط بما تحمله الخواصل من كل إناث الحيوانات ، سواء كانت تحمل ذكراً أو أنثى ، تماماً أو خداجاً ، حسناً أو قبيحاً ، طويلاً أو قصيراً إلى غير ذلك ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ أي وما تغيضه الأرحام أي وما تنقصه ﴿ وما تزداد ﴾ أي وزيادتها ويحتمل الغيظ والزيادة بعدد الولد ، فإنها تشتمل على واحد واثنين وثلاثة وأربعة ، وأحياناً يكون سقطاً . ويحتمل أن يكون الغيظ والزيادة بجسد الولد ، فإنه يكون تاماً ومخدجاً ، ويحتمل أن يكون الغيظ والزيادة بمدّه الولادة ، فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند الحنفية وإلى أربع عند الشافعي ، وإلى خمس عند مالك ، ويحتمل أن يكون المعنى ويعلم غيظ الأرحام وازديادها بمعنى قتلها وكثرتها ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ أي بقدر وحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه ، ومن كان هذا شأنه فإنه يعلم الحق ويهدي إليه ﴿ عالم الغيب ﴾ أي ما غاب عن الخلق ﴿ والشهادة ﴾ أي ما يشاهده الخلق أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ، ومما يغيب عنهم ، ولا يخفى عليه منه شيء ﴿ الكبير ﴾ العظيم الشأن الذي كل شيء دونه ، فهو أكبر من كل شيء ﴿ المتعال ﴾ على كل شيء ﴿ سواء ﴾ أي في علمه ﴿ منكم من أسر القول ومن جهر به ﴾ أي سواء في علمه من أسر قوله أو جهر به ، فإنه يسمعه ويعلمه لا يخفى عليه شيء ﴿ ومن هو مستخف بالليل ﴾ أي متوار مخف في مقر بيته في ظلام الليل ﴿ وسارب بالنهار ﴾ أي ذاهب في سره نهاراً ، أو ذاهب في طريقه ووجهه نهاراً ، فكلاهما في علم الله سواء ، الخفي في ظلام الليل والظاهر الماشي في بياض النهار وضياءه ﴿ له ﴾ أي لمن أسر ومن جهر ، ومن استخفى ومن سرب ﴿ معقبات ﴾ أي جماعات من الملائكة تعقب في حفظه . ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ أي قدامه ووراءه ﴿ يحفظونه ﴾ فهمتهم إذن الحفظ ﴿ من أمر الله ﴾ أي من أجل أن الله تعالى أمرهم بحفظه ، والتقدير على هذا : له

أمر الله بحفظونه ، أي له معقبات من نظام هذا العالم - الذي هو بأمره - يحفظونه ، فلإنسان معقبات يحفظونه بأمر الله ، قال أبو أمامة : ما من آدمي إلا ومعه ملك ينود عنه حتى يسلمه للذي قدر له ﴿ إن الله لا يُغَيِّرُ ما بقوم ﴾ من العافية والنعمة ﴿ حتى يُغَيِّرُوا ما بأنفسهم ﴾ من الحال الجميلة بكثرة المعاصي ، فحفظ الملائكة نعمة يغيرها الله إذا تغيرت الأنفس نحو الشر ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوء ﴾ أي عذاباً ﴿ فلا مردُّ له ﴾ أي لا يدفعه شيء ﴿ وما لهم من دونه ﴾ أي من دون الله ﴿ من وال ﴾ أي من يلي أمرهم ويدفع عنهم ، وإذا كان هذا شأن الله فإنه يعلم الحق ويهدي إليه ويطلب به ﴿ هو الذي يريكم البرق ﴾ قال ابن كثير : البرق وهو ما يُرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾ أي خائفين من وقوع الصواعق عند لمع البرق ، وطماعين في الغيث . ﴿ وينشئ السحاب الثقال ﴾ بالماء أي ويخلقها منضأة جديدة وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض ﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ كما يسبح له كل شيء ﴿ والملائكة من خيفته ﴾ أي ويسبح الملائكة من هيئته وإجلاله ﴿ ويرسل الصواعق ﴾ الصاعقة معروفة ﴿ فيصيب بها من يشاء ﴾ أي يرسلها نعمة ينتقم بها ممن يشاء ، كما قال ابن كثير ، ﴿ وهم يجادلون في الله ﴾ أي يشكّون في عظمته وأنه لا إله هو ﴿ وهو شديد المحال ﴾ أي شديد الأخذ أو شديد القوة ، والمماحلة في الأصل : شدة المماكرة والمكايدة ، ومنه تمحل لكذا إذا تكلف لاستعمال الحيلة واجتهد فيه ، وإذن فالمعنى الحرفي : أنه شديد المكر والكيد لأعدائه ، يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون في مقابلة مكرهم وكبدهم ﴿ له دعوة الحق ﴾ الحق ضد الباطل والمعنى : أن الله سبحانه يُدعى فيستجيب الدعوة ، ويعطي الداعي سؤاله ، بخلاف ما لا ينفع ولا يجدي دعاؤه ، ويحتمل أن يكون المراد بدعوة الحق دعوة التوحيد ، فدعوة التوحيد دعوته وحده ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أي والآلهة الذين يدعونهم الكفار من دون الله ، أو ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿ لا يستجيبون لهم بشيء ﴾ من طلباتهم ﴿ إلا كياسط كفّيه إلى الماء ليلغ فيه ﴾ أي فمه ﴿ وما هو بهالغ ﴾ أي وما الماء بهالغ فاه والتقدير : والذين يدعون من دونه لا يستجيبون إلا كاستجابة الماء لمن بسط كفّيه إليه ، أي كاستجابة الماء لمن بسط كفّيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا يشعر بسط كفّيه ولا يعطشه وحاجته إليه ، ولا يقدر أن يجيب دعاؤه ويبلغ فاه ، وكذلك ما يدعونه من جماد لا يحس بدعائهم ، ولا يستطيع إجابتهم ، ولا يقدر على نفعهم قال مجاهد : (كياسط كفّيه : يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً) . تصوّر الآن

رجلاً فوق بحر عميق يمد يده إلى الماء من بعيد فهل يستجيب له الماء ليشرب ؟ ! فكذلك دعاء هؤلاء لألهتهم ، أو فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر ، لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة ، ولهذا ختم الآية بقوله : ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ أي في ضياع لا منفعة فيه ، لأنهم إن دعوا الله لم يجيبهم ، وإن دعوا غيره لم يستطع الاستجابة ، ثم أخبر تعالى عن سلطانه الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء ، ولهذا يسجد له كل شيء . فقال : ﴿ والله يسجد من في السموات والأرض ﴾ سجود تعبد وانقياد ﴿ طوعاً ﴾ أي طائعين كسجود الملائكة والمؤمنين ﴿ وكرها ﴾ أي وكارهين كما يفعل المنافقون والكافرون في حال الشدة والضيقة ، أو بخضوعهم لقهر الله وسنته ﴿ وظلالهم ﴾ أي تسجد معهم لله ﴿ بالغدو ﴾ أي بالبحر ﴿ والأصال ﴾ جمع أصيل : وهو آخر النهار ، فظلالهم خاضعة لسنن الله ، وفي ذلك سجودها ، فمن كان هذا شأنه في خلق البرق والرعد ، وإنشاء السحاب وإرسال الصواعق ، وشدة الغل ، واستجابة الدعاء ، وخضوع كل شيء له ، فإنه يعلم الحق ويهدي إليه ، ويطلب به ، وهو حري أن يُعبد ويطاع ، ويتبع شرعه ورسله ، ثم قرر الله تعالى أنه لا إله إلا هو ، وأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض وهو ربها ومدبرها ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء ، يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعبديها - بطريق الأولى - نفعاً ولا ضرراً ، فهي لا تحصل لهم منفعة ، ولا تدفع عنهم مضرة ، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ، ومن عبد الله وحده لا شريك له ؟ ! فهذا على نور من ربه ومن ثم قال : ﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله ﴾ هذا هو الجواب الوحيد على السؤال ، إذ من الواضح أن السموات والأرض مربوبة مقهورة مسيرة مسخرة ، فمن ربها ومسيرها وقاهرها ومسخرها ، إنه ليس إلا جواب واحد هو : أن فاعل ذلك هو الله ، ولأنه لا جواب إلا هذا الجواب ، أجاب به ، وأقام الحجة عليهم به ، لأنه من الواضح والظاهر أنه ما من شيء مما يعبدون يمكن أن يكون رباً للسموات والأرض ﴿ قل أفاتخذتم من دونه أولياء ﴾ أي أبعد أن علمتموه رب السموات والأرض اتخذتم من دونه آلهة ﴿ لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ﴾ أي لا يستطيعون أن ينفعوا أنفسهم أو يدفعوا ضرراً عنها ، فكيف يستطيعونه لغيرهم ؟ فكيف آثرتموهم على الخالق الرازق الميثب المعاقب ؟ فما أبين ضلالتكم ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ أي الكافر والمؤمن ؟ أو من لا يبصر شيئاً ومن لا يخفى عليه شيء ؟ ﴿ أم هل تستوي الظلمات والنور ﴾ أي يملأ الكفر بأنواعه واتجاهاته ،

ودين الله ، وشرعه وهدايته ؟ ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ﴾ أي أجعل هؤلاء المشركون مع الله آهة تناظر الرب وتمثله في القدرة على الخلق ، بسبب من اشتباه مخلوق الله بمخلوق الشركاء حتى يقولوا : قدر هؤلاء على الخلق ، كما قدر الله عليه ، فاستحقوا العبادة ، فتخذهم له شركاء ، ونعبدهم كما نعبد ؟ فإذا لم يكن الأمر كذلك - من أنه ليس لله شركاء خلقوا مثل خلق الله - فقد قامت عليهم الحجة إذ اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الخلق فضلاً أن يقدروا على ما يقدر عليه الخالق ، فالاستفهام إنكاري ﴿ قل الله خالق كل شيء ﴾

فلا خالق غيره ، ولا يستقيم في منطق الحق أن يكون له شريك في العبادة ، وليس له شريك في الخلق ، وهذا من أعظم الأدلة لأهل السنة والجماعة على أن الله خالق أفعال العباد ، لا كما يقول المعتزلة ، فمن قال إن الله لم يخلق أفعال الخلق وهم خلقوها فإنه يلزم على قوله أن يتشابه الخلق على المخلوقين ﴿ وهو الواحد ﴾ أي المتوحد بالربوبية ﴿ القهار ﴾ أي الذي يغلب ولا يُغالب ، والذي ما عداه مربوب ومقهور ، ومن كان هذا شأنه فهو الحري وحده بالطاعة والعبادة ، فهو وحده يعلم الحق ويقرره ويبيّنه ويُطالب به ، ويلزم به ، ويُعاقب عليه . وهذا كله مقتضى ربوبيته ووحدانيته وقهره ، ومن ثم قال تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ قال السفي في معناها : أنزل من السحاب مطراً ﴿ فسالت أوديةً بقدرها ﴾ أي كل واحد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره ، والأودية جمع واد : وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثرة ، وفي تكثير الأودية تكتة : وذلك أن المطر لا يأتي إلا على طريق المتأوبة بين البقاع ، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض . قال ابن كثير عن هذا المثل : وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فعنها ما يسع علماً كثيراً ، ومنها من لا يسع الكثير من العلوم بل يضيق عنها ﴿ فاحتصل السيل زبداً رابياً ﴾ أي فجاء على وجه الماء الذي سأل في هذه الأودية زبد عال عليه ، والزبد : هو ما على وجه الماء من الرغوة ، والرابي : هو المنفوخ المرتفع على وجه السيل . هذا هو المثل الأول في هذه الآية ، إذ اشتملت هذه الآية على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه ، والباطل في اضمحلاله وفنائه ، والمثل الثاني قوله تعالى ﴿ وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع ﴾ هذا هو المثل الثاني وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية ، أي ليجعل حلية ، أو ابتغاء متاع من الحديد والنحاس والرصاص يتخذ منها الأواني وما يتمتع به في الحضر والسفر ، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه ، والحلية : هي الزينة من ذهب أو

فضة ... والمعنى: أن لهذه الفلزات عند غلبتها زهداً مثل زهد الماء ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ أي كذلك يضرب الله مثل الحق والباطل ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ أي متلاشياً أي لا يُنتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ويعلق بالشجر وتفسفه الرياح ، وكذلك نخب الذهب والفضة والحديد والنحاس ، يذهب ولا يرجع منه شيء ﴿ وأما ما ينفع الناس ﴾ من الماء والحلي والأواني ﴿ فيمكث في الأرض ﴾ أي فيثبت ﴿ كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ أي ليظهر الحق من الباطل ، قال ابن كثير : قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ الآية . هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها ، فأما الشك فلا ينفع معه العمل ، وأما اليقين فينفع الله به أهله وهو قوله ﴿ وأما الزبد ﴾ وهو الشك ﴿ فيذهب جفاء ﴾ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴿ وهو اليقين ، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك حيثه في النار ، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك . قال النسفي : (قال الجمهور : وهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب ، والحق والباطل ، فالماء القرآن نزل لحياة الجنان كالماء للأبدان ، والأودية للقلوب ، ومعنى بقدرها بقدر سعة القلب وضيقه ، والزبد هو اجس النفس ووساوس الشيطان ، والماء الصافي المنتفع به مثل الحق ، فكما يذهب الزبد باطلاً ويبقى صفو الماء ، كذلك تذهب هواجس النفس ويبقى الحق كما هو ، وأما حلية الذهب والفضة فمثل للأحوال السنية والأخلاق الزكية ، وأما مناع الحديد والنحاس والرصاص فمثل للأعمال الممدة بالإخلاص المعدة للخلاص ، فإن الأعمال جالبة للثواب دافعة للعقاب ، كما أن تلك الجواهر بعضها أداة النفع للكسب ، وبعضها آلة اندفع في الحرب ، وأما الزبد فالرياء والخلل والمثل والكسل) .

كلمة في السياق :

لقد قلنا : إن محور سورة الرعد هو آيتا سورة البقرة : ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين » الذين يتنقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ بدأت هاتان الآيتان بالحديث عن الله وضربه الأمثال ، وموقف الناس من المثل ، وانقسامهم بذلك إلى قسمين : مهتدين ،

وضالين ، وأن الذين استحقوا الضلال هم الموصوفون بالصفات المذكورة ، وههنا في سورة الرعد بدأ المقطع الثاني بالحديث عن الله ، وعلمه المحيط ، وعظمته وعنايته بالإنسان ، وقانونه العادل في خلقه . ثم تحدث عن مظاهر من قدرته وعظمته وانتقامه ، ثم ضرب مثلاً لمن يعبد غيره ، ثم قرر خضوع الخلق كلهم له ، ثم قرر ربوبيته ووحدانيته وقهره ، ثم ضرب مثلاً للحق الذي أنزله ووقعه في القلوب ، وحال القلوب معه ، واستحقاق هذا الحق للبقاء والمكث في الأرض ، ليوصلنا بذلك كله إلى ما أعدّ للمسلمين له ، وما أعدّ للرافضين هذه ، ثم يقارن بين الذين علموا الحق والذين لا يعلمونه ، وبين صفات الذين علموا الحق واستجابوا له ، وصفات الذين رفضوا الحق ولم يستجيبوا له ، وهي نفس الصفات المذكورة في سورة البقرة ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ... ﴾ فالمقطع إذن تفصيل لآتي سورة البقرة اللتين هما محور هذه السورة ، إن معرفة الله توصل إلى أنه هو وحده الذي يعلم الحق ، وهو الذي ينزله ويبيته . ولكن الناس يختلفون في موقفهم منه ، فيقبله بعضهم ويرفضه آخرون ، والبقاء الحقيقي للحق وحده ، والثواب الحقيقي والجزاء الصارم إنما يكونان يوم القيامة ، والذين يستجيبون للحق لهم مواصفاتهم ، والذين لا يستجيبون لهم مواصفاتهم . فلتر كيف عرضت المعاني فيما تنقّى من المقطع :

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخَيْرُ ﴾ أي : الجنة ورضوان الله تعالى للذين أطاعوا الله ورسوله ، وانقادوا لأوامره وصدقوا بحبه ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾ يرفضهم هدبه ﴿ لَوْ أَنَّ هُمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾ أي لو ملكوا أموال الدنيا وملكوا معها مثلها لبدلوه ليدفعوا عن أنفسهم عذاب الله ، وأننى هم ذلك ، ومع بُعد ذلك عنهم فإن الله لا يتقبل منهم ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ أي في الدار الآخرة ، أي يناقشون على النقيير والقطمير والجليل والحقير ، ومن نوقش الحساب عذب ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي ومرجعهم بعد المحاسبة النار ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أي وبئس المكان الممهد جهنم ، ثم قارن الله عز وجل بين الفريقين فقال : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ أي لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي أنزل إليك يا محمد من ربك هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق يُصدق بعضه بعضاً ، لا يضاد شيئاً منه شيئاً آخر ، فأخباره كلها حق ، وأوامره ونواهيه عدل ، لا يستوي من كان كذلك ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدّقه

ولا اتبعه ، أفهذا كهذا ؟ لا استواء . فالاستفهام في الآية إنكاري ، أي إنه لمستكر بعد كل هذا وبعد ما ضرب الله من المثل وما جاء به من الهدى أن تقع شبهة لا يعرف فيها الحق ، إنه ليس إلا العمى وحده هو السبب في عدم رؤية الحق ، ثم ختم الله الآية بقوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أي إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولوا العقول السليمة الصحيحة الذي يعملون على فضايها عقولهم فينظرون ويستبصرون ، فمن لا عقل له لا يتذكر ، ومن لم يتذكر فهو أعمى ، وقد دل ذلك على أن العقول السليمة مركز فيها الحق ، فإذا نزل عليها الوحي تذكرت ، أما القلوب التي لا تتذكر فإنها وصلت إلى العمى الكامل ، ولذلك كله علاماته ، ومن ثم فإن الله عز وجل ذكر بعد هذه الآية خصائص الفريقين ، مقدماً صفات أهل الحق ، فمن وجد من نفسه صفات أهل الحق فإنه من المهتدين ، ومن وجد من نفسه صفات أهل الباطل فإنه من الظالمين . أول هذه الصفات : ﴿ الَّذِينَ يوفُونَ بعهد الله وَلَا ينقضون الميثاق ﴾ وعهد الله ما أوثقوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته ، فهم يوفون الله بعهده أنه الرب وهم عبيد ، ثم هم لا ينقضون ما أوثقوه على أنفسهم من الموائيق بينهم وبين الله ، أو بينهم وبين العباد . خصص الوفاء بعهد الله ثم عَمَّم ليدخل فيه كل عهد واجب الوفاء شرعاً . وثاني هذه الصفات : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ ويدخل في ذلك صلة الأرحام والإحسان إليهم ، وإلى الفقراء والمخاويع وبذل المعروف . قال النسفي : (ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله ﷺ ، وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان .. إنما المؤمنون إخوة ، بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ، ونصرتهم والذب عنهم ، والشفقة عليهم ، وإفشاء السلام عليهم ، وعيادة مرضاهم ، ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر) الصفة الثالثة : ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ لمعرفتهم به وبجلاله . الصفة الرابعة : ﴿ وَيَخَافُونَ سَوْءَ الْحِسَابِ ﴾ في الدار الآخرة فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ، ويراقبون الله فيما يأتون وينزفون من الأعمال ، فيكون أمرهم على السداد والاستقامة ، في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم . الصفة الخامسة : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ صبروا عن المحارم والمآثم ، وصبروا على المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكاثيف الله وحده ، لا يقال ما أصبره وأحملة للتوازل ، وأوفره عند التلازل ، ولا تلاعباً في الجزع ، قال صاحب الفلافل : (والصبر ألوان . وللصبر مقتضيات . صبر على نكاثيف الميثاق من عمل وجهاد ودعوة واجتهاد الخ ، وصبر على النعماء واليأساء . وقتل من يصبر على النعمة فلا يبطر ولا يكفر . وصبر على

حماقات الناس وجهالآتهم وهي تضيق الصدور .. وصبر وصبر وصبر .. كله ابتغاء وجه ربهم لا نخرجاً من أن يقول الناس : جزعوا ، ولا تجملاً ليقول الناس : صبروا . ولا رجاء في نفع من وراء الصبر . ولا دفعاً لضرر يأتي به الجزع . ولا هدف واحد غير ابتغاء وجه الله والصبر على نعمته وبلواه . صبر التسليم لقضائه والاستسلام لمشيئته والرضى والافتناع ..) الصفة السادسة : ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي داوموا على إقامتها بخلوها ومواقبتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي . الصفة السابعة : ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ أي على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب ، من فقراء ومحتاجين ومساكين ﴿ صَبْرًا وَعِلَانِيَةً ﴾ أي في السر والظهر لم يمنعه من ذلك حال من الأحوال آناء الليل وأطراف النهار . وصدقة السر في النقل أفضل ، وصدقة الجهر في الفرض أفضل نفياً للثمة . الصفة الثامنة : ﴿ وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أي يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابله بالجميل صبراً واحتيالاً وصفحاً وعفواً ، يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم ، وإذا حرموا أعطوا ، وإذا ظلموا عَفَوْا ، وإذا قُطِعُوا وصلُّوا ، وإذا أذنبوا تابوا ، وإذا هربوا أنابوا ، وإذا رأوا منكراً أمروا بتغييره ، قال صاحب الظلال : (والمقصود أنهم يقابلون السيئة بالحسنة في المعاملات اليومية لا في دين الله ، ولكن التعبير يتجاوز المقدمة إلى النتيجة . فمقابلة السيئة بالحسنة تكسر شررة النفوس ، وتوجهها إلى الخير وتطفىء جذوة الشر وترد نزع الشيطان ، ومن ثم تدرأ السيئة وتدفعها في النهاية . فعجل النص بهذه النهاية وصدر بها الآية ترغيباً في مقابلة السيئة بالحسنة وطلباً لتبليتها المرتقية .. ثم هي إشارة خفية إلى مقابلة السيئة بالحسنة عندما يكون في هذا درء السيئة ودفعها لا إضاعها واستعلاؤها قأماً . حين تحتاج السيئة إلى القمع ونحتاج الشر إلى الدفع فلا مكان لمقابلتها بالحسنة ثلاً ينتفش الشر ويتجرأ ويستعلي ، ودرء السيئة بالحسنة يكون غالباً في المعاملة الشخصية بين المتباينين قأماً في دين الله فلا .. إن المستعلي الغاشم لا يجدي معه إلا الدفع الصارم ، والمفسدين في الأرض لا يجدي معهم إلا الأخذ الحاسم ، والتوجيهات القرآنية متروكة لتدبر المواقف واستشارة الألباب والتصرف بما يرجح أنه الخير والصواب) وبعد فهذه مجموعة صفات ذكرها الله عز وجل ، فمن استجمع هذا الصفات والخصائص فهو الجدير بالحق ، البصير به ، المهتدي بهداية الله ، المستحق لما أعده الله لأهل الحق ﴿ أُولَئِكَ هُمْ نَحْنُ الدَّارُ ﴾ أي عاقبة الدنيا وهي الجنة ، لأنها التي أرادها الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ أي جنات إقامة يخلدون فيها ﴿ يَدْخُلُونَهَا

وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴿٢٣﴾ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : (أَيُّ نَجْمٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحِبَّائِهِمْ فِيهَا ، مِنَ الْآبَاءِ وَالْأَهْلِ وَالْأَبْنَاءِ مَنْ هُوَ صَالِحٌ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِنَقَرِ أَعْيُنِهِمْ بِهِمْ ، حَتَّى أَنَّهُ تُرْفَعُ دَرَجَةُ الْأَدْنَى إِلَى دَرَجَةِ الْأَعْلَى امْتِنَانًا مِنَ اللَّهِ وَإِحْسَانًا مِنْ غَيْرِ تَنْقِصٍ لِلْأَعْلَى عَنْ دَرَجَتِهِ ..) قَالَ النَّسْفِيُّ : (وَوَصَفَهُمْ بِالصَّلَاحِ لِيَعْلَمَ أَنَّ الْأَنْسَابَ لَا تَنْفَعُ بِنَفْسِهَا . وَالْمُرَادُ (أَيُّ يَقُولُهُ : مِنْ آبَائِهِمْ) أَبْوَاكُلَ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأُمَمَاتِهِمْ) ﴿٢٤﴾ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ ﴿٢٥﴾ بِالْهَدَايَا وَيُشَارَاتُ الرِّضَا ﴿٢٦﴾ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٧﴾ قَائِلِينَ ﴿٢٨﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴿٢٩﴾ أَيُّ هَذَا الثَّوَابِ بِسَبَبِ صَبْرِكُمْ عَنْ الشَّهَوَاتِ وَعَلَى أَمْرِ اللَّهِ . دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الصَّبْرَ هُوَ الْخُلُقُ الْجَامِعُ ﴿٣٠﴾ فَنَعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٣١﴾ أَيُّ الْجَنَّةِ . قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : (أَيُّ وَنَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ هَهْنَا وَمِنْ هَهْنَا لِلتَّهْنَةِ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ ، فَعِنْدَ دُخُولِهِمْ إِيَّاهَا تَقْدُّ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مُسَلِّمِينَ مَهْنَتِينَ لَهُمْ بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِنْعَامِ وَالْإِقَامَةِ فِي دَارِ السَّلَامِ فِي جَوَارِ الصَّدِيقِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ الْكَرَامِ) وَبِهَذَا تَمَّ وَصْفُ أَهْلِ الْحَقِّ وَخَصَائِصِهِمْ وَمَوَاصِفَاتِهِمْ : الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ ، وَالَّذِينَ يَهْتَدُونَ وَيَقْبَلُونَ هُدَى اللَّهِ ، وَالَّذِينَ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَتَأْتِي الْآيَةُ الْآخِرَةُ فِي الْمَقْطَعِ لِتَحَدِّدِ صِفَاتِ الْأَشْقِيَاءِ الْعَمِيِّ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ ؛ بِسَبَبِ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي هِيَ عَلَى النَّقِيسِ مِنْ أَعْمَالِ أَوْلَئِكَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴿٣٣﴾ أَيُّ مَنْ بَعْدَ مَا أُوثِقُوا بِهِ مِنَ الْإِعْتِرَافِ وَالْقَبُولِ ﴿٣٤﴾ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴿٣٥﴾ مِنْ رَحْمٍ وَإِيمَانٍ ﴿٣٦﴾ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴿٣٧﴾ بِالْكَفْرِ وَالظُّلْمِ ، وَتَطْيِيقِ شَرَائِعِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٣٨﴾ أَوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴿٣٩﴾ وَهِيَ الْإِبْعَادُ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴿٤٠﴾ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٤١﴾ أَيُّ سُوءِ عَاقِبَةِ الدُّنْيَا إِنْ أُرِيدَ بِالْدارِ الدُّنْيَا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرَادَ جَهَنَّمُ وَبِسُوءِهَا عَذَابُهَا .

فائدة :

بِمُنَاسَبَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْيَابُ ﴿٢٤﴾ قَالَ صَاحِبُ الظَّلَالِ : (إِنْ هُنَالِكَ عِلَاقَةٌ وَثِيقَةٌ بَيْنَ الْفَسَادِ الَّذِي يَصِيبُ حَيَاةَ الْبَشَرِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ وَبَيْنَ ذَلِكَ الْعَمَى عَنِ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِهَدَايَةِ الْبَشَرِ إِلَى الْحَقِّ وَالصَّلَاحِ وَالْخَيْرِ ، فَالَّذِينَ لَا يَسْتَجِيبُونَ لِعَهْدِ اللَّهِ عَلَى الْفِطْرَةِ ، وَلَا يَسْتَجِيبُونَ لِلْحَقِّ الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ وَحْدَهُ الْحَقُّ .. هُمُ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ؛ كَمَا أَنَّ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ هُمُ الَّذِينَ يَصْلِحُونَ فِي الْأَرْضِ وَتَرْكُوهُمْ الْحَيَاةَ : ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا

يتذكر أولوا الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقاهم سراً وعلانية ويدفعون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار . إن حياة الناس لا تصلح إلا بأن يتولى قيادتها المبصرون أولوا الألباب الذين يعلمون أن ما أنزل إلى محمد ﷺ - هو الحق . ومن ثم يوفون بعهد الله على الفطرة ويعهد الله على آدم وذريته ، أن يعبدوه وحده فيدينوا له وحده ، ولا يتلقوا عن غيره ، ولا يتبعوا إلا أمره ونهيه . ومن ثم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم فيخافون أن يقع منهم مانى عنه وما يفضيه ، ويخافون سوء الحساب ، فيجعلون الآخرة في حسابهم في كل خالجة وكل حركة ، ويصبرون على الاستقامة على عهد الله ذلك بكل تكاليف الاستقامة ، وقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانية ، ويدفعون السوء والفساد في الأرض بالصلاح والإحسان .

إن حياة الناس في الأرض لا تصلح إلا تمثل هذه القيادة المبصرة التي تسير على هدى الله وحده والتي تصوغ الحياة كلها وفق منهجه وهديه .. إنها لا تصلح بالقيادات الضالة العمياء التي لا تعلم ما أنزل على محمد ﷺ هو الحق وحده والتي تتبع - من ثم - مناهج أخرى غير المنهج الذي ارتضاه للصالحين من عباده .. إنها لا تصلح بالإقطاع والرأسمالية كما أنها لا تصلح بالشيوعية والاشتراكية العلمية أنها كلها من مناهج العمى الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ - هو وحده الحق الذي لا يجوز العدول عنه ولا التعديل فيه .. إنها لا تصلح بالثيوقراطية كما أنها لا تصلح بالديكتاتورية أو الديمقراطية فكلها سواء في كونها من مناهج العمى الذين يقيمون من أنفسهم أرباباً من دون الله ، تصنع هي مناهج الحكم ومناهج الحياة وتشرع للناس مالم يأذن به الله ، وتعيدهم لما تشرع فتجعل دينوتهم لغير الله .. وآية هذا الذي نقوله استمداداً من النص القرآني - هو هذا الفساد العظامي الذي يعم وجه الأرض اليوم في جاهلية القرن العشرين وهو هذه الشقوة النكدة التي تعانيها البشرية في مشارق الأرض ومغاربها .. سواء في ذلك أوضاع الإقطاع والرأسمالية ، وأوضاع الشيوعية والاشتراكية العلمية .. وسواء في ذلك الأشكال الديكتاتورية في الحكم أو الديمقراطية إنها كلها سواء فيما تلقاه البشرية من خلالها من فساد وتحلل ، ومن شقاء ومن قلق ، لأنها كلها سواء من صنع العمى الذين لا يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ من ربه هو الحق وحده ولا تلتزم - من ثم - بعهد الله وشرعه ، ولا تستقيم في حياتها على منهجه وهديه .

إن المسلم يرفض - بحكم إيمانه بالله وعلمه بأن ما أنزل على محمد ﷺ هو الحق - كل منهج للحياة غير منهج الله وكل مذهب اجتماعي ، أو اقتصادي ، وكل وضع كذلك سياسي غير المنهج الوحيد ، والمذهب الوحيد ، والشرع الوحيد ، الذي سنّه الله وارتضاه للمصالحين من عباده

ومجرد الاعتراف بشرعية منهج أو وضع أو حكم من صنع غير الله هو بذاته خروج من دائرة الإسلام لله ، فالإسلام لله هو توحيد الدهونة له دون سواه

إن هذا الاعتراف - فوق أنه بالضرورة مفهوم الإسلام الأساسي - فهو في الوقت ذاته لا يسلم الخلافة في هذه الأرض للعمي الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض .. فهذا الفساد في الأرض مرتبط كل الارتباط بقيادة العمي !..

ولقد شقيت البشرية في تاريخها كله وهي تتخبط بين شتى المناهج وشتى الأوضاع وشتى الشرائع بقيادة أولئك العمي ، يلبسون أردية الفلاسفة والمفكرين والمشرعين والسياسيين على مدار القرون فلم تسعد قط ولم ترتفع « إنسانيتها » قط ، ولم تكن في مستوى الخلافة عن الله في الأرض قط إلا في ظلال المنهج الرباني في الفترات التي فاءت فيها إلى ذلك المنهج القويم .)

كلمة في السياق :

وهكذا فصل هذا المقطع نزع تفصيل بعض الإجمال الموجود في الآيتين اللتين هما محور هذه السورة من سورة البقرة . لماذا يهتدي المهتدون ؟ لماذا يضل الضالون ؟ كيف يستقبل القلب الضال هدى الله ؟ كيف يستقبل القلب المهتدي هدى الله ؟ ماذا يترتب على الإيمان بالله ومعرفة ؟ كل ذلك نجد جوابه في هذا المقطع . ولنعقد مقارنة بين الآيتين اللتين هما محور سورة الرعد من سورة البقرة وبين هذا المقطع : في آيتي سورة البقرة نجد قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْقَاسِيَ ﴾ وأنضرب مثلاً ما يعرضة لهما فوقها ﴿ وَفِي هَذَا الْمَقْطَعِ مِنْ سُورَةِ الرَّعْدِ نَجِدُ : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ﴾ ... إلى قوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ ونجد في هذه الفقرة أكثر من مثل ﴿ إِلَّا كَيْفَ نَحْمِلُهُ إِلَى الْمَاءِ ... ﴾ .. أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها ﴿ وَعِنْدَمَا نَتَأَمَّلُ آيَةَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَهَذِهِ الْفَقْرَةُ مِنَ الْمَقْطَعِ نَجِدُ فِيهَا مَا يَزِيدُنَا مَعْرِفَةَ اللَّهِ وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُبْتَنَى عَلَى هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ ، وَفِي آيَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ نَجِدُ : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ

الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴿ وفي هذا المقطع من سورة الرعد نجد : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ ثم في آيتي سورة البقرة نجد : ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ . وفي هذا المقطع من سورة الرعد نجد : ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم اللعنة وهم سوء الدار ﴾ وهكذا نجد كيف أن هذا المقطع كان نوع تفصيل لآيتي سورة البقرة ، وهو وإن لم يكن تفصيلاً على الطريقة المعمودة للبشر لكنه تفصيل يفوق كل تفصيل ، وإذا كان محور السورة قد فصل في صفات من يستحق الضلال ، فإن المقطع هنا قد فصل في صفات من يستحق الهداية ومن يستحق الضلال ، هذا مع إقامة الحجة على الضالين ، ولقد عمق المقطع عندنا معاني هي : أن الله المحيط علماً بكل شيء ينزل وحياً ويضرب مثلاً ، وأن على خلقه أن يستجيبوا ، كما عرفنا أن معرفة الله تقتضي تنزيهاً وخشية واستجابة له ، وعرفنا أن سبب الضلال والهداية يعود إلى استعدادات القلوب وصفات الإنسان ، وعرفنا أن لأهل الحق العاقبة في الدنيا والآخرة ، وأن الحق وحده هو الذي يبقى ، كما عرفنا أن الباطل يتعدد ويتجدد كما يتعدد الزيد ويتجدد ولكن عينه لا تبقى ، وأما الحق فإن عينه باقية ، وفي ذلك بشارة لمن يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ من ربه عز وجل هو الحق ، وهي معان تطويها كلها آيتا البقرة ، وسورة الرعد تفصلها هذا التفصيل الرائع ، بمقاطعها الثلاثة وقد رأينا كيف فصل المقطع الأول بعض ما في الآيتين نوع تفصيل ، وكذلك المقطع الثاني ، وسنرى بعد ذكر فوائد هذا المقطع كيف يفصل المقطع الأخير بعض ما انطوى في آيتي سورة البقرة نوع تفصيل .

الفوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ له مُعَقِّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ نذكر الأحاديث والآثار التالية :

أ - في الصحيح عن رسول الله ﷺ قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليهم الذين باتوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون » .

بـ وروى الإمام أحمد ومسلم عن رسول الله ﷺ قال : « ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قريبه من الجن وقريبه من الملائكة » قالوا وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وإياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير » .

جـ - قال ابن كثير : وقال أبو مجلز : جاء رجل من مراد إلى علي رضي الله عنه وهو يصلي فقال : احترس فإن ناساً من مراد يريدون قتلك فقال : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر ، فإذا جاء القدر حلّيا بينه وبينه ، ألا إن الأجل حُنة حصينة .

٢ - وفي قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ كلام كثير للمفسرين ، والذي نذهب إليه أن المعنى : أن تسخير ملائكة لحفظ الإنسان جزء من النظام الكلي المحكوم بالقدر ، جاء في الحديث أنهم قالوا : يا رسول الله أرأيت رقي نسترق بها هل نرد من قدر الله شيئاً ؟ فقال : « هي من قدر الله » فالكون في شقيه الغيبي والمشاهد قد جعل الله له نظاماً بأمره ، هذا النظام يربط به الحسي بالغيبي ، والغيبي بالغيبي ، والحسي بالحسي بما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، وكم جزء من هذا النظام تسخير الله ملائكة لحفظ الإنسان ، لا من قَدَر قدره الله عليه ، ومن ثم تجد حالات عجيبة تجري في هذا الكون بحسبها الإنسان أن مجريات الأمور كانت تقتضي شيئاً لكنه لم يقع كما تقتضيه هذه المجريات

٣ - في قوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ بيان لستة من سنن الله إذراكها مهم لكل إنسان ، وخاصة لمن يشتغلون في التربية والتوجيه والسياسة والاجتماع ، ومن ثم جعلتها جمعية العلماء في الجزائر في زمن عبد الحميد بن باديس شعار العمل بها ، ولقد ألفت المؤلفات الكثيرة في مضمونها ، فبدون تغيير للنفس لا يطمع الإنسان بأحسن ، وبدون تغيير لأنفس الأمة لا نطمع الأمة بأحسن ، كما أن التغيير نحو الأسوأ لابد أن يرافقه تغيير في الحال ، إلا إذا شاء الله أن يعفو ، فالأنفس التي ألفت الذلة وعانتها إذا لم تُرَبَّ على الجهاد لا نطمع بتغيير الحال ، والأنفس التي ألفت الفوضى إذا لم تُرَبَّ على النظام لا نطمع بتغيير الحال ، والأمة التي ألفت السيادة إذا لم تحتفظ بالحالة النفسية لها عندما حصلت السيادة لن تدوم لها ، ومن ألفت التوفيق مع الله وهو طائع إذا واقع المعصية ولم يقلع عنها فلا يطمع باستمرار التوفيق . نقل ابن كثير عن ابن أبي حاتم بسنده إلى جهم عن إبراهيم : قال : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون ، ثم قال : إن تصديق ذلك في كتاب الله ﴿ إِنْ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَيَسْجُدُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ نقول : في هذا المقام يذكر المفسرون اتجاهاً في التفسير ، هذا الاتجاه يذكر أن الرعد ملك ، وأن البرق سوطه الذي يسوق به السحاب ، والذي نقوله في تفسير هذا الموضوع إذا صححت الروايات فيه هو : إن بعض الأسباب الحسية ربطها الله بأسباب غيبية ، كالموت سببه الحسي المرض ، وسببه الغيبي سحب الروح من قبل الملك ، والجميع بأمر الله وقدرته ، فعندما يثبت بالدليل الشرعي أن سبباً حسياً مرتبط بسبب غيبي فقد وجب الإيمان في هذه الحالة بكل من السببين : الغيبي والحسي ، ولا يجوز نفي أحدهما بحال ، ومما وقع فيه كثير من الإسلاميين في الخطأ سببه النفي أو الإثبات القاصر ، وفي هذا المقام - مقام هذه الآية - نقول : إن للرعد سبباً حسياً ، وللبرق سبب حسي هو ما يتكلم عنه علماء الطبيعة ، ولتصريف السحاب أسباب غيبية الله أعلم بها ، فعلماء المسلمين يذكرون أن المكلف بأمر الأرزاق ميكائيل ، فإذا ورد حديث صحيح حول موضوع الرعد والبرق وصلة الملائكة به ، فإنه محمول على ذكر السبب الغيبي الذي لا ينفي السبب الحسي ، فإذا أدركت هذا الموضوع عرفت قاعدة مهمة تستطيع أن تفهم بها كثيراً من النصوص ، وبمناسبة هذه الآية ننقل هذه الآثار التي ذكرها ابن كثير .

- روى الإمام أحمد : حدثنا يزيد حدثنا إبراهيم بن سعد أخبرني أبي كنت جالساً إلى جنب حميد بن عبد الرحمن في المسجد ، فمر شيخ من بني غفار ، فأرسل إليه حميد فلما أقبل قال : يا ابن أخي وسع الله فيما بيني وبينك فإنه قد صحب رسول الله ﷺ ، فحجاء حتى جنس فيما بيني وبينه ، فقال له حميد : ما الحديث الذي حدثني عن رسول الله ﷺ فقال له الشيخ سمعت عن شيخ من بني غفار أنه سمع النبي ﷺ يقول : « إن الله ينشئ السحاب ، فينطق أحسن النطق ، وبضحك أحسن الضحك » والمراد والله أعلم أن نطقها الرعد وضحكها البرق ؛ وقال موسى بن عبيدة عن سعد بن إبراهيم قال : يبعث الله الغيث فلا أحسن منه مضحكاً ولا أنس منه منطقاً ، فضحكه البرق ، ومنطقه الرعد وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الحجاج حدثنا أبو مضر عن سالم عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد وانصواعق قال : « انهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك »

أقول : إن المسلم مع بخته عن القانون العلمي ، والحقيقة العلمية الكونية ، ومع إثباته لها ، فإنه له إحساساته الإيجابية التي تجعله يرى في هذا الكون ما لا يراه الكافر ، فيذكره ذلك بالله تذكيراً يعبر عنه بذكر أو دعاء أو خشية أو أُنس .

٥ — بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ ننقل أولاً ما ذكر كسب نزول لها ، ثم نشي بذكر حديث حول كثرة الصواعق في آخر الزمان :
 أ — روي في سبب نزول هذه الآية ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال : « اذهب فادعني لي » قال فذهب إليه فقال : يدعوك رسول الله ﷺ ، فقال : له من رسول الله ؟ وما الله ؟ أم ذهب هو أم من فضة هو أم من نحاس هو ؟ قال : فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال يارسول الله : قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك قال لي كذا وكذا فقال لي : « ارجع إليه الثانية » فذهب فقال له مثلها . فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله : قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك فقال « ارجع إليه فادعه » فرجع إليه الثالثة قال : فأعاد عليه ذلك الكلام فبينما هو يكلمه إذ بعث الله عز وجل سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف^(١) رأسه فأنزل الله عز وجل ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ ﴾ الآية

ب — روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال : « تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة ، حتى يأتي الرجل القوم فيقول : من صُنع قبلكم الغداة ؟ فيقولون : صنع فلان وفلان وفلان »

٦ — بمناسبة ضرب الله المثل حول الزبد في السيل والمعادن المذابة قال ابن كثير : (وقد ضرب الله سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين نارياً ومائياً ، وهما قوله ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ﴾ الآية ثم قال ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾ الآية وهكذا ضرب للكافرين في سورة التور مثلين (أحدهما) قوله : ﴿ والذين كفروا أعماهم كسراب ﴾ الآية والسراب إنما يكون في شدة الحر ، ولهذا جاء في الصحيحين فيقال لليهود يوم القيامة فما تريدون ؟ فيقولون : أي رشا عطشنا فاسقنا فيقال : ألا تردون ؟ فيردون النار فإذا هي كسراب يعظم بعضها بعضاً . قال تعالى ثم في المثل الآخر : ﴿ أو كظلمات في بحر لجي ﴾ الآية وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا وريعوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان

لا تمسك ماء ولا تبت كلاً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » فهذا مثل ما في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد ... عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مثلي ومثلكم كمثلي رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفُراش وهذه الدواب التي يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحمن فيها - قال - : فذلكم مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلُم عن النار ، فتغلبوني فتتحمون فيها » وأخرجاه في الصحيحين أيضاً فهذا مثل ناري .

٧ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ ذكر ابن كثير مجموعة أحاديث وآثار نقلها جميعاً مع حذف السند : (قال الإمام أحمد ... عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم . قال : « أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين نسد بهم الثغور ، وتُتقى بهم المكروه ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : اتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك : وخبرتك من خلقك ، أفأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم ؟ قال : إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، وتسد بهم الثغور وتُتقى بهم المكروه ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء - قال : فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب » ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ ورواه أبو القاسم الطبراني ... عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « أول ثلثة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكروه ، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا ، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تقض ، حتى يموت وهي في صدره ، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول : أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي ، وأوذوا في سبيلي ، وجاهدوا في سبيلي ؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب ، وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون : ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار ونقدس لك ، من هؤلاء الذين آثرهم علينا ؟ فيقول الرب عز وجل : هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي ، وأوذوا في سبيلي ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » وقال عبد الله بن المبارك عن بقية بن الوليد حدثنا أرطاة بن المنذر سمعت رجلاً من مشيخة الجند يقال له أبو الحجاج يقول : جلست إلى أبي أمامة فقال : إن

المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سماطان^(١) من خدم ، وعند طرف السماطين باب مبوب ، فيقبل الملك فيستأذن ، فيقول أقصى الخدم للذي يليه « ملك يستأذن » ويقول الذي يليه للذي يليه : « ملك يستأذن » حتى يبلغ المؤمن ، فيقول : أئذنوا . فيقول أقربهم إلى المؤمن : ائذنوا ، ويقول الذي يليه للذي يليه : ائذنوا ، حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب ، فيفتح له ، فيدخل فيسلم ، ثم ينصرف . رواه ابن جرير ورواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن عياش عن أرطاة بن المنذر عن أبي الحجاج يوسف الأهاني قال سمعت أبا أمامة فذكر نحوه وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم « سلام عليكم بما صبرتم فنعيم عسى الدار » وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان

٨ — من السياق ، ومن الآيات التي وصفت أهل الحق وأهل الضلال نعرف أنه بمقدور التحقق بصفات أهل الخير ، وبصفات أهل الشر ، بكون امتحاق الإنسان للهداية ، أو للضلال ، أو للجزاء ، أو للعقاب . فليكثر الإنسان من تأمل هذه الصفات ، وليسع للتحلي والتخلي مع الترقى في المقامات الصالحة ، فإن كل مقام يحتاج إلى أن يبذل الإنسان جهداً ليمكن فيه ، وبعض المقامات تحتاج إلى مران كثير كالصبر ابتغاء وجه الله ، وكدرء السيئة بالحسنة .

٩ — مظاهر الإعجاز والكمال في هذا القرآن لا تنتهي ، وهناك حد أدنى من هذه المظاهر موجود في كل كلمة ، وفي كل جملة ، وفي كل آية ، وفي كل مجموعة آيات ، وفي كل مقطع ، وفي كل قسم ، وفي كل سورة ، وفي القرآن كله ، وقد يكون الإعجاز أكثر ظهوراً في كلمة أو في آية أو في سورة تأمل قوله تعالى : ﴿ ويدرءون بالحسنة السيئة ﴾ فهنا صورة إنسان يتبرس بالحسنات من السيئات التي توجه إليه ، فكلما وجهت إليه سيئة دفعها بحسنة ، إن من تأمل هذه الصورة يدرك مظهراً من مظاهر الإعجاز الواضح في الكلمة القرآنية .



المقطع الثالث والأخير من سورة الرعد

ويمتد من الآية (٢٦) إلى نهاية الآية (٤٣) وهذا هو :

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن
رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ۚ أَلَا يَذَّكَّرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَقَابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ
قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ
قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَن قُرْءَانًا سُرِّيَتْ
بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْعَوْنُ ۚ بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعٌ ۚ أَفَلَمْ يَأْتِ
بِقِسِّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّو يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا
نُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ
أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ
وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُم بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُظهِرُ مِن

الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ
 فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَبْوَۃِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا
 لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ۖ ﴿٣٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ۖ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ
 ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ
 إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابٍ ۖ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ
 أُنزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ
 اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۖ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا
 وَذُرِيَّةً ۖ وَمَا كَانَ لِرُسُلٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۖ ﴿٣٨﴾
 يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۖ وَعِنْدَهُ رَأْسُ الْكِتَابِ ۖ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضُ
 الَّذِينَ نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۖ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ يَرَوْنَ
 أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ
 سَرِيعُ الْحِسَابِ ۖ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ
 كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ۖ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ
 مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ۖ ﴿٤٣﴾

ملاحظة حول المضمون والسياق :

نلاحظ أنه كما بدأ المقطعان السابقان بلفظ الجلالة (الله) فقد بدأ هذا المقطع بذلك : ﴿ الله يسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ .

ثم نلاحظ أن الآية الثانية في المقطع هي قوله تعالى : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ كما أن آخر آية في المقطع هي قوله تعالى : ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ .

فانظر إلى الآيتين اللتين هما محور سورة الرعد من سورة البقرة تجد أن بينهما وبين ما ورد في المقطع تشابهاً : ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فاعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾ إنه لمن الواضح أن هناك تشابهاً بين قوله تعالى في سورة الرعد ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ وبين قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ إن هذا التشابه يؤكد الصلة بين السورة ومحورها ، بما تستطيع به الجزم أن سورة الرعد تفصيل لكلتا الآيتين ، ففيها أقوال للكافرين ورد عليها ، وإقامة حجة ، وفيها تفصيل لظاهري الهداية والضلال ، وفيها تعريف على الله ، ولذلك كله صلة بآتي سورة البقرة

تفسير المقطع الثالث :

بدأ المقطع بالذكر أن الله هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ، ويقتُر على من يشاء ؛ لما له في ذلك من الحكمة والعدل ، ثم بين أن الكافرين يفرحون بما أوتوا من الحياة الدنيا ، وليس ما أوتوا منها إلا استدراجاً لهم وإمهالاً ، وفي هذا السياق حَقَر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما آخَره تعالى لعباده المؤمنين في الآخرة قال تعالى : ﴿ الله يسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي ويضيق على من يشاء ، والمعنى : الله وحده هو الذي يوسع الرزق ويضيقه دون غيره . وفي هذا تعريف على الله بأنه هو القابض الباسط ،

وفي هذا كذلك تدليل على وجود الله إذ ظاهرة القبض والبسط في هذا الكون إن في موضوع المائل ، أو فيما يتأتى فيه معنى القبض والبسط في عالم الأرواح والأجساد لا يمكن أن يعقلها ذو فطرة سليمة إلا بوجود ذات خلقت وجعلت كل شيء في محله ﴿ وفرحوا بالحياة الدنيا ﴾ أي وفرحوا بما بسط لهم من الدنيا فرح بفرح وأسر ، لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم ، ولم يقابلوه بالشكر حتى يؤجروا بنعيم الآخرة ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ أي إلا شيئاً نزرأ يتمتع به كعجلة الراكب ، وهو ما يتمتع به من غيرات أو شربة سريعة ، وهذا مما يغفل عنه الكافرون ، ويتذكره المؤمنون ، وفي هذا المقام يذكر ابن كثير حديثين :

أ - روى الإمام أحمد ومسلم عن المستورد أخى بنى فهير قال : قال رسول الله ﷺ : « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع » وأشار بالسبابة .

ب - قال ابن كثير : وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ مر بجدي أسك ميت (والأسك الصغير الأذنين) فقال : « والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين القوة » . أهد .

.....

﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ إن الكافرين يقترحون الآيات من أجل أن يؤمنوا في زعمهم ، وكأن أدلة الإيمان ناقصة أو غير كافية ، إنه إن كان اقتراحهم الآيات من أجل أن يؤمنوا بالله ، فالأدلة على وجود الله أكثر من كل كثير ، أو من أجل أن يؤمنوا برسوله ﷺ ، فهذا القرآن أعظم آية ، أو من أجل أن يؤمنوا بالقرآن فقيه من الإعجاز والآيات مالا يحاط به ، ومن ثم كان الجواب ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ أي ويرشد إلى دينه من رجع إليه بقلبه ، وعلامتهم ما سيأتي من أوصافهم ، والمعنى أنه هو المصل والهادي ، سواء جاءهم الرسول ﷺ بآية على وفق ما اقترحوا ، أو لم يجهم إلى سؤالهم ، فإن الهداية والإضلال ليسا متوضعين بذلك .

ملاحظة حول السياق :

في آيتي سورة البقرة اللتين هما محور هذه السورة قوله تعالى ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ وهنا قال تعالى : ﴿ ويهدي إليه من أناب ﴾ هناك بين سبب إضلاله لمن

ضَلَّ ، وهنا يبين سبب هدايته لمن اهتدى ، وهناك فصل في صفات من استحق الإضلال حتى لا تلتبس ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ وهنا يبين صفات من يستحقون الهداية ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ ومن ثم ندرك كيف أن سورة الرعد تفصيل لمحورها من سورة البقرة ، ولكنه ليس التفصيل المعتاد في طرائق البشر أو الداخل تحت طوقهم ، ولكنه تفصيل معجز لا يمكن أن يكون إلا من الله اغبط علماً بكل شيء ، فإذا ما عرفنا أن سورة البقرة مدنية ، وسورة الرعد مكية على القول الراجح : وإذا ما رأينا أن سورة البقرة جعلت في أول القرآن ثم جاءت السور الأخرى مفصلة على هذه الشاكلة المعجزة مع كون هذا القرآن نزل مفرقاً منجماً على رجل أُمِّي في أمة أُمِّيَّة ، إن هذا وحده كاف للتدليل على أنه من عند الله ، فكيف إذا كان هذا واحداً من مظاهر إعجازه ، وكيف إذا كان إعجازه واحداً من معجزاته ؟ نسأل الله ألا يضلنا ، ونسأله أن يتوفانا على كمال الإيمان وأن يُلحِقنا بالصالحين .

ولنعد إلى السياق :

لقد وصف الله عز وجل من يستحق هدايته بأنه من أناب أي رجع إلى الله واستعان به وتضرع إليه ، ثم وصف هؤلاء فقال : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ كالنسيح والتهيل والاستغفار أو بالقرآن ، فقلوبهم تطيب وتركن إلى جانب الله ، وتسكن عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيراً ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ أي بسبب ذكره تطمئن قلوب المؤمنين ، ثم بشر أهل الإيمان فقال : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم ﴾ أي أصابوا خيراً وطيباً ﴿ وحسن مآب ﴾ أي وحسن مرجع . وهكذا بين الله عز وجل من يستحق هدايته وبشرهم ، وفي ذلك رد على الكافرين الذين يقترحون الآيات ، وإقامة حجة عليهم أن ضلالهم ليس بسبب عدم كفاية الآيات ؛ بل مرض فيهم وقصور عندهم عن الخير ، ذلك هو أول رد عليهم ، وفيما يأتي من المقطع ردود أخرى كما سنرى : ﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أئمة ﴾ أي مثل ذلك الإرسال أرسلناك ، إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات ، وقد فسر كيف أرسله بقوله ﴿ في أمة قد خلت من قبلها أئمة ﴾ أي أرسلناك في أمة قد تقدمتها أئمة كثيرة فهي آخر الأئمة ، وأنت خاتم الأنبياء ﴿ لتلو عليهم الذي أوحينا إليك ﴾ أي لتقرأ عليهم الكتاب العظيم فتبلغهم رسالة الله ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾

أي بعثناك وحال هذه الأمة أنهم يكفرون بالرحمن الذي هو البليغ الرحمة ، الذي وسعت رحمته كل شيء ، فهم يكفرون بالرحمن ولا يقرّون به ، ويأنفون من وصف الله به كما أنفوا يوم الخديبة أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم ، وقالوا ما ندري ما الرحمن الرحيم ﴿ قل هو ربي لا إله إلا هو ﴾ أي هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به ، معترف له مقرّ بالربوبية والألوهية هو ربي لا إله إلا هو ﴿ عليه توكلت ﴾ أي في جميع أموري ﴿ وإليه متاب ﴾ أي وإليه أرجع وأنيب فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه ﴿ ولو أن قرآناً سوّرت به الجبال ﴾ أي عن مقامها ﴿ أو قُطعت به الأرض ﴾ حتى تنصدع وتتنايل قطعاً ﴿ أو كُلّم به الموتى ﴾ فسمع ونجيب لكان هذا القرآن ؛ لكونه غاية في التذكير ، ونهاية في الإنذار والتخويف ، قال ابن كثير في تفسيرها : (أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسيّر به الجبال عن أماكنها ، أو تقطع به الأرض وتنشق ، أو تكلم به الموتى في قبورها ، لكان هذا القرآن هو المنتصف بذلك دون غيره ، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك ، لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ، ولا بسورة من مثله ، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون جاحدون له . هـ)

وبحتمل أن يكون المعنى : ولو أن قرآناً وقع به تسيّر الجبال ، وتقطع الأرض ، وتكلم الموتى ، وتنبئهم بما آمنوا به ولما تنبؤوا عليه ، وإنما حذف الجواب ليذهب الفكر أكثر من مذهب ، فإذا كان الرسول ﷺ قد بعث كما بعث غيره من الرسل ، ونلا هذا القرآن ، وكان القرآن بهذه المثابة ، فأى آية يطلب الكافرون ليؤمنوا ؟ !

قال صاحب الظلال (ولقد صنع هذا القرآن في النفوس التي تلقته وتكيفت به أكثر من تسيّر الجبال وتقطع الأرض وإحياء الموتى ، لقد صنع في هذه النفوس خوارق أضخم وأبعد أثراً في أقدار الحياة بل أبعد أثراً في شكل الأرض ذاته فكم غير الإسلام والمسلمون من وجه الأرض - إلى جانب ما غيروا من وجه التاريخ ؟)

إن طبيعة هذا القرآن ذاتها . طبيعته في دعونه وفي تعبيره . طبيعته في موضوعه وفي أدائه ، طبيعته في حقيقته وفي تأثيره . إن طبيعة هذا القرآن تحتوي على قوة خارقة نافذة بحسبها كل من نه ذوق وبصر وإدراك للكلام ، واستعداد لإدراك ما يوجه إليه ويوحى به ، والذين تلقوه وتكبنوا به سبّروا ما هو أضخم من الجبال ، وهو تاريخ الأمم والأجيال ، وقطعوا ما هو أصلب من الأرض ، وهو جمود الأفكار وجمود التقاليد .

وأحيوا ما هو أحمد من الموت ، وهو الشعوب التي قتل روحها الطفيلان والأوهام ، والتحول الذي تم في نفوس العرب وحياتهم فنقلهم تلك النقلة الضخمة دون أسباب ظاهرة إلا فعل هذا الكتاب ومنهجه في النفوس والحياة أضخم بكثير من تحول الجبال عن رسوخها . وتحول الأرض عن جمودها وتحول الموتى عن الموات (اهـ) .

﴿ بل لله الأمر جميعاً ﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ومن يصل الله فلا هادي له ، ومن يهد الله فلا مضل له ، وإذا كان الأمر كذلك فلا يستغرب المؤمنون عدم إيمان الكافرين ، ومن ثم قال الله تعالى : ﴿ أفلم يأس الذين آمنوا ﴾ أي من إيمان جميع الخلق ، ويعلموا أو يتبينوا ﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ ولكنه جل جلاله لا يهدي إلا من يستحق الهداية ، وسيقت له من الله العناية . وقد استعمل اليأس في الآية بمعنى العلم لتضمنه معناه ؛ لأن اليأس عن الشيء عالم بأنه لا يكون ، كما استعمل النسيان في معنى الترك لتضمنه ذلك ، وإذا فطلب هؤلاء الآية ليهتدوا ليس في محله ، إذ الآية موجودة ، والطريق إلى الإيمان معروف ، وما عليهم إلا أن يسلكوا ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ أي داهية تفرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت ، من صنوف البلايا والمنصائب ، في نفوسهم وأولادهم وأموالهم ﴿ أو تحل قريباً من دارهم ﴾ أي أو تحل القارعة قريباً منهم فيفزعون ويتطأرون عليهم شررها ، ويتعدى إليهم شرورها ، والمنعنى : لانزال القوارع تصيب الكافرين بسبب تكذيبهم ، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا ، وهذا وحده آية مستمرة لمن كان له قلب ، فكيف يطلبون الآيات ، ثم بين الله عز وجل استمرار إنزاله القوارع بالكافرين ومن حولهم فقال ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ أي لا يخلف في مواعده .

وبهذا تم الرد الثاني على اقتراح الكافرين آية ، وكما توجه الخطاب في الرد الأول والثاني لرسول الله ﷺ : ﴿ قل إن الله يضل من يشاء .. ﴾ كذلك أرسلناك ﴿ في الرد الثالث يبدأ بتوجيه الخطاب لرسول الله ﷺ كذلك . وفي الرد الثالث تنسبة لرسول الله ﷺ وتعزية له . ﴿ ولقد استهزئ برسول من قبلك ﴾ أي قلت فيهم أسوة وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ في تكذيب من كذبه واقتراحهم عليه الآيات ﴿ فأمليت للذين كفروا ﴾ أي أنظرتهم وأجنتهم ﴿ ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ قال النسي : (وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ

استهزاء به ، وتسليية) فقد فهم النسخي إذن أن هذا ردّ على اقتراحهم المذكور في بداية هذا المقطع ، فطلب الآية فيه التقيص للرسول ﷺ والاستهزاء بصدقه ، ومن ثم لفت الله نظرهم إلى هذا ، ولفت نظرهم إلى ما أنزله الله من عقوبات بأمثالهم ليريهم خطأ هذا الذي هم عليه ، وأنه إن كانت سنته الإملاء ، فسنته بعد الإملاء الأخذ ، وفي ذلك تهديد ووعيد وردّ ، ثم تأتي الآية اللاحقة وفيها ذكر قيوميته تعالى ، وذكر استحقاقهم العقوبة بشركهم ، وذكر سنته فيمن يريد إضلاله ، وفي ذلك آيات لمريد الإيمان :

﴿ أفمن هو قائم ﴾ أي حفيظ عليم رقيب ﴿ على كل نفس ﴾ صالحة أو طالحة ﴿ بما كسبت ﴾ من خير أو شر لا تخفى عليه خافية ، والتقدير : أفمن هو كذلك هل هو كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تملك نفعا لأنفسها ولا لعابديها ولا كشف ضرعها ولا عن عابديها ؟ وقد حذف هذا الجواب اكتفاءً بدلالة السياق عليه وهو ما يأتي ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ أي أصناماً وأنداداً وأوثاناً ﴿ قل سمّوهم ﴾ أي أعلمونا بهم ، واكشفوا عنهم حتى يُعرفوا ، فإنهم لا حقيقة لهم ، ولذلك قال :

﴿ أم تبثونه بما لا يعلم في الأرض ﴾ أي بل اثبتونه بشركاء لا يعلمهم في الأرض ، وهو العالم بما في السموات والأرض فإذا لم يعلمهم ، عُلم أنهم ليسوا بشيء ، والمراد نفى أن يكون له شركاء ، والمعنى : أتخبرونه في حالة تسميتهم آلهة بما لا وجود له ؛ لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها ، لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ أي بل أسموهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة ، فأني سخرت هذا السخر ؟ أن يُعطى لشيء اسم ليس له حقيقة ، ويعامل على أساس أن اسمه حقيقة

﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ أي كيدهم للإسلام ، أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار ﴿ وصعدوا عن السيل ﴾ أي عن سبيل الله ، غاشه لا يوفقهم لسلوك سبيله جزاءً لهم على ما هم عليه ﴿ ومن يضل الله فمضاه من هاد ﴾ أي من أحد يقدر على هدايته ، وفي هاتين الآيتين ردّ ضمنى على اقتراحهم الآيات ، بإقامة الحجة عليهم بطلان ما هم فيه ، من تسويتهم الله بخلقه ، وسيرهم في غير طريقه ، وصدهم عن سبيله ، فاستمرارهم على ما هم عليه من الباطل ، ورفضهم لدعوة الرسول ﷺ فيه الدليل على سفاهتهم ، وقد علمنا من خلال العرض سبباً من أسباب استحقاق الإنسان الضلال ، وهو اتخاذ الله شريكاً ، وبعد إقامة الحجة يأتي الإنذار : ﴿ لهم ﴾ أي الكافرين ﴿ عذاب في الحياة الدنيا ﴾ بالقتل والأسر بأيدي المؤمنين ، أو بأنواع المحن والبلايا ﴿ والعذاب الآخرة ﴾ أي المذخر لهم ﴿ أشق ﴾ أي

أشد من عذاب الدنيا بكثير ، لدوامه وشدة ، فإن عذاب الدنيا له انقضاء وذاك دائم أبداً ، ونار جهنم بالنسبة إلى نار الدنيا سبعون ضعفاً ، وفيها من صنوف العذاب الكثير : ﴿ وما هم من الله من واق ﴾ أي من حافظ من عذابه ، ثم تأتي بشارة لأهل التقوى وإنذار لأهل الكفر بآية واحدة ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ أي صفتها ونعتها ﴿ أكلها دائم ﴾ أي ثمرها دائم الوجود لا ينقطع ﴿ وظلها ﴾ أي دائم لا ينسخ كما ينسخ في الدنيا بالشمس ففواكهها ومطاعمها ومشاربها ورؤوحها كل ذلك لا انقطاع ولا فناء ﴿ ذلك غنقى الذين اتقوا ﴾ أي الجنة الموصوفة غنقى المتقين أي منتهى أمرهم ﴿ وغنقى ﴾ أي ومنتهى أمر ﴿ الكافرين النار ﴾ نعوذ بالله من ذلك . ثم يستكمل الرد الثالث على اقتراح الآيات بآيتين فيهما ردٌ ضمني على الاقتراح ، وفيهما رد على نوع آخر من الكافرين ﴿ والذين آتاهم الكتاب ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿ يفرحون بما أنزل إليك ﴾ أي من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به كفرح النجاشي وقسيسيه بالقرآن يوم قرأه عليهم جعفر ﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ أي ومن أحزابهم - وهم كفرتهم الذين يتحزبون ضد هذا الدين - من ينكر بعضه ويقر بعضه ، كما يفعل المبشرون والمستشرقون في عصرنا ، لا ينكرون الأفاصيل وبعض الأحكام والمعاني مما هو ثابت في كتبهم ، ولكنهم يجعلونه مستمداً من كتبهم ، وينكرون نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وغير ذلك مما حرقوه وبدلوه من الشرائع ، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يقول هؤلاء جميعاً ﴿ قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ﴾ ومن كان مضمون الوحي الذي أنزل إليه ذلك ، فذلك دليل على أنه حق ، والإنكار له إنكار لعبادة الله وتوحيده ﴿ إليه أدعو ﴾ أي إلى الله أدعو ﴿ وإليه ﴾ أي وإلى الله لا إلى غيره ﴿ مآب ﴾ أي مرجعي ، وإذا كان هذا دأبي وعملي ودعوتي ، فكيف تُردّ هذه الدعوة ونكفر ، وهي دعوة نبي رسول ومن ثم قال : ﴿ وكذلك أنزلناه حُكماً محمياً ﴾ أي حكمة عربية مترجمة بلسان العرب ، والمعنى - كما قال ابن كثير - : (وكما أرسلنا قبلك المرسلين ، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء ، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً شرفناك به ، وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي) وقال النسفي في معناها : (ومثل ذلك الإنزال أنزلناه ، مأموراً فيه بعبادة الله وتوحيده ، والدعوة إليه وإلى دينه ، والإنذار بدار الجزاء) فإذا كان مضمون هذا الوحي كمضمون كل وحي سابق ، فكيف يُنكر هذا الدين ، وكيف يُكفر بهذا الرسول ! ، وهكذا قامت الحجة على مفسرحي الآيات في هاتين الآيتين مرتين ، مرة بموقف قسم من أهل

الكتاب من هذه الرسالة ، ومرة بمضمونها بعد أن بدأ الرد الثالث بتسفيه ما هم عليه ، وعلى هذا فإن الرد الثالث كان رداً بالمضمون ، المضمون الباطل الذي هم عليه ، والمضمون الحق الذي هو هذه الدعوة ، فمن أين يحق لهم بعد هذا أن يطلبوا آية ، وفي ثانيا الرد على مقترحي الآيات رد على أحزاب أهل الكتاب الكافرين بوحدة رسالات الله ، ووحدة مضمونها الظاهريين في هذه الدعوة ، ثم ختم الله الرد الثالث بتثبيت رسول الله ﷺ على الحق الموحى إليه ، وأن عليه ألا يبالي باقتراحاتهم وإنكارهم ومجادلاتهم فقال : ﴿ وَلَكِنْ اتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي آراءهم ﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ الثابت من الله المؤيد بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ﴿ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَليٍّ ﴾ أي من ناصر ينصرك ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴾ يقبلك منه ، وهذا من باب التوبيخ والبعث للسامعين على الثبات في الدين ، وألا يزلزل المؤمن عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة ، وإلا فإن رسول الله ﷺ من شدة الثبات بمكان ، وفيه وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة ، بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والحجة الحمديدية ، وبهذا انتهى الرد الثالث في سياق هذا المقطع على مقترحي الآيات ليأتي الرد الرابع :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ لاحظ قوله تعالى ﴿ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ ﴾ ولاحظ ما ذكرناه من أن هذه المجموعات كلها رد على قول الكافرين في الآية الثانية من هذا المقطع : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ نجد ارتباطاً بين المجموعة الجديدة ، وسياق المقطع ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رَسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فليست بدعاً من الرسل ، بل أنت واحد منهم ، يجري عليك ما يجري عليهم ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً ﴾ أي نساء وأولاداً لأنهم بشر وهم قذوة ، وفي ذلك رد على التصورات الخاطئة في حق الرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي ليس في وسعه إتيان الآيات على ما يفترحه قومه ؛ وإنما ذلك إلى الله ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ ﴾ أي لكل وقت ، أو لكل زمن ، أو لكل مدة ﴿ كِتَابٍ ﴾ ينزله الله عز وجل ليحكم هذه المدة ، ويفرض على أهل هذا الزمن اتباعه ، فالتوراة والزبور والإنجيل لزمن ، وهذا القرآن لباقي الزمان ومن ثم قال الله تعالى : ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ أي يمحو الله ما يشاء منها فينسخه ، ويثبت ما شاء منها فيقبضه ، حتى نسخت كلها بالقرآن الحكيم الذي أنزله الله تعالى على محمد ﷺ ﴿ وَعِنْدَهُ ﴾ أي وعند الله ﴿ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أي أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ لأن كل كائن مكتوب فيه فهو الذي

يحكم الأزمنة كلها ﴿ وإما تُرِيَّتْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَفَّيْتْكَ ﴾ أي في كل الأحوال سواء أريناك مصارعهم وما وعدناهم من إنزال العذاب عليهم ، أو توفيناك قبل ذلك ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ أي فما يجب عليك إلا تبليغ الرسالة فحسب ﴿ وعلينا الحساب ﴾ أي وعلينا حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم لا عليك ؛ فلا يهمنك إعراضهم ، ولا تستعجل بعذابهم ، وهكذا وصى الله رسوله ﷺ وذكره بما يجب عليه ، وأقام الحجة على الكافرين المقترحين للآيات ، بأن ذلك إلى الله ، وأنه يكفيهم أن محمداً ﷺ له خصائص الرسل ، وتظهر فيه سنة الله في إنزاله الكتب لكل زمان ، ويكون محمد عليه الصلاة والسلام قد أنزل عليه الكتاب الحاكم لبقية الزمان ، وهو رد على مقترحي الآيات ، ورد على الكافرين من أهل الكتاب ، ثم تأتي آية تقيم عليهم الحجة ، وترد عليهم من خلال لفت نظرهم إلى آية واقعة ، وهي التوسع الدائم لدار الإسلام على حساب دار الكفر ، فذلك تأييد من الله فيه معنى الآية ، وهو الذي تم لرسول الله ﷺ وأصحابه فقال : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ ﴾ أي أرض الكفر ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بما نفتح على المسلمين من بلادهم ، فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام ، وذلك من آيات البصرة والغلبة ، وعلامات التوفيق ، فما أكثر الآيات إذن وهم يطلبون آية ، فما يطلبونه موجود ، وطلب المزيد دون رؤية الموجود لا يفيد ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ أي لاراد لحكمه إذ المعقب هو الذي يكر على الشيء فيبطله ، وقد حكم الله لرسوله ﷺ ودينه بالغلبة والإقبال ، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس ، فلا أحد يستطيع أن يحول دون هذا ، ولقد كان هذا كله مما هو مذكور في التاريخ من غلبة المسلمين على قلة العدَد والعدَد ، واندحار الكفر على كثرة العدَد والعدَد ، وحيث أقام المسلمون دينهم كان لهم هذا ﴿ وهو سريع الحساب ﴾ فعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا ، بتسليط المؤمنين عليهم بالقهر والغلبة ، وفي هذا السياق - سياق التبشير بانتشار الإسلام - يذكرنا الله عز وجل بالمكر الهائل الذي يقابل به أعداء الله هذا الدين ، فيبشر المؤمنين ويقوي ثقتهم به جل جلاله ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم ﴾ أي كفار الأمم الخالية بأنبيائهم والمكر : إرادة المكروه في خفية ﴿ فلله المكر جميعاً ﴾ وإذا كان الأمر كذلك فمكرهم لا قيمة له ، ثم فسر كيف أن المكر له جميعاً بقوله : ﴿ يعلم ما تكسب كل نفس ﴾ لأن من علم ما تكسب كل نفس هو وحده الذي له المكر كله ﴿ وسيعلم الكفار لمن عُقِبَ الدار ﴾ أي لمن العاقبة المحمودة ، أي لمن تكون الدائرة والعاقبة ، لهم أو لأتباع الرسل ؟ إنها لأتباع الرسل في الدنيا

والآخرة ، وبهذا التهديد والوعيد ختم الرد على مقترحي الآيات . ثم يختم المقطع ، ونختم السورة كلها بهذه الآية . ﴿ ويقول الذين كفروا لست فرسلاً ﴾ أي لم يرسلك الله فأنت مُدَّع ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ﴾ أي حسبي الله هو الشاهد عليّ وعليكم ، شاهد عليّ بما بلغت من الرسالة ، وشاهد عليكم بما تفترونه من الكذب ، وقد أنزل عليّ ، وأظهر على يدي من الأدلة على رسالتي ما قامت به الحجة ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ يشهد على رسالتي كذلك ، والمراد بهم من أسلم من أهل الكتاب ، فإسلامهم دليل على صحة رسالته ، لأنهم لم يسلموا إلا لما علموه من التبشير في كتبهم ، وقد كتبنا في كتابنا (الرسول ﷺ) فصلاً خاصاً عن البشارات برسولنا ﷺ في الكتب الدينية العالمية .

كلمة في السياق :

كانت الآية الأولى في المقطع الأخير حديثاً عن الله ، ثم جاءت الآية الثانية فيه ﴿ ويقول الذين كفروا ﴾ وجاءت الآية الأخيرة : ﴿ ويقول الذين كفروا ﴾ وبين ذلك ومع ذلك ، وقبل ذلك ردود متعددة على الكافرين ، فقد بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ ألم تر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ فهذه البداية تقرر أن القرآن آيات ، فالمقدمة ترد من البداية على مقترحي الآيات بأن الآيات هي القرآن ، وتقرر أن هذا القرآن حق ، وأن أكثر الناس لا يؤمنون ، ثم تتابع السورة أقوال الكافرين وتردها ، وتعلل سبب عدم إيمان الناس ، ففيما بين المقدمة والخاتمة ، وما بين المقاطع نفسها ، وما بين ذلك كله ومحور السورة في السياق القرآني من اتصال ما قد رأيت ، فسبحان الله مُنَزَّل هذا القرآن ، وخالق هذا الكون ظاهرهما أجزاء وباطنهما وحدة متكاملة .

فوائد :

١ - في تفسير كلمة طوى كلام كثير للمفسرين قال ابن كثير : (قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس (في تفسير طوى) فرح وقرّة عين ، وقال عكرمة : نَعِمَ ما لهم . قال الضحاك : غبطة لهم . وقال إبراهيم النخعي : خير لهم ، وقال قتادة : هي كلمة عربية يقول الرجل طوى لك أي أصبت خيراً ، وقال في رواية طوى لهم حسنى لهم . ﴿ وحسن ماآب ﴾ أي مرجع ، وهذه الأقوال شيء واحد لامتزاجها بينها ، وقال سعيد ابن جبير عن ابن عباس (طوى لهم) قال : هي أرض الجنة بالحيشية . وقال سعيد بن

مسجوع : طوى اسم الجنة بالهندية . وكذا روى السدي عن عكرمة طوى لهم أي الجنة ، وبه قال مجاهد . وقال العوفي عن ابن عباس : لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوى لهم وحسن مآب ﴾ وذلك حين أعجبه)

٢ - بمناسبة قوله ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ يذكر ابن كثير الحديث الصحيح الذي رواه مسلم : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ » .
٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ ولو أن قرآناً سئرت به الجبال ﴾ يذكر ابن كثير أن لفظ القرآن ، قد يطلق على كل من الكتب المتقدمة ، ويستشهد على ذلك بحديث رواه الإمام أحمد والبخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنَ فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ أَنْ تَسْرُجَ فَكَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْرُجَ دَابَّتُهُ ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ » . فالمراد بالقرآن في هذا الحديث الزبور ، ومن ثم يكون معنى الآية ، ولو أن كتاباً سئرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى

لكان هذا القرآن ، إلا أن قتادة قدّر المحذوف في الآية تقديرأ آخر فقال : لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم .. وما اعتمده ابن كثير والنسفي ونقلناه في صلب التفسير وهو الأولى

٤ - وبمناسبة الكلام عن عظمة القرآن ، وأنه به تقوم الحجة أثناء الكلام عن آية ﴿ ولو أن قرآناً ﴾ قال ابن كثير : فإنه ليس ثمة حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس من هذا القرآن الذي لو أنزله الله على جبل لرأته خاشعاً متصدعاً من خشية الله .

٥ - وفي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ولو أن قرآناً سئرت به الجبال ﴾ ذكر ابن كثير ما ذكره ابن أبي حاتم بسنده عن عطية العوفي قال : قلت له : ﴿ ولو أن قرآناً سئرت به الجبال ... ﴾ الآية قالوا نعم محمد ﷺ لو سئرت لنا جبال مكة حتى تفسع فتحرث فيها ، أو قطعت بنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه . فأنزل الله هذه الآية .

قال : قلت : هل تروون هذا الحديث عن أحد أصحاب النبي ﷺ ؟ قال : نعم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ وكذا روي عن ابن عباس والشعبي وقتادة وغير واحد في سبب نزول هذه الآية . والله أعلم .

٦ - في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَصِيْبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرْيَةً مِنْ دَارِهِمْ ﴾ أكثر من قول للمفسرين أحدها : ما ذكرناه في صلب التفسير وهو ما ينزله الله بالكافرين من بأس ، وبعضهم فسرها بغزو رسول الله ﷺ والمؤمنين لعقر دار الكفر وجوارها . روى أبو داود الطيالسي بسنده إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَصِيْبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً ﴾ قال سريّة ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرْيَةً مِنْ دَارِهِمْ ﴾ قال محمد ﷺ ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ قال فتح مكة . والذي نراه في هذا المقام أن سنة الله أن ينزل بعقر دار الكافرين وما جاورها قوارعه المستمرة إلى يوم القيامة ، إما كعذاب أو كتسليط عليهم ، وقد كان تسليط رسول الله ﷺ على قريش نموذجاً على جزء من هذه السنة .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرَسُولٍ مِنْ قِبَلِكَ فَأَمَلِيتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يذكر ابن كثير حديث الصحيحين : « إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » . ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ .

٨ - قراءة حفص التي شرحناها عند قوله تعالى : ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ تضم الصاد ، وهناك قراءات متواترة تفتح الصاد فيكون المعنى : لقد صد هؤلاء الكافرون عن سبيل الله كما زُيِّن لهم المكر والكيد للإسلام وأهله فاستحقوا بشركهم وكيدهم وصدّهم عن سبيل الله الضلال ، فعقوبة الإضلال من الله لا تكون بلا سبب .

٩ - عند قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ ينقل ابن كثير مجموعة أحاديث نقلها جميعاً مع حذف الأسانيد (قال ابن كثير : وفي الصحيحين : من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف وفيه قالوا : يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكت . فقال : « إني رأيت الجنة - أو رأيت الجنة - فتناولت منها عنقوداً ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » . وقال الحافظ أبو يعلى ... عن جابر قال : بينما نحن في صلاة الظهر إذ تقدّم رسول الله ﷺ فتقدّمنا ، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر ، فلما قضى الصلاة قال له أني بن كعب : يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما رأيناك كنت تصنعه فقال : « إني عرضت على الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة فتناولت منها قطعاً من عنب لآتيكم

به ، فحبل بيني وبينه ، ولو أنيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه » وروى مسلم من حديث أبي الزبير عن جابر شاهداً لبعضه ، وعن عتبة بن عبد السلمي أن أعرابياً سأل النبي ﷺ عن الجنة فقال فيها عنب ؟ قال : « نعم » قال : فما عظم العنقود ؟ قال : « مسيرة شهر للغراب الأبقع ولا يفتر » رواه الإمام أحمد . وقال الطبراني ... عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى » وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون ، طعامهم ذلك جشاء كريح المسك ، ويلهيمون التسيح والتقيس كما يلهمون النفس » رواه مسلم ، وروى الإمام أحمد والنسائي من حديث الأعمش عن تمام بن عتبة سمعت زيد بن أرقم قال : جاء رجل من أهل الكتاب فقال يا أبا القاسم : تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ قال « نعم والذي نفس محمد بيده إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة » قال : إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في الجنة أذى ، قال : « تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كريح المسك فيضمر بطنه » . رواه الإمام أحمد والنسائي . وقال الحسن بن عرفة ... عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فيختر بين يديك مشوياً » وجاء في بعض الأحاديث « أنه إذا فرغ منه عاد طائراً كما كان يأذن الله تعالى » وقد قال الله تعالى : ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ (الواقعة : ٣٢ ، ٣٣) وقال : ﴿ ودانية عليهم ظلالها وذلّت قطوفها تذليلًا ﴾ (الإنسان : ١٤) وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص كما قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً هم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾ (....) أ هـ .

أقول : رأينا في بداية هذه الفائدة النصوص التي تذكر أن الجنة دنت لرسول الله ﷺ ورآها ، وهذه النصوص من جملة ما استندنا إليه في أن السموات السبع والعرش من المخلوقات المعنوية عنا ، فالملائكة سكان السموات غيب ، والجنة - وهي فوق السماء السابعة - غيب ، ودليل ذلك أن رسول الله ﷺ دنت إليه ورآها ولم يرها غيره ، فالسموات السبع - والله أعلم - لا تخرج عن هذه الطبيعة فهي موجودة ولكنها معنوية

عنا
١٠ - بمناسبة الكلام عن الظل الدائم في الجنة في قوله تعالى : ﴿ أكلها دائم وظلها ﴾

يذكر ابن كثير حديث الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها » ثم قرأ ﴿ وظل ممدود ﴾

١١ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ يذكر ابن كثير حديث الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » كما يذكر الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي عنه عليه الصلاة والسلام « أربع من سنن المرسلين : التطهر والنكاح والسواك والحناء » أي لشيب الرأس واللحية .

١٢ - من الآيات التي دار حولها نقاش كثير بين العلماء واختلفوا في فهمها على أقوال متعددة ، آية ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ وقد ذكرنا في صلب التفسير أرجح ما ترجع عندنا ، ولزيادة الفائدة نذكر هنا تلخيص ابن كثير لهذه الأقوال ننقله بحاله ماعدا الأسانيد ، قال ابن كثير بعد أن ذكر القول الذي رجحناه : (قوله : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ اختلف المفسرون في ذلك فقال الثوري ووكيع وهشيم عن ابن أبي ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : يدبر أمر السنة فيمحو الله ما يشاء ، إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت ، وفي رواية ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ قال كل شيء إلا الموت والحياة والشقاء والسعادة فإنهما قد فرغ منهما ، وقال مجاهد ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ إلا الحياة والموت ، والشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيران ، وقال منصور سألت مجاهداً فقلت : رأيت دعاء أحدنا يقول : اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبتته فيهم ، وإن كان في الأشقياء فأحعه عنهم وأجعلته في السعداء . فقال حسن ، ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر فسألته عن ذلك فقال : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ الآيتين قال يقضي في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو مصيبة ، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ، فأما كتاب السعادة والشقاء فهو ثابت لا يُغير ، وقال الأعمش عن أبي وائل شقيق بن سلمة إنه كان كثيراً يدعو بهذا الدعاء : اللهم إن كنت كتبنا أشقياء فأحعه واكتبنا سعداء ، وإن كنت كتبنا سعداء فأثبتنا فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . رواه ابن جرير وقال ابن جرير ... عن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال - وهو يطوف بالبيت وهو يبكي - : اللهم إن كنت كتبت على شقوة أو ذنباً فأحعه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب فأجعلته سعادة ومغفرة .

وقال حماد ... عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضاً ورواه شريك عن هلال بن حميد عن عبد الله بن علي بن عبد الله عن ابن مسعود بمثله ، وقال ابن جرير ... عن إبراهيم أن كعباً قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين لولا آية في كتاب الله لأنباتك بما هو كائن إلى يوم القيامة ، قال : وما هي ؟ قال : قول الله تعالى ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ الآية ومعنى هذه الأقوال : أن الأقدار يتسحق الله ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء ، قد يستأنس هذا القول بما رواه الإمام أحمد ... عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليعرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر » ورواه النسائي وابن ماجه من حديث سفيان الثوري به وثبت في الصحيح أن صلة الرحم تزيد في العمر . وفي حديث آخر « إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض » وقال ابن جرير ... عن ابن عباس قال إن لله لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام ، من درة بيضاء ، لها دفتان من ياقوت - والدفتان لوحان - لله عز وجل كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . وقال الليث بن سعد ... عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « يفتح الذكر في ثلاث ساعات يبقين من الليل ، في الساعة الأولى منها ينظر في الذكر الذي لا ينظر فيه أحد غيره ، فيمحو ما يشاء ويثبت » وذكر تمام الحديث . رواه ابن جرير وقال الكلبي يمحو الله ما يشاء ويثبت وقال : يمحو من الرزق ويزيد فيه ، ويمحو من الأجل ويزيد فيه ، فقبل له من حدثك بهذا ؟ فقال أبو صالح عن جابر بن عبد الله بن رباب عن النبي ﷺ ، ثم سئل بعد ذلك عن هذه الآية فقال يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب ، مثل قولك أكلت وشربت دخلت وخرجت ونحو ذلك من الكلام وهو صادق ، ويثبت ما كان فيه الثواب وعليه العقاب ، وقال عكرمة عن ابن عباس : الكتاب كتابان : فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ وعنده أم الكتاب ﴿ يَقُولُ ﴾ : هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود بمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو ، والذي يُثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله وهو الذي يثبت . وروي عن سعيد بن جبير أنها بمعنى ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ يقول : يبدل ما يشاء فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ وجملة ذلك عنده في أم

الكتاب الناسخ وما يبدل وما يثبت ، كل ذلك في كتاب ، وقال قتادة في قوله ﴿ يمحوا ﴾ الله ما يشاء ويثبت ﴾ كقوله ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها ﴾ الآية ، وقال ابن أبي نجيب عن مجاهد في قوله ﴿ يمحوا الله ما يشاء ويثبت ﴾ قال قالت كفار قريش لما نزل ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ ما ترى محمداً يملك شيئاً وقد فرغ الأمر ، فأنزلت هذه الآية تخويفاً ووعيداً لهم ، إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا ونحدث في كل رمضان فيمحوا ما يشاء ويثبت ما يشاء من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم ، وقال الحسن البصري ﴿ يمحوا الله ما يشاء ويثبت ﴾ قال من جاء أجله يذهب ، ويثبت الذي هو حي يجري إلى أجله ، وقد اختار هذا القول ابن جرير رحمه الله وقوله ﴿ وعند أم الكتاب ﴾ قال الحلال والحرام ، وقال قتادة أي جملة الكتاب وأصله ، وقال الضحاك ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ قال كتاب عند رب العالمين ، وقال سفيان بن داود حدثني معتمر عن أبيه عن يسار عن ابن عباس أنه سأل كعباً عن أم الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون ، ثم قال : لعله كن كتاباً فكان كتاباً . وقال ابن جريج عن ابن عباس ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ قال : الذكر (

أقول : لقد رجحنا أن المراد بالآية ﴿ يمحوا الله ما يشاء ﴾ من شرائعه ﴿ ويثبت ﴾ ما يشاء منها ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ أي اللوح المحفوظ ، وقد ذهب بعض علماء التوحيد أن ما يطرأ عليه المحو هو صحف الملائكة التي كتبت فيها أحداث السنة ، وأما اللوح المحفوظ فلا يطرأ عليه جديد لأنه مظهر من مظاهر علم الله .

١٣ - حمل بعضهم قوله تعالى : ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ أن المراد به عبد الله ابن سلام قاله مجاهد . قال ابن كثير : (وهذا القول غريب لأن هذه الآية مكية) والذين اتجهوا إلى أن المراد به عبد الله بن سلام إما أنهم جعلوا الآية مدنية ، أو أنهم جعلوا إسلام عبد الله بن سلام متقدماً على الهجرة إلى المدينة ، والذي نرجحه ما رجحه ابن كثير من كونها عامة في كل من أسلم من اليهود والنصارى ، وأنها مكية ، وما يروى بخلاف ذلك فليس من القوة بحيث يعتمد .

١٤ - ونختم هذه الفوائد بفائدة من حقها التقديم ولكنها أحررت لاعتقادنا أنها مهمة هذه الفائدة لها علاقة بالدعوة إلى الله والتربية ، لقد رأينا أن هذه السورة أحد مضامينها الرئيسية تعليل ظاهرة الهداية والضلال ، وبما قاله تعالى : ﴿ ويهدي إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ ومن ثم فإن

الدعاة إلى الله ينبغي أن يلاحظوا هذا في الدعوة والتربية ، فركزوا موضوع التوبة والإنابة ، وموضوع الإيمان بالله والإكثار من ذكره ، وبقدر ما ينجح الداعية في هذه البداية يكون نجاسة في النهايات ، ومن ثم فإننا نلاحظ أن أنجح الناس في نقل الإنسان من حال إلى حال هم صالحوا الصوفية ، لأنهم يبدأون مع المرشد هذه البداية ، إذ يأمرونه بالاستغفار والذكر ، ويركزون على المذاكرة في معرفة الله وعبود النفس ، ومن ثم فإننا نوصي كل مسلم بالإكثار من الصلاة ، لأنها أعلى من كل ذكر ، وبالإكثار من الأذكار ، وليلتزم المسلم بحد أدنى من الأذكار الماثورة لا يتخلى عنها في صيف أو شتاء أو سفر أو حضر ، ويزيد عليها ما شاء إذا واثته الهمة ، وليكن له حظه اليومي من الاستغفار والصلاة على رسول الله ﷺ ، والتهليل والتسبيح والتحميد والتكبير وليحافظ على أذكار الصلاة وقيام الليل وسنة الضحى

كلمة في محل سورة الرعد :

سورة الرعد هي السورة الرابعة من هذه المجموعة من هذا القسم من أقسام القرآن . وقد غطت هذه السور الأربع الآيات الأولى من سورة البقرة حتى الآية (٢٧) فهي تقابل من حيث التغطية آل عمران والنساء والمائدة في القسم الأول ، إلا أن نوع التغطية والتفصيل يختلف . والابتداء في سورة الرعد بـ (الر) يشبه الابتداء في القسم الأول بـ (آل) من حيث الاحتواء على حرف زائد على (آل) وهو الراء هنا وهو الحرف المميز في هذا القسم وكما كان بعد (آل) في القسم الأول سورتا الأنفال وبراءة وهما تغطيان معنى في أعماق سورة البقرة ، فإن ما بعد سورة الرعد سورة هي سورة إبراهيم تغطي معنى في أعماق سورة البقرة كما سنرى ، وبسورة إبراهيم تنهي هذه المجموعة ، فتكون خمس سور لتأتي المجموعة الثانية ، وهي مبدوءة بسورة الحجر المبدوءة بـ (الر) وهي كذلك خمسة ، ثم تأتي المجموعة الثالثة والأخيرة من قسم المئين الذي ينتهي بسورة القصص وسنرى بعد عرض سورة إبراهيم وقبل سورة الحجر ما هي الأسباب التي جعلتنا نعتبر أن سورة إبراهيم هي نهاية المجموعة الأولى ، فإلى عرض سورة إبراهيم عليه السلام

سورة إبراهيم

وهي السورة الرابعة عشرة بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الخامسة والأخيرة من المجموعة الثانية
من قسم المثين ، وآياتها اثنتان
وخمسون آية وهي
مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَعْقَابِهِمُ

وَبَيْنَا نَقْبَلُ مِنَّا. إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

قال الأنوسي في تقديمه لسورة إبراهيم عليه السلام :

(أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير أنها نزلت بمكة ، والظاهر أنهما أرادا أنها كنّها كذلك ، وهو الذي عليه الجمهور ، وأخرج النحاس في ناسخه عن الخبر أنها مكّبة إلا آيتين منها فإنهما نزلتا بالمدينة وهما ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا .. ﴾ الآيتين نزلتا في قتل بدر من المشركين . وأخرج نحوه أبو الشيخ عن قتادة . وقال الإمام : إذا لم يكن في السورة ما يتصل بالأحكام فنزلوها بمكة والمدينة سواء إذ لا يختلف الغرض فيه ، إلا أن يكون فيها ناسخ أو منسوخ فتظهر فائدته . يعني أنه لا يختلف الحال وتظهر ثمرته إلا بما ذكر ، فإن لم يكن ذلك فليس فيه إلا ضبط زمان النزول وكفى به فائدة

وارتباطها في السورة التي قبلها واضح جداً ؛ لأنه قد ذكر في تلك السورة من مدح الكتاب ، وبيان أنه مفعول عما اقترحوه ما ذكر ، وافتتحت هذه بوصف الكتاب والإيمان ، إلى أنه مفعول من ذلك أيضاً ، وإذا أريد (بمن عنده علم الكتاب) الله تعالى ناسب مطلع هذه ختام تلك أشد مناسبة ، وأيضاً قد ذكر في تلك إنزال القرآن حكماً عربياً ولم يصرح فيها بحكمة ذلك ، وصرح بها هنا ، وأيضاً تضمنت تلك الإخبار من قبله تعالى بأنه ما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ، وتضمنت هذه الإخبار من جهة الرسل عليهم السلام وأنهم قالوا : ما كان لنا أن نأتي بسلطان إلا بإذن الله ، وأيضاً ذكر هناك أمره عليه الصلاة والسلام بأن « عليه توكلت » وحكى هنا عن إخوانه المرسلين عليهم السلام توكلهم عليه سبحانه ، وأمرهم بالتوكل عليه جل شأنه ، واشتملت تلك على تمثيل للحق والباطل ، واشتملت هذه على ذلك أيضاً بناء على بعض ما ستسمعه إن شاء الله في قوله سبحانه ﴿ ضَرْبُ اللَّهِ مِثْلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ إلى آخره ، وأيضاً ذكر في الأولى من رفع السماء ومد الأرض ونسخير الشمس والقمر إلى غير ذلك مما ذكر ، وذكر هنا نحو ذلك ، إلا أنه سبحانه اعتبر ما ذكر أولاً آيات ، وما ذكر ثانياً نعماً ، وصرح في كل بأشياء لم يصرح بها في الأخرى ، وأيضاً قد ذكر هناك مكر الكفرة ، وذكر هنا أيضاً ، وذكر من وصفه ما لم يذكر هناك ، وأيضاً قال اجلال السيوطي : إنه ذكر في الأولى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزِءَ بِرِسَالِي مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ ﴾ وذلك بحمل في أربعة مواضع : الرسل ، والمستهزئين ، وصفة الاستهزاء ، والأخذ ، وقد فصلت الأربعة في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ لِبَأِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ ... ﴾ الآيات وقد اشتركت السورتان - مما عدا افتتاح كل منهما بالمنشابهة - بأن

كلّا قد افتتح بالألف واختتم بالباء ...)

كلمة في سورة إبراهيم ومحورها :

عندما نتأمل سورة البقرة لنجد فيها محوراً لسورة إبراهيم يتفق مع معناها وجرسها وروحها ، فإننا نجده محوراً بعيداً جداً عن محور سورة الرعد حتى ليكاد يكون في آخر سورة البقرة والمحور الذي نعتز عليه هو : ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . ألم تر إلى الذي خاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

تأمل هاتين الآيتين ، وتأمل بداية سورة إبراهيم : ﴿ ألر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

ثم تأمل قوله تعالى فيها ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ﴾ وكما أنه بعد الآية التي ذكر فيها الظلمات والنور جاءت آية مبدوءة بقوله تعالى (ألم تر) في سورة البقرة فإنك ترى في سورة إبراهيم هذه الكلمة تتكرر .

﴿ ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق ﴾

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة ﴾

﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾

وكما كان في الآية الثانية من المحور كلام عن إبراهيم فإن كلاماً عن إبراهيم يأتي كذلك في السورة ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾

.....

فسورة إبراهيم تفصل في موضوع الإخراج من الظلمات إلى النور ، وتلفت النظر إلى كل ما يساعد عليها ، وتضرب مثلاً على أنواع من الخروج من الظلمات إلى النور ، ثم توجه الخارجين من الظلمات إلى النور إلى معان من ظلمات الحياة فتخرجهم منها إلى النور .

وقد دلنا على أن هذه هي نهاية المجموعة الأولى من قسم المئين المعاني ، فإن سورة الحجر وما بعدها تبدأ بتغطية سورة البقرة من بدايتها

.....

تتألف سورة إبراهيم من ثمان مجموعات وخاتمة هي آية واحدة ، وهي بمجموعها تشكل مقطعا واحداً ، ينتظم هذه المجموعات كلها محور واحد . وتخدم كل مجموعة هذا المحور بشكل من الأشكال

وكل مجموعة توصل إلى ما بعدها ، وكل مجموعة لاحقة تتصل بما قبلها
فلتر السورة من خلال العرض .

المجموعة الأولى

وهي أربع آيات وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِي كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ
إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ① اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ② الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى
الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ③
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ④

التفسير :

﴿الر كتاب﴾ أي هذا الكتاب ﴿أنزلناه إليك﴾ يا محمد ﴿لتخرج الناس﴾
به بالدعوة إليه والتهدي عليه ﴿من الظلمات إلى النور﴾ أي من الضلالة والغي إلى
الهدى والرشد ، من ظلمات الشهوة والجهل والكفر ، والشرك والشك ، إلى نور
الإسلام ﴿بإذن ربهم﴾ أي بتيسيره وتوفيقه لمن قدر له الهداية على يدي
رسوله ﷺ المبعوث عن أمره بهذا القرآن ﴿إلى صراط العزيز﴾ أي الذي لا يمانع ولا
يغال ، بل هو القاهر لكل ما سواه ﴿الحميد﴾ أي الحمود في جميع أفعاله وأقواله
وشرعه وأمره ونبيه ﴿الله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ خلقاً وملكاً
﴿وويل للكافرين من عذاب شديد﴾ أي ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك وكذبوك .
وبعد أن ذكر الخارجين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، توعد الكافرين بالويل الذي
هو نقيض النجاة ، وهو اسم معني كالهلاك ، ثم وصف الكافرين فقال : ﴿الذين

يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴿٣﴾ أَي يَخْتَارُونَهَا وَيُؤْثِرُونَهَا وَيَقْدِمُونَهَا عَلَيْهَا ، وَيَعْمَلُونَ لِلدُّنْيَا وَيَنْسَوْنَ الْآخِرَةَ ، وَيَتْرَكُونَهَا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴿٤﴾ وَيَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٥﴾ أَي عَنْ دِينِهِ وَالِدَعَاةِ إِلَيْهِ ﴿٦﴾ وَيَغْوِنَهَا عِوَجًا ﴿٧﴾ أَي وَيَطْلُبُونَ لِسَبِيلِ اللَّهِ زِيغًا وَاعِوَجًا ، وَمَا هُمْ بِوَاجِدِينَ فِيهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ الْحَقُّدُ عَلَيْهَا وَاللُّؤْمُ مِنْ حُبِّائِهِمْ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهَا : (أَي وَيَحْبُونَ أَنْ تَكُونَ سَبِيلَ اللَّهِ عِوَجًا أَي مَائِلَةً حَائِلَةً ، وَهِيَ مُسْتَقِيمَةٌ فِي نَفْسِهَا ، لَا يَضُرُّهَا مَنْ خَالَفَهَا وَلَا مِنْ خَذَلَهَا ، فَهَمُ فِي ابْتِغَائِهِمْ ذَلِكَ فِي جَهْلٍ وَضَلَالٍ بَعِيدٍ مِنَ الْحَقِّ لَا يُرْجَى لَهُمْ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - صَاحٍ) وَمَنْ ثُمَّ حَتَمَ اللَّهُ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ ﴿٨﴾ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٩﴾ أَي عَنْ الْحَقِّ ، وَقَدْ وَصَفَ الضَّلَالُ بِالْبَعْدِ مَعَ أَنَّ الْبَعْدَ لِلضَّالِّ ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَبَاعِدُ صَاحِبَهُ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ ، وَلِأَنَّ فِعْلَ الضَّلَالِ مُلَازِمٌ لَهُ لَا يَفَارِقُهُ ﴿١٠﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴿١١﴾ أَي إِلَّا مُتَكَلِّمًا بِلُغَتِهِمْ ، وَهَذَا مِنْ لَفْظِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ ، أَنَّهُ يَرْسِلُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ بِلُغَاتِهِمْ لِيَفْهَمُوا مِنْهُمْ مَا يَرِيدُونَ ، وَمَا أَرْسَلُوا بِهِ إِلَيْهِمْ ﴿١٢﴾ لِيَسْمَعُوا مِنْهُمْ مَا هُوَ مَبْعُوثٌ لَهُ وَبِهِ ، فَلَا يَكُونُ لَهُمْ حُجَّةٌ عَلَى اللَّهِ ، وَلَا يَقُولُونَ لَهُ لَمْ نَفْهَمْ مَا خَوَّطَنَا بِهِ ﴿١٣﴾ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ ﴿١٤﴾ مِنْ أَثَرِ سَبَبِ الضَّلَالَةِ ﴿١٥﴾ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴿١٦﴾ مِنْ أَثَرِ سَبَبِ الْإِهْتِدَاءِ بَعْدَ الْبَيَانِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴿١٨﴾ فَلَا يَغَالِبُ عَلَى مَشِئَتِهِ ﴿١٩﴾ الْحَكِيمُ ﴿٢٠﴾ فِي أَفْعَالِهِ فَيُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ ، وَيَهْدِي مَنْ هُوَ أَهْلٌ لَذَلِكَ ، وَلَا يَخْذُلُ إِلَّا أَهْلَ الْخِذْلَانِ ، وَيُوفِّقُ مَنْ يَسْتَحِقُّ التَّوْفِيقَ بِفَضْلِهِ وَمَنَّةٍ .

كلمة في السياق :

رَأَيْنَا أَنَّ مَحَوْرَ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿١﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢﴾ وَقَدْ بَدَأَتْ سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ بِأَنَّ يَبْنَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَجَلَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَوْضُوعَ الْإِخْرَاجِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، فَهِيَ فَصْلٌ ذَاكِرٌ الْأَسْبَابِ ، إِنَّ عَمَلِيَّةَ الْإِخْرَاجِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ إِنَّمَا تَقُمُ بِالْقُرْآنِ بِوَسْطَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَأَنَّ الْإِخْرَاجَ إِلَى النُّورِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالسَّيْرِ فِي صِرَاطِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَالنُّورُ هُوَ صِرَاطُ الْمُسْتَقِيمِ ، وَمِنْ هَذِهِ الْبَدَايَةِ نَدْرِكُ أَنَّ السُّورَةَ فِيهَا تَفْصِيلٌ لِمَوْضُوعِ الْخُرُوجِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .

فوائد :

١ - لقد وصف الله الكافرين في الآيات بثلاث صفات :

أ - الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة .

ب - ويصدون عن سبيل الله .

ج - ويغونها عوجاً .

وهي صفات يشترك فيها كل كافر ، فكل كافر يعتبر الحياة الدنيا أصلاً ويجعلها الميزان لكل تصرف ، وكل كافر يصد عن السبيل في الحقيقة ، وكل كافر يحرص على أن يجد ثغرات في سبيل الله ليهاجمها ، ويحرص على أن يحرف سبيل الله ويعوجها - إن استطاع - باستعماله كل الوسائل حتى لا تبقى سبيل الله مستقيمة .

٢ - إذا جمعنا قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ مع قوله تعالى ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ نفهم منهما أنه ما من أمة لها لسان خاص إلا وقد بعث الله لها رسولاً ، فما يفهمه بعض الناس أن الرسل لم يبعثوا إلا في المنطقة العربية ، أو في منطقة بلاد الشام ، وما جاورها فإنه ليس صحيحاً . فكل أمة لها لسانها بعث الله لها رسولاً منها بلغتها . وروى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يبعث الله عز وجل نبياً إلا بلغه قومه » . والحكمة في ذلك هي : ألا يكون لهم على الله حجة ، فلا يقولون له لم نفهم ما غوطينا به ، فإن قال قائل : إن محمداً ﷺ بعث إلى الناس جميعاً بل إلى الإنس والجن وهم على ألسنة مختلفة فالجواب : إن هذا القرآن إما أن ينزل بجميع الألسنة ، أو بواحد منها ، ولا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك فتعين أن ينزل بلسان واحد ، وكان لسان قومه أولى بالاعتين لأنهم أقرب إليه

٣ - دللتنا الآيات أن صراط الله هو النور ، وأن الخروج إليه يكون بالرسول والقرآن . والقرآن موجود والسنة موجودة ، ووراث رسول الله ﷺ موجودون ينوبون مناب الرسول ﷺ في الإخراج من الظلمة إلى النور كما دللتنا الآيات أن بالبيان تقوم الحجة ، وأن إضلال الله وهدايته أثر عن عدله وفضله ، وأثر عن الاستحقاق بسبب الخصائص والصفات . فالخروج من الظلمات إلى النور لا يكون إلا بالله ، والله عز وجل جعل لذلك سُنناً وأسباباً ، وقد حدد الله عز وجل في هذه الآيات هذه السنن

والأسباب بشكل عام ، وبعد أن عرفنا في هذه الآيات الأربع أسباب الخروج من الظلمات إلى النور ، تأتي الآن آيات أربع ، نتحدث عن موسى عليه السلام وتكليفه من الله أن يخرج قومه من الظلمات إلى النور ، وبعض السنن التي لها علاقة في هذا الموضوع ، مما يفهم منه أن إخراج الناس من الظلمات إلى النور بواسطة الرسول هو سنة الله في كل زمان ، فلنر آيات المجموعة الثانية

☆ ☆ ☆

المجموعة الثانية

وتتمد من الآية (الخامسة) إلى نهاية الآية (الثامنة) وهذه هي :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ
الْعَذَابِ وَيَدْعُوكُمُ ابْنَاءَ كُفْرٍ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ
عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ
﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

التفسير :

﴿٥﴾ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ﴿٥﴾ قال ابن كثير في تفسيرها : (وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم ، وتدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور ، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا) . وإذن إخراج الناس بمحمد ﷺ والقرآن من الظلمات إلى النور يشبه إخراج بني إسرائيل من الظلمات إلى النور بموسى عليه السلام والتوراة . وقد فهمنا أن التكليف الأول لموسى عليه السلام في هذه الآية هي الإخراج من الظلمات إلى النور ، والتكليف الثاني هو : ﴿٥﴾ وذكرهم بأيام الله ﴿٥﴾ أي وأنذرهم بوقائع التي أوقعها بالأثم أو بنعيمه التي أنعمها عليهم . قال ابن كثير : (أي بأيادي ونعمة عليهم في إخراجهم إياهم من أسرفرعون وفهره وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم وقلقه لهم البحر ، ونظليله إياهم الغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم) . ثم ذكر ابن كثير حديثاً رواه عبد الله بن الإمام أحمد عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله تعالى . ﴿٥﴾ وذكرهم بأيام الله ﴿٥﴾ قال : « نعم الله » . ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم ﴿٥﴾ إن في

ذلك ﴿ أي في أيام الله ﴾ ﴿ لآيات لكل صبار ﴾ ﴿ على البلاء والضراء ﴾ ﴿ شكور ﴾ ﴿ على العطايا والسراء . ثم قصَّ الله علينا نماذج من فعل موسى عليه السلام في الإخراج والتذكير بأيام الله ﴾ ﴿ وإذا قال موسى لقومه ﴾ ﴿ مذكراً لهم بأيام الله كما أمره الله ﴾ ﴿ اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ ﴿ أي ويتركون إناثكم أحياء ﴾ ﴿ وفي ذلكم ﴾ ﴿ أي وفي ذلك الإنجا ﴾ ﴿ بلاء من ربكم عظيم ﴾ ﴿ أي نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك أنتم عاجزون عن القيام بشكرها ، ومما قاله موسى عليه السلام لبني إسرائيل كذلك ﴾ ﴿ وإذا تأذن ربكم ﴾ ﴿ أي وأذن ربكم إيداناً بليغاً تنفي عنده الشكوك والغفلة ﴾ ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ﴿ أي لئن شكرتم يا بني إسرائيل ما حولتكم من نعمة الإنجا وغيرها لأزيدنكم نعمة إلى نعمة ﴾ ﴿ ولئن كفرتم ﴾ ﴿ أي كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ﴾ ﴿ إن عذابي لشديد ﴾ ﴿ وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها في الدنيا والآخرة ﴾ ﴿ وقال موسى ﴾ ﴿ كذلك لبني إسرائيل ﴾ ﴿ إن تكفروا أفتم ﴾ ﴿ يا بني إسرائيل ﴾ ﴿ ومن في الأرض جميعاً ﴾ ﴿ أي والناس كلهم ﴾ ﴿ فإن الله لغني ﴾ ﴿ عن شكركم ﴾ ﴿ حميد ﴾ ﴿ أي محمود وإن لم يحمدوه من كفره .

فوائد :

١ — أيام الله قسرها الحديث بأنها نعم الله ، ولكن نعمة الله في هذا المقام ترافقها نعمة ، فنعمة الله على بني إسرائيل بإنجائهم من فرعون ترافقها نعمة الله على فرعون ، ومن ثم فأيام الله يدخل فيها نعمه على قوم وينقمه على قوم .

٢ — قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ يفيد أنه لا يأخذ العبرة من أيام الله إلا من اجتمع له صفتا الصبر والشكر ، وقد ورد في الحديث « الصبر نصف الإيمان » . أقول : والشكر نصفه الثاني . قال النسفي : (إذ الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر) . وإذن فكأن الله قال : إن في ذلك لآيات لكل مؤمن ظهرت عليه ثمرتا الإيمان الرئيسيتان : الصبر ، والشكر . قال قتادة : نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر ، وإذا أعطي شكر . وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن أمر المؤمن كله عجب لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له » .

٣ — قول موسى عليه السلام لقومه في هذه الآيات الأربع نجدها في الإصحاحات

التاسع والعشرين ، والثلاثين من سفر التثنية ، مع سطر من نهاية الإصحاح الثامن والعشرين ، ننقلها هنا لنرى كيف أن هذا القرآن إعجازاته لا تنتهي ، فما نحويه آيات ثلاث منه تحتاج إلى الصفحات من غيره ، كما ننقله لهدف آخر سنراه عندما نبدأ الحديث عن الآيات اللاحقة لهذه الآيات ، ثم إننا ننقله استثناساً لنرى كيف مخاطب موسى عليه السلام قومه ، فنرى تفصيل ما أجمله القرآن ، مع ملاحظة ما ذكرناه من قبل حول أمثال هذه النصوص

في نهاية الإصحاح الثامن والعشرين جاء هذا النص : (هذه هي كلمات العهد الذي أمر الرب موسى أن يقطعه مع بني إسرائيل في أرض موآب فضلاً عن العهد الذي يقطعه معهم في حوريب)

ثم جاء بعد ذلك الإصحاحان التاسع والعشرون ، والثلاثون وهذان هما :

الإصحاح التاسع والعشرون

ودعا موسى جميع إسرائيل وقال لهم أنتم شاهدتم ما فعل الرب أمام أعينكم في أرض مصر بفرعون وبجميع عبيده ، وبكل أرضه التجارب العظيمة التي أبصرتها عيناك وتلك الآيات والعجائب العظيمة ولكن لم يعطكم الرب قلباً لفهموا وأعينا لتبصروا وآذاناً لتسمعوا إلى هذا اليوم فقد سرت بكم أربعين سنة في البرية لم تبل ثيابكم عليكم ونعلك لم تبل على رجلك لم تأكلوا خبزاً ولم تشربوا خمراً ولا مسكراً لكي تعلموا أني أنا الرب إلهكم ولما جنتم إلى هذا المكان خرج سيحون ملك حشبون وعوج ملك باشان للقاءنا للحرب فكسرناهما وأخذنا أرضهما وأعطيناهما نصيباً لرأويين وجاد ونصف منسى فاحفظوا كلمات هذا العهد واعملوا بها لكي تفلحوا في كل ما تفعلون أنتم واقفون اليوم جميعكم أمام الرب إلهكم رؤسائكم أسباطكم شيوخكم وعرفاؤكم وكل رجال إسرائيل وأطفالكم ونسائكم وغريبكم الذي في وسط محلتكم ممن يختطب حظيكم إلى من يستقي ماءكم لكي تدخل في عهد الرب إلهك وقسمه الذي يقطعه الرب إلهك معك اليوم لكي يقيمك اليوم لنفسه شعباً وهو يكون لك إلهاً كما قال لك وكما حلف لأبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب وليس معكم وحدكم أقطع أنا هذا العهد وهذا القسم بل مع الذي هو هنا معنا واقفاً اليوم أمام الرب إلهنا ومع الذي ليس هنا معنا اليوم لأنكم قد عرفتم كيف أقمنا في أرض مصر وكيف اجتزنا في وسط الأمم الذين مررنا بهم ورأيت أرجاسهم وأصنامهم التي عندهم من خشب وحجر وقضة وذهب لئلا يكون فيكم رجل أو امرأة

أو عشيرة أو سبط قلبه اليوم منصرف عن الرب إلهنا لكي يذهب ليعبد آلهة تلك الأمم فلا يكون فيكم أصل يشمر علقما وأفسنتيننا فيكون متى سمع كلام هذه اللعنة يتبرك في قلبه قائلاً يكون لي سلام إنني بإصرار قلبي أسلك لإفناء الريان مع العطشان لا يشاء الرب أن يرفق به بل يدخل حينئذ غضب الرب وغبرته على ذلك الرجل فتحل عليه كل اللعنات المكتوبة في هذا الكتاب ويمحو الرب اسمه من تحت السماء ويفرزه الرب للشر من جميع أسباط إسرائيل حسب جميع لعنات العهد المكتوبة في كتاب الشريعة فيقول الجيل الأخير بنوكم الذين يقومون بعدكم والأجنبي الذي يأتي من أرض بعيدة حين يرون ضربات تلك الأرض وأمراضها التي يمرضها بها الرب كبريت وملح كل أرضها حريق لا تزرع ولا تنبت ولا يطلع فيها عشب ما كانقلاب سدوم وعمورة وأدمه وصويم التي قلبها الرب بغضبه وسخطه ويقول جميع الأمم لماذا فعل الرب هكذا بهذه الأرض لماذا حتموا هذا الغضب العظيم . فيقولون لأنهم تركوا عهد الرب إله آبائهم الذي قطعه معهم حين أخرجهم من أرض مصر وذهبوا وعبدوا آلهة أخرى وسجدوا لها آلهة لم يعرفوها ولا قسمت لهم .

فاشتعل غضب الرب على تلك الأرض حتى جلب عليها كل اللعنات المكتوبة في هذا السفر واستأصلهم الرب من أرضهم بغضب وسخط وغيظ عظيم وألقاهم إلى أرض أخرى كما في هذا اليوم السرائر للرب إلهنا والمعلنات لنا ولبنينا إلى الأبد لتعمل بجميع كلمات هذه الشريعة .

الإصحاح الثلاثون

ومتى أنت عليك كل هذه الأمور البركة واللعنة اللتان جعلتهما قدامك فإن رددت في قلبك بين جميع الأمم الذين طردك إلهك إليهم ورجعت إلى الرب إلهك وسمعت لصوته حسب كل ما أنا أوصيك به اليوم أنت وبنوك بكل قلبك وبكل نفسك يرد الرب إلهك سبيك ويرحمك ويعود فيجمعك من جميع الشعوب الذين بددك إليهم الرب إلهك إن يكن قد بددك إلى أقصاء السموات فمن هناك يجمعك الرب إلهك ومن هناك يأخذك ويأتي بك الرب إلهك إلى الأرض التي أمتلكها آباؤك فتمتلكها ويحسن إليك ويكثرك من آبائك ويحتم الرب إلهك قلبك وقلب نسلك لكي تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك لتحيا ويجعل الرب إلهك كل هذه اللعنات على أعدائك وعلى ميفضيك الذين طردوك وأما أنت فتعود تسمع لصوت الرب وتعمل بجميع وصاياها التي أنا أوصيك بها

اليوم فيزيدك الرب إلهك خيراً في كل عمل يذك في ثمرة بطنك وثمره بهائمك وثمره أرضك لأن الرب يرجع ليفرح لك بالخير كما فرح لآبائك إذا سمعت لصوت الرب إلهك لتحفظ وصاياه وفرائضه المكتوبة في سفر الشريعة هذا . إذا رجعت إلى الرب إلهك بكل قلبك وبكل نفسك .

إن هذه الوصية التي أوصيك بها اليوم ليست عسرة عليك ولا بعيدة منك ليست هي في السماء حتى تقول من يصعد لأجلنا إلى السماء ويأخذها لنا ويسمعنا إياها لنعمل بها ولا هي في عبر البحر حتى تقول من يعبر لأجلنا البحر ويأخذها لنا ويسمعنا إياها لنعمل بها بل الكلمة قريبة منك جداً في فمك وفي قلبك لتعمل بها .

انظر قد جعلت اليوم قدامك الحياة والخير والموت والشر بما أني أوصيتك اليوم أن تحب الرب إلهك وتسلك في طرقه وتحفظ وصاياه وفرائضه وأحكامه لكي تحيا وتنمو ويبارمك الرب إلهك في الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها فإن انصرف قلبك ولم تسمع بل غويت وسجدت لآلهة أخرى وعبدتها فإني أنبئكم اليوم أنكم لا محالة تهلكون . لا تطيل الأيام على الأرض التي أنت عابر الأردن لكي تدخلها وتمتلكها أشهد عليكم اليوم السماء والأرض . قد جعلت قدامك الحياة والموت والبركة واللعنة فاختر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك . إذ تحب الرب إلهك وتسمع لصوته وتلتصق به لأنه هو حياتك والذي يطيل أيامك لكي تسكن على الأرض التي حلف الرب لآبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيهم إياها .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ ذكر النسفي بعض الحكم منها (الشكر قيد الوجود وصيد المفقود) ومنها (إذا سمعت النعمة نعمة الشكر تأهبت للمزيد) ومما ذكره ابن كثير بمناسبة الآية الحديث : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه » أقول : ويفهم من الآية أن المعصية كفران عملي للنعم .

٥ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لعني عني حديد ﴾ يذكر ابن كثير بعض الحديث القدسي الذي رواه الإمام مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب

رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المحيط إذا دخل البحر .

٦ - البلاء في اللغة العربية من أسماء الأضداد ، فقد يراد به النعمة ، وقد يراد به النعمة والاختبار ، وقد رجحنا أثناء التفسير أن المراد به في النص هنا النعمة ، وأشرنا هنا إلى هذا لاحتمال النص الوجه الثاني .

كلمة في السياق :

بينت السورة أن محمداً ﷺ أنزل عليه القرآن ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وأن موسى عليه السلام بعث من أجل هذا ، ومن أجل التذكير بنعم الله ، ولأحفظنا أن مما ركز عليه موسى موضوع الشكر على النعم ، والتحذير من الكفران ، فدل ذلك على أن من صراط الله الشكر على النعم . وفهمنا كذلك من الآيات أن من صراط الله الصبر والشكر بل هما مفتاحا الهداية ، وعرفنا من السياق أن أدب الداعية إلى الله الإلحاح على التذكير بالنعم ، والإلحاح على موضوع الصبر والشكر ، والتخويف من الكفر ، وهكذا فإن السورة توضح لنا موضوع الخروج من الظلمات إلى النور شيئاً فشيئاً ، ولقد عرفنا حتى الآن أن من الظلمات الكفر ، ومحبة الدنيا ، والصد عن سبيل الله ، والرغبة في انحرافها ، والكفر بنعم الله ، والهلح ، وإذا استقرت هذه المعاني يتجه الآن الخطاب لهذه الأمة من أجل إخراجها من الظلمات إلى النور ، من خلال تذكيرها بأيام الله في المخالفين للرسول ، وذلك موضوع المجموعة الثالثة

المجموعة الثالثة

ونمتد هذه المجموعة من الآية (٩) حتى الآية (١٨)

الرَّيَّا تَكُمُ نَبِؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِء وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ إِنِّي اللَّهُ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ تَنْحُنْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَبْسُأُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَالْنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَجْرَعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ

الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٌ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَثَلُ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا
كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

التفسير :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ ﴾ أي خبر ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ هل هذا خطاب من موسى عليه السلام لقومه أو خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ؟ ذهب ابن جرير إلى الأول ورجح ابن كثير الثاني ؛ بسبب أن قصة عاد وثمود ليست في التوراة . فلو كان هذا من كلام موسى عليه السلام لقومه وقصصه عليهم لكانت هاتان القصتان في التوراة ، هذه حجة ابن كثير في كون هذا الخطاب مستأنفاً لهذه الأمة ، وقد رأينا فيما نقلناه من كلام التوراة الحالية مما له علاقة في مقام الخطاب المذكور في الآيات السابقة ما يرجع ما ذهب إليه ابن كثير ، وهذا من الأسباب التي حملتنا على نقل ما نقلناه ﴿ قَوْمِ نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ﴾ هذا تفسير للأثم التي أراد الله أن نتذكر أخبارها ، والمعنى أن هذه الأثم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات ومنها المعجزات ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ أي أخذوا أناملهم بأسنانهم تعجباً ، أو عضوا عليها تغيظاً ، أو أنهم بهذه العملية أشاروا إلى الرسل يأمرؤنهم بالسكوت ، أو أنهم ردوا أيديهم في أفواه الرسل كي لا يتكلموا ، أو أنهم ردوا أيديهم إلى أفواههم من أجل ألا يجيبوا الرسل جواباً إيجابياً . ورجح ابن كثير قول مجاهد : وهو أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم ، وعلى هذا القول يكون المعنى ، فرد الأقسام أيادي الرسل أي نعمهم بأفواههم ، أورد الأقسام قدراتهم وجعلوها في أفواههم بمعنى أن كل طاقاتهم سخروها للرد اللساني ابتداء ﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ من الإيمان والتوحيد والعبادة ﴿ وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ أي موقع في الريبة ﴿ قالت رسلهم أفي الله شك ﴾ الاستهزاء للإنكار أي إن وجود الله وإلهيته لا يحتملان الشك لظهور الأدلة ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أي خالقهما ﴿ يدعوكم ﴾ أي إلى الإيمان والعبادة ﴿ ليظهر لكم من ذنوبكم ﴾ أي إذا آمنتم ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ أي

إلى وقت في الدنيا قد سماه وبين مقداره . ﴿ قَالُوا ﴾ أي كل قوم من الأقوام المكذبة ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ﴾ أي ما أنتم ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ أي لا فضل بيننا وبينكم ، ولا فضل لكم علينا ، فلم تُخصَّص بالنبوة دوننا ، وكيف نتبعكم ونحن متساوون معكم في البشرية ؟ ﴿ تَرِيدُونَ أَنْ تَصْدُونَا عَمَا كَانَ يَعْبد آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مَبِينٍ ﴾ أي بحجة بينة . وقد جاءتهم رسلهم بالبينات وإنما أرادوا آية يقترحونها تعنتاً ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ ﴾ أي ما ﴿ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أي صحيح أننا بشر مثلكم في البشرية ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي بالرسالة والنبوة كما منَّ علينا ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ ﴾ أي على وفق ما سألتكم ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي بعد سؤالنا إياه ، وإذنه لنا في ذلك . والمعنى: أن الإتيان بالآية التي قد اقترحتموها ليس إلينا ولا باستطاعتنا ، وإنما هو أمر يتعلق بمشيئة الله ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ في جميع أمورهم . هذا الأمر من الرسل للمؤمنين كافة بالتوكل ، وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً كأنهم قالوا : ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وإيذائكم ثم قال الرسل : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ أي وأي عذر في ألا نتوكل عليه وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه وهو الترفيق لهداية كل منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين ، وما يمنعنا من التوكل عليه وقد هَدَانَا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿ وَلَنُبَصِّرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ أي من الكلام السيء والأفعال المسخفة . وهذا من الرسل حلف على الصبر على أذى أقوامهم وألا بمسكوا عن دعائهم ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ أفاد التكرار التثبيت على مقام التوكل . والمعنى : فليثبت المتوكلون على توكلهم .

وهنا لجأ الأقوام إلى التهديد بإخراج الرسل من أوطانهم ونفيهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ أي من ديارنا ﴿ أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي بُلَاتِنَا ﴾ أي في ديننا أي ليكونن أحد الأمرين : إخراجكم أو عودكم ، وحلفوا على ذلك ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنَسْكَنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ هذا وعد من الله بإهلاك الظالمين واستخلاف المؤمنين إذا تحقَّقوا بصفتين ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي الإهلاك والإسكان ﴿ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي ﴾ أي موقعي وهو موقف الحساب ، أو خاف قيامي عليه بالعلم ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أي عذابي ، أي وعيدي ، هذا لمن خاف مقامه بين يدي يوم القيامة وخشي من وعيدي وهو تخويفي وعذابي ، والمعنى أن إهلاك الأعداء واستخلاف الأولياء منوطان بوجود التقوى ﴿ وَاسْتَغْنَوْا ﴾ أي واستنصر الرسل على أعدائهم ، أو واستفتح الكفار على الرسل ظناً منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل ، أو واستنصر

الجميعُ الله ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ منهم أي بأن لم يفلح باستفتاحه وهم مكذبو الرسل ، والجبار : هو المتجبر في نفسه ، والعنيد : هو المعاند للحق ، وكيف لا يخيب ويخسر حين يجتهد الأنبياء في الإتهال إلى الله ربهم العزيز المقتدر ، ومع خيبة الجبارين المعاندين في الاستفتاح في الدنيا فإن أمامهم عذاب النار ﴿ من ورائه جهنم ﴾ وراء هنا بمعنى أمام أي من أمام الجبار العنيد جهنم ، أي هي له بالمرصاد يسكنها غلداً يوم المعاد ، ويعرض عليها غدواً وعشياً إلى يوم التناد ، وهو إما وصف لحاله في الدنيا لأنه مرصد لجهنم فكأنها بين يديه ، وهو على شفيرها ، وإما وصف لحاله في الآخرة حين يبعث ويوقف ﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ إذا ألقى في النار ، والصديد هو ما يسيل من جلود أهل النار ﴿ يتجرعه ﴾ أي يشربه جرعة جرعة أي يتفحصه ويتكرمه ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾ أي ولا يقارب أن يسيغه فكيف تكون الإساعة ؟ ﴿ ويأتية الموت من كل مكان ﴾ أي إن أسباب الموت تأتيه من كل جهة ، أو من كل مكان ، وهذا تصوير لما يصيبه من الآلام ، أي لو كان ثمة موت لكان كل واحد منها مهلكاً ﴿ وما هو بميت ﴾ لأنه لو مات لاستراح ولا راحة لهم بل عذاب ﴿ ومن ورائه ﴾ أي ومن بين يديه ﴿ عذاب غليظ ﴾ أي في كل وقت يستقبله بتلقى عذاباً أشد مما قبله ، أو أغلظ ، أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ ، أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله ، وأدهى وأمر ، ثم ضرب الله مثلاً لأعمال الكفار عامة الذين عبدوا معه غيره ، وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح فانهارت ، وعدموها أحوج ما كانوا إليها ﴿ مثل الذين كفروا بربهم ﴾ هذه جملة على تقدير سؤال سائل يقول : كيف مثلهم ؟ ﴿ أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ﴾ أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية ، والمعنى : مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئاً ، ولا ألقوا حاصلًا إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ، فلا يقدرון على شيء من أعمالهم التي كسبوها في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في مثل هذا اليوم ، وأعمال الكفرة : المكارم التي كانت لهم ، من صلة الأرحام ، وعق الرقاب ، وفداء الأسرى ، وإطعام الأضياف ، وغير ذلك ، شبهها الله في حيويتها - لبنائها على غير أساس الإيمان بالله تعالى ورسله - برماد طيرته الريح العاصف ﴿ لا يقدرون مما كسبوا على شيء ﴾ أي لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء ، أي لا يرون له أثراً من ثواب كما لا يُقدر من الرماد المطير في الريح على شيء ﴿ ذلك ﴾ أي سعيهم وعملهم على

غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه ﴿ هو الضلال البعيد ﴾ عن طريق الحق ، أو عن الثواب .
نقل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لرسولهم : لنخرجتك من أرضنا أو لنعودن في ملتنا ﴾ قال صاحب الظلال : (هنا تتجلى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية .. إن الجاهلية لا ترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنها . ولا تطيق أن يكون له وجود خارج عن وجودها . وهي لاتسلم الإسلام حتى لو سلمها . فالإسلام لابد أن يبدو في صورة تجمع حركي مستقل ، بقيادة مستقلة وولاء مستقل ، وهذا ما لا تطيقه الجاهلية . لذلك لا يطلب الذين كفروا من رسولهم مجرد أن يكفوا عن دعوتهم ولكن يطلبون منهم أن يعودوا في ملتهم ، وأن يندمجوا في تجمعهم الجاهلي ، وأن يذوبوا في تجمعهم ، فلا يبقى لهم كيان مستقل وهذا مآلهاه طبيعة هذا الدين لأهله وما يرفضه الرسل من ثم ويأبونه ، فما ينبغي لمسلم أن يندمج في التجمع الجاهلي مرة أخرى .. وعندما تسفر القوة الغاشمة عن وجهها الصلد لا يبقى مجال لدعوة ، ولا يبقى مجال لحجة ولا يسلم الله الرسل إلى الجاهلية

إن التجمع الجاهلي — بطبيعة تركيبه العضوي — لا يسمح لعنصر مسلم أن يعمل من داخله . إلا أن يكون عمل المسلم وجهده وطاقته لحساب التجمع الجاهلي والتبع في تشكيلاته وأجهزته . هذه الطبيعة التي ترغم كل فرد داخل المجتمع يعمل لحساب هذا المجتمع ولحساب منهجه وتصوره .. لذلك يرفض الرسل الكرام أن يعودوا في ملة قومهم بعد إذ نجاهم الله منها

وهنا تتدخل القوة الكبرى فتضرب ضربتها المدمرة القاضية التي لا تقف لها قوة البشر المهازيل وإن كانوا طغاة منجبرين :

﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلك الظالمين ، ولنسكنكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾

لابد من أن ندرك أن تدخل القوة الكبرى للفصل بين الرسل وقومهم ، إنما يكون دائماً بعد مفاصلة الرسل لقومهم .. بعد أن يرفض المسلمون أن يعودوا إلى ملة قومهم ، بعد إذ نجاهم الله . وبعد أن يصروا على تميزهم بدينهم وتجمعهم الإسلامي الخاص بقيادته الخاصة . وبعد أن يفاصلوا قومهم على أساس العقيدة

فينقسم القوم إلى أمتين مختلفتين عقيدة ومنهجاً وقيادة وتجمعاً .. عندئذ تتدخل القوة الكبرى لتضرب ضربتها الفاصلة وتدمر على الطواغيت الذين يتهددون المؤمنين ، وتمكن للمؤمنين في الأرض ، ولتحقق وعد الله لرسله بالنصر والتمكين ولا يكون هذا التدخل أبداً والمسلمون متبعون في المجتمع الجاهلي عاملون من خلال أوضاعه وتشكيلاته ، غير منفصلين عنه ولا متميزين بتجمع حركي مستقل وقيادة إسلامية مستقلة .

الفوائد :

١ — من قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فهم المفسرون أن المعرفة الدقيقة للتاريخ متعذرة ، وبذلك شككوا بالكثير مما يذكره بعضهم من أنساب متصلة ضاربة في القدم . قال ابن كثير : وقال ابن إسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله أنه قال في قوله تعالى : ﴿ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ كذب النسابون . وقال عمرو بن الزبير ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان .

٢ — قال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ أَيْ أَنَّى شَكَّ ﴾ : (وهذا يحتمل شيئين (أحدهما) أي أي وجوده شك فإن الفطر شاهدة بوجوده ، ومجولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصول إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الذي خلقهما وابدعهما على غير مثال ، فإن سبق شواهد الخلق والتسخير ظاهر عليهما ، فلا بد لها من صانع وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإله ومليكه ؛ والمعنى الثاني في قولهم ﴿ أَيْ أَنَّى شَكَّ ﴾ أي أي إلهيته وتفرد به بوجوب العبادة له شك ، وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقيمة بالصانع ، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى)

أقول : الملاحظ أنه في العصور المتأخرة أصبح نفي وجود الله - بله الشك به - هو الفلسفة التي تبنيناها دول من أكبر دول العالم ، وتروج لها وتزخر فيها آلاف الكتب وملايين النشرات وتبنى عليها مذاهب وتقوم عليها تكتلات ، وعلى أهل الإيمان أن يقابلوا ذلك بما يكفاه

٣ — ذكر ابن كثير بمناسبة قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدَ ﴾ ذكر بهذه

المناسبة بعض الآيات التي تشبهها في المعنى فقال : كما قال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين • إنهم لهم المنصورون • وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ (الصافات : ١٧١ - ١٧٣) ﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ (الأعراف : ١٣٧) اهـ

ومن خلال النظر في هذه الآيات ندرك أن الله عز وجل من سننه أن تكون العاقبة للمتقين ، وأنه ربي المسلمين على أن يعرفوا هذه السنة ويعتقدوها ، فهي جزء من معرفة الله ، وهي من النور الذي يخرج الله إليه عباده كما يفهم من السياق .

٤ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ يذكر ابن كثير أنواع عذاب أهل النار وأن الماء الصديد واحد من هذه الأنواع ، وله كلام نفيس بمناسبة هذه الآية وما بعدها ننقله مع حذف الأسانيد . قال : ﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ أي في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق ، فهذا حار في غاية الحرارة ، وهذا بارد في غاية البرد والتشنج كما قال تعالى : ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق • وآخر من شكله أزواج ﴾ (ص : ٥٧ ، ٥٨) وقال مجاهد وعكرمة : الصديد من القيح والدم ، وقال قتادة : هو ما يسيل من لحمه وجلده ، وفي رواية عنه : الصديد ما يخرج من جوف الكافر قد خالط القيح والدم ، وفي حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : قلت : يا رسول الله ما طينة الخبال ؟ قال : « صديد أهل النار » . وفي رواية « عصارة أهل النار » . وقال الإمام أحمد ... عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ﴾ قال : « يقرب إليه فيتكرهه ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره » يقول الله تعالى : ﴿ وسقوا ماءً حميماً فلقطع أمعاءهم ﴾ (محمد : ١٥) ويقول ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾ (الكهف : ٢٩) . وهكذا رواه ابن جرير من حديث عبد الله بن المبارك به ، ورواه ابن أبي حاتم من حديث بقية بن الوليد عن صفوان بن عمرو به ، وقوله (يتجرعه) أي يتفحصه ويتكرهه أي يشربه قهراً وقسراً لا يضعه في فيه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد كما قال تعالى : ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ (الحج : ٢١) . ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾ أي يردده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته وبرده الذي لا يستطيع ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ أي يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه ، قال عمر بن ميمون بن مهران : من كل عظم وعصب وعرق ، وقال عكرمة : حتى من أطراف شعره ، وقال إبراهيم التيمي : من

موضع كل شعرة أي من جسده حتى من أطراف شعره ، وقال ابن جرير ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ أي من أمامه وخلفه ، وفي رواية وعن يمينه وشماله ، ومن فوقه ومن تحت أرجله ، ومن سائر أعضاء جسده ، وقال الضحاك عن ابن عباس : ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ قال : أنواع العذاب الذي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت ولكن لا يموت لأن الله تعالى قال : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ (فاطر : ٣٦) ومعنى كلام ابن عباس رضي الله عنه أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت ، ولكنه لا يموت ليخلد في دوام العذاب والنكال ، ولهذا قال تعالى ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ﴾ وقوله ﴿ ومن وراءه عذاب غليظ ﴾ أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ مؤلم شديد أغلظ من الذي قبله ، وأدهى وأمر ، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم .طلعها كأنه رؤوس الشياطين . فإنتهم لاأكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم . ثم إن مرجعهم إلی الجحيم ﴾ (الصافات : ٦٤ - ٦٨) فأخبر أنهم نارة يكونون في أكل زقوم ، ونارة في شرب حميم ، ونارة يردون إلى جحيم ، عباداً بالله من ذلك ، وهكذا قال تعالى ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون . يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ (الرحمن : ٤٣ ، ٤٤) وقال تعالى : ﴿ إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم . كاللهل يهل في البطون . كهل الجحيم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ (الدخان : ٤٣ - ٥٠) وقال ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سحوم وحيم . وظل من محموم . لا بارد ولا كريم ﴾ . (الواقعة : ٤١ - ٤٤) وقال تعالى : ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب . جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق . وآخر من شكله أزواج ﴾ (ص : ٥٥ - ٥٨) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم وتكراره وأنواعه وأشكاله مما لا يحصىه إلا الله عز وجل جزاء وفاقاً ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ . (فصلت : ٤٦) اهـ كلام ابن كثير ولنتقل إلى المجموعة الرابعة :

المجموعة الرابعة

وتمتد من الآية (١٩) حتى نهاية الآية (٢٣) وهذه هي :

﴿ ١٩ ﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ
أَسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا
لَوْ هَدَّيْنَاهُمَا لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرٌ غَنَاءٌ أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنَ مَحْصٍ ﴿٢١﴾
وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ
وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا
أَنْفُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ
إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾

التفسير :

﴿ ألم تر ﴾ أي أم تعلم والخطاب - كما قال النسفي - لكل أحد ﴿ أن الله خلق
السموات والأرض بالحق ﴾ أي بالحكمة والأمر ولم يخلقهما عبثاً ﴿ إن يشأ يذهبكم
ويأت بخلق جديد ﴾ أي هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقاً آخر على
شكلهم ، أو على خلاف شكلهم ، إعلماً بأنه قادر على إعدام الموجود وإيجاد المعدم
﴿ وما ذاك على الله بعزیز ﴾ أي بعظيم ولا متعذر ولا ممتنع بل هو سهل عليه ،
ذكرنا الله بهاتين الآيتين بما ينفي الشك به ، كما أخبرنا عن قدرته على معاد الأبدان يوم
القيامة ، ومن ثم ينقلنا إلى عرض مشهد من مشاهد يوم القيامة :

﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾ أي برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار ، أي اجتمعوا له في براز من الأرض ، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يسر أحدًا ، ومعنى برزوهم لله - والله تعالى لا يتوارى عنه شيء يبرز له - : أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون أن ذلك يخاف على الله ، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم ، وعلموا أن الله لا تخفى عليه خافية ، وأخرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه ﴿ فقال الضعفاء ﴾ أي في الرأي وهم السقطة والأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له ، وعن موافقة الرسل وهم السادة والرؤساء الذين استصغروهم وصدوهم عن الاستماع إلى أنبيائهم وأتباعهم ﴿ إنا كنا لكم تبعاً ﴾ أي تابعين ، فمهما أمرتمونا اتبعنا وفعلنا ﴿ فهل أنتم مغبون عنا من عذاب الله من شيء ﴾ أي فهل تقدرون على دفع شيء مما نحن فيه ؟ ﴿ قالوا ﴾ أي فقالت القادة لهم ﴿ لو هدانا الله لهديناكم ﴾ وليس هذا جواباً مباشراً ولكن لما كان قول الضعفاء ، توبيخاً لهم وعتاباً على استغوائهم لأنهم علموا أنهم لا يقدرُونَ على الإغناء عنهم قالوا لهم مجيبين معذرين ﴿ لو هدانا الله لهديناكم ﴾ أي لو هدانا الله إلى الإيمان في الدنيا لهديناكم إليه ، أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم أي : لاغنيا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ أي مستويان علينا الجزع والصبر ، لا هذا يفيدنا ولا هذا . قال ابن كثير : (والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها) ﴿ ما لنا من محيص ﴾ أي من منجى ومهرب جزعنا أم صبرنا ، وهل هذا من كلام المستكبرين أو من كلام الجميع ؟ قولان للمفسرين ، والظاهر أنه من كلام المستكبرين ، ثم أخبر تعالى عما خطب به إبليس أمام أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنة ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس - لعنه الله - يومئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم وغناً إلى غنهم وحسرة إلى حسرتهم ، قال تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر ﴾ أي لما حكم بالجنة والنار لأهلها ، ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ﴿ إن الله وعدهم وعد الحق ﴾ وهو البعث والجزاء على الأعمال على السنة رسله الذين جعل في أتباعهم النجاة والسلامة ، وعداً حقاً وفى الله به ﴿ ووعدتكم ﴾ أي بأن لا بعث ولا حساب ولا جزاء ﴿ فأخلفتكم ﴾ أي كذبتكم ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان ﴾ أي من تسلط واقتدار ولا دليل ولا حجة ﴿ إلا أن دعوتكم ﴾ أي لكني دعوتكم إلى الضلالة بوسوستي وتزيني ﴿ فاستجبتم لي ﴾ أي فأسرعتم إلى جانبي أي بمجرد الدعوة ، هذا

وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿ فلا تلووموني ﴾ لأنني عدوكم فكيف ألام إذا دعوتكم إلى أمر قبيح وقد حذركم الله مني ؟ ﴿ ولووموا أنفسكم ﴾ حيث انبعموني بلا حجة ولا برهان ، فإن الذنب ذنبكم لكونكم خالفتم الحجج وانبعموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿ ما أنا بمصرخكم ﴾ أي بمغشكم ﴿ وما أنتم بمصرخي ﴾ أي بمغشي أي : فلا ينجي بعضنا بعضاً من عذاب الله ولا يغنيه ، ما أن بنافعكم ومنقذكم مما أنتم فيه ، وما أنتم بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿ إني كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ أي كفرت اليوم بإشراككم إياي مع الله من قبل هذا اليوم أي في الدنيا ومعنى كفره بإشراكهم إياه : تبرؤه منه ، واستنكاره له ، ومعنى إشراكهم الشيطان بالله : طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة غير الله ﴿ إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ هل هذا من تنمة كلام إبليس يحكيه الله لنا ، أو هو كلام مستأنف ؟ قولان للمفسرين . ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال ، عطف بمآل السعداء فقال : ﴿ وأدخل ﴾ أي أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأمن ساروا ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ما كثرين أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿ بإذن ربهم ﴾ الإدخال من الملائكة ، والإذن من الله ﴿ تحتهم فيها سلام ﴾ المراد به إما تسليم بعضهم على بعض في الجنة ، أو تسليم الملائكة عليهم .

نقل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً . فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ﴾ قال صاحب الظلال :

(والضعفاء هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حربتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه وجعلوا أنفسهم تبعاً للمستكبرين والطغاة ودانوا لغير الله من عبده واختاروها على الدينونة لله . والضعف ليس علراً ، بل هو الجريمة ، فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفاً ، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعترفون به . والعزة لله ، وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعاً عن نصيبه في الحرية - التي هي ميزته . ومناط تكريمه - أو ينزل كارها . والقوة المادية - كائنة ما كانت - لا تملك أن تستعبد إنساناً يريد الحرية ، ويستملك بكرامته الأدمية فقصارى

ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد تؤذيه وتكبله وتحبسه . أما الضمير . أما الروح . أما العقل . فلا يملك أحد حبسها ولا استدلالها إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال : من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعاً للمستكبرين في العقيدة وفي التفكير وفي السلوك ؟ من ذا الذي يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله والله هو خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه ؟ لا أحد . لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة ولا لأنهم أقل جاهاً أو مالاً أو منصباً أو مكاناً .. كلا إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفاً بلحق صفة الضعف بالضعفاء ، إنما هم ضعفاء لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان .

إن المستضعفين كثرة . والطوائف قلة . فمن ذا الذي يخضع الكثرة للقلة ، وماذا الذي يخضعها ؟ إنما يخضعها ضعف الروح ، وسقوط الهمة وقلة النخوة ، والتنازل الداخلي عن الكرامة التي وهبها الله لبني الإنسان !

إن الطغاة لا يملكون أن يستذلوا الجماهير إلا برغبة هذه الجماهير ، فهي دائماً قادرة على الوقوف لهم لو أرادت فالإرادة هي التي تنقص هذه القطعان !

إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية للذل في نفوس الأذلاء .. وهذه القابلية هي وحدها التي يعتمد عليها الطغاة .)

كلمة في السياق :

بدأت السورة ببيان الحكمة من إنزال الكتاب وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ثم جاء كلام عن موسى عليه السلام ، وتكليفه بإخراج قومه من الظلمات إلى النور ، وتذكيرهم بأيام الله ، وما قاله لهم ، وبذلك عرفنا أن مهمة الرسل الإخراج من الظلمات إلى النور ، والتذكير بأيام الله ، ثم يتوجه الخطاب إلى هذه الأمة بتذكيرها بأيام الله ، وفعل الله للرسل ، وفعله بالمكذبين بالرسل في الدنيا والآخرة .

وفي المجموعة الثالثة رأينا خطاب الرسل لأقوامهم في عملية الإخراج من الظلمات إلى النور ، وموقف أقوامهم منهم ، كما رأينا في المجموعة الرابعة عملية الإخراج من النور إلى الظلمات التي يقوم بها الشيطان ، كما عرضها هو وقيله في النار . وقد عرفنا من السياق أن الشك في الله من الظلمات ، وأن الإيمان من النور ، وأن التوكل على الله من النور ،

وأن الصبر من النور ، وأن إيذاء الرسل من الظلمات ، وأن معرفة أن الله خلق السموات والأرض بالحق طريق إلى النور ، وأن معرفة أن الله قادر على استبدال الخلق بخلق آخر طريق إلى النور ، وأن طريق الشيطان إلى الظلمات مجرد الوسوسة المزخرفة الكاذبة ، وأن الإيمان والعمل الصالح طريق إلى النور والجنة .

فوائد :

١ - ذكر الشيخ أحمد الزروق في كتابه (قواعد التصوف) أن مما يذهب بالشك أن يكرر الإنسان قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾

و كنت أتسأل عن دليل هذا القول حتى اشتغلت بتفسير سورة إبراهيم فلاحظت أن مجيء هاتين الآيتين آت في سياق دعوة الرسل وشك أقوامهم فيما يدعونهم إليه ، ومن ثم فالآيتان دواء للشك ودواء من الوسوسة ، ثم هما آيتان في الوسط بين مشهدين من مشاهد يوم القيامة يصفان مآل الكافرين الشاكين المستحبيين للشيطان

٢ - بمناسبة قوله تعالى حكاية عن أهل النار ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ ينقل ابن كثير قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : إن أهل النار قال بعضهم لبعض : تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بيكاثهم وتضرعهم إلى الله عز وجل ، تعالوا نيك ونتضرع إلى الله ، فبكوا وتضرعوا ، فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا : إنما أدرك أهل الجنة بالصبر تعالوا حتى نصبر فصبروا صبراً لم ير مثله ، فلم ينفعهم ذلك فعند ذلك قالوا ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ الآية .

٣ - هل الخطبة التي ألقاها إبليس تكون قبل دخول الكافرين النار أو بعد ذلك ؟ يرجح ابن كثير وغيره أنها بعد دخول النار ، مستشهداً بكثير من الآيات ، وبقوله تعالى في الآيات ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر ﴾ أي بدخول أهل الجنة الجنة ، ودخول أهل النار النار ، لأنه لرفع العهدة فيما يبدو يذكر اتجاهها آخر وهو أن هذه الخطبة كانت بعد فصل القضاء وقبل دخول النار قال :

(ولكن قد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم وهذا لفظه وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد : حدثني دخين الحميري عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ، فقضى بينهم ، ففرغ من القضاء قال المؤمنون قد

فرضي بيننا ربنا فمن يشفع لنا ؟ فيقولون : انطلقوا بنا إلى آدم ، وذكر نوحاً ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، فيقول عيسى أدلكم على النبي الأمي ، فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم إليه ، فيثور من مجلسي من أطيب ريح شتمها أحد قط ، حتى آتي فيشفعني ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى أظفر قدمي ، ثم يقول الكافرون : هذا قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ؟ ما هو إلا إبليس هو الذي أضلنا ، فيأتون إبليس فيقولون : قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه من أثنى ريح شتمها أحد قط ثم يعظم نحيبهم ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ﴾ .

٤ — بلاحظ النسفي ملاحظة وهي أن الله عز وجل إذا خاطب الكفار واعدأ إياهم بالتوبة من ذنوبهم إذا آمنوا يذكر كلمة (من) قبل الذنب ، كما ورد في هذه السورة ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ وكما ورد في سورة نوح ﴿ واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ وكما ورد في سورة الأحقاف ﴿ يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ بينما لا تذكر كلمة (من) في نفس المقام في خطاب المؤمنين ، فمثلاً في سورة الصف بعد قوله تعالى : ﴿ هل أدلكم على تجارة ﴾ يأتي قوله تعالى ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ قال : وغير ذلك مما يعلم بالاستقراء ، وكأن ذلك للفرقة بين الخطابين ولئلا يسوَّى بين الفريقين في الميعاد)

مر معنا حتى الآن من هذه السورة أربع مجموعات :

المجموعة الأولى : مقدمة السورة .

والمجموعة الثانية : الكلام عن موسى عليه السلام .

والمجموعة الثالثة : المبدوء بـ ﴿ ألم يأتكم ﴾ المنتهية بقوله تعالى ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾

والمجموعة الرابعة : المبدوء بقوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق ﴾ وكل من المجموعة الثالثة والرابعة مبدوء بخطاب ﴿ ألم يأتكم ﴾ ﴿ ألم تر ﴾ والآن يأتي خطاب ثالث مبدوء بـ ﴿ ألم تر ﴾ وفيه ذكر لطريق من طرق الخروج من الظلمات إلى النور تضمنه المجموعة الخامسة .

المجموعة الخامسة

وتمتد من الآية (٢٤) إلى نهاية الآية (٢٧) وهذه هي :

- ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُخَيِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿٢٧﴾ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٨﴾ ﴾

التفسير :

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي ألم تعلم ﴿ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ وقد فسر هذا المثل بقوله ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ هي لا إله إلا الله ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ كالنخلة وغيرها من الشجر المثمر ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ في الأرض ضارب بعروقه فيها ﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أي أعلاها ، و رأسها في السماء ﴿ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ أي تعطي ثمرها في كل وقت وقته الله لإثمارها ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ أي بتيسر خالقها وتكوينه ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فيتعظون لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للمعاني ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هي كلمة الكفر والشرك والضلال ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ وهي كل شجرة لا بطيب ثمرها ولا أصل ثابت لها كشجرة الحنظل ﴿ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ﴾ أي استوقضت من فوق الأرض ﴿ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات ، كذلك الكفر لا أصل له في الفطرة البشرية ولا فرعاً صالحاً ولا ثمرأ طيباً ، ومن ثم لا يصعد للكافر عمل ولا يتقبل ، وهكذا شبه كل قول كافر لا يعضد بحجة بأنه داحض غير ثابت .

﴿ يُخَيِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ هو قول لا إله إلا الله ، أي يديمهم على

الإيمان بسبب كلمة التوحيد ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ فإذا فتنهم أعداء الله أو وسوس لهم شياطين الإنس والجن لم يزالوا ثابتين ﴿ وفي الآخرة ﴾ الجمهور على أن المراد به في القبر بتلقين الجواب وتمكين الصواب ﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ فلا يهديهم ولا يشبههم على القول الثابت في مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شيء وهم في الآخرة أضل وأزل بسبب اتصافهم بصفة الظلم التي يدخل فيها الشرك الذي هو أعظم أنواع ظلم الإنسان لنفسه ﴿ ويفعل الله ما يشاء ﴾ فمشيئة مطلقة لا يسئل عما يفعل ، ومن ثم فلا اعتراض عليه في تثبيت المؤمنين وإضلال الظالمين .

نقل :

بمناسبة قوله تعالى ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة ﴾ قال صاحب الظلال : (إن الكلمة الطيبة — كلمة الحق — لكالشجرة الطيبة . ثابتة سامقة مشمرة .. ثابتة لا تزعرها الأعاصير ولا تعصف بها رياح الباطل ولا تقوى عليها معاول الطغيان ... — وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان — سامقة متعالية ، تظل على الشرك والظلم والطغيان من عل — وإن خيل إلى البعض أحياناً أن الشر يزحهما في الفضاء — مشمرة لا ينقطع ثمرها ، لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آنأ بعد آن .

وإن الكلمة الخبيثة — كلمة الباطل — لكالشجرة الخبيثة ، وقد تهيج وتعالى وتشابك ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى . ولكنها تظل نافثة هشة وتظل جذورها في التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض .. وما هي إلا فترة ثم تجث من فوق الأرض فلا قرار لها ولا بقاء .

ليس هذا وذاك مجرد مثل يضرب ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع لإلما هو الواقع في الحياة ولو خفي في بعض الأحيان .

والخير الأصل لا يموت ولا ينوي مهما زحمة الشر وأخذ عليه الطريق والشر كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المنبسط به — فقلما يوجد الشر الخالص — وعندما يستهلك ما يلبسه من الخير فلا تبقى فيه منه بقية فإنه يتهالك ويتشبههم مهما تضخم واستعلا . (

فوائد :

١ - قال النسفي : (والكلمة الطيبة كلمة التوحيد ، أصلها تصديق بالجنان ، وفرعها إقرار باللسان ، وأكلها عمل الأركان ، وكما أن الشجرة شجرة وإن لم تكن حاملاً ، فالؤمن مؤمن وإن لم يكن عاملاً ، ولكن الأشجار لا تراء إلا للثمار ، فما أقوات النار إلا ثمار من الأشجار إذا اعتادت الإخفار في عهد الإثمار) .

٢ - رأينا أن الكلمة الطيبة وهي « لا إله إلا الله » وأن القول الثابت هو « لا إله إلا الله » والفطرة هي الأرض ، فلا إله إلا الله جذورها ضاربة عميقة في الفطرة ، وثمارها كل عمل صالح ، وكل خلق طيب ، وساقها وورقها وكل شيء فيها يستفاد منه ، وبهذه الكلمة يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ومن ثم فيقدر فهمها وتردادها تقوى جفورها ، ونسق فروعها ، ويغليب أكلها ، ففي حديث الصحيح عن رسول الله ﷺ : « جددوا إيمانكم قيل : يا رسول الله كيف نجد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله » . وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن قتادة أن رجلاً قال : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور ، فقال « رأيت لو عمد إلى متاع الدنيا فركب بعضه على بعض أكان يبلغ السماء ؟ أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء ؟ قال : ما هو يا رسول الله ؟ قال : « تقول لا إله إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، عشر مرات ، في دبر كل صلاة ، فذاك أصله في الأرض ، وفرعه في السماء » .

٣ - هل الشجرة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً شجرة بعينها ، أو كل شجرة متصفة بما ذكر القرآن ؟ ، قولان للمفسرين ، وهل كل شجرة خبيثة تنصف بما وصف الله تدخل تحت قوله الشجرة الخبيثة أو أنها شجرة بعينها ؟ . قولان للمفسرين ، والنصوص تشير إلى النخلة والحنظلة . فهل الأحاديث النبوية تحدد أو تمثل ؟ قولان . وعلى كل فالشجرتان : النخلة والحنظلة نموذجان كاملان للمثلين

- روى أبو يعلى بمسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ أتى بقناع عليه بسر فقال : « مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » فقال « هي النخلة » (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) قال : « هي الحنظل » قال شعيب : فأخبرت بذلك أبا العالية فقال : كذلك كنا نسمع »

— وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : أخبروني عن شجرة نشبه — أو — كالرجل المسلم لا يتحات ورفها صيفاً ولا شتاء ، ونؤتي أكلها كل حين بإذن ربها . قال ابن عمر فوقع في نفسي أنها النخلة ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ففكرت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ : « هي النخلة » فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة . قال ما منعك أن تتكلم ؟ قلت لم أركم تتكلمون ففكرت أن أتكلم وأقول شيئاً ، قال عمر : لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا .

٤ — بمناسبة قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ يذكر ابن كثير أحاديث كثيرة نجتزئ منها ما يلي :

قال البخاري : حدثنا أبو الوليد ... عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم إذا مثل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة كلهم من حديث شعبة به ، وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ... عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فالتفتنا إلى القبر ولما يُلحَد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله ، كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به في الأرض ، فرفع رأسه فقال : « استعينوا بالله من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثاً ثم قال : « إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء ، يبض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط^(١) من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مد البصر ، ثم يحيى ملك الموت ، حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة ، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج تسبل كما تسيل القطرة من في السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فھصعدون بها ، فلا يمرون بها يعني — على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب ؟

فيقولون : فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، حتى يبتوها به إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي

(١) حنوط : ما يطيب به الميت .

تلها ، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . قال فتعاد روحه في جسده ، فيأتيه ملكان ، فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول ديني الإسلام . فيقولان : له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله . فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت ، فينادي مناد من السماء ، أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، قال فيأتي من رزقها وطيبها ، ويفسح له في قبره مد بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنت تُوعَد ، فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلي ومالي . قال : وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء ، سود الوجوه ، معهم المسوح (١) ، فجلسوا منه مد البصر ، ثم يحيى ملك الموت ، فيجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجي إلى سخط من الله وغضب ، قال : فتفرق في جسده فينزعها كما ينزع السُّفود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين ، حتى يجعلوها في تلك المسوح ، فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يبرون بها ، على ملأ من الملائكة ، إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يُسمى بها في الدنيا ، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ (الأعراف : ٤٠) فيقول الله اكتبوا كتابه في سجين ، في الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرْحاً ثم قرأ ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به في الريح في مكان سحيق ﴾ (الحج : ٣١) فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري . فيقول هاه هاه لا أدري ، فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فأفرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف فيه أضلَاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر

بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعده . فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر فيقول : أنا عملك الخبيث فيقول : رب لا تقم الساعة . ورواه أبو داود من حديث الأعمش والنسائي وابن ماجه من حديث المنهال بن عمرو به .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق ... عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة فذكر نحوه . وفيه بالنسبة للمؤمنين « حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك في السماء ، وفتحت أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه منه قبلهم » . وفي آخره « ثم يفيض له - أي للكافر - أعمى أصم أبكم ، وفي يده مِرْزَبَةٌ ، لو ضرب بها جبل لكان تراباً ، فيضرب به ضربة فيصير تراباً ، ثم يعيده الله عز وجل كما كان ، فيضربه ضربة أخرى فيصبح صبيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين » . قال البراء : ثم يفتح له باب إلى النار ويمهد له من فرش النار .

.... وقال الإمام عبد بن حميد رحمه الله في مسنده ... عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، - وإنه ليسمع قرع نعالهم - فيأتيه ملكان ، فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ قال : فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله قال : فيقال له انظر مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة » . قال نبي الله ﷺ : « فبراهما جميعاً » قال فتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ، ويملاً عليه خضراً إلى يوم القيامة . رواه مسلم عن عبد بن حميد به وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدب به .

وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن ابن جريج أخبرني الزبير أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتاني القبر فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن هذه الأمة تُبْنَى في قبورها ، فإذا أدخل المؤمن قبره ، وتولى عنه أصحابه ، جاء ملك شديد الانتهاز ، فيقول له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول المؤمن : أقول : إنه رسول الله وعبيده ، فيقول الملك : انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار ، قد أنجأك الله منه ، وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة ، فبراهما كليهما ، فيقول المؤمن : دعوني أبشر أهلي فيقال له : اسكن ، وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري ، أقول كما يقول الناس ، فيقال له : لا دريت ، هذا مقعدك الذي كان لك في الجنة أبدلت مكانه مقعدك من النار » . قال جابر فسمعت النبي ﷺ يقول : « يبعث كل عبد في القبر على مامات ، المؤمن على

إيمانه ، والمنافق على نفاقه . إسناده صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

.... وقال ابن حبان في صحيحه ... عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « إن المؤمن إذا قبض أته ملائكة الرحمة ، بخريرة بيضاء ، فيقولون : اخرجي إلى روح الله ، فتخرج كأطيب ريح مسك ، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمون به ، حتى يأتوا به باب السماء ، فيقولون : ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض ؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك ، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين ، فلهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم . فيقولون : ما فعل فلان ؟ فيقولون : دعوه حتى يستريح ، فإنه كان في غم ، فيقول : قدمات أما أناكم ؟ فيقولون : ذهب به إلى أمه الهاوية ، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح ، فيقولون : اخرجي إلى غضب الله فتخرج كأنتن ريح جيفة فيذهب به إلى باب الأرض . »

... وقال الخافظ أبو عيسى الترمذي رحمه الله ... عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا قبر الميت - أو قال أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما منكر ، والآخر نكير ، فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : ما كان يقول - أي قبل أن يموت - هو عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ، في سبعين ، وينور له فيه ثم يقال له : نعم . فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نعم نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وإن كان منافقاً قال : سمعت الناس يقولون : فقلت مثلهم ، لا أدري ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، فيقال للأرض الشعي عليه ، فتلتهم عليه حتى تختلف أضلاعه ، فلا يزال فيها مُعذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . » ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب .

... وقال الإمام أحمد رحمه الله ... عن محمد بن المنكدر قال : كانت أسماء - يعني بنت الصديق - رضي الله عنها تحدث عن النبي ﷺ قالت : قال « إذا دخل الإنسان قبره ، فإذا كان مؤمناً أحف به عمله : الصلاة والصيام قال : فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده ، ومن نحو الصيام فيرده ، قال . فيناديه : اجلس . فيجلس فيقول له : ماذا تقول في هذا الرجل ؟ يعني النبي ﷺ قال : من ؟ قال محمد ، قال أشهد أنه رسول الله ، قال وما يدريك ، أدركته ؟ قال : أشهد أنه رسول الله ، قال : يقول : على ذلك عشت ، وعليه مت ، وعليه تُبغث ، وإن كان فاجراً أو كافراً جاءه الملك ليس

بينه وبينه شيء يردده ، فأجلسه فيقول له ماذا تقول في هذا الرجل ؟ قال أي رجل ؟ قال محمد ، قال يقول والله ما أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ، قال له الملك على ذلك عشت ، وعليه مت ، وعليه تبعث ، قال ويسلط عليه دابة في قبره ، معها سوط ثمرته جمرة مثل غرّف البعير - تضربه ما شاء الله ، صمء لا تسمع صوته فترحمه .

... وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذي في كتابه (نواذر الأصول) ... عن عبد الرحمن بن سمرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن في مسجد المدينة فقال : « إني رأيت البارحة عجباً ، رأيت رجلاً من أمتي جاء ملك الموت ليقبض روحه فجاء برّه بوالديه فردّ عنه ، ورأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر ، فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين ، فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم ، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً ، كلما ورد حوضاً منع منه ، فجاءه صيامه فسقاه وأرواه ، ورأيت رجلاً من أمتي والبيون فعود حلقاً حلقاً ، كنما دنا لحلفة طردوه ، فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذه بيده فأقعده إلى جنبي ، ورأيت رجلاً من أمتي بين يديه ظلمة ، ومن خلفه ظلمة ، وعن يمينه ظلمة ، وعن شماله ظلمة ، ومن فوقه ظلمة ، ومن تحته ظلمة وهو متحير فيها فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور ، ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه ، فجاءته صلة الرحم ، فقالت : يا معشر المؤمنين كلّموه فكلّموه ، ورأيت رجلاً من أمتي يتقي وهج النار وشررها بيده عن وجهه ، فجاءته صدقته فصارت له سترأ على وجهه ، وظلاً على رأسه ، ورأيت رجلاً من أمتي أخذته الزبانية من كل مكان ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم ، وأدخلاه مع ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبته بينه وبين الله حجاب ، فجاءه حسن خلقه فأخذه بيده فأدخله على الله عز وجل ، ورأيت رجلاً من أمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته ، فجعلها في يمينه ، ورأيت رجلاً من أمتي قد خف ميزانه ، فجاءته أفراده^(١) فتقلّبوا ميزانه ، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم ، فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتي هوى في النار فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا ، فاستخرجته

من النار ، ورأيت رجلاً من أممي قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السَّعْفَةُ فجاء حسن ضه بالله فسكن رعدته ومضى ، ورأيت رجلاً من أممي على الصراط يزحف أحياناً ويجبو أحياناً ، فجاءته صلاته عليّ فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط ، ورأيت رجلاً من أممي انتهى إلى باب الجنة فغلقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة . قال القرطبي بعد إيراد هذا الحديث من هذا الوجه هذا حديث عظيم ذكر فيه أعمالاً خاصة تنجي من أهوال خاصة أورده هكنا في كتابه التذكرة .

.... قال أبو داود ... عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل » . تفرد به أبو داود .

• — رأينا أن محور هذه السورة هو قوله تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾

وقد رأينا في هذه المجموعة أن (لا إله إلا الله) هي وسيلة الوصول إلى النور في الدنيا والآخرة ، ومن ثم فإن علينا أن نُكثِرَ من قول لا إله إلا الله .

وقد فهمنا من الآية أن : لا إله إلا الله لها ثمارها في كل زمن ، وفي كل عصر ، وفي كل مكان ، وعند كل مؤمن ، ولا يزال الناس يأكلون من هذه الثمار تُحَلَقاً طيباً وإحساناً كثيراً

ولنتقل إلى المجموعة السادسة وفيها كذلك ذكر لوسائل الخروج من الظلمات إلى النور

المجموعة السادسة

وتمتد من الآية (٢٨) إلى نهاية الآية (٤١) وهذه هي :

أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ
يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۖ ٢٨ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا
فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۖ ٢٩ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا يَخْلَى ۖ ٣٠ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ
لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۚ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ۖ ٣١ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۖ ٣٢ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا
نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۖ ٣٣ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ
هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۖ ٣٤ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ
النَّاسِ قَمِّنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ رَمَنِي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۖ ٣٥ رَبَّنَا إِنِّي
أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ خَيْرٌ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ
فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ
رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۚ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ ۖ ٣٦

وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
 إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ
 دُعَاءِ ﴿٣٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٣١﴾

التفسير :

﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ أي بدلوا شكر نعمة الله كفراً ، وذلك لأن شكرها الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً ، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر ، وبدلوا تبديلاً ، واللفظ يعم كل الكفار ، وهو في حق بعض الأقوام أظهر ، كالعرب في عصرنا ، وأهل مكة ، إذ بدلوا دين إبراهيم ﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ أي دار الهلاك والصيغة تدل على أن الكلام في القادة والرؤساء الذين يسيرون بمن تابعهم إلى الهلاك ﴿ جهنم ﴾ هي دار البوار ﴿ يصلونها ﴾ أي يدخلونها ﴿ وبئس القرار ﴾ أي وبئس المقر جهنم ﴿ وجعلوا ﴾ أي هؤلاء الذين دخلوا جهنم ﴿ لله أنداداً ﴾ أي شركاء عبدوهم معه ودعوا الناس إلى ذلك ، جعلوهم له أمثالاً أو في التسمية ﴿ ليضلوا عن سبيله ﴾ قال البيضاوي : وليس الضلال ولا الإضلال غرضهم في اتخاذ الأنداد ولكن لما كان نتيجة جعل كالغرض ﴿ قل تمصوا ﴾ هذا تهديد ووعد من الله لهم ، أي مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا ، فمهما يكن من شيء ﴿ فإن مصيركم إلى النار ﴾ فإن مرجعكم ومآلكم إليها ، والأمر بالتمتع هنا يفيد الخذلان والتخلية ، والتمتع كما فسره ذو النون المصري أن يقضي العبد ما استطاع من شهوته ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا ﴾ أضاف عباده إلى نفسه تشريفاً لهم ، ووصفهم بأعلى أوصافهم وهو الإيمان ﴿ يقيموا الصلاة ﴾ بالخشافة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها ﴿ وينفقوا مما رزقناهم سراً وع علانية ﴾ يدخل في ذلك أداء الزكوات ، والنفقة على القربات ، والإحسان إلى الأجانب في الخفية والجهر ، وإخفاء التطوع أفضل ، وإعلان الواجب أفضل ، إلا لمصلحة في الحالتين ﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾ هو يوم القيامة ﴿ لا بيع فيه ولا خلال ﴾ أي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا محالة فالخلال اغتالة أي الصداقة قلياذر العبد في الدنيا بالصلاة والإنفاق لخلاص نفسه ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ﴾ قال النسفي : من السحاب ﴿ ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾

فمن كان كذلك تستحق له العبادة بالصلاة ويجب أن يطاع بالإتفاق مما رزق ﴿ وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ﴾ وكل ذلك فيه رزق لكم فاشكروه بالصلاة والإتفاق مما رزقكم ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر ذابين ﴾ أي يبدآن في حركتهما وإنارتتهما ودرئتهما الظلمات ، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات ، وهذا كله يقتضي شكراً بالصلاة والإتفاق ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ يتعاقبان لمعاشكم ومساكنكم ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ أي وهباً لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم ، فهو يعلم احتياجاتكم قبل خلقكم ، ويعلم ما تسألونه قبل وجودكم ، فخلقهم وسهل لهم ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ أي لا تطبقون عدتها ، وبلوغ آخرها ، حتى على سبيل الإجمال ، فكيف على سبيل التفصيل ﴿ إن الإنسان ﴾ المراد به الجنس ﴿ لظلوم ﴾ يظلم النعمة بإغفال شكرها ﴿ كفار ﴾ شديد الكفران للنعمة ، أو ظلوم في الشدة بشكو ويسخط ، كفار في النعمة يجمع ويمنع .

ثم بعد هذه الآيات سنأتي آيات تحدثنا عن إبراهيم عليه السلام ودعائه للبلد الحرام بتجنيبه الأصنام ، وغير ذلك من دعواته كما سراها ، فما صلة ذلك بالآيات قبلها : إذا تذكرنا بداية هذه المجموعة ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ... ﴾ وأن المفسرين يحملون هذا - كما سراه - على أهل مكة ، أدركنا الصلة بين قصة إبراهيم عليه السلام وما سبقها ، وإذا رأينا من دعاء إبراهيم ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ﴾

ورأينا فيما مر ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة ... ﴾ عرفنا الصلة بين ما مر وما سيأتي ، وإذا رأينا في كلام إبراهيم ﴿ واجتنبني وبنّي أن نعبد الأصنام رب إنهم أضلّلن كثيراً من الناس ﴾ وتذكرنا قوله تعالى فيما مر ﴿ وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله ... ﴾ أدركنا كذلك الصلة بين الفقرتين ، فإذا تأملنا هذه المجموعة كلها من آخرها فما سبقه ، من قصة إبراهيم عليه السلام ، إلى نعم الله في السموات والأرض ، نعرف كيف أن زعماء مكة بدلوا نعمة الله كفراً وأشركوا به ، وكيف أن الأمر لرسول الله ﷺ أن يأمر عباد الله بالصلاة والإتفاق هو وضع للأمر في نصابه الصحيح الذي رغب فيه إبراهيم عليه السلام ، وإنما فصلنا هذه الكلمة بين الفقرتين في المجموعة السادسة ليقبل القارئ وفي ذهنه صورة عن صلة قصة إبراهيم عليه السلام بما قبلها ،

فقصة إبراهيم عليه السلام تذكير بكل الخفائض التي غفلت عنها قريش والناس ، والتي لفتت الآيات السابقة النظر إليها وأمرت بها .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ أي واذكر إذ قال إبراهيم ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ﴾ أي البلد الحرام مكة ﴿ آمناً ﴾ أي ذا أمن ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ ﴾ أي أولادي وذريتي ﴿ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ ومعنى جئني أي أبعدني أي تبني وأدمني على اجتناب عبادتها ﴿ رَبِّ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ أي الأصنام ﴿ أَضَلُّوا كَثِيراً ﴾ من الناس ﴿ جَعَلْنِي مَفْسُلاتَ عَلَى طَرِيقِ النَّسِيبِ ﴾ لأن الناس ضلوا بسببهم فكأنهم أضللتهم ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي ﴾ أي على ملتي ، وكان حنيفاً مسلماً مثلي ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أي هو بعضي لفرط اختصاصه ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ فيما دون الشرك ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ تغفر وترحم لمن تاب وآمن ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ أي بعض أولادي وهم إسماعيل ومن سيلد منه ﴿ بَوَادِئَ وَادِي مَكَّةَ ﴾ غير ذي زرع ﴿ أَيْ لَا يَكُونُ مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ زَرْعٍ قَطُّ ﴾ ، ﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَامِ ﴾ المراد به بيت الله ، وسُمِّيَ محرماً لأن الله تعالى حرَّم التعرض له والتهاون به ، وجعل حوله حرماً لمكانه ، أو لأنه لم يزل ممتاعياً به كل جبار ، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكها ﴿ رَبَّنَا لِيَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي ما أسكنتهم بهذا الوادي البلقع إلا ليقموا الصلاة عند بيتك المحرم ، ويعمروه بذكرك وعبادتك . فما أعظم الصلاة وما أغلَى قيمتها عند الله ورسله ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً ﴾ أي قلوباً ﴿ مِنْ النَّاسِ ﴾ أي من قلوب الناس ﴿ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ أي تسرع إليهم من البلاد الشاسعة ، ونظير نحوهم شوقاً ﴿ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي مع سكانهم وادياً ليس فيه شيء منها ، بأن تجلب إليهم من البلاد القريبة والشاسعة ، وقد كان ذلك كله ﴿ نَعْلَمُهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ النعمة إذ تهوي إليهم الأفئدة ، وإذ يرزقون أنواع الثمرات في واد ليس فيه شجر ولا ماء ﴿ رَبَّنَا ﴾ في تكرار النداء التضرع واللجوء إلى الله ﴿ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلُنُ ﴾ أي تعلم السر كما تعلم العلن ﴿ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ هل هذا من كلام إبراهيم ، أو من كلام الله تصديقاً لإبراهيم عليه السلام؟ قولان للعلماء ومعنى وما يخفى على الله من شيء أي وما يخفى على الله شيء ما ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ تذكر التوراة الخالية المخرفة أن إسماعيل ولد لإبراهيم وعمره ابن ست وثمانين سنة ، وأن إسحاق ولد له وعمره مئة سنة ، وإنما ذكر حال الأكبر لأن المنة بهية الولد فيه أعظم ، لأنها حال وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة ، من أجل النعم ، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم ﴿ إِنَّ

ربي لسميع الدعاء ﴿ أي نجيب الدعاء ﴾ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ﴿ أي وبعض ذريتي ، وإنما بعض لأنه علم بإعلام الله له أنه يكون في ذريته كفار ﴾ ربنا وتقبل دعاء ﴿ أي واستجب دعائي أو تقبل عبادتي ﴾ ربنا اغفر لي ولوالدي ﴿ أي آدم وحواء ، أو قاله قبل النبي واليأس من إيمان أبيه ﴾ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴿ أي يوم ثبت الحساب أو يوم يقوم أهل الحساب من قبورهم ، وبهذا انتهت المجموعة السادسة من هذه السورة

فوائد :

١ — صافى ابن كثير أسانيد كثيرة إلى علي وعمر وابن عباس في تفسير قوله تعالى ﴿ الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ بأنهم قريش ، وبنو المغيرة يوم بدر ، وبنو أمية يوم أحد ، قال ابن كثير بعد تصحيحه هذا القول : وإن كان المعنى يوم الكفار فإن الله بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ، ونعمة للناس ، فمن قام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردّها وكفرها دخل النار

٢ — بمناسبة قوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ نذكر ما قاله ابن حبيب رحمه الله (إن حق الله أنقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن تحصيها العباد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين)

وما رواه البخاري : أن رسول الله ﷺ كان يقول : اللهم لك الحمد غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا . وبمناسبة هذه الآية نقول : إن الشكر هو اغتلاص من مقام الظلم والكفران ، ولكن الشكر نفسه هو من نعم الله فهو يحتاج إلى شكر

قال الشافعي : (الحمد لله الذي لا يؤدي شكر نعمة من نعمة إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها) ومن ثم فالشكر الذي يغلص من الكفران هو أن تحمد وتعمل ، وتعترف لله بالفضل وعلى نفسك بالتقصير

٣ — في قوله تعالى على لسان إبراهيم ﴿ لمن تعني فإنه متي ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ قال ابن كثير (وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لا تجوز وقوع ذلك) أي لا تجوز وقوع المغفرة على الشرك . أقول : إن أهل السنة والجماعة يفرقون في كتبهم بين الجائز العقلي في حق الله ، وبين الجائز الشرعي ، فعندهم يجوز عقلاً أن يغفر الله كل ذنب ، ولكن لإخباره أنه لا يغفر الشرك فإنه من الواجب الاعتقاد أن

غفران الشرك مستحيل الوقوع ، وقول إبراهيم هنا وقول عيسى عليهما السلام ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ يؤيد هذا التقسيم .

٤ — روى عبد الله بن وهب بسنده إلى عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام ﴿ رب إنهم أضللتك كثيراً من الناس ﴾ الآية . وقول عيسى عليه السلام ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ الآية . ثم رفع يديه ثم قال : « اللهم أمتي ، اللهم أمتي ، اللهم أمتي وبكى . فقال الله : اذهب يا جبريل إلى محمد - وربك أعلم - وسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ ما قال . فقال : اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك »

٥ — يلاحظ أن الله تعالى قال في سورة البقرة : ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ بتذكير البلد وهنا ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾ بتعريف البلد فما حكمة التعريف والتذكير ؟ نكره حيث أراد أن يجعله آمناً من جملة البلدان الآمنة ، وعرفه حيث أراد أن يخصه بالخروج من الخوف إلى الأمن الدائم .

٦ — يلاحظ أن من سنة إبراهيم عليه السلام الدعاء لنفسه ولوالديه وللمؤمنين وللذرية ، كما يلاحظ حرصه على استمرار الخير في ذريته وذلك علق ينبغي أن يتحقق فيه كل مسلم .

٧ — بمناسبة قوله تعالى : ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم : لو قال أفئدة الناس لأزدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم ولكن قال : من الناس فاختص به المسلمون .

٨ — فسرنا قوله تعالى : ﴿ إن ربي لسميع الدعاء ﴾ بمعنى تجيب الدعاء ، وذلك من باب قولك : سمع فلان كلام فلان إذا تلقاه بالإجابة والقبول ، ومنه سمع الله لمن محمده .

٩ — بمناسبة قوله تعالى : ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ﴾

نقل النسفي عن ابن عباس قوله : لا يزال من ولد إبراهيم ناس على الفطرة إلى أن تقوم الساعة .

كلمة في السياق :

رأينا أن المجموعة الأولى في هذه السورة تبين الحكمة من إنزال الكتاب على محمد ﷺ وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وأن المجموعة الثانية بينت أن موسى عليه السلام قد كلف بما كلف به محمد ﷺ وأن الثالثة والرابعة ذكرت بالأقوام السابقين ، وما كان بينهم وبين رسلهم ، وعاقبة الكافرين في الدنيا والآخرة ، وأن المجموعة الخامسة ذكرت بأنار كلمة التوحيد وكلمة الكفر على أصحابها وعلى الناس ، وأن المجموعة السادسة لفتت النظر إلى فعل الكافرين بتبديل نعمة الله ، والآن تأتي مجموعتان كل منهما مبدوءة بنهي « ولا تحسن » « فلا تحسن »



المجموعة السابعة

وتمتد من الآية (٤٢) الى نهاية الآية (٤٦) وهذه هي

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ
الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْعِدْتُهُمْ هَوَاءَ ﴿٤٣﴾
وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ
قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ ۖ أُولَئِكَ تَكُونُوا أَقْسَمُ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ
زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ
فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ
وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

التفسير :

﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال ابن كثير : يقول تعالى : ولا تحسبن الله يا محمد غافلاً عما يعمل الظالمون أي لا تحسبنه إذا أنظروهم وأجلهم أنه غافل مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم ، بل هو يخصي ذلك عليهم ويعتده عليهم عذاً ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ أي يؤخر عقوبتهم الكاملة ﴿ لِيَوْمَ تَشْخِصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ أي لا تقر في أماكنها من شدة هول ما ترى ، ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر فقال : ﴿ مَهْطَعِينَ ﴾ أي مسرعين ﴿ مَقْنَعِي رُؤُوسِهِمْ ﴾ أي رافعيها ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي لا يرجع إليهم نظرهم فينظرون إلى أنفسهم . قال ابن كثير : أي أبصارهم ظاهرة شاخصة مديحون النظر ، لا يطفرون لحظة ، لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والخافة ، لما يحل بهم عباداً بالله العظيم من ذلك ولهذا قال : ﴿ وَأَفْقَدْتَهُمْ هَوَاهُ ﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية ، ليس فيها شيء لكثرة الوجع والخوف ، يقال : قلب فلان هواء إذا كان جباناً لا قوة في قلبه ولا جراءة ، ثم قال الله لرسوله ﷺ ﴿ وَأَنْذِرْ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ أي يوم القيامة ، أي أنذرهم يوم القيامة ﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي عند معاينة العذاب والذين ظلموا هم الكافرون ﴿ رَبَّنَا أَخْرِنا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ ﴾ أي رُدنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد واحد من الزمان قريب ، نتدارك ما قرطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع رسلك فيقال لهم : ﴿ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ ﴾ أي حلفت في الدنيا ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ أي أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه ، وأنه لا معاد ولا جزاء ، ويحتمل أن يكون المراد بيوم يأتيهم العذاب يوم هلاكهم بالعذاب العاجل ، ويحتمل أنه أريد به يوم موتهم معذيين بشدة السكرات ، ولقاء الملائكة بلا بشرى بينما كانوا في وهمهم يعيشون ، كأنهم خالدون ﴿ وَسَكُنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أي وقررتم في مساكن من سبقكم من الكفار مطمئنين طيبي النفوس سائرين سيرة من قبلكم في الظلم والفساد ، لا تحدثونها بما لقي الأولون من أيام الله ، وكيف كان عاقبة ظلمهم فتعذبون وترتدعون ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ ﴾ بالأخبار أو المشاهدة للآثار ﴿ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ إذ أهلكناهم وانتقمنا منهم ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ أي صفات ما فعلوا ، وما فعل بهم ، وهي في الغرابة كالأمثال المضروبة ، والمعنى : أنهم قدرأوا ، وبلغهم ما أحل الله بالأمم المكذبة قبلهم ، ومع هذا لم يكن لهم فيهم معتبر ، ولم يكن فيما أوقع الله بهم لهم مزدجر ومن ثم قال ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ أي مكروا مكر الأقوام

السابقين الذين استفرغوا فيه جهدهم ، وهو ما فعلوه من تأييد الكفر وإبطال الإسلام ﴿ وعند الله مكرهم ﴾ أي ومكتوب عند الله مكرهم فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه ، أو عند الله مكرهم الذي بمكرهم به وهو عذابهم الذي يأتيهم من حيث لا يشعرون ﴿ وإن كان مكرهم ﴾ أي وما كان مكرهم ﴿ لتزول منه الجبال ﴾ أي لتزول منه الإيمان وأهله شبه أهل الإيمان بالجبال

الفوائد :

- ١ — هذه المجموعة تنهى الدعاة عن ظن السوء بالله ، بأن يظنوا الغفلة بالله عن عمل الظالمين ، والمؤمن لا يقع في مثل هذا ، ولكن عليه أن يتذكر رقابة الله دائماً ، كما تأمر المجموعة بالإنذار باليوم الآخر ، وفي هذا لفت نظر للدعاة أن يكونوا يقظين منذرين
- ٢ — رأينا تفسير قراءة حفص في قوله تعالى : ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ وهناك قراءة متواترة أخرى قرأها الكسائي وهي بفتح لام « لتزول » ﴿ وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ أي وإنه كان مكرهم يزيل الجبال . وهذا وصف لمكرهم بالشدة والكبر ، ومع ذلك فإن الله يفسده ، ومن رأى مكر الكافرين في عصرنا عرف معنى هذه القراءة عملياً ، ومن رأى ثبات المؤمنين في عصرنا عرف معنى قراءة حفص عملياً .

المجموعة الثامنة

وتمتد من الآية (٤٧) إلى نهاية الآية (٥١) وهذه هي :

فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ
الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ
يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾
لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾

التفسير :

﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ﴾ من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم
الأشهاد ، والتقدير مخلف رسله وعده ، وإنما أخر الرسل وقدم الوعد ليؤذن أنه إذا لم
يخلف وعده أحداً فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته ﴿ إن الله عزيز ﴾ أي ذا
عزة لا يمتنع عليه شيء ، وأراد ، وغالب لا يغالب ولا يماكر ﴿ ذو انتقام ﴾ لأولائه من
أعدائه ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير
الأرض ﴿ والسَّمَوَاتُ ﴾ أي وتبدل السموات غير السموات ﴿ وبرزوا ﴾ أي
وخرجوا من قبورهم ﴿ لله الواحد القهار ﴾ ذكر الوجدانية بجانب القهارية هنا ليعلم
أن الملك يومذاك لو أحد غلاب لا يغالب ، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ، وهذا يفيد أن
الأمر يومذاك في غاية الشدة ﴿ وترى المجرمين ﴾ أي الكافرين المفسدين ﴿ يومئذ ﴾
أي يوم القيامة ﴿ مقترنين ﴾ أي قرن بعضهم مع بعض أو مع الشياطين ، أو قرنت
أيديهم إلى أرجلهم مغلولين ﴿ في الأصْفَادِ ﴾ والأصفاد هي القيود والأغلال
﴿ سراويلهم ﴾ أي قمصهم وثيابهم التي يلبسونها ﴿ من قطران ﴾ وهو مادة معروفة
تتحلب من شجر يسمى الأبل ، فيطبخ فيها به الإبل الجري فيحترق الجرب بخدته
وحرقه ، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار ، وهو أسود اللون ، منتن الرائحة ، فيطلى به
جلود أهل النار ، حتى يعود طلاؤه بهم كالسراويل ليجتمع عليهم لذع القطران وحرقته

وإسراع النار في جلودهم ، واللون الوحش ونتن الريح . على أن التفاوت بين القطرارين كالتفاوت بين النارين . وكل ما وعده الله أو أوعده به في الآخرة فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقدر ، وكأنه ما عندما منه إلا الأسامي والمسميات ثمة نعوذ بالله من سحقه وعذابه « اهـ النسفي

﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ أي وتعلوها باشتعالها ، وحُصِرَ الوجه لأنه أعز موضع في ظاهر البدن كالقلب في باطنه ﴿ ليجزي الله كل نفس ما كسبت ﴾ أي يفعل بالجرمين ما يفعل ليجزي كل نفس مجرمة ما كسبت أو كل نفس من مجرمة ومطبعة سيجازيها لأنه إذا عاقب الجرمين لإجرامهم ، فسيثيب المؤمنين على طاعتهم ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أي يحاسب جميع العباد في أسرع من لمح البصر .

فوائد :

١ — هذه المجموعة توجه الداعية نحو الثقة المطلقة بوعد الله في النصرة في الآخرة وفي الدنيا ؛ لأن مقتضى اتصافه بأسمائه : العزيز ، ذي الانتقام ، الواحد ، القهار ، يقتضي أن يكون ما أخبر عنه حاصلاً ، ومقتضى عدله أن يجازي الأنفس على عملها ، ومن ثم فالثقة بوعد الله سمة رئيسية من سمات الداعية ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

٢ — بمناسبة قوله تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾

قال ابن كثير : (جاء في الصحيحين من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ « ينشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي »^(١) ليس فيها معلم لأحد » وقال الإمام أحمد ... عن عائشة أنها قالت : أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ قالت : قلت أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : « على الصراط » . وقال قتادة عن حسان ابن بلال المزني عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ﴾ قال : قالت : يا رسول الله فأين الناس يومئذ ؟ قال : « لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد من أمتي ، ذاك أن الناس على جسر جهنم »)

(١) قرصة النقي : جسر لجل مرة بعد مرة .

وبمناسبة هذه الآية يثور سؤال : هل التبديل - الذي هو التغيير - تغيير ذات ، أو تغيير أوصاف ؟ قولان قال النسفي : (واختلف في تبديل الأرض والسموات ف قيل : تبدل أوصافها ، وتسير عن الأرض جبالها ، وتفجر بحارها وتسوى ولا ترى فيها عوجا ولا أمثا . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هي تلك الأرض وإنما تغير . وتبدل السماء بانشار كواكبها وكسوف شمسها ، وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً وقيل : تخلق بدلها أرض وسموات أخر

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : يحشر الناس على بيضاء لم يخطيء عليها أحد
(خطيئة ...)

وقال الألوسي : (والتبديل قد يكون في الذات كما في بدلت الدراهم دنانير ومن قوله تعالى : ﴿ بدلناهم جلوداً غيرها ﴾ وقد يكون في الصفات كما في قولك : « بدلت الحلقة خاتماً » إذا غيرت شكلها ومنه قوله سبحانه : ﴿ يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ والآية الكريمة ليست بنص في أحد الوجهين)

ثم ذكر الألوسي أقوالاً كثيرة للمفسرين عن هذا التبديل ثم قال : ولا مانع أن يكون هنا تبدلات على أنحاء شتى ، وعلقه على الحديث الذي رواه مسلم والذي فيه : هم في الظلمة دون الجسر : ولعل المراد من هذا التبديل نحو خاص منه)

٣- قال الألوسي عن القطران :

(هو ما يحلب من شجر الأبل فيطبخ وتنتأ به الإبل الجرنى فيحرق الجرب بما فيه من الحرارة الشديدة ، وقد تصل حرارته إلى الجوف ، وهو أسود منتن يسرع فيه اشتعال النار حتى قيل إنه أسرع الأشياء اشتعلاً . وفي التذكرة أنه نوعان ... وأنه إن سل بنفسه يقال زفت وإن كان بالصناعة فقطران)

٤- بمناسبة قوله تعالى : ﴿ سرايلهم من قطران ﴾ يذكر ابن كثير هذين الحديثين :

- روى الإمام أحمد والإمام مسلم عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية ، لا يتركوهن : الفخر بالأحساب ، والظعن في الأنساب ، والأستسقاء بالنجوم ، والنياحة على الميت ، والنائحة إذا لم تنب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » .

— وفي حديث القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ رفعه :
 « النائحة إذا لم تسب توقف في طريق بين الجنة والنار سرايلها من قطران وتغشي وجهها
 النار » .

☆ ☆ ☆

خاتمة السورة

وهي آية واحدة وهي الآية (الثانية والخمسون) وهذه هي :

هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِمْ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ أُولَئِكَ

الآلِيب ﴿٥٢﴾

التفسير :

﴿ هذا ﴾ أي الذي ورد في السورة ﴿ بلاغ للناس ﴾ أي كفاية في التذكير والموعظة ، وبه تقوم الحجة الكاملة عليهم ﴿ ولينذروا به ﴾ أي بهذا البلاغ ﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾ بمجموع ما جاء في السورة ﴿ وليذكروا أولئك ﴾ الآلِيب ﴿ أي ذور العقول فيخرجون بهذا البلاغ من الظلمات إلى النور .

وبمناسبة هذه الآية قال صاحب الظلال :

(إن الشرك بالله — المخالف لشهادة أن لا إله إلا الله — يتمثل في كل وضع وفي كل حالة لا تكون فيها الدينونة في كل شأن من شؤون الحياة خالصة لله وحده ، ويكفي أن يدين العبد لله في جوانب من حياته بينما هو يدين في جوانب أخرى لغير الله . حتى تتحقق صورة الشرك حقيقة وتقديم الشعائر ليس إلا صورة واحدة من صور الدينونة الكثيرة ، والأمثلة الحاضرة في حياة البشر اليوم تعطينا المثال الواقعي للشرك في أعماق طبيعته . إن العبد الذي لا يتوجه لله بالاعتقاد في ألوهيته وحده ثم يدين لله في الوضوء والطهارة والصلاة والصوم والحج وسائر الشعائر بينما هو في الوقت ذاته يدين في حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لشرائع من عند غير الله ، ويدين في قيمه وموازينه الاجتماعية لتصورات واصطلاحات من صنع غير الله . ويدين في أخلاقه وتقاليده وعاداته وأزيائه لأرباب من البشر تفرض عليه هذه الأخلاق والعادات والتقاليد والأزياء — مخالفة لشرع الله وأمره — إن هذا العبد يزاول الشرك (الخفي أو الجلي) في أحص حقيقته ويخالف عن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله في أحص حقيقتها هذا ما يغفل عنه الناس اليوم فيزاولونه في تروخيص وتمييع ، وهم لا يحسبونه

الشرك الذي كان يزاوله المشركون في كل زمان ومكان .

والأصنام .. ليس من الضروري أن تتمثل في تلك الصورة الأولية الساذجة ..
فالأصنام ليست سوى شعارات للطاغوت ، بتحقي وراءها لتبعد الناس باسمها —
وضمان دينوتهم له من خلالها

إن الصنم لم يكن ينطق أو يسمع أو يبصر .. إنما كان السادن أو الكاهن أو الحاكم
يقوم من ورائها يتمم حولها بالتعاويذ والرقى .. ثم ينطق باسمها بما يريد هو أن ينطق
لتعبيد الجماهير وتذليلها

فاذا رفعت في أي أرض وفي أي وقت شعارات ينطق باسمها الحكام والكهان
ويقررون باسمها ما لم يأذن به الله من الشرائع والقوانين والقيم والموازن والتصرفات
والأعمال ... فهذه هي الأصنام في طبيعتها وحقيقتها ووظيفتها !

إذا رفعت « القومية » شعاراً أو رفع « الوطن » شعاراً أو رفع « الشعب » شعاراً أو
رفعت « الطبقة » شعاراً .. ثم أريد الناس على عبادة هذه الشعارات من دون الله وعلى
التضحية لها بالنفوس والأموال والأخلاق والأعراض . بحيث كلما تعارضت شريعة الله
وقوانينه وتوجيهاته وتعليماته مع مطالب تلك الشعارات ومقتضياتها ، نُحِيتْ شريعة الله
وقوانينه وتوجيهاته ونعائمه ونفذت إرادة تلك الشعارات — أو بالتعبير الصحيح الدقيق :
إرادة الطواغيت الواقعة وراء هذه الشعارات كانت هذه هي عبادة الأصنام من دون
الله .. فالصنم ليس من الضروري أن يتمثل في حجر أو خشبة . ولقد يكون الصنم
مذهباً أو شعاراً

إن الإسلام لم يحىء لمجرد تحطيم الأصنام الحجرية والخشبية ولم تبذل فيه تلك الجهود
الموصولة من موكب الرسل الموصول ولم تقدم من أجله تلك التضحيات الجسام وتلك
العذابات والآلام لمجرد تحطيم الأصنام من الأحجار والأخشاب .

إنما جاء الإسلام ليقم مفرق الطريقين بين الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن ،
وبين الدينونة لغيره في كل هيئة وفي كل صورة .. ولابد من تتبع الهيئات والصور في كل
وضع وفي كل وقت لإدراك طبيعة الأنظمة والمناهج القائمة ، وتقدير ما إذا كانت
توحيداً أم شركاً ؟ ودينونة لله وحده أم دينونة لشيء الطواغيت والأرباب والأصنام !
والذين يظنون أنفسهم في « دين الله » لأنهم يقولون بأفواههم « نشهد أن لا إله إلا

الله وأن محمداً رسول الله ، ويدينون الله فعلاً في شؤون الطهارة والشعائر والزواج والطلاق والميراث .. بينما هم يدينون فيما وراء هذا الركن لغير الله — ثم هم يبذلون أرواحهم وأموالهم وأعراضهم وأخلاقهم — أرادوا أم لم يريدوا — ليحققوا ما تتطلبه منهم الأصنام الجديدة . فإذا تعارض دين أو خلق أو عرض مع مطالب هذه الأصنام نبذت أوامر الله فيها ونفذت مطالب هذه الأصنام ...

الذين يظنون أنفسهم « مسلمين » وفي « دين الله » وهذا حالهم .. عليهم أن يستيقظوا لما هم فيه الشرك العظيم !!!

إن دين الله ليس بهذا الهزال ، إن دين الله منهج شامل لجزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها ، والدينونة لله وحده في كل تفصيل وكل جزئية من جزئيات الحياة اليومية وتفصيلاتها — فضلاً على أصولها وكنياتها — هي دين الله — وهي الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه .

وإن الشرك بالله لا يتمثل — فحسب — في الاعتقاد بألوهية غير الله ولكنه يتمثل ابتداءً في تحكيم أرباب غيره معه .

وإن عبادة الأصنام لا تتمثل في إقامة أحجار وأخشاب بقدر ما تتمثل في إقامة شعارات لها كل ما لتلك الأصنام من نفوذ ومقتضيات .

ولينظر الناس في كل بلد لمن المقام الأعلى في حياتهم ؟ ولمن الدينونة الكاملة ؟ ولمن الطاعة والاتباع الامتثال ؟ فإن كان هذا كله لله فهم في دين الله ، وإن كان لغير الله — معه أو من دونه — فهم في دين الطواغيت والأصنام .. والعباد بالله .. !

﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به ، وليعلموا إنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ ..)

فائدة :

لخصت هذه الآية مقاصد السورة بأنها البلاغ ، والإنذار ، والعلم بوحداية الله ، والتذكير ، فهي بلاغ للناس بأن هذا القرآن وحده هو الذي يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وهي إنذار بما تهدد الله به الكافرين في القرآن ، وعلى لسان موسى عليه السلام ، وبما فعل الله بالمكذبين ، وبما حدثنا الله عنه من شأن الكافرين ، وهي إنذار لمن يبذل نعمة الله كفرأ ، وهي إنذار للمظالمين بما أعد لهم .

وهي كذلك لتعليم الناس الوجدانية ، فالله عز وجل واحد في ذاته ، واحد في صفاته ، واحد في أفعاله ، فهي تعلم الناس الوجدانية من خلال ظاهرة الخلق ، ومن خلال آثار الوجدانية في الحياة البشرية ، ومن خلال بعثة الرسل ونصرتهم ، ومن خلال دعوتهم وحالهم .

وهي تذكر أولي الأبواب في الطريق إلى النور من خلال الخطاب المباشر ﴿ ألم يأتكم ﴾ ﴿ ألم تر ﴾ ﴿ ألم تر ﴾ ﴿ ألم تر ﴾ ﴿ ولا تحسبن ﴾ ﴿ فلا تحسبن ﴾ ومن خلال انفعالهم بأوامر الرسول ﷺ ، ومن خلال القدوة بالرسل ، وبمجموع مقاصد السورة نعرف كيف تم عملية الخروج من الظلمات إلى النور بالبلاغ والإنذار ، والتركيز على التوحيد والتذكير .

كلمة في سورة إبراهيم :

رأينا أن محور سورة إبراهيم هو قوله تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وسورة إبراهيم نحدد بم يكون الإخراج ، فالإخراج بالقرآن ، وسبب الخروج محمد ﷺ ، والسورة توجه ، وتبين آية الخروج وبم تم :

فالخرج تقول :

﴿ ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ ﴾

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة ﴾

﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً .. ﴾

﴿ قل لعبادي الذين آمنوا ... ﴾

﴿ ولا تحسبن الله غافلاً ﴾

﴿ وأنذر الناس يوم يأتهم العذاب ﴾

﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ... ﴾

فهذه مجموعة أمور توجه عملية الإخراج من الظلمات إلى النور ولتتم به .

إن سورة إبراهيم عليه السلام تفصل في محورها ، ومع ذلك فإن لها سياقها الخاص :
تبدأ بذكر المحكمة من إنزال القرآن ، وتنهي بأن ذلك كان هو الهدف من بعثة موسى
عليه السلام ، ثم تخاطب المكلفين ألا يرفضوا ، ثم تلفت النظر إلى قدرة الله لتصل إلى
مشهد من مشاهد يوم القيامة ، ثم تذكر بكلمة التوحيد ، ثم تأمر بالصلاة والزكاة ، ثم
تذكر بحقوق الحرم ، فهي بذلك تذكر بأن الطريق إلى النور هو : كلمة التوحيد ،
والصلاة ، والإنفاق ، والحج ، وإذا كان الكثيرون من الناس سيرفضون دعوة الله فإن
المجموعتين الأخيرتين في السورة تذكران رسول الله ﷺ بأن الله يمهّل ولا يهمل ، وأن
وعده آت لا محالة ، ثم تأتي خاتمة السورة مذكّرة بأغراض السورة

وهكذا شأن كل سورة من سور القرآن ، لها سياقها الخاص ، ولها محورها الذي
تفصل فيه ، وكل سورة لها محلها في السياق القرآني العام
كلمة في المجموعة الأولى من قسم المثين :

إن التكامل واضح في سور المجموعة الأولى من قسم المثين ، كما أن التكامل واضح
بين هذه المجموعة وبين المجموعتين الأخيرتين من قسم المثين كما سنرى :
جاءت سورة يونس في هذه المجموعة ففتت الرب عن القرآن ، وأكدت أنه هدى ،
ثم جاءت سورة هود فدلّت على الطريق إلى الله ، وعلى الطريق للاهتداء بكتابه والطريق
هو العبادة لله وحده ، ثم جاءت سورة يوسف فعمّقت الإيمان بالقرآن وعمّقت ضرورة
الاهتداء به ، ثم جاءت سورة الرعد فبينت أن للاهتداء وللضلال سنناً ، فمن تجبّب
سنن الضلال وتبع طرق الهداية فإنه يهتدي ، وحتى لا يظن ظان أن الهداية تكون بلا
هاد ، وحتى يتعمق معنى السير في طريق الهداية ، فقد جاءت سورة إبراهيم لتفصل في
ذلك كله .

وهكذا نجد أن المجموعة الأولى من قسم المثين تشكّل وحدة متكاملة فيما بينها ،
وتظهر لك هذه الوحدة على كمالها لو أنك وضعت محاور سور المجموعة من سور البقرة
بجانب بعضها .

ونحن سنضع هذه المحاور بجانب بعضها لتأمل الصلة بين الآيات ، ثم لتدرك ما
ذكرناه من تكامل ، ثم لتذكر ما قلناه من قبل إن محاور القسم - أو المجموعة في
القسم - من سورة البقرة تشكّل مع بعضها وحدة موضوعية .

﴿ أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا يَرِيبُ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ، مَا بِعُرْضَةٍ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْمَلُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ . الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . ﴾ ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

هذه هي محاور سور المجموعة الأولى من قسم المثين ، ولو أنك تأملت ما لوجدت معاني يكمل بعضها بعضاً ، فكذلك سور المجموعة ، إذ ترسم طريق الهداية من بدايته إلى نهايته ، وهي بهذا تضع الأساس الذي ستبنى عليه المجموعة الثانية من قسم المثين كما سنرى .

.....

في هذه المجموعة من قسم المثين يصل النور إلى القلب ، ويزداد اليقين وتتضمن صفات الخير ، ويتخلص الإنسان من صفات الشر ، وبذلك يصبح عنده استعداد للتلقي في أمور أخرى ، وذلك هو موضوع المجموعة الثانية من قسم المثين .

سنأتي المجموعة الثانية في قسم المثين لتعالج موضوع الاهتداء ببعض الكتاب وإهمال بعض ، ولتعالج موضوع الاستسلام المطلق لله بالاستسلام له في كل ما شرع ، ولتعالج احتمالات الانحراف في هذه الأمة ، ولتعالج موضوع التسليم لله في رزقه لعباده ، الرزق الحسي والرزق المعنوي ، ولتعالج موضوع الاختلاف في الكتاب ، وكلها مواضيع مهمة في حياة الإنسان ، وحياة الأمم . وإنما تأتي المجموعة الثانية لتعالج هذه المواضيع بعد أن وضعت المجموعة الأولى من قسم المثين الأساس النظري والعملي للتلقي الكامل في هذه الشؤون ، والأمر أوسع من ذلك بكثير ولكننا نحرص ألا يتشعب بنا البحث فيقوتنا توضيح المسرى العام للتكامل القرآني

الموضوع	الصفحة
● قسم المثين وهو القسم الثاني من أقسام القرآن	٢٤٠٥
كلمة في قسم المثين ومجموعاته	٢٤٠٧
﴿ سورة يونس ﴾	٢٤١١
كلمة في سورة يونس ومحوها	٢٤١٣
● القسم الأول من السورة وهو الآيات (١ - ٥٦)	٢٤١٦
* مقدمة السورة والمقطع الأول من القسم الأول منها وهما الآيات (١ - ٣٧)	٢٤١٧
ملاحظة حول طريقة المؤلف في تفسير ما سيأتي من القرآن	٢٤٢١
كلمة بين يدي الآيات (١ - ٣٧)	٢٤٢١
* المعنى الحرفي لمقدمة السورة وهي الأبتان (١ ، ٢)	٢٤٢٢
فوائد : حول آية ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم .. ﴾	٢٤٢٣
كلمة في سياق المقطع الأول حول علاقته بمحور السورة	٢٤٢٤
* المعنى الحرفي للمجموعة الأولى من المقطع الأول وهي الآيات (٣ - ١١)	٢٤٢٤
تفسير الآية (٣) وفوائد في الرد على شبه المنكرين لأصل الوحي	٢٤٢٤
تفسير الآية (٤) وذكر أن العلة الرئيسية في عصتنا هي الغفلة عن الله واليوم الآخر	٢٤٢٦
تفسير الآيات (٥ - ١١) وملاحظة وفائدة حولها	٢٤٢٧
كلمة في سياق المجموعة الأولى حول صلتها بالمجموعة الثانية	٢٤٣١
* المعنى الحرفي للمجموعة الثانية من المقطع الأول وهي الآيات (١٢ - ١٤)	٢٤٣١
فوائد :	٢٤٣٣
١ - كلام الألويسي في أدب الدعاء في السراء والضراء بمناسبة آية ﴿ وإذا منّ	
الإنسان .. ﴾	٢٤٣٣
٢ - كلام المؤلف حول الخلافة في الأرض بمناسبة آية ﴿ ثم جعلناكم خلائف في	
الأرض .. ﴾	٢٤٣٣

- ٢٤٣٤ كلمة في سياق النظم القرآني وصلة المجموعة الأولى بالثانية والثالثة .
- ٢٤٣٤ * المعنى الحرفي للمجموعة الثالثة من المقطع الأول وهي الآيات (١٥ - ٢٠)
- ٢٤٣٤ تفسير الآيات (١٥ - ١٧) وفوائد حولها في رد شبه منكري الوحي
- ٢٤٣٩ تفسير الآيتين (١٨ ، ١٩)
- كلمة في السياق حول معاني ما مر من المقطع وصلة المجموعات الثانية والثالثة والرابعة
- ٢٤٤٠ ببعضها البعض
- * المعنى الحرفي للمجموعة الرابعة من المقطع الأول وهي الآيات (٢١ - ٢٤) وكلمة في
- ٢٤٤١ صلتها بما قبلها
- ٢٤٤٤ فوائد :
- ١ - كلام الألوسي حول حال الكافرين في دعاء الله بمناسبة آية ﴿ .. دعوا الله عظمين
- ٢٤٤٤ له الدين .. ﴾
- ٢ - كلام الألوسي عن حرمة البغي بمناسبة آية ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على
- ٢٤٤٥ أنفسكم .. ﴾
- ٢٤٤٦ (٢ - ٥) أثار عن حقارة الدنيا وقلة متاعها وزينتها وضرب المثل لها
- ٢٤٤٧ * المعنى الحرفي للمجموعة الخامسة من المقطع الأول وهي الآيات (٢٥ - ٣٠)
- ٢٤٥٠ فوائد :
- ١ - حديثان بمناسبة آية ﴿ والله يدعو إلى دار السلام .. ﴾
- ٢٤٥٠ ٢ - أحاديث في تفسير الزيادة في الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة .. ﴾
- ٢٤٥١ كلمة في سياق الآيات (٣٠ - ٣٠)
- ٢٤٥٢ * المعنى الحرفي للمجموعة السادسة من المقطع الأول وهي الآيات (٣١ - ٣٧)
- ٢٤٥٣ فائدة : نقل عن صاحب لاطلال حول آية ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض .. ﴾
- ٢٤٥٨ كلمة حول سياق المقطع الأول من القسم الأول
- ٢٤٥٩ * المقطع الثاني من القسم الأول وهو الآيات (٣٨ - ٥٦)
- ٢٤٦٠ * المجموعة الأولى من المقطع الثاني وهي الآيات (٢٨ - ٤٤)
- فائدة : كلام ابن كثير حول تحدي القرآن للكفار بقوله ﴿ أم يقولون افتراء قل
- ٢٤٦٣ فأنزلنا سورة مثله .. ﴾
- ٢٤٦٤ كلمة في سياق المجموعة الأولى وارتباطها بالمجموعة الثانية

- نقل : عن صاحب الظلال بمناسبة آية ﴿ قل فأتوا بسورة مثله .. ﴾ ٢٤٦٤
- نقل : عن صاحب الظلال حول المنهج القرآني في عرض مقومات التصور الإسلامي ٢٤٦٨
- المجموعة الثانية من المقطع الثاني وهي الآيات (٤٥ - ٥٦) ٢٤٧٣
- تفسير الآيات (٤٥ - ٤٧) وكلمة في سياقها حول علاقتها بما بعدها ٢٤٧٣
- تفسير الآيات (٤٨ - ٥٦) وعرض لأسئلة المنكرين للوحي ورد عليها ٢٤٧٥
- كلمة في سياق القسم الأول حول علاقته بالقسم الثاني ٢٤٧٦
- فوائد : حول آيات المجموعة الثانية وهي (٤٥ - ٥٦) ٢٤٧٧
- القسم الثاني من سورة يونس وهو الآيات (٥٧ - ١٠٣) ٢٤٧٨
- * المقطع الأول من القسم الثاني وهو الآيات (٥٧ - ٧٠) وتفسيره ٢٤٧٨
- فوائد : ٢٤٨٤
- ١ - كلام صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى عن القرآن ﴿ وشفاء لما في الصدور ﴾ ... ٢٤٨٤
- ٢ - كلام صاحب الظلال حول آية ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ ٢٤٨٤
- ٣ - صفات أولياء الله عز وجل وروايات حول ذلك ٢٤٨٦
- ٤ - نقول تعين على فهم قوله تعالى ﴿ ثم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ ٢٤٨٧
- ٥ - كلام صاحب الظلال حول آية ﴿ هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ﴾ ٢٤٨٨
- كلمة في سياق المقطع الأول حول موضوعات مقاطع السورة ٢٤٨٩
- * المقطع الثاني من القسم الثاني وهو الآيات (٧١ - ٩٣) ٢٤٩٠
- كلمة بين يدي المقطع الثاني ٢٤٩٠
- تفسير الآيات (٧١ - ٧٣) ٢٤٩٢
- كلمة في القصة القرآنية حول حكمة تكرارها ومهمتها في السياق القرآني ٢٤٩٣
- فائدة : كلام ابن كثير حول آية ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ ٢٤٩٤
- تفسير الآية (٧٤) وكلمة في سياقها وفائدة حول قوله تعالى فيها ﴿ .. كذلك نطبع على قلوب المعندين ﴾ ٢٤٩٥
- تفسير الآيتين (٧٥ ، ٧٦) وفائدة حول سياقها في بداية قصة موسى ٢٤٩٦
- تفسير الآيات (٧٧ - ٨٣) وفوائد هامة حول آية ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه .. ﴾ ٢٤٩٧

- تفسير الآيات (٨٤ - ٨٦) وفائدة هامة حول التوكل على الله وعلاقته بالعبادة ٢٤٩٩
- تفسير الآية (٨٧) وفائدة هامة في فقه الدعوة حول آية ﴿ وَأَوْحِينَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ ٢٥٠٠ أن نبوءا .. ﴾ ..
- نقل : عن صاحب الظلال حول موضوع التعبئة الروحية للأفراد وأهميتها ٢٥٠٠
- تفسير الآيتين (٨٨ ، ٨٩) ٢٥٠١
- فوائد : ٢٥٠٢
- ١ - حكم الدعاء على شخص بالكفر بمناسبة آية ﴿ .. فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ ٢٥٠٢ الأليم ﴾ ..
- ٢ - استنباط فقهي من آية ﴿ قَدْ أَجَبْتَ دَعْوَتَكَ .. ﴾ ٢٥٠٣
- ٣ ، ٤ - بعض ماورد في التوراة عما جرى لموسى وهارون مع فرعون ٢٥٠٣
- تفسير الآيات (٩٠ - ٩٢) ٢٥٠٤
- فوائد : ٢٥٠٤
- ١ - إجماع الأمة على عدم نجاة فرعون وأن إيمانه لا يقبل ٢٥٠٤
- ٢ - كلام الألوسي حول آية ﴿ ..الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ٢٥٠٤
- ٣ - حديث عن مناسبة صوم يوم عاشوراء ٢٥٠٥
- ٤ - معجزة قرآنية في إخبار القرآن عن نجاة جثة فرعون بعد الغرق ٢٥٠٥
- ٥ - رواية في التوراة حول نجاة موسى وغرق فرعون ٢٥٠٦
- ٦ - حكمة تكرار قصة موسى في القرآن ٢٥٠٧
- تفسير الآية (٩٣) وفوائد حول ذكر قصة الأرض المقدسة ٢٥٠٨
- كلمة في سياق المقطع الثاني حول قصة موسى ٢٥١٠
- * المقطع الثالث من القسم الثاني وهو الآيات (٩٤ - ١٠٣) ٢٥١٠
- كلمة في المقطع الثالث ٢٥١١
- تفسير الآيات (٩٤ - ١٠٠) ٢٥١٢
- فوائد : ٢٥١٣
- ١ - كلام الألوسي عن قصة يونس ٢٥١٣
- ٢ - كلام ابن كثير عن قصة قوم يونس بمناسبة آية ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً أَمِنَتْ .. ﴾ ٢٥١٤
- ٣ - مناقشة حول مسألة الجبر والاختيار ٢٥١٥

٢٥١٥	 تفسير الآيات (١٠١ - ١٠٣)
٢٥١٧	 ● القسم الثالث من السورة وهو خاتمة السورة وهو الآيات (١٠٤ - ١٠٩) ...
٢٥١٧	 كلمة في القسم الثالث
٢٥١٨	 * الفقرة الأولى من القسم الثالث وهي الآيات (١٠٤ - ١٠٧) وفوائدها حولها
٢٥٢٠	 * الفقرة الثانية من القسم الثالث وهي الآيتان (١٠٨ ، ١٠٩)
٢٥٢١	 كلمة أخيرة في سورة يونس



﴿ سورة هود ﴾ ٢٥٢٢

٢٥٢٥	 كلمة في سورة هود وعبورها
٢٥٢٦	 نقول عن سورة هود حول تقديمها ومناسبتها لسورة يونس
٢٥٢٩	 * المقدمة والمقطع الأول من السورة وهما الآيات (١ - ٢٤)
٢٥٣١	 تفسير الآيات (١ - ٤) وفوائده حول مقاصد القرآن وأنها العبادة والاستغفار والإنذار والتبشير
٢٥٣٤	 تفسير الآية (٥) وفائدة حول سبب نزولها
٢٥٣٥	 تفسير الآيات (٦ - ١١)
٢٥٣٧	 فوائده :
٢٥٣٧	 ١ - كلام صاحب الظلال حول آية ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾
٢٥٣٨	 ٢ - كلام ابن كثير عن لفظة « الأمة » في آية ﴿ ولئن أخرجنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾
٢٥٣٨	 ٣ - حديثان بمناسبة آية ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾
٢٥٣٨	 تفسير الآيات (١٢ - ١٧)
٢٥٤١	 فوائده :
٢٥٤١	 ١ - كلام صاحب الظلال حول آية ﴿ أم يقولون افتراء .. ﴾
٢٥٤٢	 ٢ - كلام صاحب الظلال حول آية ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم .. ﴾

- ٢ - كلام صاحب الظلال حول آية ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه .. ﴾ ٢٥٤٣
- ٤ - حديث نبوي يتعلق بآية ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ ٢٥٤٥
- تفسير الآيات (١٨ - ٢٤) ٢٥٤٥
- فوائد : ٢٥٤٧
- ١ - حديث نبوي يتعلق بآية ﴿ ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴾ ٢٥٤٧
- ٢ - أحاديث تتعلق بآية ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ﴾ ٢٥٤٧
- كلمة في سياق المقطع الأول حول علاقته بالمحور وبالمقطع الثاني وذكر بعض موضوعاته ٢٥٤٨
- * المقطع الثاني من السورة وهو الآيات (٢٥ - ٦٨) ٢٥٤٩
- * المجموعة الأولى من المقطع الثاني وهي الآيات (٢٥ - ٤٩) ٢٥٥٣
- تفسير الآيات (٢٥ - ٢٧) وفائدة حول تعقيب ابن كثير على رد الكافرين دعوة نوح ... ٢٥٥٣
- تفسير الآيات (٢٨ - ٤٩) ٢٥٥٤
- نقل : عن صاحب الظلال حول آية ﴿ .. فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ ٢٥٥٩
- فوائد : ٢٥٦٠
- ١ - آثار علمية حديثة وحفريات ما بين النهرين تلقي الضوء على قصة نوح ٢٥٦٠
- ٢ - كلام بعض أئمة البلاغة حول بنوخ آية ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك .. ﴾ ٢٥٦٠
- ذروة البلاغة ٢٥٦٠
- ٣ - تحديد معنى ومكان « الجودي » الذي رست عليه سفينة نوح ٢٥٦١
- ٤ ، ٥ - فضل التسمية ودعاء ركوب البحر بمناسبة آية ﴿ بسم الله مجربها ومرباها ﴾ ٢٥٦١
- ٦ - ماورد في التوراة الحالية عن قصة نوح عليه السلام ٢٥٦١
- نقول : ٢٥٦٣
- نقل عن صاحب الظلال حول قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ٢٥٦٣
- نقل عن صاحب الظلال حول أقدم عقيدة عرفها التاريخ وهي التوحيد ٢٥٦٥
- نموذج من كتابات المخدوعين بنظرية تطور الأديان نقلاً عن العقاد ٢٥٦٦
- رد صاحب الظلال على كتابات المخدوعين بنظرية تطور الأديان ٢٥٦٧

- ٢٥٦٩ رأي صاحب الظلال في كيفية حدوث الطوفان
- ٢٥٧٠ كلمة في سياق المجموعة الأولى من المقطع الثاني
- ٢٥٧١ * المجموعة الثانية من المقطع الثاني وهي الآيات (٥٠ - ٦٠)
- ٢٥٧٢ تعقيب : صاحب الظلال على قصة هود
- ٢٥٧٤ * المجموعة الثالثة من المقطع الثاني وهي الآيات (٦١ - ٦٨)
- ٢٥٧٤ تفسير الآية (٦١) وكلمة في حكمة تكرار القصص في القرآن وفائدة في فقه الدعوة
- ٢٥٧٥ تفسير الآية (٦٢) وفائدة في رد حجج أقوام نوح وهود وصالح ضد أنبيائهم
- ٢٥٧٥ تفسير الآيات (٦٣ - ٦٨)
- ٢٥٧٧ نقل : عن صاحب الظلال حول قصة صالح عليه السلام
- ٢٥٧٨ فوائد :
- ٢٥٧٨ ١ - أزمة وأمكة أقوام نوح وهود وصالح
- ٢٥٧٨ ٢ - مناقشة حول كون ابن نوح المذكور في الآيات ليس ابنه الصليبي
- ٢٥٧٨ ٣ - طرف من الحديث عن إعجاز القرآن بمناسبة آية ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ .. ﴾
- ٢٥٨٠ ٤ - الأمر بالاستغفار في آية ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ .. ﴾ وفوائده
- ٢٥٨١ كلمة في سياق مامر من السورة
- ٢٥٨١ * المقطع الثالث من السورة وهو الآيات (٦٩ - ٨٣) وتفسيره
- ٢٥٨٦ فوائد حول قصة إبراهيم ولوط :
- ٢٥٨٦ ١ - حال بعض النساء في أقوالهن وأفعالهن عند دهشتن
- ٢٥٨٦ ٢ - حديث يتعلق بآية ﴿ لَوْ أَنَّ لِي قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾
- ٢٥٨٦ ٣ - روايات بمناسبة قصة لوط عليه السلام وقومه وما عوقبوا به
- ٢٥٨٧ ٤ - مجموعة من آداب الضيافة بمناسبة قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام
- ٢٥٨٧ ٥ - نقول من التوراة بمناسبة ذكر قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام
- ٢٥٨٩ كلمة في سياق قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام
- ٢٥٩٠ * المقطع الرابع من السورة وهو الآيات (٨٤ - ٩٥) وتفسيره
- ٢٥٩٤ فوائد حول قصة شعيب :
- ٢٥٩٤ ١ - تعليق ابن كثير على أنواع العذاب الثلاثة لقوم شعيب وهي : الرجفة والصيحة

- وعذاب يوم الظلة ٢٥٩٥
- ٢ - سر استخدام حرف « الواو » قبل « لما » في قصتي عاد ومدين واستخدام « الفاء »
في قصتي ثود ولوط ٢٥٩٥
- ٣ - رواية عن قتل عثمان رضي الله عنه بمناسبة آية ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى .. ﴾ ٢٥٩٥
- ٤ - روايات بمناسبة قول القرآن على لسان شعيب ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى
ما أنهاكم عنه .. ﴾ ٢٥٩٥
- نقول : عن صاحب الظلال تعليقاً على قصة شعيب عليه السلام مع قومه ٢٥٩٦
- كلمة في سياق قصة شعيب عليه السلام ٢٥٩٨
- * المقطع الخامس من السورة وهو الآيات (٩٦ - ١٠٨) وتفسيره ٢٥٩٩
- فوائد حول قصة موسى : ٢٦٠٢
- ١ - العبرة في انتقام الله من الظالمين بمناسبة آية ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى
وهي ظالمة .. ﴾ ٢٦٠٢
- ٢ - تذكير بعدم الكلام بين يدي الله إلا لمن أذن له بمناسبة آية ﴿ يوم يأت
لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ ٢٦٠٢
- ٣ - رواية بمناسبة آية ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ ٢٦٠٢
- ٤ - كلام ابن كثير بمناسبة آية ﴿ عطاءً غير مجذوذ ﴾ ٢٦٠٢
- ٥ - اختلاف المفسرين في الاستثناء الوارد في الآيتين (١٠٧ ، ١٠٨) ٢٦٠٢
- ٦ - كلام عن فرقة الجهمية وفساد عقيدتهم ٢٦٠٥
- * المقطع السادس من السورة وهو الآيات (١٠٩ - ١٢٢) وتفسيره ٢٦٠٥
- نقل : عن صاحب الظلال في خاتمة السورة ٢٦١١
- كلمة في سياق المقطع الختامي للسورة ٢٦١١
- فوائد : ٢٦١١
- ١ - توجيهات هامة في المقطع الأخير من السورة ٢٦١١
- ٢ - معنى كلمة « لما » في آية ﴿ وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم ﴾ ٢٦١٢
- ٣ - عظم إثم من ركن إلى ظالم مخالفاً آية ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا .. ﴾ ٢٦١٢
- ٤ - فهم دقيق للحسن لما يقيم أمر الدين ٢٦١٢
- ٥ - روايات تعين على فهم آية ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ ٢٦١٢

- ٦ - حديث بمناسبة آية ﴿ فلولا كان من القرون من قبلك أولوا بقية ينهون عن الفساد .. ﴾ ٢٦١٤
- ٧ - كلام المؤلف عن الفرقة الناجية بمناسبة آية ﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾ ٢٦١٤
- ٨ - سر بقاء فرق أهل الكتاب وسر بقاء الفرق الإسلامية الضالة ٢٦١٥
- كلمة أخيرة في سورة هود ٢٦١٥



﴿ سورة يوسف ﴾ ٢٦١٩

- نقل : من الألوسي في سورة يوسف عليه السلام حول سبب نزولها ٢٦٢١
- كلمة في سورة يوسف ومحورها ٢٦٢١
- أمثلة لبعض ما في التوراة الحالية من تناقض وكذب ٢٦٢٤
- مأذكرة ابن كثير من روايات في آية ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص .. ﴾ ٢٦٢٥
- * مقدمة السورة وهي الآيات (١ - ٣) وتفسيرها ٢٦٢٨
- فوائد : ٢٦٢٩
- ١ - لماذا كان القصص القرآني أحسن القصص ؟ ٢٦٢٩
- ٢ - التذكر الكامل لا يكون إلا بالقرآن ، وذلك بمناسبة آية ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ ٢٦٢٩
- ٣ - سبب نزول آية ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن .. ﴾ ٢٦٢٩
- كلمة في سياق مقدمة السورة ٢٦٣٠
- * المشهد الأول من قصة يوسف وهو الآيات (٤ - ٦) ٢٦٣٠
- تفسير الآيات (٤ - ٦) وفيها مشهد حكاية يوسف لأبيه رؤيته الشمس والقمر والكواكب ٢٦٣١
- فوائد : حول بعض الآداب وحديث عن الرؤيا وتحقيقها ، وما ورد في التوراة الحالية عن رؤيا يوسف هذه ٢٦٣٢

- ٢٦٣٣ نقل : عن صاحب الظلال حول موضوع الرؤيا
- ٢٦٣٤ * المشهد الثاني من قصة يوسف وهو الآيات (٧ - ٢٠)
- ٢٦٣٥ تفسير الآيات (٧ - ٢٠) وفيها مشهد تدبير إخوة يوسف إبعاده عن أبيه
- ٢٦٣٩ فوائد :
- ٢٦٣٩ ١ - أسماء إخوة يوسف كما أوردتهم التوراة الحالية
- ٢٦٤٠ ٢ - وجه من وجوه تناقض التوراة الحالية في حكايتها لقصة يوسف
- ٢٦٤٢ ٣ - هل كانت مصر محكومة حكماً عربياً عندما دخلها يوسف أم لا ؟
- ٢٦٤٣ ٤ - الخلاف القائم بين المفسرين حول نبوة إخوة يوسف والراجح في ذلك
- ٢٦٤٣ ٥ - حديث يفسر قوله تعالى ﴿ فصبر جميل ﴾
- ٢٦٤٣ ٦ - أدلة على قبح صنيع اليهود لعنهم الله بالأنبياء من قتل وتشويه سمعة
- ٢٦٤٤ * المشهد الثالث من قصة يوسف وهو الآيات (٢١ - ٢٥)
- ٢٦٤٥ تفسير الآيات (٢١ - ٢٥) وفيها حكاية ما حدث ليوسف في بيت العزيز
- ٢٦٤٩ فوائد :
- ٢٦٤٩ ١ ، ٢ - كلام في التوراة الحالية يتعلق بمشهد امرأة العزيز وهي تراود يوسف
- ٢٦٥٠ ٣ - القراءات المختلفة في قوله تعالى ﴿ وقالت هيت لك ﴾
- ٢٦٥٠ ٤ - معنى « المم » في قوله تعالى ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾
- ٢٦٥١ ٥ - معنى « البرهان » في قوله تعالى ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾
- ٢٦٥١ ٦ - الشاهد الذي شهد ليوسف عليه السلام
- ٢٦٥٢ ٧ - الحديث عن جمال يوسف عليه السلام
- ٢٦٥٣ ٨ - حديث السبعة المستظلين بظل الله بمناسبة استعصام يوسف عليه السلام
- ٢٦٥٣ ملاحظات :
- ٢٦٥٣ ١ ، ٢ - أشد فتنة تمر بالإنسان فتنة الجمال ، وحماية الأعراض لعدم اختلاط الأنساب
- ٢٦٥٣ ٣ - فساد أخلاق الحكام نابع من استمرار الترف
- ٢٦٥٤ * المشهد الرابع من قصة يوسف وهو الآيات (٢٦ - ٤٢)
- ٢٦٥٥ تفسير الآيات (٢٦ - ٤٢) وفيها مشهد دخول يوسف عليه السلام السجن
- ٢٦٥٧ فوائد :

- ١ - خلاف المفسرين في الضمير في آية ﴿ فَأَنسَاء الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبِّهِ ﴾ ٢٦٥٧
- ٢ - يوسف قدوة في إحسانه بالرغم من سجنه ٢٦٥٩
- ٣ - كلام التوراة الحالية عن سن يوسف عليه السلام ٢٦٥٩
- ٤ - اتجاهات المفسرين في الكلام عن رؤي الفتيين ٢٦٥٩
- ٥ - حديث يتعلق بآية ﴿ قَضَى الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ ٢٦٥٩
- ٦ - قصة يوسف أصول في تعبير الرؤيا ٢٦٦٠
- نقل : عن صاحب الظلال بمناسبة آية ﴿ إِنْ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ .. ﴾ ٢٦٦٠
- * **المشهد الخامس من قصة يوسف وهو الآيات (٤٣ - ٥٧)** ٢٦٦٢
- تفسير الآيات (٤٣ - ٥٧) وفيها مشهد تعبير يوسف رؤيا الملك وخروجه من السجن وإظهار برأته ٢٦٦٢
- فوائد :** ٢٦٦٧
- ١ - ماورد في التوراة عن رؤيا الملك وتعبيرها ٢٦٦٧
- ٢ - بعض ماورد في السنة حول بعض مواقف يوسف عليه السلام ٢٦٧١
- ٣ - حكم تركية الإنسان نفسه ، وتولي المناصب في الحكومة الكافرة ٢٦٧١
- ٤ - حكم في مسألة الرؤيا وتعبيرها ٢٦٧٢
- ٥ - كلام الأوسي في التفريق بين الرؤيا والحلم بمناسبة آية ﴿ قَالُوا أَضْغَاتٌ أَحْلَامَ ﴾ ٢٦٧٢
- * **المشهد السادس من قصة يوسف وهو الآيات (٥٨ - ١٠١)** ٢٦٧٤
- تفسير الآيات (٥٨ - ١٠١) وفيها حكاية ماحدث ليوسف وإخوته ومألة تدبير السرقة وتحقق رؤياه الأولى ٢٦٧٧
- فوائد :** ٢٦٨٧
- ١ - ماورد عن هذا المشهد الطويل في التوراة الحالية دليل على تحريفها ٢٦٨٨
- ٢ - كلام بعض الإصحاحات عن بني يعقوب ٢٦٨٩
- ٣ - مامن شيء ورد في التوراة له شأن يذكر إلا وفي القرآن خير وأدق منه ٢٦٨٩
- ٤ - نقل لابن كثير عن ابن جرير بمناسبة آية ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ ٢٦٨٩
- ٥ - كلام ابن كثير بمناسبة آية ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا ﴾ ٢٦٩٠
- ٦ - روايات في تحديد الزمن الذي مر بين إلقاء يوسف في الحب ولقاء أبيه ٢٦٩٠
- ٧ - تعليق ابن كثير على آية ﴿ .. تَوْفِي مَسْلَمًا وَآلِافِيًا بِالصَّالِحِينَ ﴾ ٢٦٩٠

- ٢٦٩٢ ٨ - سبب أمر يعقوب بنيه بالدخول من أبواب متفرقة
- ٢٦٩٢ ٩ - بعض ماروي حول آية ﴿ فقد سرق أخ له من قبل ﴾
- ٢٦٩٣ (١٠ - ١٦) بعض ما استفاد من قصة يوسف عليه السلام
- ٢٦٩٤ مختارات من تعليقات صاحب الظلال على قصة يوسف
- كلمة في السياق حول المقارنة بين أسلوبي القرآن والتوراة في سرد قصة يوسف
- ٢٧٠٠ * خاتمة السورة وهي الآيات (١٠٢ - ١١١) وتفسيرها
- ٢٧٠٢ نقول من الظلال : حول الآيات (١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨)
- ٢٧٠٥ نقل : عن صاحب الظلال حول آية ﴿ حتى إذا استئس الرسل .. ﴾
- ٢٧١٠ فوائد :
- ٢٧١١ ١ - أحاديث حول موضوع الشرك الخفي أو الظاهر بمناسبة آية ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾
- ٢٧١١ ٢ - قضية عدم نبوة ولا رسالة النساء ، وكذلك عدم نبوة أهل البادية ، ومناقشة ذلك
- ٢٧١٣ ٣ - روايات بمناسبة آية ﴿ حتى إذا استئس الرسل .. ﴾
- ٢٧١٤ كلمة أخيرة في سورة يوسف
- ٢٧١٥



﴿ سورة الرعد ﴾

٢٧١٧

- ١٧١٩ تقديم الأئوسي وصاحب الظلال للسورة
- ٢٧٢٠ كلمة في سورة الرعد ومحورها في السياق القرآني العام
- ٢٧٢٢ * مقدمة السورة وهي الآية الأولى وتفسيرها
- ٢٧٢٨ فوائد :
- ٢٧٢٩ ١ - كلام المؤلف عن معنى كلمتي « السماء والسموات » في القرآن الكريم
- ٢٧٢٩ (٢ - ٥) كلام هام عن بعض الآيات الكونية
- ٢٧٢٩ ٦ - أرجى آية في كتاب الله ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾
- ٢٧٣٠ ٧ - حديث بمناسبة آية ﴿ ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾

- ٨ - نقل عن ابن كثير حول معنى كلمة « السموات السبع » في الآية (٢) وتعقيب المؤلف عليه ٢٧٢٠
- ٩ - مثل لأنواع القلوب بخصوص آية ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات .. ﴾ ٢٧٢١
- كلمة في سياق المقطع الأول ٢٧٢١
- * المقطع الثاني من السورة وهو الآيات (٨ - ٢٥) وتفسيره ٢٧٢٢
- لهائدة : كلام صاحب الظلال حول آية ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق .. ﴾ ٢٧٤٢
- كلمة في سياق المقطع الثاني ٢٧٤٤
- الفوائد : ٢٧٤٥
- ١ ، ٢ - آثار ومناقشة بمناسبة آية ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ ٢٧٤٥
- ٣ - سنة من سنن الله في آية ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ٢٧٤٦
- ٤ - كلام للمؤلف عن الإيمان بالأسباب الحسية والغيبية المرتبطة بسنن هذا الكون ٢٧٤٧
- ٥ - أحاديث حول آية ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ ٢٧٤٨
- ٦ - كلام ابن كثير حول ضرب بعض الأمثلة للكفار والمنافقين في القرآن ٢٧٤٨
- ٧ - أحاديث وآثار بمناسبة آية ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم .. ﴾ ٢٧٤٩
- ٨ - استحقاق الهداية بالتزام صفات أهل الحق والعكس بالعكس ٢٧٥٠
- ٩ - مظاهر الإعجاز والكمال في القرآن لا تنتهي ٢٧٥٠
- * المقطع الثالث والأخير من السورة وهو الآيات (٢٦ - ٤٣) ٢٧٥١
- ملاحظة حول مضمون وسياق المقطع الثالث ٢٧٥٢
- تفسير المقطع الثالث : ٢٧٥٢
- تفسير الآيتين (٢٦ ، ٢٧) ٢٧٥٤
- ملاحظة حول سياق الآيتين (٢٦ ، ٢٧) ٢٧٥٤
- تفسير الآيات (٢٨ - ٣١) ٢٧٥٥
- كلام ابن كثير وصاحب الظلال حول آية ﴿ ولو أن قرأنا سيرة به الجبال .. ﴾ ٢٧٥٦
- تفسير الآيات (٣١ - ٤٣) وفيها الردود على مطاعن الكافرين ٢٧٥٧

- كلمة في سياق المقطع الثالث ٢٧٦٢
- فوائد : ٢٧٦٢
- ١ - تفسير كلمة « طوبى » بمناسبة آية ﴿ .. طوبى لهم وحسن مآب ﴾ ٢٧٦٢
- ٢ - حديث أحب الأسماء إلى الله بمناسبة آية ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ ٢٧٦٣
- ٣ - إطلاق لفظ القرآن على كل من الكتب القديمة بمناسبة آية ﴿ ولو أن قرأنا سيرت به الجبال .. ﴾ ٢٧٦٣
- ٤ - ليس ثمة حجة ولا معجزة أبلغ من القرآن ٢٧٦٣
- ٥ - سبب نزول آية ﴿ ولو أن قرأنا سيرت به الجبال .. ﴾ ٢٧٦٣
- ٦ - كلام المفسرين حول آية ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة .. ﴾ ٢٧٦٤
- ٧ - حديث « إن الله ليلى للظالم .. » بمناسبة آية ﴿ .. فأصابت للذين كفروا .. ﴾ ٢٧٦٤
- ٨ - قراءات مختلفة لكلمة « صدوا » بضم الصاد وفتحها ٢٧٦٤
- (٩ ، ١٠) أحاديث بمناسبة آية ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون .. ﴾ ٢٧٦٤
- ١١ - حديث بمناسبة آية ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية .. ﴾ ٢٧٦٦
- ١٢ - الخلاف حول آية ﴿ يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ ٢٧٦٦
- ١٣ - كلام لابن كثير حول آية ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ ٢٧٦٨
- ١٤ - فائدة حول موضوع الدعوة والتربية ٢٧٦٨
- كلمة في محل سورة الرعد ٢٧٦٩



﴿ سورة إبراهيم ﴾ ٢٧٧١

- تقديم الألوحي سورة إبراهيم ٢٧٧٣
- كلمة في سورة إبراهيم ومجورها ٢٧٧٤
- « المجموعة الأولى من السورة وهي الآيات (١ - ٤) وتفسيرها ٢٧٧٦
- كلمة في سياق المجموعة الأولى حول صلتها بمجور السورة ٢٧٧٧
- فوائد : ٢٧٧٨
- ١ - صفات الكافرين كما ذكرت في آيات المجموعة الأولى ٢٧٧٨

- ٢٧٧٨ ٢ - كل أمة لها لسان خاص أرسل إليها رسول
- ٢٧٧٨ ٢ - فائدة حول مهمة القرآن والسنة في الإخراج من الظلمات إلى النور
- ٢٧٨٠ * المجموعة الثانية من السورة وهي الآيات (٥ - ٨) وتفسيرها
- ٢٧٨١ فوائد :
- ٢٧٨١ ١ - كلام عن معنى أيام الله في آية ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾
- ٢٧٨١ ٢ - لا يأخذ العبرة من أيام الله إلا من اجتمعت له صفتا الصبر والشكر
- ٢٧٨١ ٣ - ماورد في التوراة الحالية عن دعوة موسى قومه
- ٢٧٨٤ ٤ - لطائف من الحكمة حول آية ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم .. ﴾
- ٥ - حديث قدسي بمناسبة آية ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾
- ٢٧٨٥ ٦ - البلاء في اللغة من أسماء الأضداد
- ٢٧٨٥ كلمة في سياق المجموعة الثانية
- ٢٧٨٦ * المجموعة الثالثة من السورة وهي الآيات (٩ - ١٨) وتفسيرها
- ٢٧٩٠ نقل : عن صاحب الظلال بمناسبة آية ﴿ وقال الذين كفروا لرسلم لنخرجنكم .. ﴾ ...
- ٢٧٩١ الفوائد :
- ٢٧٩١ ١ - كذب النابين يظهر من وحي آية ﴿ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ﴾
- ٢٧٩١ ٢ - احتالان في تفسير آية ﴿ أفي الله شك ﴾
- ٢٧٩١ ٣ - العاقبة للمتقين سنة من سنن الله في كونه
- ٢٧٩٢ ٤ - بعض أنواع العذاب بمناسبة آية ﴿ ويبقى من ماء صديد ﴾
- ٢٧٩٤ * المجموعة الرابعة من السورة وهي الآيات (١٩ - ٢٣) وتفسيرها
- نقل : عن صاحب الظلال حول آية ﴿ فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً .. ﴾
- ٢٧٩٦ ٢٧٩٧ كلمة في سياق المجموعة الرابعة
- ٢٧٩٨ فوائد :
- ٢٧٩٨ ١ - آيتان دواء للشك هما الآيتان (١٩ ، ٢٠) من السورة
- ٢٧٩٨ ٢ - كلام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن حال أهل النار بمناسبة الآية (٢١)
- ٢٧٩٨ ٣ - هل الخطبة التي ألقاها إبليس تكون قبل دخول الكافرين النار أو بعد ذلك ؟ ...

٤ - تفريق في الخطاب بين خطاب الكافرين وخطاب المؤمنين في مسألة غفران

الذنوب ٢٧٩٩

• المجموعة الخامسة من السورة وهي الآيات (٢٤ - ٢٧) وتفسيرها ٢٨٠٠

نقل : عن صاحب الظلال بمناسبة آية ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة .. ﴾ ٢٨٠١

فوائد : ٢٨٠٢

(١ - ٣) كلام النسفي عن الكلمة الطيبة ، وتوضيح للمثل المضروب لها ٢٨٠٢

٤ - أحاديث بمناسبة آية ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت .. ﴾ ٢٨٠٢

٥ - توصية بكلمة التوحيد « لا إله إلا الله » ٢٨٠٨

• المجموعة السادسة من السورة وهي الآيات (٢٨ - ٤١) وتفسيرها ٢٨٠٩

فوائد : ٢٨١٣

١ - كلام ابن كثير بمناسبة آية ﴿ الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ ٢٨١٣

٢ - آثار بمناسبة آية ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ٢٨١٣

٣ - كلام للمؤلف عن المشيئة الإلهية بمناسبة آية ﴿ فمن يبغي فإنه مني .. ﴾ ٢٨١٣

٤ - دعاء النبي ﷺ لأمنه واستجابة الله له ٢٨١٤

٥ - الحكمة في مجيء لفظ « بلداً » نكرة في آية ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ ٢٨١٤

٦ - خلق هام من أخلاق إبراهيم عليه السلام ٢٨١٤

٧ - دعاء إبراهيم عليه السلام في الآية (٣٧) ٢٨١٤

٨ - فائدة حول آية ﴿ إن ربي لسميع الدعاء ﴾ ٢٨١٤

٩ - قول لابن عباس حول آية ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي .. ﴾ ٢٨١٤

كلمة في سياق المجموعة السادسة ٢٨١٥

• المجموعة السابعة من السورة وهي الآيات (٤٢ - ٤٦) وتفسيرها ٢٨١٥

فوائد : ٢٨١٧

١ - نهى الدعاء عن ظن السوء بالله ٢٨١٧

٢ - قراءتان بفتح اللام وكسرها لقوله « لتزول » في آية ﴿ .. لتزول منه الجبال ﴾ ... ٢٨١٧

• المجموعة الثامنة من السورة وهي الآيات (٤٧ - ٥١) وتفسيرها ٢٨١٨

فوائد : ٢٨١٩

١ - توجيه الدعاء في هذه المجموعة إلى الثقة المطلقة بوعد الله ٢٨١٩

- ٢ - كلام لابن كثير والنسفي والألوسي حول آية ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض
 ٢٨١٩ والسموات ﴾
- ٣ ، ٤ - كلام الألوسي عن القطران وأحاديث بمناسبة آية ﴿ سراييلهم من قطران ﴾ ..
 ٢٨٢٠
- « خاتمة السورة وهي آية واحدة هي الآية (٥٢) وتفسيرها
 ٢٨٢٢
- نقل : عن صاحب الظلال حول آية ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به .. ﴾
 ٢٨٢٢
- فائدة : تحديد مهمات سورة إبراهيم من خلال الآية (٥٢)
 ٢٨٢٤
- كلمة في سورة إبراهيم
 ٢٨٢٥
- كلمة في المجموعة الأولى من قسم المثني
 ٢٨٢٦

